



التاريخ الشعبى للولايات المتحدة

تأليف : هوارد زن

ترجمة : شعبان مكاوى

المشروع القومى للترجمة

الجزء الثانى





794

التاريخ الشعبى للولايات المتحدة

(من ١٤٩٢)

(الجزء الثانى)

تأليف : هـــوارد زن

ترجمة : شعبان مكاوى

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٩٤
- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (من ١٤٩٢) (الجزء الثانى)
- هوارد زن
- شعبان مكاوى
- طبعة أولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

A People's History of the United States

(1492 - present)

Howard Zinn

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

فهرس موضوعات الجزء الثانى

الفصل الرابع عشر

فى الحرب عافية للبلاد

وسط الحرب العالمية الأولى، قال راندولف بورن أحد الكتاب الراديكاليين: "إن فى الحرب عافية للبلاد." وفى حقيقة الأمر فإنه مع دخول الدول الأوربية الحرب فى عام ١٩١٤، انتعش الحس الوطنى وتوقف الصراع الطبقى وأيضا لقى شباب حتفهم بأعداد رهيبة فى ساحات القتال. لم تكن الولايات المتحدة قد اشتركت فى الحرب بعد، ومع ذلك كانت هناك مخاوف بشأن سلامة الدولة؛ فالاشتراكية كانت تنمو وانتشر الاتحاد العالمى للعمال وكان الصراع الطبقى فى أوجه. ففى صيف عام ١٩١٤ انفجرت قنبلة أثناء عرض (يوم الاستعداد) فى سان فرانسيسكو ونتج عن الانفجار مقتل تسعة أشخاص، ثم أُلقى القبض على اثنين من الراديكاليين هما توم مونى ووارن بيلينجز وحكم عليهما بالسجن لمدة عشرين عاما. بعد هذا بوقت قليل أقترح سيناتور مدينة نيويورك، جيمس وادزورث إقامة تدريب عسكرى إجبارى لجميع الذكور حتى يتجنب الشعب خطر الانقسام إلى طبقات بدلا من ذلك "يجب أن ندع شبابنا يعرف أن لدية مسئولية تجاه هذا البلد".

وكان أعظم أداء لهذه المسئولية يتم فى أوروبا؛ حيث يموت عشرة ملايين فى ميادين القتال ويموت عشرون مليوناً من الجوع والمرض اللذين تسببت فيهما الحرب. ولم يستطع أحد منذ ذلك الوقت أن يدعى أن الحرب جلبت للإنسانية فائدة تستحق حياة واحدة تبذل فى سبيلها. كان حديث الاشتراكيين بأن هذه حرب استعمارية يبدو معقولا ولا يستطيع أحد أن يجادل بشأنه، فقد كانت الدول الرأسمالية الأوربية المتقدمة

تحارب من أجل مناطق نفوذ وتتنافس على إقليمى الزاس واللورين والبلقان ومنطقة الشرق الأوسط.

اندلعت الحرب بعد بداية القرن العشرين بوقت قليل وسط فرح كبير، بين صفوة المجتمع الغربي، بالتقدم والتحديث. بعد يوم واحد من إعلان بريطانيا الحرب، كتب هنرى جيمس إلى أحد أصدقائه قائلا "إن سقوط الحضارة فى هذه الهوة من الدمار والظلام... ليعد خيانة لعصر كامل طويل اعتقدنا خلاله أن العالم ... يتحسن تدريجيا". فى أول معركة فى مارن نجحت القوات البريطانية والفرنسية فى أن تعوق الزحف الألمانى تجاه باريس وخسر كل جانب حوالى نصف مليون جندى ما بين قتيل وجريح.

وبدأ القتال سريعاً وعلى نطاق واسع. فى أغسطس عام ١٩١٤ كان من شروط التطوع فى الجيش البريطانى ألا يقل الطول عن خمسة أقدام وثمانية بوصات. ومع بداية شهر أكتوبر تغير الشرط إلى خمسة أقدام وخمس بوصات ، وشهد هذا الشهر خسائر بلغت حوالى ٣٠,٠٠٠ جندى. لذلك تغير الشرط إلى خمسة أقدام وثلاث بوصات. وكان الجيش البريطانى الأساسى قد أُبيد عن آخره تقريباً خلال أول ثلاثة أشهر من الحرب.

وظلت خطوط القتال ثابتة إلى حد ما فى فرنسا لمده ثلاثة سنوات، وكان كل جانب يتقدم ثم يتراجع ويتقدم مرة أخرى لمسافة قليلة وبضع أميال بينما تتراكم جثث الموتى. ذات يوم فى عام ١٩١٦ قامت الكتيبة التاسعة لفرقة المشاة الملكية ليورك شاير بهجوم مكون من ٨٠٠ رجل لم يتبق منهم سوى ٨٤ بعد مرور ٢٤ ساعة فقط. لم يكن البريطانيون فى إنجلترا على علم بهذه المذبحة. يتذكر أحد الكتاب قائلا: "ربما كانت تحدث أسوأ هزيمة فى التاريخ. ورغم ذلك تظهر صحافتنا عادية تمتلئ بالأخبار والصور دون أى شئ يوحى بأننا مررنا بيوم عصيب. إنه حقا لنصر كبير". كان الشيء نفسه يحدث فى الجانب الألمانى، حيث يكتب إيرس ماريا ريمارك فى روايته العظيمة فى وقت كان فيه رجال يتمزقون أشلاء بطلقات البنادق الرشاشة والقذائف، بينما كانت المراسلات تقول: "كل شئ هادئ على الجبهة الغربية."

وفى يوليو ١٩١٦ أمر الجنرال البريطانى دوجلاس هيج Douglas Haig أحد عشر فرقة من الجنود البريطانيين أن يخرجوا من خنادقهم ويتقدموا تجاه الخطوط الألمانية. ففتحت الفرق الألمانية الستة نيران مدافعها الرشاشة. قام بالهجوم ١١٠,٠٠٠ جندياً قتل منهم ٢٠٠٠ بالإضافة إلى ٤٠,٠٠٠ جريح ولم تتبعثر هذه الأجساد فى منطقة أى من الجانبين لكن فى المنطقة الخلفية ما بين الطرفين المتحاربين. فى الأول من يناير عام ١٩١٧ ترقى هيج إلى فيلد مارشال ، ويصف وليم لانجر William Langer ما حدث بإسهاب فى كتابه **موسوعة تاريخ العالم** An Encyclopedia of World History :

وبالرغم من معارضة ليود جورج وشك بعض من مرءوسيه، تقدم هيج، وهو يحدوه الأمل، تجاه الهجوم الرئيسى. كانت المعركة الثالثة فى باريس عبارة عن سلسلة من ثمانية هجمات كبيرة تم تنفيذها وسط أمطار شديدة وفوق أرض مليئة بالماء والطمى. لم ينتج عن هذا أى اختراق وكان المكسب الكلى يقارب خمسة أميال من الأرض، لذا أصبحت باريس مهمة وأكثر خطورة من ذى قبل وكلفت القوات البريطانية حوالى ٤٠,٠٠٠ من الجنود.

لم يعلم الناس فى بريطانيا وفرنسا حجم الخسائر، فعندما هاجم الألمان بضراوة فى آخر عام من الحرب، وخلفوا وراءهم ٣٠٠,٠٠٠ جندى بريطانى ما بين قتيل وجريح، نشرت الصحف البريطانية المقطوعة التالية، وقد وردت فى كتاب بول فوسيل Paul Fussell **الحرب العظمى والذاكرة الحديثة** The Great War and Modern Memory :

ماذا أستطيع أن أفعل؟

كيف للمدنى أن يساعد فى هذه الأزمة؟

كن مرحاً

اكتب فى شجاعة إلى أصدقاء فى الجبهة ....

لا تردد التفاهات

لا تردد الشائعات المغرضة ....

لا تدَّعى أنك تعرف أكثر من هيج.

فى هذه الهوة من الموت والخداع، ظهرت الولايات المتحدة فى ربيع عام ١٩١٧ وكانت حالات التمرد قد بدأت تظهر فى صفوف الجيش الفرنسى، ومن بين ١١٢ فرقة سرعان ما تمرد ٦٨ وحُوكم ٦٢٩ وقتلت فرقة الإعدام ٥٠ رجلاً رميا بالرصاص. لذا كانت هناك حاجة ماسة للقوات الأمريكية.

وكان الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون **Woodrow Wilson** قد وعد بأن تظل الولايات الأمريكية على الحياد فى الحرب "فليس ثمة ما يجعل الأمة تفتخر بأنها اشتركت فى مثل هذه الحرب". لكن فى إبريل عام ١٩١٩ أعلن الألمان أن غواصاتهم ستغرق أى سفن تحمل المؤن إلى أعدائهم وأنهم قد أغرقوا عدداً من السفن التجارية. عندئذٍ أعلن ويلسون أن عليه أن يقف بجانب حق الأمريكيين فى أن يسافروا على متن السفن التجارية فى مناطق الحرب، وقال: "إننى لا أقبل أى تقليل من حق المواطنين الأمريكيين تحت أى اعتبار". كما يوضح ريتشارد هوفستاتر **Hofstadter** فى كتاب **التراث السياسى الأمريكى The American Political Tradition** : لم يكن هذا التبرير مقنعاً على أى نحو". فقد كان البريطانيون يتعدون على حقوق المواطنين الأمريكيين فى أعالى البحار ولم يقترح ويلسون أن نشن حرباً عليهم ، ويقول هوفستاتر إن ويلسون "كان مضطراً لأن يقدم أسباباً قانونية لسياسات لم تكن قائمة على القانون ولكن على توازن القوى والمصالح الاقتصادية".

لم يكن من الواقعى أن نتوقع من ألمانيا ألا تعامل الولايات المتحدة كطرف محايد فى الحرب فى حين أن الولايات المتحدة كانت تنقل كميات كبيرة من المواد الحربية عن طريق البحر لأعداء ألمانيا ، ففى بداية عام ١٩١٥ غرقت السفينة البريطانية (لوسيتانيا) بعد ما أطلقت عليها غواصة ألمانية النيران. غرقت السفينة بعد ثمانى عشرة دقيقة وتوفى ١٠٩٨ من بينهم ١٢٤ أمريكياً. ادَّعت الولايات المتحدة أن السفينة كانت تحمل حمولة لا غبار عليها لذلك فقد كان ضربها بالطوربيدات وحشيةً ألمانية

رهيبة. لكن حقيقة الأمر هى أن لوسيتانيا كانت تحمل أسلحة كثيرة؛ لقد حملت ١٢٤٨ حقيبة من القنابل و٤٩٢٧ صندوق ذخيرة (كل صندوق به ١٠٠٠ طلقة) بالإضافة إلى ٢٠٠٠ حقيبة من ذخيرة الأسلحة الصغيرة. كانت الأوراق الرسمية للسفينة مزورة لكى تخفى حقيقتها وكذبت الحكومتان الأمريكية والبريطانية بشأن هذه الحمولة.

تناول هوفستاتر "المصالح الاقتصادية" وراء سياسة ويلسون فى الحرب، ففى عام ١٩١٤ بدأت فى الولايات الأمريكية حالة ركود خطيرة ، ويؤكد جى. بى. مورجان قائلا: "لقد بدأت الحرب فى وقت عصيب حيث كانت الأعمال التجارية فى طول البلاد فى حالة كساد وانخفضت أسعار المزارع وانتشرت البطالة وانخفض معدل إنتاج الصناعات الثقيلة وأُغلقت المخالصات المصرفية". لكن مع حلول ١٩١٥ نشط الاقتصاد بسبب الطلبات الحربية للحلفاء (كان أكثرها من إنجلترا) وفى إبريل عام ١٩١٧ بلغت قيمة البضائع التى اشتراها الحلفاء ما يزيد على ٢ مليار دولار وكما يقول هوفستاتر "أصبحت أمريكا مرتبطة مع الحلفاء باتحاد مشؤوم من أجل الحرب والرخاء."

كان قادة البلاد يعتقدون أن الرخاء اعتمد على الأسواق الأجنبية بشكل كبير؛ ففى عام ١٨٩٧ وصل حجم الاستثمارات الأجنبية الخاصة إلى ٧٠٠ مليون دولار ومع بداية ١٩١٤ وصلت إلى ٣.٥ مليار دولار اعتقد وزير خارجية ويلسون، وليام جانج برايان، والذى كان يؤمن بحياد أمريكا، أن الولايات المتحدة كانت فى حاجة لأسواق ما وراء البحار وأثنى على الرئيس فى عام ١٩١٤ قائلاً: "إنه رجل استطاع فتح أبواب الدول الأقل قوة أمام غزو رأس المال الأمريكى."

قال وودرو ويلسون فى عام ١٩٠٧ فى محاضرة بجامعة كولومبيا: "يجب على وزراء الدولة أن يحافظوا على الامتيازات التى يحصل عليها رجال المال حتى لو انتهكوا فى سبيل ذلك سيادة الدول غير الراغبة وأن يفتحوا الأبواب المغلقة للدول بقوة ". وفى حملة الانتخابات عام ١٩١٢ قال "إن الأسواق الداخلية لم تعد تكفى ونحن فى حاجة للأسواق الأجنبية "، ووصف هدفه فى مذكرة لبرايان "باب مفتوح للعالم" وفى عام ١٩١٤ أكد على هذا بقوله: "غزو أمين للسوق الأجنبية."

وتحدث رجال الصناعة والزعماء السياسيون عن الرخاء وكأنه منتشر بين مختلف الطبقات وكأن كل شخص قد استفاد من قروض مورجان ، والحقيقة أن الحرب كانت تعنى مزيدا من الإنتاج والأيدى العاملة لكن هل استفاد عمال الأجهزة المصنوعة من الصلب مثلما استفادت شركة يو إس ستيل؟ والتى وصلت أرباحها إلى ٣٤٨ مليون دولار فى عام ١٩١٤ فقط. عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب كان الأثرياء هم من تولى المسئولية المباشرة للاقتصاد؛ فقد رأس رجل المال برنارد باروك مجلس إدارة الصناعات الحربية الذى يعد أقوى هيئة حكومية فى زمن الحرب وسيطر المصرفيون ورجال السكك الحديدية ورجال الصناعة على هذه الهيئات.

وفى مايو عام ١٩١٥ ظهر مقال بمجلة "أتلانتك مانثلى" يدل على وعى واضح بطبيعة الحرب العالمية الأولى، كان كاتبه هو دبليو. إى. بى. دى بوا W. E. B. Du Bois وعنوانه "الجذور الإفريقية للحرب" جاء فيه: "لقد كانت حرباً من أجل إمبراطورية، حرباً كان الصراع فيها على إفريقيا بين ألمانيا والحلفاء يمثل رمزاً وحقيقة. ... إن إفريقيا، بوضوح شديد، هى السبب الأول لهذا الانهيار المريع للحضارة والذى عشنا لنراه." يقول دى بوا إن إفريقيا هى "أرض القرن العشرين" بسبب الذهب والماس فى جنوب إفريقيا والكاكاو فى أنجولا ونيجيريا والمطاط والعاج فى الكونغو وزيت النخيل فى الشاطئ الغربى.

لقد رأى دى بوا أكثر من ذلك، إذ كان يكتب قبل سنوات عديدة من كتاب لينين **الإمبريالية** الذى نبَّه فيه إلى إمكانية أن تشارك الطبقة العاملة للبلد الاستعمارية فى الغنيمة حيث أشار دى بوا إلى التناقض بين "ديمقراطية" أعظم فى أمريكا والتزايد فى الأرستقراطية والكراهية تجاه الأجناس السوداء والملونة، ويوضح حقيقة هذا التعارض بحقيقة أن العامل الأبيض كان مطالباً بالمشاركة فى غنيمة استغلال" الزنوج والصينيين". حقاً إن المواطن المتوسط فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة يعيش فى مستوى معيشة أعلى من ذى قبل لكن "من أين تأتى هذه الثروة "أنها تأتى

بشكل أساسى من الدول السوداء فى العالم من إفريقيا وجنوب ووسط أمريكا والهند الغربية وجزر البحار الجنوبية.

شهد دى بوا براعة الرأسمالية فى توحيد المستغِل والمستَغل وخلق صمام أمان ضد صراع طبقى متفجر "إنه لم يعد فى بساطة حكاية الأمير التاجر أو فى الاحتكار الأرستقراطى أو حتى طبقة أرباب العمل التى تستغل العمل. إنها الأمة، أمة ديمقراطية جديدة تتكون من عمالة ورأس مال متحدينْ".

لقد عدَّلت الولايات المتحدة من فكرة دى بوا بحيث تناسب مصالحها. كانت الرأسمالية الأمريكية فى حاجة إلى منافسة دولية ـ وحرباً تستمر لفترة ـ لكى تخلق مجتمعاً مصطنعاً من المصالح بين الفقراء والأغنياء يحل محل المجتمع الحقيقى للمصالح ما بين الفقراء والذى ظهر فى حركات متفرقة. لكنه من الصعب معرفة كيف كان رجال السياسة والأفراد الذين يعملون بالمشروعات الاقتصادية على وعى بهذا لكن أفعالهم، وإن كانت غير واعية بالكامل وتقودها دوافع غريزية للعيش، قد تناسبت مع هذه الخطة. وفى عام ١٩١٧ تطلب الأمر إجماعاً قومياً على دخول الحرب.

ووفقاً للمصادر التاريخية التقليدية فقد خلقت الحكومة هذا الإجماع سريعاً. كتب مؤرخ حياة وودرو ويلسون آرثر لنك يقول: "فى نهاية المطاف كان الرئيس والرأى العام يحددان السياسة الأمريكية". ففى حقيقة الأمر لا يوجد سبيل لمعرفة الرأى العام فى ذلك الوقت، كما لا يوجد دليل مقنع على أن الرأى العام لديه أى رغبة فى الحرب. كان على الحكومة أن تعمل بجد لكى تخلق مثل هذا الإجماع. وتشير العديد من المعايير إلى عدم وجود نزعة طبيعية للحرب مثل تجنيد الشباب وحملة الدعاية عبر البلاد والعقاب الصارم لمن يرفضون الذهاب إلى خطوط القتال.

وبالرغم من كلمات ويلسون الحماسية عن حرب "تنهى جميع الحروب وتجعل العالم أكثر أماناً للديمقراطية"، لم يسرع الأمريكيون لتقييد أسمائهم. لقد كانت هناك حاجة إلى ١٠٠٠٠٠٠ رجل، لكن بعد الستة أشهر الأولى من إعلان الاشتراك

فى الحرب، لم يتطوع للاشتراك سوى ٧٣٫٠٠٠ وصوّت الكونجرس على التجنيد بأغلبية ساحقة.

كان الصحفى المخضرم جورج كريل هو المسئول الدعائى للحكومة من أجل الحرب وأنشأ "لجنة المعلومات العامة" لإقناع الأمريكيين بأن الحرب هى الخيار الصحيح. دعمت هذه اللجنة ٧٥٫٠٠٠ من المتحدثين ألقى كل منهم خطاباً لمدة خمس دقائق فى ٥٠٠٠ مدينة أمريكية. لقد كان مجهوداً واسع النطاق لإقناع الرأى العام. وفى بداية عام ١٩١٧ اشتكى عضو من "الاتحاد الوطنى المدنى" من أن "العمال والمزارعين لا يشاركون بمجهودات دورات الأمن والدفاع أو أى من الأشكال الأخرى من الاستعداد القومى"

وبعد يوم واحد من إعلان الكونجرس للحرب، اجتمع الحزب الاشتراكى فى اجتماع طارئ بشارع لويس ووصف الإعلان بأنه "جريمة ضد شعب الولايات المتحدة". فى صيف عام ١٩٢٧ كانت اجتماعات الحزب المناهضة للحرب تجذب أعداداً ضخمة، خمسة آلاف، عشرة آلاف، وعشرين ألفاً من المزارعين للإعراب عن معارضتهم للحرب والتجنيد والاستغلال. نشرت "بلايماوث ريفيو" **Plymouth Review**، وهى جريدة محلية فى ويسكنسون ، تقول: "لا يوجد حزب اكتسب قوة أسرع من الحزب الاشتراكى فى الوقت الحاضر". وقالت الجريدة "إن الألف يجتمعون لكى يستمعوا إلى متحدثى الحزب الاشتراكى فى أماكن عادة ما يكون اجتماع بضع مئات فيها اجتماعاً ضخماً".

ونشرت صحيفة "بيكون جورنال"، وهى صحيفة متحفظة وتصدر فى أوهايو، أن " من النادر أن تجد مراقب سياسى لا يقر إذا قامت انتخابات الآن سيكتسح الحزب الاشتراكى الغرب الأوسط ". يقول البعض " إن البلاد لم تمر بحرب مكروهة مثل هذه الحرب"

وحقق الاشتراكيون فى الانتخابات المحلية لعام ١٩١٧ مكاسب ملحوظة بالرغم من الدعاية والشعارات الوطنية الكثيفة، فقد حصل مرشحهم لمنصب عمدة نيويورك على ٢٢٪ من الأصوات بزيادة خمس مرات عن نسبه الحزب المعتادة هناك . وتم

انتخاب عشرة اشتراكيين فى الهيئة التشريعية لولاية نيويورك . أما فى شيكاغو فقد قفز التصويت لصالح الحزب من ٣,٦٪ فى عام ١٩١٥ إلى ٣٤,٧٪ فى عام ١٩١٧, وفى بافالو ارتفعت النسبة من ٢,٦٪ إلى ٣٠,٢٪ .

وكان جورج كريل والحكومة وراء تكوين (الحلف الأمريكى للعمل والديمقراطية)، ورأس هذا الحلف صامويل جوميرز والذى كان يهدف إلى "توحيد مشاعر الأمة تجاه الحرب." واستمر نشاط الزعماء العماليين فى الحلف فى ١٦٤ مدينة. ووفقاً لجيمس وينستون فإن الحلف لم ينجح بالرغم من ذلك لأن مساندة عامة الطبقة العاملة للحرب كانت فاترة ، وبالرغم من أن بعض الاشتراكيين البارزين من أمثال جاك لندن، أبتون سينكلير، وكلارنس دارو قد اصبحوا فى الصدارة بعدما دخلت الولايات المتحدة الحرب، فإن الأغلبية الساحقة للاشتراكيين استمرت فى معارضتها للحرب . فى يونيو ١٩١٧ وافق الكونجرس على قانون الجاسوسية ووقعه ويلسون. وربما يعتقد من يقرأ اسم القانون أن هذا القانون ضد أعمال التجسس، مع ذلك فقد تضمن مادة تنص على عقوبات تصل إلى السجن لمده عشرين عاماً ؛ فى حالة أن تكون الولايات المتحدة فى حالة حرب ويحاول أحد أو يتسبب فى العصيان أو الخيانة أو التمرد أو رفض أداء الواجب فى القوات البحرية والعسكرية للولايات المتحدة أو يعوق عملية التجنيد. فإن لم يكن لدى الشخص رؤية بشأن طبيعة الحكومات، فلن يكون جلياً كيف سيستخدم قانون الجاسوسية. بل إنه تضمن بنداً يقول: "لا شئ فى هذا الجزء يفهم على أنه يحد أو يحظر أى مناقشة أو تعليق أو نقد لقوانين أو سياسات الحكومة"، فإن كلمات القانون التى تحمل معنيين كانت لها هدف واحد وهو أن يستخدم قانون الجاسوسية لسجن الأمريكيين الذين يظهرون عداوة للحرب.

وبعد مرور شهرين على صدور القانون، ألقى القبض على تشارلز شينك **Schenck** فى فيلادلفيا، وهو أحد الاشتراكيين، بتهمة طبع وتوزيع خمسة عشر ألف منشور يستنكر فيه قانون التجنيد والحرب. وقد أشار المنشور إلى بند فى التعديل الثالث للدستور بمنع "الأعمال الإجبارية" وقال إن قانون التجنيد انتهك هذا البند وقال إنه

عمل وحشى ضد الإنسانية فى سبيل مصالح رجال الأعمال فى وول ستريت ، وقال محذراً: "لا تستسلموا للترهيب "

اتُّهم شينك وحوكم وانتهى المحلفون إلى الرأى بأنه مذنب وصدر ضده حكم بالسجن لستة أشهر لانتهاكه قانون الجاسوسية (واتضح أن هذه أقصر عقوبة صدرت فى مثل هذه القضايا). استأنف شينك الحكم محتجاً بأن القانون عن طريق محاكمة الحديث والكتابة ينتهك التعديل الأول للدستور والذى يقول إنه لا يحق للكونجرس إصدار أى قانون يقلل من حرية التعبير أو حرية الصحافة.

وجاء قرار المحكمة بالإجماع وصاغه أشهر الليبراليين بها وهو أو ليفر ويندل هولمز الذى لخص محتويات المنشور وقال: "إنه بدون شك قصد إلى إعاقة تنفيذ قانون التجنيد." لكن هل كان شينك تحت حماية التعديل الأول فى الدستور؟ قال هولمز:

> **إن الحماية الدقيقة لحرية التعبير لن تستطيع حماية شخص يصرخ كذباً بوجود حريق بالمسرح ويتسبب فى هلع الجمهور. ... والسؤال فى كل قضية هو هل تستخدم هذه الكلمات فى مثل هذه الظروف والتى لها نفس المعنى لخلق خطر واضح يؤدى إلى أخطار حقيقية تمنح الكونجرس الحق فى منعها.**

كان تشبيه هولمز بارعاً وجذاباً، فقليل من الناس سيعتقد أن حرية التعبير يمكن أن تمنع الشخص من أن يصرخ بوجود حريق فى مسرح ويسبب ذعراً . لكن هل يتناسب هذا المثال مع حرية نقد الحرب؟ كتب زكريا شافى **Zechariah Chafee**، استتاد القانون فى بجامعة هارفارد، فى كتابه **حرية التعبير فى الولايات المتحدة Free Speech in the United States** يقول: " إن التشبيه الأقرب لشينك ربما يكون أن ينهض شخص بين الفصول فى مسرح ما ويعلن أن منافذ الحريق بالمسرح ليست كافية. وللمزيد من اللعب على المثال ألم يكن تصرف شينك مثل شخص يصرخ فى الناس بصدق ويدعوهم إلى شراء تذاكر دخول المسرح ، فالمسرح به نار مشتعلة فى الداخل .

لا يسمح شخص عاقل بحرية التعبير إذا مثلت خطراً واضحاً على الحياة والحرية ، ومع كل هذا، لابد أن تتعارض حرية التعبير مع حقوق أخرى حيوية. ولكن ألم تكن الحرب نفسها خطراً واضحاً وموجوداً بل أكثر وضوحاً ووجوداً وأكثر خطراً من أى رأى يعاديها؟ ألم يكن لدى المواطنين الحق فى أن يعترضوا على الحرب والحق فى أن يشكلوا خطراً على سياسات خطيرة ؟

(ظل قانون الجاسوسية الذى وافقت عليه المحكمة العليا، فى الكتب فقط طوال هذه السنوات منذ الحرب العالمية الأولى. وبالرغم من أن تطبيقه يكون فى وقت الحرب فإنه ظل قيد التنفيذ دائماً منذ ١٩٥٠ لأن الولايات المتحدة كانت فى حاله طوارئ قانونية منذ الحرب الكورية. فى عام ١٩٦٣ حاولت إدارة الرئيس كينيدى أن تمرر مشروع قانون لتطبيق قانون الجاسوسية على تصريحات الأمريكيين فى الخارج لكنها فشلت فى ذلك. فقد وصلت برقية إلى السفير الأمريكى فى فيتنام من وزير الخارجية (راسك) تقول إن الإدارة الأمريكية قلقة بشأن صحفيين يكتبون "مقالات محرجة" فى الصحف الفيتنامية عن الرئيس ديام Diemوحكومته وهو ما قد يعوق جهود الحرب).

وسرعان ما جاءت قضية يوجين ديبس أمام المحكمة العليا وكان ديبس قد زار ثلاثة من الاشتراكيين فى السجن فى يونيو عام ١٩١٨ وكانت تهمة الثلاثة هى معارضة قانون التجنيد. بعد الزيارة، تحدث ديبس إلى عدد من الناس لمدة ساعتين فى الشارع المؤدى إلى السجن، فقد كان من أبلغ خطباء المدينة وكثيراً ما كان يقاطعه التصفيق العاصف.وتحدث عن رفاقه المسجونين وعلق على اتهام الاشتراكيين بأنهم موالون للألمان بقوله: "إننى أكره وأحتقر الجنس الألمانى والألمان ، ولا أطيق الألمان فى ألمانيا ، وليس لدى أدنى حب للألمان فى الولايات المتحدة." (تصفيق حاد وابتسامات). وقال:

> **إنهم يقولون لنا إننا نعيش فى جمهورية حرة وعظيمة وإن مؤسساتنا ديمقراطية وإننا نحكم أنفسنا بأنفسنا. ألا يفوق هذا حد السخرية والمزاح؟! ... لقد اندلعت الحرب عبر التاريخ من أجل الغزو والنهب وهذه الحرب ليست مختلفة، فدائماً ما تعلن**

الطبقة الحاكمة الحروب ودائماً ما تخوض الطبقة المحكومة المعارك.

ألقى القبض على ديبس بتهمة انتهاك قانون الجاسوسية، فقد كان هناك عدد من الشباب فى سن التجنيد من بين جمهوره، لذا فقد رأوا أن كلماته ربما تعوق التجنيد والانخراط فى خدمة الولايات المتحدة. لكن كلماته كانت توحى بأكثر من ذلك:

يوماً ما سوف نحصل على النفوذ فى هذه الأمة وفى كل أنحاء العالم. سوف نقوض كل المؤسسات الرأسمالية المستعبِدة والتى تحقر من شأن الإنسان ، وسوف نعيد تكوينها لتصبح مؤسسات حرة إنسانية. إن العالم يتغير يوماً بعد يوم أمام عيوننا . إن شمس الرأسمالية بدأت فى الغروب وشمس الاشتراكية بدأت فى الشروق ، وعندما يحين الوقت، ستدق الساعة معلنة انتصار هذه القضية، ويتحقق تحرير الطبقة العاملة وتتحقق أخوة البشرية كلها (تصفيق حاد طويل).

ورفض ديبس أن يتخذ موقف الدفاع فى المحاكمة، ولم ينكر شيئاً مما اتهموه به. لكن قبل أن تبدأ هيئة المحلفين مداولاتها تحدث إليهم قائلا: "لقد اتهمت بإعاقة الحرب وأنا لا أنكر ذلك. أيها السادة إننى أبغض الحرب وسوف أعارضها حتى لو وقفت وحيدا . إننى اشعر بالشفقة على الشعوب التى تعانى وتناضل أينما كانت، وليس يهمنى أين ولدوا أو أين يعيشون ... . "

وأدانت هيئة المحلفين ديبس بتهمة خرق قانون الجاسوسية وقبل أن يصدر القاضى الحكم تحدث إليه ديبس قائلاً:

سيادة القاضى لقد عرفت منذ سنوات أن دمائى تسرى فى عروق كل البشرية ، وعرفت أننى لا أفوق أحقر مخلوق على وجه الأرض. عندئذ قلت وأقول الآن: إذا كانت هناك طبقة دنيا ، فأنا

منها وإذا كان هناك عنصر إجرامى، فأنا منه وعندما يكون إنسان ما فى السجن، فأنا لست حراً.

واستنكر القاضى ذلك وأدان هؤلاء "الذين يحاولون ضرب سيف هذه الأمة بينما هى تحارب به دفاعاً عن نفسها ضد قوة أجنبية وحشية" وحكم على ديبس بالسجن عشر سنوات.

لم تستمع المحكمة لاستئناف ديبس حتى عام ١٩١٩ وكانت الحرب قد انتهت. أكد هولمز على تهمة ديبس وكان القرار بالإجماع. ناقش هولمز حديث ديبس قائلاً: "وبعد ذلك عبر عن معارضته للنظام العسكرى القائم فى بروسيا بطريقة توحى دون شك أن هذا يتضمن الطريقة المتبعة فى الولايات المتحدة " وقال هولمز إن ديبس "أشار إلى التعارض المعتاد بين الرأسمالية والطبقة العاملة بطريقة توحى بأن الطبقة العاملة ليست محل اهتمام فى فترة الحرب وبهذا فإن التأثير المقصود والطبيعى لحديث ديبس هو إعاقة عملية التجنيد." سجن ديبس فى ولاية فيرجينيا ونقل بعد ذلك إلى سجن أطلنطا الفيدرالى حيث قضى اثنين وثلاثين شهراً حتى أصدر الرئيس هاردنج أمرا بإطلاق سراحه فى عام ١٩٢١ وكان قد بلغ ٦٦ عاما.

دخل السجن ما يقارب تسعمائة شخص بسبب قانون الجاسوسية وكانت المعارضة السياسية بعيدة عن الأنظار بينما كانت الحالة القومية "ظاهرة" عن طريق الفرق العسكرية والتلويح بالأعلام والشراء الواسع لسندات الحرب وقبول الأغلبية للتجنيد. كان هذا القبول نتيجة للعلاقات العامة المتزنة والترهيب الذى كانت تمارسه الحكومة الفيدرالية بكل طاقتها ومن ورائها أموال أساطين الأعمال التجارية. وكان حجم الحملة التى تحث على عدم المعارضة يشير إلى المشاعر المعادية للسكان تجاه الحرب.

وساهمت الصحف فى خلق جو من الخوف لكل من تسول له نفسه معارضه الحرب فى إبريل عام ١٩١٧ نقلت نيويورك تايمز عن إليهو روت Elihu Root (وهو وزير حربية سابق ومحامى بالشركات) قوله: "ليس لدينا أى نقد الآن." بعد ذلك بشهور نقلت

عنه أيضاً: "هناك أناس يطوفون شوارع هذه المدينة ليلاً وهؤلاء يجب أن يخرجوا مع شروق شمس اليوم التالى ويعدموا رمياً بالرصاص بتهمة الخيانة." وحينما كان تيودور روز فلت يتحدث إلى نادى هارفارد عن الاشـــتراكيين والنقــابات العــالمية وآخرين ممن يريدون السلام، وصفهم بأنهم "مجموعة من المخلوقات المخنثة".

وفى صيف عام ١٩١٧ تكونت "جمعية الدفاع الأمريكية"، وقالت الهيرالد النيويوركية "إن أكثر من مائة رجل سجلوا أسماءهم أمس فى "دورية القصاصين الأمريكية" فى مكاتب جمعية الدفاع الأمريكية ... وقد تكونت هذه الدورية لوضع نهاية للخطب المثيرة للشغب." دعمت وزارة العدل الرابطة الأمريكية الوقائية والتى انتشرت وحداتها فى ستمائة مدينه بحلول شهر يونيو عام ١٩١٧ وبلغ عدد أعضائها حوالى ١٠٠,٠٠٠ عضو وذكرت الصحف أن أعضاء هذه الوحدات من " قادة المجتمعات أمثال المصرفيين (رجال البنوك) ورجال السكك الحديدية ورجال الفنادق."

وتصف إحدى الدراسات عمل الفرقة كما يلى: "إن البريد يعد من المقدسات لكن لنصف الرابطة الأمريكية بأنها قادرة على استشفاف الخطابات المشبوهة ... ومن المفترض أن اقتحام أحد المنازل أو المكاتب بدون إذن يعد جريمة لكن الرابطة قامت بهذا مئات المرات دون أن تتعرض للمسائلة!"

وزعمت الرابطة أنها عثرت على ثلاثة ملايين حالة من عدم الولاء. حتى وإن كان بهذه الأعداد قدر من المبالغة، فإن حجم ومدى الرابطة نفسها يشير إلى القدر الذى وصل إليه "عدم الولاء."

نظمت الولايات مجموعات القصاصين، وأغلقت هيئة مينوسوتا للأمن القومى الصالونات ومسارح الأفلام المتحركة، وأخذت الأراضى من الأجانب ونشّطت السندات الحكومية وأجرت اختبارات ولاء للسكان. وقالت صحيفة "جورنال" فى مينيابوليس نداء من الهيئة: "على كل من لديه حس وطنى أن يشارك فى كبح الأعمال والمشاعر المناهضة للحرب والمثيرة للشغب."

وتعاونت الصحافة القومية مع الحكومة فى هذه الحملة، إذ نشرت نيو يورك تايمز فى صيف عام ١٩١٧ افتتاحية تقول فيها: "واجب كل مواطن صالح أن يبلغ السلطات المختصة إذا رأى أى أعمال مثيرة للشغب" وطالبت "ليترارى دايجست" (المختار الأدبى) قراءها: "اقطعوا وأرسلوا إلينا أى مقالات تجدونها مثيرة للشغب وتحث على الخيانة." وأعلنت لجنة كريل للمعلومات الحكومية أن على الناس أن "يبلغوا عن أى شخص ينشر قصصاً محبطة تبعث على التشاؤم وذلك عن طريق الاتصال بوزارة العدل." فى عام ١٩١٨ قال النائب العام: "يمكننا الآن أن نقول إن هذه الدولة لم تكن فى مثل هذا النظام الكامل طوال تاريخها".

ولكن لم كل هذه الجهود الجبارة؟ فى الأول من أغسطس عام ١٩١٧ نشرت االهيرالد النيويوركية أن ٩٠ جندياً من أول مائة جندى مطلوبين للتجنيد فى مدينة نيويورك طالبوا بالإعفاء من الخدمة ، وفى مينوسوتا كانت العناوين الرئيسة لصحيفة "جورنال" فى ٧-٨ أغسطس تقول: "انتشار معارضة التجنيد فى أنحاء الولاية، المجندون يدلون بعناوين مزيفة." أما فى فلوريدا، فقد ذهب اثنان من الجنود إلى الغابة وقاما بتشويه نفسيهما حتى يتجنبا التجنيد حيث أطلق أحدهما النار على أربعة من أصابع يده، والثانى أطلق الرصاص على ساعده أسفل الكوع. قال سيناتور ولاية جورجيا توماس هاردوك "هناك بلا شك معارضة عامة تشمل من الآلاف بسبب صدور قانون التجنيد فهناك العديد من الاجتماعات الشعبية الضخمة تعقد فى كل جزء من الولاية للاحتجاج على هذا القانون." وأخيرا بلغت حالات الهروب من التجنيد ٣٠ ألف حالة .

وفى أوكلاهوما نشط الحزب الاشتراكى والاتحاد العالمى للعمال بين المزارعين المستأجرين الذين انشئوا "اتحاد الطبقة العاملة." وفى اجتماع واسع للاتحاد كانت هناك خطط لتحطيم كبارى السكك الحديدية وقطع أسلاك التلغراف فى محاولة لإعاقة عملية التجنيد. وكانت هناك خطة لعمل مسيرة فى واشنطن يقوم بها مناهضو التجنيد فى جميع أنحاء البلاد (سميت هذه باسم حركة تمرد الذرة الخضراء لأنهم خططوا

لأكل الذرة الخضراء أثناء المسيرة). ولكن قبل أن ينفذ الاتحاد هذه المسيرة تم تطويق أعضائه والقبض عليهم وسرعان ما دخل ٤٥٠ فرداً سجن الولاية بتهمة التمرد وحكم على زعماء التمرد بالسجن لمدد تتراوح بين ثلاث إلى عشر سنوات بينما سُجن الآخرون لمدد تتراوح من شهرين إلى سنتين.

وفى الأول من يوليو عام ١٩١٧، نظم الراديكاليون عرضاً فى بوسطن للاعتراض على الحرب وحملوا معهم لافتات كتبوا عليها:

- إذا كانت هذه الحرب شعبية، فلماذا قانون التجنيد؟
- من سرق بنما؟ من دمر هايتى؟
- نحن نطالب بالسلام.

وقالت جريدة "كول" Call بنيويورك "إن ثمانية آلاف قد نظموا مسيرة، من بينهم ٤٠٠٠ عضواً من اتحاد العمل المركزى و٢٠٠٠ عضواً من منظمات ليتش الاشتراكية و١٥٠٠ ليتوانى وأعضاء يهود من تجار العباءات وفروع أخرى للحزب ، ولكن الجنود والتجار هاجموا المسيرة بناء على أوامر من ضباطهم.

وبدأت وزارة البريد فى رفع المزايا البريدية عن الصحف والمجلات التى تنشر مقالات مناهضة للحرب، حيث حُرمت مجلة "ذا ماسيز" (الجماهير) من البريد وهى مجلة سياسية وأدبية وفنية لأنها نشرت مقالاً لماكس إيستمان فى صيف عام ١٩١٧ يقول بين أشياء أخرى: "من إجل أى شئ بالتحديد تحملون أجسادنا وأجساد أبنائنا إلى أوروبا؟ بالنسبة لى، فأنا لا أعترف بحق الحكومة فى تجنيدى فى حرب لأسباب لا أؤمن بها".

وفى لوس أنجيليس عُرض فيلم يحكى عن الثورة الأمريكية ويظهر الوحشية البريطانية ضد المستعمَرين وكان الفيلم يحمل اسم "روح ٧٦". تعرض صاحب الفيلم للمحاكمة وفقاً لقانون الجاسوسية لأن الفيلم، كما قال القاضى، يتعرض للتشكيك فى النية الحسنة لحليفتنا بريطانيا العظمى." عوقب الرجل بالسجن عشر سنوات وكان الاسم الرسمى للقضية هو "الولايات المتحدة ضد روح ٧٦".

وفى داكوتا الجنوبية وفى أثناء نقاش حول الحرب، وكما قال المدعون فإن "فردْ فيرتشايلد أحد المزارعين الاشتراكيين قال: "لو كنت فى سن التجنيد وليس لدى من أعوله وطُلبت للتجنيد، لرفضت. ربما يقتلونني بالرصاص لكنهم لن يجبروني على القتال." تعرض فيرتشايلد للمحاكمة تحت قانون الجاسوسية وعوقب بالسجن لمدة عام ويوم فى سجن ليفين ورث ، وهكذا استمر الأمر فى ألفى حالة (وهو عدد المحاكمات التى تمت باسم خرق قانون الجاسوسية).

وأعلن حوالى ٦٥٫٠٠٠ رجلاً أنهم لا يستطيعون القتال بسبب تعذيب الضمير وطالبوا بالعمل بالخدمات غير القتالية. كثيراً ما كان هؤلاء يعاملون بوحشيه سادية فى القواعد العسكرية التى عملوا بها ، وسُجن ثلاثة أشخاص فى فورت رايلى بكنساس لرفضهم أداء أى واجبات عسكرية سواء كانت قتالية أو غير قتالية وكان الجنود يأخذونهم الواحد تلو الآخر داخل ممر حيث

> **تلف رقابهم بحبل معلق على سور الطابق الأعلى وترفع أقدامهم حتى يصلوا إلى مرحلة الانهيار، وفى هذه الأثناء يقوم الضباط بضربهم على السيقان والكعوب. بعد ذلك يتم إنزالهم ثم يربطون من أذرعهم وترفع أقدامهم مرة أخرى. وفى هذه المدة كان الجنود يوجهون خرطوم المياه الخاص بالحدائق إلى وجوه السجناء من مسافة لا تزيد عن ست بوصات حتى ينهاروا تماماً.**

لم تشجع المدارس ولا الجامعات معارضة الحرب ، ففى جامعة كولومبيا، تم فصل جيه. ماكين كاتيل J. McKeen Cattell وهو أحد المتخصصين فى علم النفس ودائماً ما كان ينتقد تحكم مجلس الأمناء فى الجامعة وكان من مناهضى الحرب. بعد ذلك استقال المؤرخ الشهير تشارلز بيرد Beard احتجاجا على قرار فصل زميله متهماً مجلس الأمناء "بقصور الرؤية والرجعية فى القضايا السياسية وضيق الأفق والتعامل بعقلية العصور الوسطى فى القضايا الدينية."

أما الكونجرس، فقد أظهرت أصوات قليلة معارضتها للحرب؛ لم تجب أول سيدة تدخل مجلس النواب جينيت رانكن عندما نودى اسمها فى القائمة لإعلان الحرب. عندئذ ذهب إليها أحد السياسيين البارزين فى المجلس وأحد المساندين للحرب وهمس لها قائلاً: "سيدتى الصغيرة! لا طاقة لك على الامتناع عن التصويت فأنت تمثلين الجانب النسائى فى البلاد". وعندما نؤدى اسمها مره ثانية، وقفت قائلة: "أود الوقوف بجانب بلادى لكن لا أستطيع التصويت لصالح الحرب ، لذا فأنا أصوت بالرفض." كانت إحدى الأغنيات الشائعة فى ذلك الوقت تقول "لم أرب طفلى كى يصبح جندياً" وتبعتها أغان أخرى مثل "إنه علَم قديم عظيم" و"انهض يا جون وخذ سلاحك."

ويقال إن فى يوليو عام ١٩١٧ قالت الاشتراكية كيت ريتشاردز أوهير فى حديث لها

فى داكوتا الشمالية: "إن نساء الولايات المتحدة لسن أكثر من حاضنات للبذور. إنهن يربين أبناءهن لكى يلتحقوا بالجيش ويصبحوا سماداً للأرض." فأُلقى القبض عليها وتعرضت للمحاكمة، ورأت هيئة المحلفين أنها مذنبة وعوقبت بالسجن خمس سنوات فى سجن ولاية ميزورى، وفى السجن واصلت كفاحها، وعندما اعترضت هى ورفيقاتها على نقص الهواء الموجود بالزنزانة بسبب إغلاق النوافذ، سحبها الجنود إلى الساحة لمعاقبتها ، وفى أثناء ذلك كانت تحمل كتاباً يضم مختارات من قصائد الشعر وعندما سحبها الجنود إلى الخارج، قذفت به ناحية النافذة فتكسر الزجاج واندفع الهواء إلى الداخل وسط فرح رفيقاتها فى السجن.

عوقبت إيما جولدمان وصديقها الثائر ألكسندر بيركمان بالسجن بسبب معارضة قانون التجنيد (كان هو قد سجن قبل ذلك لمدة أربعة عشر عاماً فى بنسلفانيا وسُجنت هى لمدة عام فى جزيرة بلاك ويل). تحدثت إيما إلى هيئة المحلفين قائلة:

كيف نستطيع، إذا كنا نفتقر إلى الديموقراطية، أن نمنحها للعالم؟ إن الديموقراطية القائمة على الخدمة العسكرية الإجبارية للجماهير والاستعباد الاقتصادى لهم وتتغذى على دمائهم ودموعهم لا تعد ديمقراطية على الإطلاق. إن هذا استبداد نتج

عن سلسلة من الانتهاكات. ومن ثم يحق للشعب أن يطيح بالنظام السياسى وفقاً لما جاء فى الوثيقة الخطيرة الموسومة بإعلان الاستقلال.

أعطت الحرب الحكومة فرصة القضاء على الاتحاد العالمى للعمال؛ كتبت صحيفة "إنداستريال وركر"، قبل الحرب مباشرة: "يا رأسماليي أمريكا! إننا سنقاتل ضدكم وليس بجانبكم! التجنيد! لا تستطيع قوة فى العالم أن ترغم الطبقة العاملة على القتال أن هى لم تقبل ذلك." يذكر فيليب فونر فى كتابه عن تاريخ الاتحاد العالمى للعمال الصناعيين أن أعضاء الاتحاد ربما لم يكونوا نشطين فى مناهضتهم للحرب مثل الاشتراكيين لأنهم كانوا يؤمنون بالحتمية ولذلك اعتبروا الحرب شيئاً حتمياً واعتقدوا أنه فقط بالانتصار فى الصراع الطبقى والتغيير الثورى يمكن إنهاء الحرب.

وفى بداية سبتمبر عام ١٩١٧ قام عملاء وزارة العدل بهجمات فى نفس التوقيت على ثمانية وأربعين صالة اجتماعات للاتحاد العالمى للعمال الصناعيين فى كل أنحاء البلاد، حيث عثروا على مراسلات ومجموعة كتب تصلح لأن تكون دليلاً فى المحاكمة. فى نفس الشهر أُلقى القبض على ١٦٥ من قادة الاتحاد بتهمة التآمر من أجل إعاقة عملية التجنيد عن طريق تشجيع الشباب على الهروب من الخدمة العسكرية. تقدم للمحاكمة ١٠١ من أعضاء الاتحاد فى إبريل عام ١٩١٨ واستمرت المحاكمة خمسة أشهر وكانت أطول محاكمة جنائية فى تاريخ الولايات المتحدة حتى ذلك الوقت.

وغطى جون ريد المحاكمة لمجلة "ذا ماسيز" (الجماهير) وهو أحد الكتاب الاشتراكيين وكان قد عاد لتوه من تغطية أنباء الثورة البلشفية فى روسيا والتى أصدر عنها كتابه **عشرة أيام هزت العالم Ten Days That Shook the World** . وصف ريد المتهمين قائلاً:

لا أظن أن هناك مشهداً يماثل هذا المشهد على مر التاريخ. مائة وواحد من عمال الأخشاب وعمال الحصاد وعمال المناجم ومحررى الصحف ... كل هؤلاء يؤمنون أن ثروة العالم تنتمى لمن

يصنعونها، أى لهؤلاء الرجال الذين يعملون بالمحاجر ومن يقطعون الأشجار ويحصدون المحاصيل والصيادين ومن يقومون بالأعمال الشاقة فى العالم.

استغل أعضاء الاتحاد العالمى للعمال الصناعيين المحاكمة للإعلان عن أفكارهم وأنشطتهم، حيث وقف للشهادة واحد وستون عضواً من بينهم بيج بيل هايوود، الذى استغرقت شهادته وحده ثلاثة أيام. تحدث أحد الأعضاء إلى المحكمة قائلاً:

تسألوننى لماذا لا يشعر الاتحاد العالمى للعمال بالشعور الوطنى تجاه الولايات المتحدة ؟ إن كنتَ لا تجد الغطاء لك ولأسرتك، أو تركت زوجتك وأطفالك للعمل بغرب البلاد ولم ترهم منذ رحيلك، أو كنت غير قادر على الاحتفاظ بوظيفة تكفل لك حق التصويت، أو نمت فى منزل للعمال قذر ومزعج تأكل فيه طعاماً عفناً، أو أطلق المأمور الرصاص على علبة طعامك المليئة بالفتحات ثم ألقى بطعامك على الأرض، أو انخفض أجرك واعتقد رؤساؤك أنهم بذلك قد خدعوك، إذا كان هناك قانون لزيد وآخر لعبيد، إذا كان كل من يمثل القانون والنظام يعتدى عليك ويدفع بك إلى السجن بينما المسيحيون الطيبون يضحكون أو يطلبون الخلاص منك، فكيف بحق الجحيم تطلب منى أن أشعر بالوطنية؟ إن هذه الحرب هى حرب رجال الأعمال ولا نرى سبباً يدفعنا للذهاب إليها والتعرض لطلقات الرصاص للحفاظ على ما نحن فيه!

وأدانتهم هيئة المحلفين جميعاً وعاقب القاضى هايوود وأربعة عشر آخرين بالسجن لمدة عشرين عاماً وعوقب ثلاثة وثلاثون بالسجن لمدة عشر سنوات، وحكم على الآخرين بعقوبات أقل وتم تغريمهم جميعاً مليونين ونصف من الدولارات ، وبذلك انفرط

عقد منظمة عمال العالم. ونجح هايوود فى الهرب إلى روسيا الثائرة بعد إطلاق سراحه قبل المحاكمة وظل فى روسيا حتى وفاته بعد ذلك بعشر سنوات.

وانتهت الحرب فى نوفمبر عام ١٩١٨ وكان قد مات فيها ٥٠،٠٠٠ جندياً أمريكياً وسرعان ما انتاب الجميع شعور بالمرارة واليأس. وانعكس هذا على أدب عقد ما بعد الحرب، حيث كتب جون دوس باسوس John Dos Passos فى روايته عام **١٩١٩** عن موت جون دو:

> **فى مشرحة "شالونز سور مارن" المغطاة باللون الأسود، وفى وسط الرائحة الكريهة للكلورايد ورائحة الموتى، رفعوا الصندوق المصنوع من خشب الصنوبر الذى يحتوى على ما تبقى من جون دو ... أخذوا بقايا الأحشاء والجلد الملفوفة فى غطاء كاكى إلى شالونز سور مارن ووضعوها بتناسق فى صندوق من الصنوبر ...**
>
> **وحملوها إلى المدافن على متن سفينة حربية ودفنوها فى مدافن أرلنجتون الوطنية وأسدلوا العلم الوطنى فوقها ... وعزفت الفرقة العسكرية. وصلى السيد هاردنج للرب، ووقف الدبلوماسيون والجنرالات وكبار رجال الجيش ورجال السياسة فى وقار، وكذلك وقفت سيدات المجتمع فى ثيابهن الجميلة. وتأمل هؤلاء كيف خيم الحزن على بلاد الرب الجميلة وبلاد المجد القديم، وذلك وسط صوت الموسيقى العسكرية والقذائف المدفعية الثلاثة. ووضعت ميدالية الشرف على صدر زيه العسكرى.**

سيكتب إرنست هيمنجواى روايته الشهيرة **وداعاً للسلاح** A Farewell to Arms . وبعد ذلك بسنوات، سيكتب طالب جامعى يدعى إروين شو Irwin Shaw مسرحية **ادفنوا الموتى** Bury the Dead، ويكتب كاتب سيناريو فى هوليوود يدعى دالتون ترامبو Dalton Trumbo رواية مناهضة للحرب مؤثرة وتثير القشعريرة عنوانها **جونى حصل على**

سلاحه Johnny Got His Gun وتحكى عن جسد بلا رأس ورأس بلا جسد تركهم الجنود على قيد الحياة فى ميدان قتال الحرب العالمية الأولى ، وكتب فورد مادوكس فورد Ford Madox Ford **كفى عروضاً عسكرية No More Parades** .

وبالرغم من حالات السجن فى أثناء الحرب والترهيب ونزعة الوحدة القومية، ظلت المؤسسة الحكومية على خوفها من الاشتراكية، وبعد نهاية الحرب كانت تبدو هناك حاجة مرة أخرى لطريقة لمواجهة التحدى الثورى، وتتمثل هذه السياسة المزدوجة فى الإصلاح والقمع.

اقترح الأول أحد أصدقاء الرئيس ويلسون ويدعى جورج ريكورد حيث بعث إليه فى بداية عام ١٩١٩ يخبره بأنه لابد من فعل شىء بشأن الديمقراطية الاقتصادية لمواجهة تهديد الاشتراكية. قال ريكورد: "يجب أن تكون زعيماً للقوة الراديكالية فى أمريكا وتقدم للبلاد برنامجاً للإصلاح الجذرى يصبح بديلاً لبرامج الاشتراكية والبلاشفة".

وفى صيف عام ١٩١٩ ذكر جوزيف تيومالتى مستشار الرئيس ويلسون أن الصراع بين الجمهوريين والديمقراطيين ليس مهماً مقارنة بما يهددهما معاً، وقال:

> **إن ما حدث أمس من محاولة اغتيال النائب العام ليس إلا عَرضاً للاضطراب الذى يسرى فى البلاد ... إننى كديمقراطى سيخيب أملى إذا استعاد الحزب الجمهورى السلطة، لكن هذا لا يؤدى إلى إحباط المرء عندما يرى أمام عينيه يوماً بعد يوم حركة تنمو بثبات وإن لم تقف، فسوف تأتى على كل عزيز لدينا. علينا فى ظل هذا العصر من الاضطراب الصناعى والاجتماعى ألا نترك الإنسان العادى يفقد إيمانه بأى من الحزبين.**

كان "ما حدث أمس فى واشنطن" هو انفجار قنبلة أمام منزل النائب العام ميتشل بالمر. بعد ستة اشهر من انفجار القنبلة، نفذ بالمر أول هجمات واسعة ضد الغرباء

والمهاجرين الذين لا يحملون الجنسية الأمريكية وكان الكونجرس قد وافق على قانون يسمح بترحيل الغرباء الذين يعارضون الحكومة ويساهمون فى تخريب الملكيات ، وفى ٢١ ديسمبر قبض رجال بالمر على ٢٤٩ أجنبياً من أصل روسى (من بينهم إيما جولدمان وألكسندر بيركمان) وتم ترحيلهم إلى ما يعرف الآن باسم روسيا السوفيتية. إن الدستور لا يمنح الكونجرس الحق فى أن يرحِّل الأجانب، لكن المحكمة العليا استندت إلى ما حدث فى عام ١٨٩٢ عندما قام الكونجرس باستبعاد الصينيين وذلك بحجة أنه يتعلق بمسألة الحفاظ على الذات وأنه حق طبيعى للحكومة.

وفى يناير عام ١٩٢٠ تم تطويق ٤٠٠ شخص فى كل أنحاء البلاد، وظلوا فى عزلة لمدد طويلة، وتمت محاكمتهم فى سرية، ورحلتهم السلطات. أما فى بوسطن، وبمساعدة من الشرطة المحلية، قبض عملاء وزارة العدل على ٦٠٠ شخص وذلك بالهجوم على صالات الاجتماعات أو اقتحام منازلهم فى وقت مبكر من الصباح ، ويصف أحد القضاة الغاضبين العملية قائلاً:

> **كان لابد من تجشم المتاعب من أجل إضفاء علنية مثيرة للاقتحام ومن أجل الإشارة إلى وجود خطر كبير محدق ، وغالباً ما كان الأجانب المقبوض عليهم من العمال هادئين ومسالمين، وكان معظمهم لوقت قريب من المزارعين الروس. كان يتم تصفيد كل اثنين معاً ثم يتم تقييدهم جميعاً من أجل نقلهم بالقطار عبر شوارع بوسطن. ...**

وفى ربيع عام ١٩٢٠ قبض عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI على ناسخ الآلة الكاتبة والثائر أندريا سالسيدو وظل لمدة ثمانية أسابيع بمكاتب التحقيقات بالطابق الرابع عشر بمبنى بارل رو. ولم يكن مسموحاً له بالاتصال بأى من أصدقائه أو عائلته أو أحد المحامين ، وبعد ذلك عُثر على جسده مهشماً على الرصيف تحت المبنى وقال مكتب التحقيقات الفيدرالية إنه قد انتحر بالقفز من نافذة الطابق الرابع عشر.

وفور علمهما بمقتله، بدأ اثنان من أصدقاء سالسيدو فى حمل المسدسات وكانا من العاملين الثوريين فى منطقة بوسطن. ألقت الشرطة القبض عليهما فى الترام فى بروكتون بولاية ماساشوستس واتهمتهما الشرطة بارتكاب حادثتى قتل وسرقة كانا قد وقعا قبل أسبوعين بمصنع أحذية. كان هذان الصديقان هما نيكولا ساتشو وبارتولوميو فينزتى. قدِّما للمحاكمة وحكم عليهما بالسجن لمدة سبع سنوات، بينما استمرت الاستئنافات وانشغل الناس بقضيتهما فى كل أنحاء البلاد. وتشهد محاضر المحاكمة والظروف المحيطة أن ساتشو وفينزتى قد حكم عليهما بالإعدام لأنهما من الثوريين الأجانب. وفى أغسطس عام ١٩٢٧ تم إعدامهما بالكرسى الكهربائى، بينما كانت الشرطة تقوم بتطويق السجن وفض المظاهرات وإلقاء القبض على البعض وتوجيه الضربات إلى البعض الآخر ، وكانت رسالة ساتشو الأخيرة لابنه دانتى رسالة إلى ملايين آخرين جاءوا فى السنوات التالية. يقول بانجليزيته التى تعلمها بصعوبة:

> **يا ولدى! بدلاً من البكاء، كن قوياً كى تستطيع أن تخفف آلام أمك ... اصحبها فى نزهة طويلة فى ربوع الريف الهادئ واجمع لها زهوراً برية من هنا وهناك ... لكن يا ولدى تذكر دائماً فى أثناء فرحك ألا يكون فرحك لك وحدك .. امدد يدك إلى المعذبين والضحايا فهم خير أصدقائك ... يا ولدى! فى صراع الحياة سوف ترى أكثر من هذا ، وستجد الحب وتجد من يحبك.**

كانت هناك إصلاحات وتأججت حمية الوطنية التى كانت مشتعلة أثناء الحرب. واستخدمت المحاكم والسجون للتأكيد على أنه لا يمكن التسامح مع أفكار بعينها وأشكال مقاومة معينة ، وكانت الرسالة الآتية من زنازين السجناء تقول إن الصراع الطبقى لا يزال مستمراً فى مجتمع يدَّعى أنه بلا طبقات وهو مجتمع الولايات المتحدة. وفى العشرينيات والثلاثينيات كان الصراع لا يزال مستمراً.

الفصل الخامس عشر

الأوقات العصيبة

كانت الحرب العالمية الأولى قد أوشكت على الانتهاء فى فبراير عام ١٩١٩، وكان زعماء "اتحاد عمال العالم" خلف القضبان لكن فكرتهم عن الإضراب العام تحولت إلى واقع فى مدينة سياتل بولاية واشنطن لمدة خمسة أيام عندما تسببت مسيرة ١٠٠,٠٠٠ من العمال فى توقف الحياة فى المدينة. بدأ المسيرة ٣٥,٠٠٠ من عمال صناعة السفن للمطالبة بزيادة أجورهم ، وطلب المضربون المساندة من مجلس سياتل المركزى للعمل، الذى أوصى بإضراب فى جميع أنحاء المدينة، وفى خلال أسبوعين صوَّت ١١٠ من القادة المحليين لصالح الإضراب ، وكانت معظم الأصوات من جانب اتحاد العمل الأمريكى American Federation of Labor (AFL) ومن أصوات "اتحاد عمال العالم". اختار عمال كل منطقة ثلاثة أعضاء لتكوين اللجنة العامة للإضراب وبدأ الإضراب فى ٦ فبراير عام ١٩١٩ الساعة العاشرة صباحاً.

ولم يكن من السهل تحقيق الوحدة فى الإضراب، فقد كانت علاقة أعضاء "اتحاد عمال العالم" بأعضاء اتحاد العمل الأمريكى يشوبها التوتر، كما سُمح للعمال اليابانيين بالانضمام للجنة الإضراب، لكن لم يُمنحوا حق التصويت. بالرغم من ذلك فقد امتنع ١٦٠ ألفا من الأعضاء الاتحاديين عن الانضمام للإضراب فى حين انضم ١٤٠ ألفا آخرون لشعورهم بالتعاطف مع المضربين.

وكان سكان مدينة سياتل يتمسكون بتقاليد قديمة، فخلال الحرب سُجن رئيس اتحاد العمل الأمريكى بسياتل لمعارضته قانون التجنيد الإجبارى، ولقى ألوانا من العذاب، وخرجت العديد من المسيرات العمالية للتنديد بذلك.

وتوقفت الحياة فى المدينة عندئذ، ما عدا بعض الأنشطة التى نظمها المضربون لتوفير الاحتياجات الأساسية. وافق رجال الإطفاء على الاستمرار فى عملهم، وقبل عمال الغسيل ملابس المستشفيات فقط ، وحملت العربات المسوح لها بالتنقل لافتات مكتوب عليها "تحمل تصريحا من اللجنة العامة للإضراب." تم إنشاء خمسة وثلاثون محطة لبيع الألبان بالقرب من المضربين. كان يتم تجهيز ١٣٠٫٠٠٠ وجبة فى مطابخ كبيرة، وبعد ذلك تُنقل إلى صالات فى جميع أنحاء المدينة بنظام الكافيتريات. كان العمال المضربون يدفعون ٢٥ سنتاً للوجبة فى حين كان الأفراد العاديون يدفعون ٣٥ سنتاً ، وسُمح للمضربين أن يتناولوا ما يحتاجونه من اللحوم والمكرونة الاسباجيتى والخبز والقهوة.

وتم تعين حراسات للمحافظة على النظام ، وكتبت على إحدى اللافتات فوق مقرها هذه العبارة: "هدفنا الحفاظ على القانون والنظام، ولا يسمح لأى متطوع باستخدام قوة الشرطة أو حمل السلاح. مسموح فقط باستخدام وسائل الإقناع." انخفض معدل الجريمة فى المدينة خلال فترة الإضراب. قال قائد قوة الجيش الأمريكى التى أرسلت إلى المنطقة إنه لم يشهد طوال حياته العسكرية، التى استمرت أربعين عاما، مدينة هادئة ومنظمة مثل مدينة سياتل. ونشرت الصحيفة العمالية "سياتل ريكورد" قصيدة كتبها شخص يدعى أنايس Anise جاء فيها:

أكثر ما يخيفهم

أن لا شيء يحدث!

إنهم جاءوا مستعدين للاضطرابات

لديهم مدافع آلية

وجنود

لكن هذا الصمت الباسم

شيء غريب عليهم.

رجال الأعمال

لا يفهمون هذا النوع من السلاح

ابتسامتك

هي التي تزعزع ثقتهم.

...

هذه الأشياء تعبر

عن قوة جديدة

وعالم جديد

لا يشعرون هم بالألفة معه.

وعين العمدة ٢٤٠٠ شخصًا كأفراد للشرطة كان معظمهم من طلاب جامعة واشنطن، واستخدمت الحكومة ألفاً من البحارة وعمال صناعة السفن. انتهى الإضراب بعد خمسة أيام نتيجة ضغوط مسئولى الاتحادات الدولية المختلفة، بالإضافة إلى صعوبات العيش فى مدينة مغلقة. كان الإضراب سلميا. ومع ذلك فبعد انتهائه حدثت مهاجمات واعتقالات فى مقر الحزب الاشتراكى، وتمت مصادرة ماكينة طباعة، وأُلقى القبض على ٣٩ من أعضاء "اتحاد عمال العالم" بزعم أنهم "زعماء فوضويون."

وفى سينتراليا بواشنطن فى حين كان اتحاد "عمال العالم" ينظم عمال الأخشاب، كان أصحاب صناعة الأخشاب يخططون للتخلص من الاتحاد. كان ١١ نوفمبر عام ١٩١٩ يوم الاحتفال بانتهاء الحرب العالمية الأولى. فى الوقت الذى كانت فيه الفرقة تقدم عروضها فى جميع أنحاء المدينة باستخدام الخراطيم المطاطية وأنابيب الغاز، كان أعضاء "اتحاد عمال العالم" يستعدون للهجوم. وعندما مرت فرقة الاحتفالات من أمام صالة الاتحاد أُطلقت النيران، ولم يعرف من أطلق النار أولاً. قام أعضاء الفرقة

بمهاجمة الصالة وازداد إطلاق النار حيث لقى ثلاثة من أعضاء فرقة العرض مصرعهم.

وكان بداخل مقر الاتحاد فرانك إيفريت **Frank Everett** عامل الأخشاب الذى كان يخدم بالجيش فى فرنسا حين كان زعماء "اتحاد عمال العالم" يحاكمون عن تهمة إعاقة مجهودات الحرب. كان إيفريت يرتدى الزى العسكرى ويحمل بندقية أفرغها فى الجمع وألقاها وأسرع نحو الغابات. تبعه الجمع، حاول إيفريت عبور النهر لكن التيار كان شديداً فرجع وأطلق الرصاص على الشخص الذى كان فى مقدمة الجمع وأرداه قتيلا وألقى البندقية فى النهر واشتبك مع الجمع بيديه. قام الناس بجره خلف سيارة حتى المدينة وعلقوه على أحد أعمدة التلغراف ثم أنزلوه ووضعوه فى السجن ، فى هذه الليلة كسر باب زنزانته وأخرج منها ووضع فى أرضية سيارة وقُطعت أعضائه الجنسية وسحب إلى كوبرى وشُنق وامتلأ جسده بطلقات الرصاص.

لم يُلق القبض على أى شخص بتهمة قتل إيفريت، لكن قُدم أحد عشر عضواً من أعضاء اتحاد عمال العالم للمحاكمة بتهمة قتل أحد قادة العرض العسكرى الأمريكى خلال الاحتفالات بانتهاء الحرب، حيث قضى ستة منهم خمسة عشر عاما خلف القضبان.

ولكن ما أسباب رد الفعل هذا تجاه الإضراب العام وتنظيم أعضاء الاتحاد؟ يعتقد عمدة سياتل أن المؤسسة ربما قد شعرت بالخوف، ليس من الإضراب ولكن مما كان يرمز إليه. قال:

> **كان ما يسمى إضراب سياتل الذى تعاطف معه الناس محاولة للثورة. وعدم استخدام العنف لا ينفى هذه الحقيقة ... فقد كان الهدف المعلن والمخفى هو إسقاط النظام الصناعى هنا أولاً ثم فى كل مكان بعد ذلك. نعم لم تكن هناك قنابل أو عمليات قتل، ولكنى أؤكد أن الثورة لا تحتاج إلى العنف، والإضراب العام الذى حدث فى سياتل هو نفسه سلاح الثورة وما يجعله يشكل**

> **خطراً أكبر هو هدوءه، ومن أجل نجاحه كان لابد من إيقاف كل شئ ووقف سير الحياة مما يعنى إظهار الحكومة بمظهر العجز. لقد كانت جميع الأحداث تهدف إلى الثورة بغض النظر عن الطريقة التى تتم بها.**

بالإضافة إلى ذلك، حدث إضراب سياتل العام وسط موجة من حركات التمرد المعادية للحرب وقعت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى جميع أنحاء المعمورة. علق كاتب بمجلة "ذا نيشن" The Nation على ذلك قائلاً:

> **إن أغرب ظاهرة فى الزمن الحاضر هى الإضرابات غير المسبوقة للعامة والدهماء، ففى روسيا أسقطت القيصر، وفى كوريا والهند ومصر وأيرلندا استمرت حركات التمرد فى مقاومة القمع السياسى دون توقف ، وفى إنجلترا نظم عمال السكك الحديدية إضراباً ضد رؤسائهم ، وفى سان فرانسسيسكو نتج عن الإضراب رفض عمال شحن السفن تسليم الأسلحة والمعدات المجهزة لإسقاط الحكومة السوفيتية، وفى أحد أحياء إلينوى وضحت إرادة عمال المناجم عندما طالبوا زعماءهم بالإجماع أن "يذهبوا إلى الجحيم". وفى بتسبيرج، ووفقا لما قاله مستر جومبرز، فقد أضطر مسئولو الاتحاد الأمريكى إلى الاتصال بعمال الصلب المضربين خشية أن يسيطر عليهم "اتحاد عمال العالم" أو الحركات الراديكالية الأخرى. فى نيويورك أضرب الصيادون بالرغم من معارضة مسئولى الاتحاد وحدثت ثورة فى صناعة الطباعة لم يستطع المسئولون الدوليون السيطرة عليها بالرغم من مساعدة أصحاب العمل لهم.**
>
> **لقد فقد الرجل العادى ... إيمانه بالزعامة القديمة وشعر بإحساس جديد بالثقة فى النفس، أو على الأقل إحساس جديد**

من التـهور والاستـعداد لاقتناص الفرص لنفسه... فلن تفُرض السلطة بعد ذلك من أعلى ... لكن سوف تأتى من أسفل.

وفى مصانع الصلب غرب ولاية بنسلفينيا عام ١٩١٩، حيث كان العمال يعملون ١٢ ساعة يومياً ولستة أيام فى الأسبوع ويمارسون أعمالاً شاقة فى ظل درجة حرارة عالية، انضم ١٠٠،٠٠٠ عامل صلب إلى عشرين اتحاد مهنى مختلفين تابعين لاتحاد العمل الأمريكى.

وحاولت لجنة وطنية أن توحد العمال فى تنظيم واحد، وكان رأى اللجنة فى صيف عام ١٩١٩ أن العمال كانوا "يوحون إلينا بأننا إذا لم نفعل شيئا فإنهم سوف يتولون الأمر بأنفسهم."

وتلقى المجلس الوطنى برقيات مثل التى تلقاها من مجلس جونستون لعمال الصلب. جاء فى إحدى البرقيات: "إذا لم تسمح اللجنة الوطنية بالتصويت على إضراب وطنى هذا الأسبوع فسوف نضطر للقيام به بأنفسنا." استقبل وليام فوستر (المسئول المالى للجنة الوطنية والمسئول عن عملية التنظيم وأحد القادة الشيوعيين فيما بعد) برقية من المنظمين فى حى يانجستاون Youngstown يقولون فيها: "لا يمكن أن نجتمع بالعمال الثائرين الذين يعتبروننا خائنين إذا ما قمنا بتأجيل الإضراب."

كانت هناك ضغوط من الرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilson ورئيس اتحاد العمل الأمريكى صامويل جومبرز من أجل تأجيل الإضراب. لكن عمال الصلب كانوا مصرين. وفى سبتمبر عام ١٩١٩ لم يشارك فى الإضراب ١٠٠،٠٠٠ عامل فقط بل وصل العدد إلى ٢٥٠،٠٠٠ عامل. عين المسئولون عن أمن مقاطعة أليجنى ٥٠٠ شرطيًا من بين عمال الصلب الذين لم يشاركوا فى الإضراب وأُعلن حظر التجمهر والاجتماعات الخارجية، وقامت وزارة العدل بمهاجمة العمال الأجانب وقامت بترحيلهم، وأُرسلت القوات الفيدرالية إلى مدينة جارى بولاية إنديانا.

وكانت هناك بعض العوامل الأخرى التى أعاقت إضرابات العمال؛ فقد كان معظمهم من المهاجرين الجدد ومن جنسيات متعددة وكانوا يتحدثون لغات مختلفة.

استأجرت شركات الصلب شركة شيرمان سيرفيس للعمل على إنهاء الإضراب وقد حثت الشركة رجالها فى جنوب شيكاغو على إثارة مشاعر الكراهية بين الصرب والإيطاليين على قدر الإمكان وأن يذيعوا بين الصرب أن الإيطاليين سيعودون للعمل وأن على الصرب العودة للعمل حتى لا يأخذ الإيطاليون أماكنهم. انتشر أكثر من ثلاثين ألف عامل من السود لإثارة التوتر بين العمال المضربين، لأنهم لم يقبلوا فى النقابات التابعة لاتحاد العمل الأمريكى. لذلك لم يشعروا بالولاء للعمل الاتحادى. ومع طول فترة الإضراب، انتشرت روح الهزيمة بين العمال الذين بدأوا فى العودة إلى العمل بعد عشرة أسابيع. وانخفض عدد العمال المضربين حتى وصل إلى ١١٠,٠٠٠ ودعت اللجنة الوطنية إلى إنهاء الإضراب.

فى العام التالى للحرب، أضرب ١٢٠,٠٠٠ عامل نسيج فى نيو إنجلاند ونيو جيرسى، كما أضرب ٣,٠٠٠ عامل من عمال الحرير فى باترسون ونيو جيرسى، وفى بوسطن قام البوليس بإضراب وفى مدينة نيويورك قام صناع السجائر والتجار والخبازون وصناع القهوة والحلاقون بإضراب. نقلت الصحف أن الإضرابات فى شيكاغو قد جاءت أثناء "حرارة منتصف الصيف وهو ما لم يحدث من قبل". خرج إلى الشارع ٥,٠٠٠ عامل من شركة "انترناشيونال هارفستير" بالإضافة إلى خمسة آلاف من عمال المدينة.

ومع بداية العشرينيات بدا الموقف وكأنه تحت السيطرة، فقد تم القضاء على "اتحاد عمال العالم"، وتفكك الحزب الاشتراكى، وأُوقف المضربون بالقوة، وكان الاقتصاد يسير بخطى ثابتة بما يكفى فقط بحيث لا تقوم إضرابات. وضع الكونجرس نهاية لتدفق المهاجرين (١٤ مليون مهاجر خلال الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وهو ما كان يثير القلق ويشكل خطراً ، فقد مرر الكونجرس عدة قوانين تحدد أعداد المهاجرين. أتاحت هذه القوانين الفرصة للأنجلو ساكسون وأبعدت الملونين، كما حدت من المهاجرين السلاف واللاتين واليهود. لم تستطع أي دولة أفريقية أن ترسل أكثر من ١٠٠ شخص. كان الحد الأقصى للمهاجرين من الصين وبلغاريا وفلسطين ١٠٠ شخص، وهاجر ٣٤,٠٠٠ شخص من إنجلترا وأيرلندا الشمالية، فى حين هاجر

٣.٨٤٥ من إيطاليا، و٥١.٢٢٧ من ألمانيا، وهاجر ١٢٤ شخص فقط من ليتوانيا، و٢٨.٥٦٧ من دولة أيرلندا الحرة، و٢.٢٤٨ من روسيا.

وظهرت من جديد جماعة كو كلوكس كلان العنصرية فى العقد الثانى من القرن العشرين، وانتشرت فى الجزء الشمالى من البلاد. وفى عام ١٩٢٤ انضم إليها أربعة ملايين ونصف من الأعضاء ، وقف التجمع الوطنى لتحسين أحوال الملونين NAACP عاجزاً أمام العنف الشعبى والكراهية العنصرية التى انتشرت فى كل مكان. كانت التفرقة بين المواطن الأسود والمواطن الأبيض محل اهتمام الحركات الوطنية فى العشرينيات، والتى تزعمها ماركوس جارفى Marcus Garvy . تحدث جارفى عن كبرياء الزنوج والتفرقة العنصرية والعودة لأفريقيا التى كان يعتقد أنها السبيل الوحيد لنجاة الزنوج ووحدتهم. لكن لم تستطع حركة جارفى، التى ألهمت بعض الزنوج، أن تصمد أمام التيارات التى انتصرت لتفرد الرجل الأبيض فى ذلك الوقت.

اتسم وصف العشرينيات بفترة الرخاء والازدهار ببعض الصدق ، ففى هذا العصر، عصر موسيقى الجاز والعشرينيات المزدهرة، انخفضت البطالة من ٤.٢٧٠.٠٠٠ فى عام ١٩٢١ إلى نحو ٢ مليون فى عام ١٩٢٧ ارتفع المعدل العام لأجور العمال، وحصل العديد من المزارعين على الكثير من المال. استطاعت ٤٠٪ من العائلات، التى بلغ دخلها أكثر من ٢٠٠٠ دولار سنوياً أن تشترى العديد من الآلات الجديدة كالسيارات وأجهزة الراديو والثلاجات. تحسنت أحوال الملايين من الناس. طغت هذه الصورة على أحوال الآخرين كالمزارعين البيض والزنوج والمستأجرين وعائلات المهاجرين فى المدن الكبيرة سواء من كانوا يشغلون وظائف أو كانوا من العاطلين ولم يستطيعوا الحصول على احتياجاتهم الأساسية.

وبالرغم من ذلك، فقد انتعشت الطبقة العليا فقط ، ففى الوقت الذى ارتفعت الأجور الحقيقية للفرد فى مجال الصناعة إلى ١.٥٪ سنوياً، ارتفعت أرباح المساهمين إلى ١٦.٤٪ سنوياً. يقول تقرير معهد بروكينج إن دخل ٦ مليون عائلة (٤٢٪ من العدد

الكلى) بلغ ١٠٠٠ دولار سنوياً، وكان عُشر أعلى ١٪ من عائلات الطبقة العليا يحصل على دخل يوازى ٤٢٪ من عائلات الطبقة الدنيا. فى سنوات العشرينيات كان ٢٥,٠٠٠ عامل يلقون حتفهم سنوياً أثناء العمل، بالإضافة إلى إصابة ١٠٠,٠٠٠ بإصابات مستديمة.

وامتلأ الريف بالمدن الصناعية الصغرى مثل ميونسى وإنديانا، وهنا ظهر الفرق بين الطبقات ، ففى وقت الصباح، وفى ثلثى عائلات المدينة "كان الوالد يستيقظ فى الظلام فى الشتاء ويتناول الطعام فى عجالة فى المطبخ وهو يرتدى البدلة الرمادية ويذهب إلى العمل قبل ذهاب أطفاله إلى المدرسة بساعة أو ساعتين ونصف." من كان يستطيع أن يكشف الحقيقة وسط سيطرة الطبقة الغنية على وسائل نشر المعلومات؟ يشير المؤرخ ميرلى كيرتاى **Merle Curtie** إلى العشرينيات قائلاً:

> **فى الحقيقة نعمت الطبقة العليا فقط (١٠٪ من الشعب) بالزيادة الملحوظة فى الدخل. لكن الأصوات المعارضة والتى أثارتها هذه الأوضاع لم تستطع أن تظهر وأن تنتشر وتؤثر بالقدر الكافى ، وكان هذا أحد نتائج الاستراتيجية الكبرى للأحزاب السياسية الكبيرة. كما كان فى جزء منه نتيجة لسيطرة شركات النشر الكبرى على المصادر الرئيسية التى تؤثر على الرأى العام.**

حاول بعض الكتاب أن يصفوا ما يحدث مثل تيودور دريزر **Theodore Drieser** وسينكلير لويس **Sinclair Lewis** ولويس مامفورد **Lewis Mumford**. كتب سكوت فيتزجيرالد **F. Scott Fitzgerald** مقالا عنوانه "أصداء عصر موسيقى الجاز" حيث رأى دلائل تشاؤم وسط هذه الرفاهية الزائفة حيث السُكر والتعاسة والعنف. يقول:

> **انتحر شخص ما فى لونج آيلاند بعد أن قتل زوجته، وسقط آخر "مصادفة" من فوق ناطحة سحاب فى نيويورك، وقُتل آخر فى خمارة فى شيكاغو، وضُرب شخص آخر حتى**

الموت فى خمارة أخرى فى نيويورك وجُر إلى منزله ... حيث لقى حتفه ... .

فى روايته **بابيت** Babbitt حاول سينكلير لويس أن يبرز الروح الزائفة للرفاهية وأن يوضح إحساس الطبقة الوسطى السطحى بالآلات الجديدة. يقول:

كانت هذه الآلة من أفضل وأشهر المنبهات، بها جميع الإكسسوارات، وكان رنين الجرس يشبه رنين جرس الكاتدرائية، كما احتوت على خاصية الرنين المتقطع والأرقام الفسفورية. كان بابيت يشعر بالزهو لأنه يصحو على صوت هذه الآلة الثمينة ....

واستطاعت النساء بعد كثير من المعاناة أن يحصلن على حق التصويت فى عام ١٩٢٠ بعد تمرير التعديل التاسع للدستور ، ومع ذلك فقد ظل حق التصويت مقصوراً على الطبقتين الوسطى والعليا. تقول إليانور فلكسنير أثناء تحليلها لتاريخ الحركة النسائية: "أظهرت النساء الرغبة فى تكسير الحواجز التقليدية مثلما فعل الرجال".

تحدث عدد قليل من الساسة فى القرن العشرين عن معاناة الفقراء. كان من بينهم فيوريللو لا جوارديا Fiorello La Guardia، أحد أعضاء الكونجرس الذى كان يقطن فى أحد أحياء المهاجرين الفقراء فى شرق هارلم (لعب فى الانتخابات على الجانبين الاشتراكى والجمهورى وهو ما يعد شيء غريباً). فى منتصف العشرينيات علم لا جوارديا من أبناء حيه أن أسعار اللحوم ارتفعت ، وعندما طلب من وزير الزراعة عندئذ، وليام جاردن William Jarden بحث المسألة، أرسل إليه الوزير كُتيبا عن كيفية استخدام اللحوم بطريقة اقتصادية. فرد عليه لا جوارديا قائلاً:

لقد طلبت منك المساعدة فأرسلت إلى نشرة. إن سكان مدينة نيويورك لا يستطيعون أن يطعموا أبناءهم من نشرات الوزارة. نشراتك لا تمثل أدنى فائدة للسكان الفقراء فى هذه

المدينة الضخمة، لقد تدربت ربات البيوت فى مدينة نيويورك على استخدام اللحوم بطريقة اقتصادية لما واجهنه من خبرات صعبة. إن ما نطلبه من وزارتك هو مؤازرتنا فى مواجهة مستغلى اللحوم الذين يحرمون سكان المدينة، الذين يكدون فى أعمالهم، من الحصول على التغذية المناسبة.

وفى أثناء فترة رئاسة هاردنج وكوليدج، كان وزير الخزانة آندرو ميلون Andrew Mellon أحد أغنى أغنياء أمريكا. فى عام ١٩٢٣ قدم للكونجرس ما يسمى "خطة ميلون" التى بدت وكأنها تطالب بتخفيض عام فى ضريبة الدخل، لكنها كانت تعمل على تخفيض ضريبة الفئات ذات الدخل العالى من نسبة ٥٠٪ إلى ٢٠٪، فى حين يتم تخفيض ضريبة دخل الطبقات الدنيا من ٤٪ إلى ٣٪. عارض مشروع القانون عدد قليل من أعضاء الكونجرس الذين ينتمون للطبقة العاملة من بينهم وليام كونرى William P. Connery ممثل ولاية ماساشوسيتس الذى قال:

لن أدع سكان ولايتى ـ الذين يعملون فى مصانع لين Lynn، وفى مطاحن لورنس، وفى مصانع الجلد فى بيبودى Peabody ـ يعتقدون أننى أوافق على مواد هذا القانون فى ظل الرفاهية الجمهورية المزعومة، والتى يعملون فى ظلها ثلاثة أيام فقط فى الأسبوع. عندما أرى مادة فى قانون ميلون الضريبى توفر له ٨٠٠,٠٠٠ دولار من ضريبة دخله وتوفر ٦٠٠,٠٠٠ دولار من ضريبة دخل أخيه، فإننى لا أستطيع أن أساند هذا القانون بأى شكل من الأشكال.

ومرر الكونجرس "خطة ميلون" فى عام ١٩٢٨ قام لاجوارديا بجولة فى الأحياء الفقيرة بمدينة نيويورك وعلق بقوله: "أعترف أننى لم أكن مستعداً لما شاهدته، لقد كان من المستحيل أن أصدق وجود مثل هذه الحالات الفقيرة".

وكانت الأخبار العامة للرفاهية فى العشرينيات، التى كانت تنتشر من وقت لآخر، تطغى على قصص الكفاح المرير من أجل الحصول على عمل ، ففى عام ١٩٢٢ قام

عمال مناجم الفحم والسكك الحديدية بإضراب، وقام سيناتور ولاية مونتانا بيرتون ويلر بزيارة منطقة الإضراب وعلق قائلاً:

> **استمعت طوال اليوم لقصص تثير الحزن من نساء أخلتهم شركات الفحم من بيوتهن، وسمعت صرخات الأطفال وهم يطلبون الخبز، ووقفت مشدوهاً وأنا أستمع إلى قصص الرجال الذين تعرضوا للضرب الوحشى على أيدى رجال الأمن الخاص. لقد كانت تجربه وحشية ومثيرة للأعصاب.**

وفى عام ١٩٢٢ فشل إضراب عمال النسيج الذى قام به العمال الإيطاليون والبرتغاليون فى رود آيلاند ، مع ذلك فقد أثار المشاعر الطبقية، وقام بعض العمال بالانضمام للحركات الراديكالية. يتذكر لويجى نارديلا Luigi Nardella :

> **بدأ أخى الأكبر "جويدو" الإضراب؛ حيث أوقف مفاتيح المناول وأسرع من قسم إلى آخر وهو يصرخ "إضراب! إضراب!" عندما بدأ الإضراب لم يكن بيننا منظمون. جمعنا عددا من الفتيات وتنقلنا بين المصانع وفى الصباح كنا قد أخرجنا عمال خمس مصانع. كنا نتوجه نحو الفتيات فى المصانع ونحن نصيح "اخرجوا! اخرجوا!" ثم نتوجه إلى المصنع التالى وهكذا... .**

بعد الحرب ومع صحوة الحزب الاشتراكى، تم تنظيم الحزب الشيوعى وشارك الشيوعيون فى تأسيس اتحاد الرابطة التعليمية التى حاولت إيجاد روح عدائية داخل اتحاد العمل الأمريكى ، ومرة أخرى لعب الشيوعيون دوراً قيادياً فى الإضراب الضخم لعمال النسيج الذى انتشر فى ولايات كارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية وتينيسى فى ربيع عام ١٩٢٩ كان أصحاب مصانع النسيج قد اتجهوا نحو الجنوب للهروب من الاتحادات والحصول على عمال خانعين من بين الفقراء البيض. لكن هؤلاء العمال أعلنوا عصيانهم على ساعات العمل الطويلة والأجور المنخفضة، واعترضوا على ما كان يسمى "تكثيف العمل." على سبيل المثال، كان على العامل الذى ينجز ٢٤ نولاً فى

الأسبوع مقابل ١٩ ، ١٨ دولار أسبوعياً أن ينجز ١٠٠ نولاً فى الأسبوع مقابل الحصول على ٢٣ دولار أسبوعياً، مما اضطره إلى العمل بسرعة مرهقة.

وبدأت إضرابات عمال النسيج فى ولاية تينيسى حيث خرجت خمسمائة سيدة من مصنع واحد فى مسيرة للاعتراض على الأجور التى تراوحت بين ٩ دولار و١٠ دولار أسبوعياً. بعد ذلك اشترك العمال فى جاستونيا بولاية كارولاينا الشمالية فى اتحاد جديد يسمى الاتحاد الوطنى لعمال النسيج والذى سمح بعضوية العمال البيض والسود، وتزعمه الشيوعيون ، وعندما تم فصل بعض الأعضاء، أعلن نحو نصف عدد العمال، حوالى ١٠٠٠ عامل، الإضراب. وتزايد الجو المعادى للشيوعية والعنصرية وانتشر العنف ، وبدأت إضرابات عمال النسيج فى الانتشار فى أرجاء كارولاينا الجنوبية.

بدأت الإضرابات تهدأ واحداً تلو الأخر، أحياناً بعد تحقيق مكاسب. لكن هذا لم يحدث فى جاستونيا، حيث يعيش عمال النسيج فى خيام رافضين إقصاء الشيوعيين عن زعامتهم واستمر الإضراب. تسرب مفسدو الإضرابات إلى المصانع واستمرت المصانع فى العمل. تزايدت مشاعر الإحباط وحدثت مواجهات عنيفة مع الشرطة. فى ليلة مظلمة قتل رئيس الشرطة فى معركة وقع فيها تُبادل لإطلاق النار ، ووجهت تهمة القتل لستة عشر من المضربين والمتعاطفين معهم، من بينهم فريد بيل **Fred Beal** أحد منظمى الحزب الشيوعى. فى النهاية قدم سبعة للمحاكمة وحكم عليهم بالسجن لفترات تراوحت بين خمس وعشر سنوات، ثم أُفرج عنهم بكفالة وغادروا الولاية وهرب الشيوعيون إلى روسيا السوفيتية ، وبالرغم من الضرب والقتل الذى تعرض له عمال النسيج، فقد كانت هذه أول إرهاصات لاتحادات عمال النسيج فى الجنوب.

نتج انهيار البورصة فى عام ١٩٢٩، والذى كان بداية الأزمة الاقتصادية **Great Depression** فى الولايات المتحدة، عن المضار الضخمة التى أدت إلى انهيار الاقتصاد بأكمله. يقول جون جالبريث **John Galbraith** فى كتابه **الارتطام العظيم The Great**

Crash إن وراء هذه المضاربات الضخمة كانت تتوارى حقيقة "أن الاقتصاد لم يكن يملك أساساً سليماً، مشيراً إلى الهياكل البنكية والمؤسسية غير الصحيحة والتجارة الخارجية المتدهورة وعدم شفافية المعلومات الاقتصادية وسوء توزيع الدخل"(كانت نسبة ٥٪ من السكان تحصل على ثلث دخل البلاد).

قد يذهب أحد المراقبين الاشتراكيين إلى القول بأن النظام الرأسمالى نفسه لم يكن نظاماً سليماً، حيث يقوم هذا النظام على أرباح الشركات ؛ لذلك لم يكن مستقراً ولا يمكن التنبؤ بنتائجه. كما أنه لم يراع الظروف الإنسانية، ونتج عن ذلك الإحباط الدائم للعديد ممن يعتمدون عليه بالإضافة إلى الأزمات التى تعرضوا لها بين الحين والأخر ، وبالرغم من محاولات الرأسمالية إصلاح ذاتها ومحاولات تنظيمها، كانت لا تزال ضعيفة فى عام ١٩٢٩ ولا يمكن الاعتماد عليها.

وارتبك الاقتصاد الأمريكى كثيراً ولم يستطع الحركة بسهولة، حيث أُغلق أكثر من ٥.٠٠٠ بنك بالإضافة إلى العديد من الأعمال التجارية التى لم تجد التمويل. أما الأعمال التى بقيت فقد فصلت العديد من موظفيها، كما انخفضت أجور الموظفين الباقين مرة بعد أخرى. انخفض الإنتاج الصناعى بنسبة ٥٠٪، وبحلول عام ١٩٣٣ كان نحو ١٥ مليون عامل (لم يعرف أحد كم على وجه الدقة) بدون عمل. انخفض عدد العاملين بشركة فورد للسيارات إلى ٣٧.٠٠٠ فى أغسطس بعد أن كان ١٢٨.٠٠٠ فى عام ١٩٢٩, كذلك كانت الحال بالنسبة لعمال النسيج فى نيو إنجلاند حيث أصبح نصف عددهم (٢٨٠.٠٠٠) من العاطلين ، وعلق الرئيس كالفن كوليدج بحكمته المعهودة فى بداية ١٩٣١: "إن البلاد تمر بظروف صعبة."

كان من الواضح أن المسئولين عن إدارة اقتصاد البلاد لم يعرفوا ما حدث. لقد أربكهم ما حدث. غير أنهم رفضوا الاعتراف بفشل النظام الاقتصادى نفسه وراحوا يبحثون عن أسباب أخرى. قبل حدوث الأزمة بوقت قليل قال هربرت هوفر: "لقد أوشكنا على القضاء على الفقر أسرع من أى دولة فى أرجاء المعمورة." فى مارس عام ١٩٣١، قال هنرى فورد إن الأزمة قد حدثت لأن الشخص العادى فى أمريكا لن يقوم بعمله

إلا تحت الضغط. إن هناك وفرة فى فرص العمل إذا ما رغب الناس فى العمل." بعد ذلك بأسابيع قليلة فصل ٧٥,٠٠٠ عاملاً.

كان هناك ملايين الأطنان من الأغذية، لكنها لم تكن مربحة سواء بسبب تكلفة النقل أو بسبب عدم وجود القدرة الشرائية لدى المستهلك. كانت هناك العديد من المخازن المليئة بالملابس، لكن الناس لم تستطع شراءها. انتشرت المنازل الخالية بعد أن غادرها سكانها لعدم قدرتهم على دفع الإيجار أو لأنهم قد أُخلوا منها بالقوة، وذهبوا للعيش فى أماكن للإيواء أقاموها على عجل فى المناطق المخصصة لتجميع القمامة.

وكانت اللمحات القليلة التى تنشر فى الصحف تشير إلى ملايين الحالات. فى بداية عام ١٩٣٢ نشرت صحيفة نيويورك تايمز القصة التالية:

> **بعدما حاول بيتر كورنيل، مقاول مفلس، البقاء فى شقته فى ٤٨ شارع هاند كوك فى حى بروكلين حتى ١٥ يناير، سقط بين ذراعى زوجية ميتاً. رأى الطبيب أن سبب الوفاة هو مرض القلب، وأعلنت الشرطة أن أحد أسباب الوفاة الإحباط المرير الذى أصابه نتيجة فشله فى محاولة منع طرد عائلته إلى الشارع. كان كورنيل مديناً بخمسة دولارات متأخرين عن الدفع بالإضافة إلى ٣٩ دولار إيجار شهر يناير والذى طلبه المالك مقدماً. وبعدما حاول الحصول على مساعدة من مكان أخر، أخبره مكتب المساعدة أنه لا يمتلك موارد تتيح له المساعدة قبل ١٥ يناير.**

وفى أواخر عام ١٩٣٢ أرسل مراسل مجلة "ذا نيشن" من ويسكونسن يقول:

> **ازداد التوتر فى الغرب الأوسط بين المزارعين والسلطات نتيجة للضرائب والبيع فى المزادات، لقد تم منع العديد من حالات الإخلاء لما قام به المزارعين من أعمال تجمهر. لم يكن**

هناك حالات استخدام حقيقى للعنف قبل ما وقع فى مزرعة ماكس سيشون Max Cichon بالقرب من إلكورن Elkhorn فى ولاية ويسكنسن ، ففى ٦ ديسمبر حاصرت الشرطة المزرعة وهى مسلحة بالمدافع الرشاشة والبنادق الآلية بالإضافة إلى القنابل المسيلة للدموع. تم بيع المزرعة فى مزاد فى أغسطس الماضى، ولكن سيشون رفض السماح للمشترى أو السلطات بالاقتراب من منزله، وقابل الزوار غير المرغوب فيهم بمسدسه. طلب المأمور من سيشون أن يسلم المزرعة بطريقة سلمية ، وعندما رفض أن يفعل ذلك، أمر المأمور رجاله أن يطلقوا عليه النيران الكثيفة... سيشون الآن فى سجن إلكورن، وترقد زوجته وطفلاه اللذان كانا معه فى المنزل فى مستشفى المقاطعة لتلقى الرعاية. إن سيشون ليس من المشاغبين، كما إنه يحظى بثقة جيرانه الذين انتخبوه مؤخراً كقاضى صلح فى مدينة شوجار كريك Sugar Creek. إن معارضة رجل فى مكانة وهيبة سيشون للسلطات إلى هذا الحد ليست إلا إنذارا مبكرا يُنبئ بالمزيد من المشاكل فى الأراضى الزراعية إلا إذا قدمنا المساعدة لهؤلاء المزارعين.

كتب أحد السكان الفقراء القاطنين فى شارع ١١٢ فى حى شرق هارلم لعضو الكونجرس فيوريللو لا جوارديا قائلاً:

أنت تعلم أن حالتى سيئة، لقد اعتدت الحصول على معاش من الحكومة ولكنه توقف ، ولم أعمل منذ سبعة أشهر، وأملى أن تفعل شيئا لأجلى ... لدى أربعة أطفال يحتاجون للغذاء والكساء ... وابنتى البالغة من العمر ثمانى سنوات مريضة جداً ولا تتعافى، وعلى أن أدفع الإيجار بعد شهرين وأخشى أن أطرد إلى الشارع.

وفى أوكلاهوما وجد المزارعون مزارعهم تباع بالمزادات وتتحول إلى تراب على أيدى سائقى الجرارات. يصف الروائى جون ستاينبك **Steinbeck** حالة الإحباط هذه فى روايته **عناقيد الغضب The Grapes of Wrath** قائلاً:

> **اتجه المطرودون والمهاجرون نحو كاليفورنيا وكان عددهم يقدر بحوالى ٢٠٠.٣٥٠ شخص. كانت الجرارات الجديدة خلفهم تتجه نحو الأرض وكان المستأجرون يُدفعون خارج الأراضى. كانت هناك أمواج أخرى منهم على الطريق، أمواج أخرى من المطرودين والمشردين المتعبين ... .**
>
> **وهو يقود عربته وبجانبه زوجته وأولاده الذين بدت على أجسادهم النحافة فى المقعد الخلفى، نظر رجل من المشردين إلى الأراضى البور التى قد تنتج الطعام لكن دون أرباح ، وأدرك الرجل كيف أن الأرض المهجورة تمثل خطيئة وجريمة فى حق هؤلاء الأطفال النحاف... .**

فى الجنوب شاهد البرتقال الذهبى وهو يتدلى من الأشجار شديدة الاخضرار بينما الحراس يحملون البنادق ويحمون حدود المزارع حتى لا يستطيع أحد الرجال أن يقطف، من أجل أحد الأطفال النحاف، برتقالة قد تلقى فى القمامة إذا ما انخفض سعرها... .

كان هؤلاء الناس يشكلون "خطراً" كما وصفهم ستاينبك. كانت روح التمرد تتزايد. فى عام ١٩٣٣ نشر موريتز هولجرين **Mauritz Hallgren** **كتابا** عنوانه **بذور الثورة** **Seeds of Revolt** جمع فيه تقارير صحفية عن الأحداث التى وقعت فى البلاد:

إنجلاند، أركانساس ٣ يناير١٩٣١

> **هناك آثار خطيرة للجفاف الذى حدث فى أركانساس واستمر لفترة طويلة ودمر مئات من المزارع. فقد اتجه ٥٠٠ رجل**

اليوم، معظمهم من البيض وكثير منهم يحملون السلاح نحو الجزء التجارى للمدينة، يصرخون مطالبين بالغذاء لهم ولعائلاتهم ، وأعلنوا أنهم ينوون الحصول على الغذاء من هذه المتاجر إذا لم يكن هناك أى مصدر أخر.

ديترويت، يوليو ١٩٣١

خرج ٥٠٠ من العاطلين الليلة فى مظاهرة فى كاديلاك سكوير Cadillac Square بسبب طردهم من مساكن إيواء المدينة لعدم قدرتهم على دفع النفقات، لكن البوليس استطاع إيقاف المظاهرة فى مراحلها الأولى.

إنديانا هاربور، إنديانا ٥ أغسطس عام ١٩٣١

اقتحم ١٥ من العاطلين مصنع شركة "ذا فروت جرورز إكسبريس كمبانى" مطالبين بعودتهم لوظائفهم حتى لا يموتون جوعاً. تمثلت استجابة الشركة فى استدعاء الشرطة التى قامت بطرد المقتحمين تحت تهديد العصى.

بوسطن، ١٠ نوفمبر عام ١٩٣١

تم علاج ٢٠ شخصًا بعد تعرضهم للإصابة، وأصيب ثلاثة آخرون بإصابات بالغة قد تودى بحياتهم، كما يعالج العديدون من إصابات الزجاجات المتطايرة ومواسير الرصاص والأحجار بعد الصدامات التى وقعت بين الصيادين ومفسدى الإضرابات الزنوج فى شارلستون شرق بوسطن.

ديترويت، ٢٨ نوفمبر عام ١٩٣١

ضرب أحد رجال الحراسة على رأسه وأنزل من على جواده. كما ألقى القبض على أحد المتظاهرين خلال إضرابات وقعت فى

متنزه جراند سيركس بارك، عندما اجتمع هناك ألفا رجل وامرأة مخالفين بذلك تعليمات الشرطة.

شيكاغو، ١ أبريل عام ١٩٣٢

نظم خمسمائة من أطفال المدارس، شاحبي الوجوه مهلهلي الملابس، مسيرة انطلقت من وسط مدينة شيكاجو حتى مكاتب الإدارة التعليمية للمطالبة بأن توفر لهم المدرسة الغذاء.

بوسطن، ٣ يونيو عام ١٩٣٢

هاجم خمسة وعشرون طفلا غداءً تم تجهيزه لبعض المحاربين الذين شاركوا فى الحرب الإسبانية فى عرض أقيم لهم ببوسطن. تم استدعاء عربتين محملتين برجال الشرطة لإبعاد الأطفال.

نيويورك، ١ يناير عام ١٩٣٣

أحاط المئات من العاطلين بمطعم قريب من يونيون سكوير للمطالبة بإطعامهم.

سياتل، ١٦ فبراير عام ١٩٣٣

انتهى أمس حصار مبنى كوينتى سيتى بعد محاصرته بجيش من العاطلين يقدر عددهم بنحو خمسة آلاف واستطاع رجال الشرطة تفريق المتظاهرين بعد جهود استمرت ساعتين.

ويحكى يب هاربيرج **Yip Harburg**، كاتب الأغانى، لستدز تيركل **Studs Terkel** عن أيام عام ١٩٣٢ قائلاً:

كنت أستطيع مشاهدة طوابير الخبز الطويلة وأنا أسير فى الشارع ، وكان أضخم طابور فى مدينة نيويورك الذى كان يملكه وليام راندولف هيرست، وكان لديه عربة كبيرة يلتف حولها العديد

من الناس وغلاية كبيرة مليئة بالشربة الساخنة والخبز. كان على الأشخاص، الذين ارتدوا الخيش على أرجلهم، أن يقفوا حول كولومبس سيركل، وأن يذهبوا فى مجموعات إلى المتنزه وينتظرون.

اضطر هاربيرج أن يكتب أغنية لعرض "أمريكانا" عنوانها "أخى، هل يمكنك أن تعطينى عشر سنتات؟" وهى عن أحد محاربى الحرب العالمية الأولى يطلب المساعدة من الناس. لم تكن أغنية توحى باليأس. يحكى هاربيرج لتيركل:

إن الرجل يقول فى الأغنية: لقد قمت باستثمار فى هذه البلاد ، فأين هى الأرباح بالله عليك؟ إنها شىء أكثر من نظرات الشفقة. إنها لا تجعل منه متسولاً بل رجلاً ذا كرامة يغضب كما ينبغى لأى إنسان يشعر بالكرامة.

ونتيجة لغضب المحاربين القدماء، الذين لا يعملون وتعانى أسرهم من الجوع، فقد نظموا مسيرة إلى واشنطن فى ربيع وصيف عام ١٩٣٢ أمسك المحاربون بشهادات الحوافز الحكومية التى تسرى لمدة أعوام قادمة، وطالبوا الكونجرس بأن يدفع لهم قيمتها لأنهم فى حاجة ماسة للمال. اتجهوا نحو واشنطن من جميع أرجاء البلاد، وحدهم أو بصحبة أولادهم وزوجاتهم. ذهبوا فى أتوبيسات قديمة متهالكة، أو تسربوا إلى قطارات الشحن أو ركبوا السيارات العابرة. كان من بينهم عمال مناجم من ويست فيرجينيا وعمال معادن من كولومبس فى جورجيا ومحاربون قدامى بولنديون من شيكاغو. قضت إحدى العائلات، زوج وزوجة وطفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات، ثلاثة أشهر فى أحد قطارات الشحن القادمة من كاليفورنيا ، وظهر تشيف راننج وولف Chief Running Wolf (الذئب الجارى)، أحد هنود ميسكاليرو العاطلين من نيو مكسيكو، مرتدياً زى الهنود الحمر كاملا حاملاً قوسا وسهما.

أحاط بالبيت الأبيض أربعة فصائل من الفرسان، وأربعة سرايا من المشاة وسرية مدرعات وستة دبابات. تولى الجنرال دوجلاس ماك آرثر قيادة العملية وكان الجنرال

دوايت أيزنهاور أحد مساعديه. وكان جورج باتون واحداً من الضباط. قاد ماك آرثر قواته عبر بنسلفينيا أفينيو مستخدماً قنابل الدخان لتفريق المحاربين القدامى من المبانى القديمة ثم قامت القوات بإشعال الحريق فى المبانى ، ثم تحرَّك الجيش عبر الجسر نحو اناكوستيا ، حيث تفرق الآلاف من المحاربين القدامى وزوجاتهم وأطفالهم بسبب قنابل الدخان. أطلق الجنود النيران ، على بعض الأكواخ وسرعان ما تحول المعسكر إلى كتلة من النيران ، وعندما انتهى كل شىء، كانت الحصيلة وفاة اثنين من المحاربين القدامى بالإضافة إلى طفل يبلغ من العمر أحد عشر أسبوعاً، كما فقد طفل، يبلغ عمره ثمانية أعوام، بصره جزئياً، وأصيب اثنان من رجال الشرطة بكسر فى الجمجمة ، وأصيب ألف من المحاربين القدامى بسبب الغازات المسيلة للدموع.

كان لكل هذه الأحداث - الأوقات العصيبة وعدم قدرة الحكومة على المساعدة ودورها فى تفرقة المحاربين القدامى - تأثيرها على انتخابات نوفمبر عام ١٩٣٢ حيث أطاح مرشح الحزب الديمقراطى فرانكلين روزفلت بهربرت هوفر بأغلبية ساحقة ودخل البيت الأبيض فى ربيع عام ١٩٣٣ وبدأ برنامجا إصلاحياً عرف باسم "الصفقة الجديدة" **New Deal** وعندما خرجت مسيرة صغيرة للمحاربين القدامى فى واشنطن فى بداية فترته الرئاسية، قام بتحيتهم وقدم لهم القهوة، واجتمع بهم أحد مساعديه، ثم عادوا إلى منازلهم، وكانت هذه إحدى الإشارات على نهج روزفلت.

فاقت إصلاحات روزفلت التشريعات السابقة؛ فقد كان عليه مواجهة حاجتين أساسيتين؛ الأولى إعادة تعريف الرأسمالية حتى يمكنها التغلب على الأزمة والعمل على استقرار النظام ، والثانية إيقاف الإضرابات العشوائية التى وقعت فى بداية فترته، والتى تمثلت فى تنظيم صغار المزارعين والمستأجرين والعاطلين وحركات الاعتماد على النفس والإضرابات العامة فى العديد من المدن.

كان الهدف الأول - استقرار النظام وحمايته - واضحا جداً فى القانون الذى أصدره روزفلت فى أولى سنواته فى البيت الأبيض وهو قانون الانتعاش القومى **(NRA)** **National Recovery Act** ، وكان الهدف منه إحكام السيطرة على الاقتصاد عن طرق

إصدار بعض التشريعات التى تتفق عليها الإدارة والحكومة والعمال. وكانت التشريعات تعمل على تثبيت الأسعار والأجور كى تحد من المنافسة. وفى البداية سيطر على القانون رجال الأعمال الكبار؛ فقد كان يخدم مصالحهم. يقول بيرنارد بيلاش Bernard Bellush فى كتاب **فشل قانون الانتعاش القومى** The Failure of the NRA إن المادة الأولى من القانون "قد حولت الكثير من طاقة البلاد إلى التكتلات الصناعية والتجمعات التجارية جيدة التمويل والتنظيم. فى حين أن العامة غير المنظمين والمعروفين باسم المستهلكين لم يكن لديهم ما يقولونه عن التنظيم الأولى لإدارة الانتعاش القومى أو صياغة سياسته الأساسية."

قدم روزفلت بعض الامتيازات للذين يعملون فى التجارة القوية المنظمة، لكنه لم يكن مستعداً للاستجابة لضغوطهم لتنفيذ تشريعات قانون NRA ويؤكد هذا بارتون بيرنستين Barton Bernstein فى كتاب **نحو ماض جديد** Towards a New Past بقوله: "بالرغم من قلق بعض رجال الأعمال من الجزء السابع من ذلك القانون، فإنه قد أكد وعزز نفوذهم." ويلخص بيلاش وجهة نظره فى قانون NRA بقوله:

> **لقد سمح البيت الأبيض للاتحاد الوطنى للصناعة وغرفة التجارة والأعمال المتحدة والتكتلات التجارية بتوسيع سلطاتهم... . فى الواقع لقد أصبحت الإدارة الخاصة إدارة عامة، والحكومة الخاصة حكومة عامة، بما يضمن التزاوج بين الرأسمالية والمركزية الحكومية.**

عندما أعلنت المحكمة الدستورية العليا فى عام ١٩٣٥ عدم دستورية قانون NRA، ادعت أن القانون قد منح سلطات واسعة للرئيس، لكن وفقاً لما قاله بيلاش فقد منح القانون قدرا كبيراً من سلطة الحكومة لرجال الأعمال فى جميع أنحاء البلاد. كما تم تمرير قانون التنظيم الزراعى فى الأشهر الأولى للإدارة الجديدة. كان القانون الجديد يهدف إلى إصلاح عملية الزراعة وكان منحازا للمزارعين الكبار كما كان قانون NRA منحازا لرجال الأعمال الكبار. وكانت "هيئة تينيسى فالى" تعد تدخلاً غريباً من قبل

الحكومة فى الأعمال التجارية. كانت الهيئة تشرف على مجموعة من السدود والأجهزة الهيدروكهربية المملوكة للحكومة وتقوم بتنظيم الفيضانات وتوفير الكهرباء فى تينيسى فالى وقد وفرت الهيئة الوظائف للعديد من العاطلين وساعدت المستهلكين بتخفيض تكلفة الكهرباء، واستحقت فى بعض الأحيان الاتهام بأنها "اشتراكية التوجه". لكن الهدف الأول من برنامج الصفقة الجديدة كان تنظيم الاقتصاد واستقراره فى المقام الأول، ثم تقديم المساعدات للطبقات الدُنيا حتى تحول دون تطور تمردهم إلى ثورة حقيقية.

كان هذا التمرد حقيقياً عندما دخل روزفلت البيت الأبيض. لم ينتظر اليائسون مساعدة الحكومة، فقد كانوا يساعدون أنفسهم بطريقة مباشرة. تتذكر الخالة مولى جاكسون **Aunt Molly Jackson**، إحدى ناشطات الكفاح العمالى فى أبلاتشيا، أنها ذهبت ذات مرة إلى المجمع التجارى المحلى وطلبت حوالى ٢٤ رطلا من الدقيق وأعطتهم لابنها ليذهب بها إلى الخارج، ثم عبأت جوالا بالسكر وقالت للبائع: "أراك بعد تسعين يوماً فأنا يجب أن أُطعم الأطفال ... لا تقلق سوف أدفع لك ثمن ما أخذت." وعندما أظهر اعتراضه أخرجت مسدسها (وكان مسموحاً لها بحمله لأنها زوجة وحيدة وتسافر بين الجبال) وقالت: "إذا ما حاولت يا مارتن أن تأخذ هذا الطعام منى فالله يعلم أننى سوف أطلق النار عليك ست مرات فى الدقيقة حتى لو أعدمت على الكرسى الكهربائى غداً." ثم تتذكر أنها "عادت إلى المنزل وأن أولادها كانوا جوعى إلى حد أنهم اختطفوا الطعام من يديها ودفعوه إلى أفواههم دفعا."

انتظم الناس فى جميع أنحاء البلاد حتى يمنعوا عمليات الإخلاء. فى نيويورك وشيكاغو عندما كان يأتى خبر بأن شخصا ما سوف يتعرض للإخلاء، كان الناس يهرعون إلى هناك. وبعد أن تخرج الشرطة أثاث المنزل إلى الشارع، كان المتجمهرون يعيدونه للداخل مرة أخرى. نشط الحزب الشيوعى فى تنظيم مجموعات تحالف العمال فى المدن. تقول السيدة السوداء ويلى جيفرز لستادز تيركل **Studs Terkel** عن عمليات الإخلاء:

> **أخرج العديد من السكان من البيوت. كان المالك يتصل بالشرطة حتى تخلى السكان من المنزل. وبعد مغادرة الشرطة**

بوقت قصير، كنا نقوم بإعادة الأثاث إلى مكانه. كل ما كنا نفعله هو أن ننادى بعضنا بعضا بلقب "الأخ هيلتون" Brother Hilton وننشر بين الناس أن هناك عائلة مطرودة فى الشارع. كان كل منا يتصل بشخص واحد فقط، وعندما يحضر هذا الشخص كان يحضر معه خمسين آخرين ويبدأ فى إعادة كل شىء إلى مكانه ... كان الرجال يقومون بتوصيل الإضاءة وإصلاح الأعمال الكهربية وتوصيل مواسير الغاز، ويعيدون تشغيل المشعل مرة أخرى، ويعيدون الأثاث إلى مكانه كما لو أنه لم يتحرك من مكانه.

تشكلت مجالس للعاطلين فى جميع أنحاء البلاد. يصف تشارلز وواكر .فى مجلة "ذا فورام" هذه المجالس قائلاً:

ليس خافياً على أحد أن الشيوعيين كانوا ينظمون مجالس للعاطلين فى الكثير من المدن، وكانوا دائماً يتولون زعامة هذه المجالس، وقد كان تنظيم هذه المجالس ديموقراطيا وقائماً على الأغلبية. وقد قمت بزيارة أحدها فى لينكولن بارك بولاية ميتشيجان، كان عدد أعضائه ثلاثمائة من بينهم أحد عشر شيوعياً، كما كان المجلس يتكون من اليمين واليسار والوسط. كان رئيس المجلس هو القائد المحلى للفيلق الأمريكى. وكان فى شيكاغو ٤٥ مكتبا لهذا المجلس وكان به ٢٢,٠٠٠ من الأعضاء.

كان سلاح المجلس يكمن فى القوة الديمقراطية لعدد الأعضاء الذين كانت وظيفتهم منع إخلاء المعدمين من المنازل. وإذا حدث وتم إخلاؤهم، كان المجلس يضغط على لجنة الإغاثة حتى تجد لهم منزلاً جديداً. وإذا ما قطعت المياه والكهرباء عن أحد العاطلين لأنه لا يستطيع تحمل نفقاتهما، كان المجلس يتحدث مع السلطات المسئولة. كما كان المجلس يوفر الكساء للعاطلين ويمنع

التفرقة فى عمليات الإغاثة بين الزنوج والبيض أو الأجانب. كان المجلس ينظم المسيرات لمقر منظمات الإغاثة لطلب الغذاء والكساء ، وأخيراً كان المجلس يوفر الدفاع القانونى لجميع العاطلين المقبوض عليهم بسبب انضمامهم للعروض والمسيرات التى تطالب بالغذاء أو بسبب حضورهم اجتماعات الاتحاد.

وفى عامى ١٩٣١ و١٩٣٢ كان الناس يقومون بتنظيم أنفسهم بعد تخلى الحكومة ورجال الأعمال عنهم. كان اتحاد الصيادين، فى سياتل، يتبادل الأسماك مع بائعى الفاكهة والخضراوات والحطابين. كان هناك اثنان وعشرون مركزاً محلياً بهم مخزون للغذاء والأخشاب التى كان يتم استخدامها فى المقايضة ببضائع وخدمات أخرى. كان الحلاقون وصناع الملابس والأطباء يوفرون خدماتهم مقابل أشياء أخرى. مع نهاية عام ١٩٣٢ بلغ عدد منظمات الاعتماد على النفس ٣٣٠ منظمة فى ٣٧ ولاية، وبلغ عدد أعضائها ٣٠٠,٠٠٠ عضوا. ولكن مع حلول عام ١٩٣٣ بدأت هذه المنظمات فى الانهيار، فقد كانت تحاول القيام بمهمة كبيرة فى هيكل اقتصادى تزداد فوضاه يوماً بعد يوم.

ربما كان أبرز مثال على الاعتماد على النفس ما حدث فى حى الفحم فى بنسلفانيا، حيث كانت مجموعات من عمال الفحم تقوم بإخراج الفحم من مناجم صغيرة تابعة للشركة وبيعه فى المدن التى يعملون بها بسعر أرخص من السعر التجارى. ومع قدوم عام ١٩٣٤ بلغ حجم إنتاج الفحم "المهرب" خمسة ملايين طن قام باستخراجه عشرون ألف شخص باستخدام أربعة آلاف آلة ، وعندما حدثت المحاكمات لم يدن المحلفون أحدا ولم يسجن أحد.

كانت هذه أفعال بسيطة جاءت نتيجة الاحتياج الشديد. لكنها، مع ذلك، كانت تحمل فى طياتها احتمالات ثورية. علق الكاتب الماركسى بول ماتيك **Paul Mattick** على هذا قائلاً:

إن الشىء الضرورى الذى على العمال أن يقوموا به، من أجل التخلص من شقائهم، هو أن يقوموا بمثل هذه الأشياء

> **الصغيرة حتى يستطيعوا الحصول على متطلباتهم بغض النظر عن مبادئ الملكية أو الفلسفات الاجتماعية، وأن يبدأوا فى الإنتاج لأنفسهم. عندما تقع هذه الأحداث على نطاق اجتماعى واسع، فإنها ستؤدى إلى نتائج دائمة. أما إذا ما وقعت على نطاق محلى ومعزول، فإنها ... ستبوء حتما بالفشل ... لقد أثبت عمال الفحم المهرب، بطريقة رائعة ومؤثرة، أن الافتقار إلى أيديولوجية اشتراكية لا يمنعهم من التصرف على نحو معاد للرأسمالية وبما يتفق مع احتياجاتهم. إن تعدى العمال على الملكية الخاصة للحصول على احتياجاتهم الأساسية يعد إعلاناً عن الوعى الطبقى للعمال، والذى يعنى فى الأساس أن العمال هم الوحيدون القادرون على حل مشكلاتهم بأنفسهم.**

هل كان لدى دعاة الصفقة الجديدة، روزفلت ومستشاريه ورجال الأعمال الذين ساندوه، وعى طبقى؟ هل تفهموا ضرورة الإسراع باتخاذ إجراءات فى عامى ١٩٣٣ و١٩٣٤ لتوفير الوظائف والغذاء والإغاثة والقضاء على فكرة "أن العمال هم الوحيدون القادرون على حل مشكلاتهم"؟ ربما جاءت أفعالهم، كما حدث مع العمال، بدافع من الضرورة والاحتياج إلى الفعل أكثر منها بدافع من نظرية ما يؤمنون بها.

ربما كان مثل هذا الوعى هو ما أدى إلى قانون واجنر- كونيرى الذى قُدم للكونجرس فى بداية عام ١٩٣٤ للنظر فى نزاعات العمال. أتاح هذا القانون الانتخابات فى الاتحاد، كما نص على إنشاء مجلس لتسوية النزاعات والشكاوى. ألم يكن هذا هو التشريع الذى يقضى على فكرة أن "العمال قادرون على حل مشكلاتهم بأنفسهم"؟ اعتقد أصحاب الشركات الكبرى ورجال الأعمال أن مثل هذا التشريع يساعد العمال كثيراً ، ومن ثم فقد عارضوه. ولم يكن روزفلت متحمسا له كثيراً ، وفى عام ١٩٣٤ وقعت بعض الإضرابات العمالية التى أثارت الانتباه إلى الحاجة إلى تشريع قانونى، حيث أعلن مليون ونصف من العمال ممن ينتمون لمهن مختلفة إضراباً ، وفى صيف

وربيع هذا العام أعلن الصيادون فى الساحل الغربى الإضراب فى حركة مناهضة ضد زعماء الاتحاد وأصحاب السفن، وعقدوا اجتماعاً طالبوا فيه بإنهاء ما كان يعرف باسم the shape-up) أحد أنواع سوق العبيد يتم فيه اختيار مجموعات العمال فى الصباح الباكر للعمل طوال اليوم).

وتوقف العمل على ساحل المحيط الهادى بطول ألفى ميل. اتحد عمال النقل على رفض نقل البضائع إلى أرصفة السفن، وانضم عمال البحر للإضراب. حاولت الشرطة التدخل لفتح الأرصفة، لكن المضربين قاوموا بأعداد هائلة، ولقى اثنان منهم حتفهما بعد إطلاق الشرطة النار ، وحضر جنازة المضربين الكثير من العمال، الأمر الذى جذب عشرات الآلاف من المساندين. ثم خرج ١٢٠,٠٠٠ عامل فى إضراب عام فى سان فرانسيسكو ما أصاب المدينة بالشلل. وحضر ٥٠٠ شرطى من الوحدات الخاصة بالإضافة إلى ٤,٥٠٠ فرد من الحرس الوطنى مدعومين بوحدات من المشاة والدبابات والمدافع والمدرعات. علقت صحيفة "ذا لوس أنجيليس تايمز" على هذا قائلة:

> **إن وصف الموقف فى سان فرانسيسكو لا تكفيه عبارة "إضراب عام". ما حدث هو فى الواقع تمرد أوحت به وقادته الشيوعية ضد الحكومة المنظمة. ليس هناك من حل سوى إخماد التمرد باستخدام أى شكل من أشكال القوة.**

كانت هناك ضغوط قوية، فقد كانت هناك قوات وكان اتحاد العمل الأمريكى (AFL) يمارس ضغوطاً من أجل إنهاء الإضراب. قبل الصيادون التسوية لكنهم أظهروا القدرة على القيام بإضراب عام.

وفى صيف عام ١٩٣٤ أعلن سائقو عربات النقل الكبيرة فى مينيابوليس إضراباً، وساندهم عمال آخرون، وسرعان ما توقفت الحياة فى المدينة ما عدا عربات اللبن والثلج والفحم التى سمح بها المضربون. حمل الفلاحون منتجاتهم إلى المدينة وباعوها مباشرة إلى السكان ، وقامت الشرطة بالهجوم على المدينة ولقى اثنان من المضربين حتفهم. حضر الجنازة الضخمة خمسون ألف شخص ، وعقدت اجتماعات ضخمة لمعارضة

الوضع وقامت مسيرة باتجاه مجلس المدينة ، وبعد شهر، خضع أصحاب الأعمال لمطالب سائقى العربات.

وفى خريف العام نفسه، حدث أضخم إضراب وهو الذى قام به عمال النسيج فى الجنوب حيث بلغ عدد المشاركين فيه ٣٢٥,٠٠٠ شخص. لقد تركوا المصانع وجهزوا مجموعات متنقلة فى عربات نقل وسيارات للتحرك فى منطقة الإضراب. وأقاموا الحواجز لمنع زملائهم من العمل، واشتبكوا مع الحراس ودخلوا المصانع وأوقفوا الآلات. وكما حدث فى الإضرابات الأخرى، كان السبب هو التضاد بين رغبات العمال العاديين من جانب ورغبات زعماء الاتحاد من جانب آخر. علقت صحيفة نيويورك تايمز: "إن مكمن خطورة الموقف هو أنه سيخرج من تحت سيطرة زعماء الاتحاد تماماً."

ومرة أخرى تحركت آلات النظام، حيث أطلقت الشرطة ومفسدو الإضرابات المسلحون فى كارولاينا الجنوبية النار على الحواجز، ما أدى إلى مقتل سبعة أشخاص وإصابة عشرين آخرين ، غير أن الإضراب امتد إلى نيو إنجلاند، ففى لويل بولاية ماساتشوستس تظاهر ٢,٥٠٠ عامل نسيج، وفى سايليسفيل برود آيلاند تحدى خمسة آلاف شخص القوات الحكومية المسلحة بالمدافع وأغلقوا مصنع النسيج ، وفى وونسوكيت برود آيلاند قتل الحرس الوطنى أحد العمال، مما أثار مشاعر الناس فتظاهروا فى المدينة وأغلقوا المصنع.

وفى سبتمبر أضرب أكثر من ثمانية عشر مليون عامل نسيج فى جميع أنحاء البلاد ، وحدثت عمليات اعتقال واسعة، وتعرض المنظمون للضرب، وسقط ثلاثة عشر قتيلاً. فى هذه اللحظة تدخل روزفلت وأقام مجلس وساطة ودعا الاتحاد لإنهاء الإضراب.

وفى الجنوب الريفى أيضاً كان هناك تنظيم للإضرابات، التى حثَ عليها الشيوعيون، ودعمتها المشكلات التى قابلها الفقراء السود والبيض الذين عملوا فى المزارع أو استأجروا أراض زراعية ، فدائما ما كانت تواجههم المشكلات الاقتصادية

التى ازدادت بعد الأزمة الاقتصادية. بدأ الاتحاد الجنوبى للمزارعين المستأجرين فى ولاية أركانساس بمشاركة صغار المستأجرين السود والبيض، ثم امتد إلى المناطق الأخرى.

كان المزارعون السود الأسوأ حظاً حيث انجذب بعضهم إلى الغرباء الذين بدأوا فى الظهور بعد حدوث الأزمة الاقتصادية داعين إلى التنظيم. يتذكر نيت شو Nate Shaw فى المقابلة الرائعة التى أجراها معه تيودور روزنجارتين تحت عنوان All God's Dangers قائلاً:

> **خلال سنوات الضغط، بدأ اتحاد أطلق عليه اسم "اتحاد صغار المستأجرين" فى العمل فى هذه المناطق. كنت أعتقد أن هذا اسم لطيف... لقد كان شيئا غير عادى. سمعت أنها منظمة تهتم بالطبقة الفقيرة وكان هذا ما أحتاج أليه. كنت أود أن أعرف أسرارها حتى أستطيع أن أعرف ما يدور فيها.**
>
> **قال لى ماك سولين Mac Solane وهو من البيض: "يجب أن تنأى بنفسك عن هذا. إن هؤلاء السود يخططون لعقد اجتماع، عليك أن تبقى بعيداً." قلت لنفسى: "تكون أحمق إذا اعتقدت أنك يمكن أن تمنعنى من الانضمام." وذهبت إلى هناك على الفور وانضممت إليهم فى الاجتماع التالى. كأنه أعطانى الأمر بالانضمام عندما حاول منعى.**
>
> **وانتشر دعاة هذه المنظمة فى البلاد، وكانوا يعملون فى الخفاء. كان أحدهم من الزنوج لا أتذكر اسمه، ولكنه قضى وقتا طويلا فى عقد الاجتماعات معنا، فقد كان هذا جزءاً من عمله ، وسواء عقدنا الاجتماعات فى منازلنا أو فى الخارج كنا نحرص على أن لا يشاهدنا أحد. فى بعض الأحيان كانت الاجتماعات صغيرة**

وفى بعض الأحيان تكون كبيرة. لكن الحقيقة التى لا جدال فيها أن الزنوج كانوا خائفين جداً ، هذه هى الحقيقة.

ويتذكر نيت شو ما حدث مع أحد الزنوج الذى لم يدفع ديونه وكان مهدداً بالطرد من منزله:

قال الشرطى: "سوف أنزع جميع ممتلكات فيرجيل جونز هذا الصباح." وتوسلت إلى الشرطى أن لا يفعل ذلك. قلت له: " إنك سوف تمنعه من أن يكون قادرا على إطعام عائلته."

ثم أخبر نيت شو الشرطى أنه لن يدع هذا يحدث. عاد الشرطى ومعه الكثير من الرجال، وأطلق أحدهم النار على نيت شو الذى أحضر مسدسه ورد على إطلاق النار، فتم اعتقاله فى أواخر عام ١٩٣٢ وقضى اثنى عشر عاما فى سجن ألاباما. إن قصة نيت شو جزء ضئيل من الدراما غير المسجلة التى حدثت فى الجنوب أثناء سنوات اتحاد صغار المستأجرين ، وبعد سنوات من إطلاق سراحه تحدث نيت شو عن رأيه فى قضيتى الطبقة والعنصر قائلاً:

الأمر واضح جداً، فالرجل الأبيض والرجل الأسود فى سلة واحدة، وليس ثمة شىء حقيقى يفرق بينهما. إن القوة المسيطرة الآن فى أيدى الطبقة الغنية. هذه الطبقة تقف متحدة، فى حين يقف الرجل الأبيض بعيدا عن طبقة الملونين. لقد أدركت هذا جيدا، حيث شهدت من الوقائع ما هو أبلغ من أى كلمات... .

وفى عام ١٩٣١ أثارت قضية "أولاد سكوتسبورو" Scottsboro Boys) إدانة هيئة محلفين من البيض عن طريق أدلة ملفقة لتسعة شبان سود بتهمة اغتصاب فتاتين من البيض) هوسيا هدسون Hosea Hudson أحد السود فى الجزء الريفى من ولاية جورجيا. كان عامل محراث منذ بلوغه العاشرة ثم أصبح حداداً فى بيرمنجهام ، وفى

هذا العام انضم هدسون للحزب الشيوعى، حيث قام في عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣ بتنظيم العمال السود فى بيرمنجهام. يتذكر ذلك قائلاً:

فى عز شتاء عام ١٩٣٢ نظمنا، نحن أعضاء الحزب، اجتماعا شعبيا للعاطلين عقدناه أمام مبنى محكمة قديم فى ثيرد أفينيو فى شمال بيرمنجهام... حضر الاجتماع زهاء ٧,٠٠٠ شخص أو أكثر... من الزنوج والبيض. فى عامى ١٩٣٢ و١٩٣٣ بدأنا فى تنظيم هذه اللجان من العاطلين فى مختلف أنحاء بيرمنجهام... إذا ما احتاج شخص ما إلى الطعام لم نكن نقف لنتأسف على حاله ونقول: "إن هذا سيئ جداً" بل كنا نذهب إليه ونقدم له المساعدة إذا ما رغب فى هذا، وواظبت اللجان على الاجتماعات المنتظمة. كنا نناقش موضوعات الرعاية الاجتماعية والأحداث الجارية، كما كنا نقرأ صحف "ديلى ويركر" Daily Worker و"سازيرن ويركر" Southern Worker لكى نعرف ما كان يحدث بشأن مساعدة العاطلين وما كان يحث فى كليفلاند ... وأخبار الكفاح فى شيكاغو أو نتحدث عن آخر تطورت قضية "أولاد سكوتسبورو". ازدادت أعدادنا وبقينا فى المقدمة، فقد كان الناس يأتون إلينا لأننا كنا نقدم شيئاً مختلفاً فى كل مرة.

وفى عامى ١٩٣٤ و١٩٣٥، ترك مئات الآلاف من العمال الاتحادات الضيقة والمحدودة التى نظمها اتحاد العمل الأمريكى، وبدءوا فى التجمع فى المصانع التى تنتج بالجملة مثل مصانع السيارات والمطاط والتغليف. لم يستطع اتحاد العمل الأمريكى تجاهلهم، فأنشأ لجنة التنظيم الاقتصادى، ونظم العمال وفقاً لمكان العمل وليس المهنة، فكان كل العمال بمصنع ما ينضمون إلى اتحاد واحد. أصبحت هذه اللجنة، التى رأسها جون لويس ، نواة لمجلس المنظمات الصناعية (CIO) .أضطر اتحاد العمل الأمريكى ومجلس المنظمات الصناعية للعمل تحت ضغط إضرابات العمال

وحركات تمردهم. يحكى جيريمى بريشير Jeremy Brecher قصة هذا التحول فى كتاب **اضربوا عن العمل!** .Strike! فى بداية الثلاثينيات بدأ عمال المطاط فى مدينة أكرون Ak-ron بولاية أوهايو فى استخدام أسلوب جديد فى الإضرابات، وهو أسلوب الاعتصام، حيث بقى العمال فى المصانع بدلا من الخروج فى مسيرات، وكان لهذا مزايا كثيرة؛ فقد منعوا بهذه الطريقة استخدام مفسدى الإضرابات، كما لم يضطروا إلى العمل من خلال مسئولى الاتحاد. كان الموقف تحت سيطرتهم، ولم يضطروا للسير وسط الأمطار والبرد. بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا معزولين بل كانوا فى وسط أعمالهم أو وراء الحواجز، لقد كانوا آلافا تحت سقف واحد يتمتعون بحرية التحدث إلى بعضهم البعض وشكلوا مجتمعا مناضلا واحدا. يصف الكاتب العمالى لويس أداميك Louis Adamic أحد الاعتصامات الأولى قائلاً:

> **تحدث العمال وهم جالسون بجانب الآلات والمراجل والغلايات وسيور الماكينات ، وأدرك بعضهم لأول مرة أهميتهم فى عملية صناعة المطاط ، فقد كان فى مقدرة اثنى عشر رجلا فقط وقف العمل! سرعان ما تحطمت آمال الملاحظين والمشرفين ورؤساء العمل... وفى أقل من ساعة تم تسوية القضية وحصل العمال على انتصار كامل.**

وفى بداية عام ١٩٣٦، فوجئ عمال مصنع فايرستون للمطاط فى أكرون بانخفاض فى أجورهم التى كانت بالكاد تكفى الغذاء والإيجار ، وعندما بدأ فصل العديد من العمال الاتحاديين، توقف العمال الآخرون عن العمل وبدءوا فى الاعتصام فى مصانعهم. فى يوم واحد اعتصم عمال مصنع رقم (١). وبعد يومين اعتصم عمال مصنع رقم (٢) واستسلمت الإدارة. فى العشرة أيام التالية وقع اعتصام فى مصنع جوديير. أصدرت محكمة حكماً يمنع الاعتصام الجماعى. وعندما تجاهل العمال هذا، أرسل ١٥٠ رجل شرطة لكن سرعان ما واجههم عشرة آلاف عامل من جميع أنحاء أكرون. وفى خلال شهر انتهى الإضراب بانتصار العمال.

وانتشرت الفكرة فى عام ١٩٣٦, وفى ديسمبر من هذا العام بدأ أضخم إضراب من هذا النوع فى مصنع فيشر بودى بمدينة فلينت Flint بولاية ميتشيجان. بدأ الإضراب عندما فُصل شقيقان من العمل، واستمر حتى فبراير عام ١٩٣٧, كون ألفا عامل مُضرب مجتمعا فريدا لمدة أربعين يوماً. وصف أحدهم ما حدث بأنه كان أشبه بالحرب ، وقال آخر: "لقد أصبح من معى أصدقاء لى." ويصف سيدنى فاين Sidney Fine ما حدث فى كتابه **الاعتصام** Sit-Down .نُظمت لجان للترفيه والمعلومات والدروس والخدمات البريدية والرعاية الصحية ، وأُقيمت المحاكم لمعاقبة المتخلفين عن دورهم فى غسيل الصحون أو الذين يلقون القمامة فى غير أماكنها أو يدخنون فى غير أماكن التدخين أو الذين يحضرون مشروبات كحولية. تمثلت العقوبات فى واجبات إضافية، وكان أقصى عقاب هو الطرد من المصنع. جهز صاحب أحد المطاعم الموجودة بالشارع ثلاث وجبات يومياً لألفى مضرب. كانت تلقى دروس تعليمية فى الإجراءات البرلمانية والخطابة وتاريخ الحركة العمالية، وألقى الطلاب المتخرجون من جامعة ميتشيجان دروساً فى الصحافة والكتابة الإبداعية.

وصدرت أوامر قضائية تمنع الاعتصام، لكن خمسة آلاف عامل مسلح أحاطوا بالمصنع ولم تكن هناك أى محاولة لتنفيذ الأمر. هاجمت الشرطة باستخدام قنابل الدخان، ولكن العمال ردوا بخراطيم إطفاء الحريق. أصابت رصاصات الشرطة ثلاث عشرة من المضربين ثم تراجعت. استدعى الحاكم قوات الحرس الوطنى. فى هذا الوقت كان الإضراب قد انتشر فى مصانع أخرى لجنرال موتورز. وفى النهاية تم التوصل إلى تسوية حيث تم توقيع عقد مدته ستة أشهر. لكن الاتفاق ترك العديد من المسائل دون إجابة، لكنه نص على أنه من تلك اللحظة لن تتعامل الشركة مع أفراد بل مع الاتحاد.

وفى عام ١٩٣٦ تم تنظيم ٤٨ **اعتصامًا**. وفى عام ١٩٣٧ نُظم ٤٧٧ اعتصاماً، اشترك فيها عمال الكهرباء فى سانت لويس، وعمال صناعة القمصان فى بولاسكى بولاية تينيسى، وعمال المكانس فى بويبلو بولاية كولورادو، وعمال جمع القمامة فى

بريدجبورت بولاية كنيكتيكت، وحافرى القبور فى نيو جيرسى، وسبع عشرة عامل كفيف فى نقابة نيويورك لليهود المكفوفين والسجناء فى سجن إلينوى ، ومن السخرية أن يعتصم ثلاثون عضوا من سرية الحرس الوطنى التى خدمت فى اعتصام عمال مصنع فيشر بودى، حيث اعتصموا لعدم دفع رواتبهم.

كانت الاعتصامات تمثل خطورة خاصة للنظام لأنها لم تكن تحت سيطرة قادة الاتحاد المعروفين ، ويتذكر أحد العملاء التجاريين لاتحاد العمل الأمريكى:

> **قد تكون جالساً فى المكتب فى أحد أيام مارس عام ١٩٣٧ وتسمع رنين جرس التليفون والصوت الآخر يقول لك "أنا مارى جونز، عاملة الصودا فى مصنع ليجيت، لقد ألقينا المدير فى الشارع ومعنا المفاتيح، ماذا نفعل الآن؟" سوف تسرع إلى المصنع للتفاوض معهم، وهناك ستجدهم يقولون لك: "نعتقد أنه من غير الطبيعى أن تدعو لإضراب قبل الحصول على تسوية" وسوف تجيب: "نعم أعتقد أنكم على حق."**

ومن أجل العمل على استقرار النظام فى مواجهة الإضرابات العمالية، تم تمرير قانون واجنر فى عام ١٩٣٥ والذى أُقيم بمقتضاه المجلس الوطنى للعلاقات العمالية. وقد ازدادت الحاجة إليه خاصة بعد موجات الإضرابات التى حدثت فى أعوام ١٩٣٦ و١٩٣٧ و,١٩٣٨ فى شيكاغو، وفى يوم الاحتفال بيوم المحاربين القدامى فى ١٩٣٧ وقع إضراب فى مصنع ريبابليك ستيل واستُدعيت الشرطة التى أطلقت النار على حواجز العمال مما أدى إلى مقتل عشرة منهم ، وأظهر تشريح الجثث أن الرصاص قد أُطلق على ظهور العمال أثناء فرارهم. أُطلق على هذا اليوم اسم مذبحة يوم المحاربين القدامى. أقامت إحدى شركات الصلب دعوى ضد قانون واجنر فى إحدى المحاكم، لكن المحكمة الدستورية العليا وجدته لا يتنافى مع الدستور، لأن الحكومة يحق لها تنظيم التجارة الداخلية بين الولايات والإضرابات تسبب أضرارا بالتجارة الداخلية.

كانت الاتحادات التجارية ترى أن القانون يدعم تنظيم الاتحادات العمالية، لكن الحكومة كانت ترى فيه استقرارا للتجارة.

ورغم أن أصحاب العمل كانوا لا يرغبون فى الاتحادات، فإنهم رأوا أنه يمكن السيطرة عليها وأنها تعمل على استقرار النظام أكثر من اعتصام العمال ، وفى ربيع ١٩٣٧ نشرت نيويورك تايمز مقالاً بعنوان "مجلس المنظمات الصناعية يعارض الاعتصامات غير القانونية" جاء فيه: "إن هناك تعليمات صارمة صدرت للمنظمين والممثلين بأنهم سيفصلون إذا ما تسببوا فى أى تعطيل للعمل بدون الحصول على تصريح من المسئولين...". ونقلت مجلة تايمز عن جون لويس أحد القادة النشطين بمجلس المنظمات الصناعية قوله: "إن اتفاقية مجلس المنظمات الصناعية كافية للحد من الاعتصامات أو أى نوع من الإضرابات".

وبالرغم من أن الحزب الشيوعى قد ساعد فى تنظيم اتحادات مجلس المنظمات الصناعية، فإنه قد بدا وكأنه يتبنى نفس الرؤية. نُقل عن أحد زعمائه فى أكرون قوله خلال أحد اجتماعات الحزب بعد الاعتصامات: "علينا الآن أن نعمل على إقامة علاقات منظمة بين الاتحاد وأصحاب العمل، وأن نراقب وبشدة مَدى تنفيذ العمال لتعليمات الاتحاد."

بذلك ظهرت طريقتان جديدتان لإحكام السيطرة على تحرك العمال فى منتصف الثلاثينيات ، فقد أعطى المجلس الوطنى للعلاقات العمالية NLR الصبغة القانونية للاتحادات واستمع إليها وعمل على حل مشكلاتها ، وبذلك حد من توتر الحركات العمالية وحولها إلى انتخابات كما حول النظام الدستورى طاقة المشاغبة إلى تصويت انتخابى. فقد كان المجلس الوطنى للعلاقات العمالية يضع حدوداً للمنافسات الاقتصادية. ثانياً كانت منظمة العمال ـ الاتحاد ـ بالرغم من جرأتها، تحول الطاقة الغاضبة للعمال إلى اتفاقيات، ومفاوضات، واجتماعات اتحادية، وتحاول التقليل من الإضرابات، من أجل بناء منظمات أخرى ضخمة، وقوية، وكبيرة، وتحظى بالاحترام.

ويبدو أن تاريخ هذه السنوات يدعم وجهة نظر ريتشارد كلوارد وفرانسيس بيفن فى كتابهما **حركات الشعوب الفقيرة** Poor Peoples Movements فقد اعتقدا أن العمال قد كسبوا أكثر ما جنوه أثناء الإضرابات العشوائية قبل تكوين الاتحادات أو تنظيمها: "لقد كان لعمال المصانع أكبر تأثير واستطاعوا الحصول على امتيازات حقيقية من الحكومة أثناء الأزمة الاقتصادية وقبل تنظيم الاتحادات. إن قوتهم أثناء الأزمة الاقتصادية لم تكن نابعة من التنظيم ولكن من العشوائية."

ويشير بيفن وكلوارد إلى أن عضوية الاتحاد قد ارتفعت بشدة خلال الأربعينيات، خلال الحرب العالمية الثانية (بحلول عام ١٩٤٥ بلغ عدد أعضاء اتحاد العمل الأمريكى AFL ومجلس المنظمات الصناعية ستة ملايين لكل منهما) لكن قوته انخفضت عن ذى قبل، وانخفضت مكاسبه التى حققها من وراء الإضرابات. كان أعضاء المجلس الوطنى للعلاقات العمالية أقل تعاطفاً مع العمال، وأصدرت المحكمة الدستورية العليا حكماً بعدم دستورية الاعتصام، وأصدرت الحكومات القومية قوانين تعوق الإضرابات وإقامة الحواجز والمقاطعة.

ومع وقوع الحرب العالمية الثانية، ضعفت الروح العنيفة التى سادت الثلاثينيات، لأن اقتصاد الحرب خلق الملايين من فرص العمل الجديدة بأجور عالية. نجح برنامج الصفقة الجديدة فى تخفيض حجم البطالة من ١٣ مليون إلى ٩ ملايين. لقد خلقت الحرب فرص عمل للجميع، كما أنها خلقت شيئا آخر هو الروح الوطنية، فقد كانت الدعوة لتوحيد جميع الطبقات فى وجه الأعداء فيما وراء البحار تجعل من الصعب إظهار الغضب تجاه الشركات الكبرى وأصحاب العمل. وفى أثناء الحرب تعهد كل من اتحاد العمل الأمريكى AFL ومجلس المنظمات الصناعية CIO بعدم الدعوة للإضرابات.

ومع ذلك فقد ظل العمال يشكون خلال الحرب من أن أجورهم كانت ثابتة فى حين أن الأسعار متغيرة، مما دفعهم للقيام بإضرابات عنيفة ، وعلى حد قول جيرمى بريتشر فقد وقعت إضرابات فى عام ١٩٤٤ أكثر من أى وقت آخر فى التاريخ الأمريكى.

أظهرت سنوات الثلاثينيات والأربعينيات مدى أزمة العمال فى الولايات المتحدة أكثر من ذى قبل. لقد رد النظام على حركات التمرد العمالية عن طريق إيجاد وسائل جديدة للسيطرة، على سبيل المثال السيطرة الداخلية عن طريق المنظمات العمالية ذاتها، أو عن طريق السيطرة الخارجية عن طريق استخدام القوة أو القانون. لكن مع مجيء وسائل السيطرة الجديدة كانت هناك أيضاً بعض الامتيازات الجديدة التى لم تستطع إيجاد حلول للمشكلات الرئيسية، فهى لم تساعد العديد من الناس، لكنها ساعدت عددا كافيا من الناس بحيث تخلق جوا من التقدم والتحسن واستعادة الثقة فى النظام.

وفى عام ١٩٣٨ كان عدد ساعات العمل ٤٠ ساعة أسبوعياً وتم تحريم تشغيل الأطفال، لكن الأجور المنخفضة (كان الأجر فى العام الأول للعمل ٢٥ سنتا فى الساعة) لم تكف العديد من الناس، لكنها كانت كافية لتثير سخط الكثيرين. كانت المساكن المتاحة لا تكفى حاجة السكان.

وفَّر قانون الضمان الاجتماعى Social Security Act عدة مزايا للمتقاعدين وبعض الضمان للعاطلين، كما وفر صناديق حكومية لربات البيوت والأطفال، لكنه استبعد المزارعين وعمال البيوت وكبار السن ولم يوفر رعاية صحية ، ووفر برنامج الصفقة الجديدة الأموال الحكومية لإتاحة فرص عمل للآلاف من الكتاب والفنانين والممثلين والموسيقيين من خلال مشروع المسرح الفيدرالى والمشروع الفيدرالى للكتاب والمشروع الفيدرالى للفنون. رُسمت الصور على المبانى العامة، واستطاعت الطبقات العاملة أن ترتاد المسارح بعد حرمانها منها، ونُشرت المئات من الكتب والكتيبات، واستطاع الناس الاستماع إلى سمفونية للمرة الأولى ، لقد كانت فترة ازدهار فنى للشعب لم يشهدها التاريخ الأمريكى من قبل أو من بعد. لكن فى عام ١٩٣٩، وبعد استقرار الدولة وتراجع الدافع وراء برنامج الصفقة الجديدة، توقفت برامج دعم الفنون.

وعندما انتهى برنامج الصفقة الجديدة، لم تتأثر الرأسمالية. فقد ظل الأغنياء يسيطرون على ثروات الدولة بالإضافة إلى قوانينها ومحاكمها وشرطتها وصحفها

وكنائسها وجامعاتها. حصل عدد كاف من الناس على المساعدة لكى يجعلوا من روزفلت بطلاً، لكن بقى النظام نفسه الذى تسبب فى الأزمة الاقتصادية.

وشجع برنامج الصفقة الجديدة السود من الناحية النفسية (لقد تعاطفت قرينة الرئيس روزفلت مع الزنوج، كما حصل بعضهم على وظائف فى الإدارة الأمريكية). ومع ذلك فقد تجاهلت برامج الصفقة الجديدة معظم السود. لم يتأهل مستأجرو المزارع وعمالها والمهاجرون وعمال المنازل للحصول على تأمين البطالة والحد الأدنى للأجور والضمان الاجتماعى ودعم المزارع ، ونتيجة لخشيته من المساس بالسياسيين الجنوبيين البيض الذين يحتاج إلى دعمهم، لم يوافق روزفلت على قانون يمنع عمليات حرق السود. كانت هناك تفرقة بين البيض والسود فى الجيش، كما هو الحال فى فرص العمل، فقد كان السود آخر المعينين وأول المفصولين. عندما هدد فيليب راندولف رئيس اتحاد شيالى عربات النوم بمسيرة شعبية فى واشنطن عام ١٩٤١، اضطر روزفلت إلى إصدار قانون تنفيذى بتأسيس لجنة التوظيف العادل. غير أن هذه اللجنة لم يكن لها أى سلطات تنفيذية.

وظلت هارلم السوداء كما هى بالرغم من إصلاحات برنامج الصفقة الجديدة. كان يعيش فى هذا الحى ٣٥٠,٠٠٠ فرد، بمعدل ٢٣٣ شخص لكل آكر مقارنة بـ ١٣٣ فى باقى مانهاتن. عاش عشرة آلاف أسرة فى منازل تنتشر بها الفئران ما أدى إلى انتشار السل ، وعمل قرابة نصف النساء المتزوجات فى المنازل. كانت النساء تسافرن إلى برونكس Bronx وتتجمعن على نواصى الشوارع للحصول على عمل. كان يطلق على هذا التجمع "سوق العبيد". وبدأت تظهر تجارة الجسد. كتبت شابتان زنجيتان، إيلا باكر Ella Baker ومارفل كوك Marvel Cook، فى مجلة "ذا كرايسيز" The Crisis فى عام ١٩٣٥:

> **لم تقتصر المساومة على العمل فى مقابل أجر ضئيل، لكن أيضا كان الحب سلعة تباع فى السوق. وسواء كان العمل أو الحب كانت المرأة تصل فى الثامنة صباحاً وتظل حتى**

الواحـدة ليلاً حتى يتم تأجيرهـا. وسـواء كان الجـو ممطرا أو مشمسا، حارا أو بارد، كانت النساء تنتظر للعمل مقابل١٠ أو ١٥ أو ٢٠ سنتا فى الساعة.

فى مستشفى هارلم فى عام ١٩٣٢ كانت حالات الوفاة ضعف حالات مستشفى بيليفيو المقامة فى وسط المدينة وسط السكان البيض. كان حى هارلم منبع الجريمة أو "زهرة الفقر المرة" كما وصفها روى أوتلى ووليام ويزربى فى مقاليهما بعنوان "الزنوج فى نيويورك".

فى ١٩ مارس عام ١٩٣٥ وأثناء تمرير برنامج الصفقة الجديدة، انفجر حى هارلم. اقتحم شوارع هارلم عشرة آلاف زنجى ودمروا ممتلكات التجار البيض. حضر سبعمائة من أفراد الشرطة وأعادوا النظام، ولقى اثنان من الزنوج حتفهما.

وفى منتصف الثلاثينيات كتب الشاعر الزنجى الشباب لانجستون هيوز Lang-ston Hughes قصيدة باسم "فلتعد أمريكا ثانية" جاء فيها:

أنا الأبيض الفقير، المخدوع المشتت

أنا الزنجى أحمل ندوب العبودية

أنا الرجل الأحمر المطرود من أرضه

أنا المهاجر أقبض على الأمل الذي أنشده

لكننى لا أجد سوى الخطة الغبية القديمة

حيث تأكل الكلاب بعضها ويدهس القوى الضعيف

...

فلتعد أمريكا ثانية ـ

الأرض التى لم تكن

ولكن لابد أن تكون

الأرض التى فيها كل إنسان حر.

الأرض التى هى ملكى، وملك الفقير

والهندي والزنجي ـ أنا

مَن صنع أمريكا

ومَن لابد أن يستعيد ـ

بالعرق والدم والإيمان والألم

وبيد على المسبك ويد على المحراث فى المطر ـ

حلمنا العظيم.

سُبني بما شئت من الصفات

فمعدن الحرية لا يصدأ أبداً

ومن أولئك الذين يعيشون كالطفيليات على حياة الناس

لابد أن نستعيد أرضنا

أمريكا.

ومع ذلك، ففى الثلاثينات لم يشعر البيض فى الشمال أو الجنوب بوجود السود. لقد حاول الراديكاليون فقط (الاشتراكيون والتروتسكيون والشيوعيون) كسر هذه الحواجز العرقية. وتحت تأثير الشيوعيين حاول مجلس المنظمات الصناعية CIO تنظيم الزنوج فى مصانع إنتاج الجملة. ظل الزنوج يعملون كمفسدى إضرابات، ولكن الآن كانت هناك محاولات لتوحيد البيض والسود من أجل مواجهة عدوهم المشترك. تحكى

امرأة تدعى مولى لويس فى مجلة "ذا كرايسيز" فى عام ١٩٣٨ عن تجربتها أثناء إضراب فى جارى بولاية إنديانا:

فى حين كانت السلطات المحلية فى جارى تفرق بين الأطفال فى نظام المدارس المنفصلة، كان أولياء الأمور يتجمعون فى الاتحاد .... وكان المكان الوحيد فى جارى الذى يتناول فيه السود والبيض الطعام بحرية هو مطعم وطنى يدعمه أعضاء الاتحاد. عندما يقتنع العمال البيض والسود وعائلاتهم بأن مصالحهم الاقتصادية واحدة، قد يصبح لديهم قضية مشتركة من أجل تنمية هذه المصالح.

لم تكن هناك حركة نسائية كبيرة فى الثلاثينيات. لكن اشتركت نساء كثيرات فى التنظيمات العمالية فى هذه السنوات. كانت الشاعرة ميريدل لوسوير Meridel Le Seuer تبلغ أربعة وثلاثين عاماً عندما وقع إضراب سائقى عربات النقل الشهير فى مينيابوليس فى عام ١٩٣٤ أصبحت ناشطة فيه، ووصفت بعد ذلك خبرتها قائله:

لم أكن قد اشتركت فى إضراب من قبل... الحقيقة أننى كنت أشعر بالخوف... قلت لهم فى حماس "هل ترغبون فى مساعدة ؟"... ظللنا نقدم الآلاف من أكواب القهوة ونطعم الآلاف من الرجال... وكانت العربات ترجع مرة أخرى...صرخ المعلق: "هذه جريمة قتل"... رأيتهم يخرجون الرجال من العربات ويضعونهم على أسرة المستشفيات على الأرض. استمرت العربات فى الدخول. عاد بعض الرجال من السوق وهم يحاولون كتم دمائهم ... سادت الفوضى بين الرجال والنساء والأطفال فى الخارج، أحاطت بنا دائرة بشرية لحمايتنا. كانت الدماء على ملابسنا لا تزال ساخنة. ويوم الثلاثاء، يوم الجنازة، تجمع ألف

من المسلحين فى وسط المدينة.

كانت الحرارة تزيد على ٩٠ درجة فهرنهايت فى الظل. ذهبت إلى صالة الاستقبال المخصصة فى الجنازة، وكان هناك آلاف الرجال والنساء ينتظرون تحت الشمس القظيعة ، ظلت جماعة من النساء والأطفال واقفين لمدة ساعتين. ذهبت إليهم وانتظرت بقربهم. لم أكن أعرف إذا ما كنت سأشارك فى المسيرة أم لا، فلم أكن أحب السير فى عروض... جذبتنى ثلاثة نساء وقلن لى بطريقه لطيفه: "إننا نرغب فى المشاركة، فلتأت معنا."

وتحدثت سلفيا وودز Sylvia Woods إلى أليس وستوتون ليند Alice and Staugh-ton Lynd بعد سنوات عن خبرتها فى الثلاثينيات كعاملة غسيل ومنظمة اتحادات قائلة:

عليك أن تتحدث إلى الناس عن أشياء يستطيعون رؤيتها. ثم سيقولون "إن هذا لم يخطر ببالى من قبل!" أو "إننى لم أر الأمر هكذا من قبل" كما حدث مع شخص مثل تينيسى. لقد كان يكره الزنوج. كان واحداً من صغار المستأجرين الفقراء ... ومع ذلك فقد كان يراقص فتاة سوداء!... لقد رأيت كيف يتغير الناس ، وهذا هو الإيمان الذى عليك أن تتعامل به مع الناس.

بدأ الكثير من الأمريكيين فى تغيير أسلوب تفكيرهم خلال سنوات التمرد والأزمة. وفى أوروبا، بدأ هتلر فى الظهور. وفى المحيط الهادى كانت اليابان تغزو الصين. وكانت الإمبراطوريات الغربية تتعرض لتهديد إمبراطوريات جديدة ، ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن الحرب.

الفصل السادس عشر

الحرب العالمية الثانية: هل كانت حرباً شعبية؟

"نعلن ونؤكد نحن حكومات بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وباسم الهند وبورما ومالايا واستراليا وشرق إفريقيا البريطانية وغينيا البريطانية وهونج كونج وسيام وسنغافورة ومصر وفلسطين وكندا ونيوزيلندا وأيرلندا الشمالية واسكتلندا وويلز علاوة على بورتوريكو وجوام والفليبين وهاواي وألاسكا وفيرجين أيلاندز، أن هذه الحرب ليست حرباً إمبريالية". كان الحزب الشيوعى فى أمريكا هو الذي وضع هذه السطور الساخرة التى انتشرت فى عام ١٩٣٩ .

وبعد عامين، قامت ألمانيا بغزو روسيا وأصبح الحزب الشيوعى الأمريكى، الذى كان يصف الحرب بين قوات المحور وقوات الحلفاء بأنها حرب إمبريالية، يطلق على هذه الحرب "الحرب الشعبية" فى مواجهة الفاشية. فى ذلك الوقت كان كل الأمريكيين تقريباً يتفقون ـ سواء كانوا رأسماليين أو شيوعيين أو ديمقراطيين أو جمهوريين أو فقراء أو أثرياء، أو من الطبقة الوسطى ـ على أن الحرب العالمية الثانية كانت حرباً شعبية.

والسؤال: هل كانت كذلك حقاً؟ هناك بعض الأدلة التى تقول إن هذه الحرب كانت الأكثر شعبية بين الحروب التى خاضتها الولايات المتحدة، حيث لم تشترك بهذه النسبة العالية من الأمريكيين فى حرب من قبل: فقد كان هناك ١٨ مليون أمريكى يخدمون فى القوات المسلحة و١٥ مليون فيما وراء البحار وكان ٢٥ مليون عاملاً يقومون بدفع جزء من أجورهم للمجهود الحربى. ولكن هل من الممكن اعتبار ذلك دعماً مصنوعاً لأن كل

قوى الأمة من حكومة وصحافة وكنيسة بل وحتى كبرى التنظيمات الراديكالية كانت وراء الدعوة إلى الحرب؟ هل كان هناك تيار لا يدعو إلى الحرب؟ وهل كانت هناك علامات مقاومة سكت عنها التاريخ الرسمى؟

كانت هذه الحرب ضد عدو ذى شر كبير، كانت ألمانيا هتلر تمثل الشمولية والعنصرية والعسكرية وتبدى استعداداً لشن حروب عدوانية على نحو غير مسبوق. ولكن هل كانت حكومات إنجلترا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى تمثل شيئاً مختلفاً بحيث يكون انتصارهم ضربة للإمبريالية والعنصرية والشمولية والعسكرية فى العالم؟ هل سيكون سلوك الولايات المتحدة، فى حربها فى الخارج وفى معاملتها للأقليات الأمريكية فى الداخل، متوائماً مع شن "حرب شعبية"؟ وهل ستحترم سياسة الولايات المتحدة فى وقت الحرب حقوق الناس العاديين - فى كل مكان من العالم - فى الحياة والحرية والبحث عن السعادة؟ وهل ستمثل أمريكا ما بعد الحرب القيم التى من المفترض أن الحرب قامت من أجل الدفاع عنها؟

مثل هذه الأسئلة تستحق التأمل والتفكير. ولكن الجو العام الذى كان يمتلئ حماساً للحرب لم يكن ليسمح بطرح أسئلة كهذه.

إن نهوض الولايات المتحدة بوصفها مدافعة عن البلاد الضعيفة يوافق صورتها كما تروج لها الكتب المدرسية فى المدارس الثانوية ولكنه لا يتوافق مع سجلها من التدخل فى شئون العالم. لقد عارضت الثورة فى هاييتى لتحقيق استقلالها عن فرنسا فى بداية القرن التاسع عشر ، وأثارت حرباً مع المكسيك وضمت نصف أراضيها. وتظاهرت بمساعدة كوبا فى استقلالها عن إسبانيا ثم قامت بزرع نفسها فى ذلك البلد وأقامت فيها قاعدة عسكرية واستثمارات ضخمة مع الاحتفاظ بحقوقها فى التدخل. وحاصرت هاواى وبورتوريكو وجوام وشنت حرباً وحشية لإخضاع الفليبينيين ، و"فتحت" اليابان لتجارتها عن طريق التهديد وأعلنت سياسة "الباب المفتوح" فى الصين كوسيلة للتأكد من أنها ستكون لها فرص متساوية مع فرص الإمبراطوريات الأخرى. بل وقامت، مع دول أخرى، بإرسال قوات إلى بكين لضمان التفوق الغربى فى الصين وأبقت على قواتها هناك لأكثر من ثلاثين عاماً.

وفى الوقت الذى طالبت فيه الولايات المتحدة بانتهاج سياسة الباب المفتوح فى الصين، أصرت (عن طريق مذهب مونرو وتدخلات عسكرية كثيرة) على انتهاج سياسة الباب المغلق مع أمريكا اللاتينية ـ بمعنى أن باب أمريكا اللاتينية يكون مغلقاً فى وجه أى أحد إلا الولايات المتحدة. كذلك قامت الولايات المتحدة بتدبير ثورة ضد النظام فى كولومبيا وخلقت دولة "مستقلة" هى بنما بهدف بناء قناة بنما والسيطرة عليها ، وكانت قد أرسلت خمسة آلاف من قوات المارينز إلى نيكاراجوا فى عام ١٩٢٦ كى تحبط قيام ثورة وأبقت على قوة هناك لسبع سنوات ، وتدخلت فى جمهورية الدومينكان للمرة الرابعة فى عام ١٩١٦ وأبقت على قوات هناك لثمانية أعوام ، وتدخلت للمرة الثانية فى هاييتى عام ١٩١٥ وأبقت على قوات هناك لمدة تسعة عشر عاماً. وبين عام ١٩٠٠ و١٩٣٣ تدخلت الولايات المتحد فى كوبا أربعة مرات وفى نيكاراجوا مرتين وفى بنما ست مرات ومرة فى جواتيمالا وفى هندوراس سبعة مرات ، وبمجىء عام ١٩٢٤ كانت الولايات المتحدة ـ إلى حد كبير ـ تدير اقتصاد نصف دول أمريكا اللاتينية العشرين، وبمجىء عام ١٩٣٣ كان نصف إنتاج الولايات المتحدة من الحديد الصلب والقطن يتم تصديره إلى هذه الدول.

قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٨، نزلت قوة أمريكية تتألف من سبعة آلاف فرد فى فلاديفوستوك كجزء من تدخل قوات التحالف فى روسيا وظلت القوة الأمريكية هناك حتى عام ١٩٢٠ ونزلت خمسة آلاف أخرى فى ميناء أرشانجل الروسى، كجزء من قوة استكشافية للتحالف وظلت هناك لمدة عام تقريباً ، وقالت وزارة الخارجية للكونجرس: "كانت كل هذه العمليات من أجل مواجهة تأثيرات الثورة البلشفية فى روسيا".

باختصار، لو كان دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية (كما اعتقد كثير من الأمريكيين فى ذلك الوقت عندما رأوا عمليات الاحتلال التى قامت بها القوات النازية) من أجل الدفاع عن مبدأ عدم التدخل فى شئون البلاد الأخرى، فإن سجلها الحافل بالتدخلات يلقى بظلال من الشك حول قدرتها على الحفاظ على هذا المبدأ.

والشيء الذى كان واضحاً فى وقت الحرب هو أن الولايات المتحدة كانت ديمقراطية تتمتع بحريات معينة بينما كانت ألمانيا ديكتاتورية تضطهد أقليتها من اليهود وتسجن معارضيها وتزعم تفوق "العنصر" الجرمانى. على أن السود إذا نظروا إلى معاداة السامية فى ألمانيا ربما لا يجدون أن موقفهم داخل الولايات المتحدة لا يختلف كثيراً عن موقف اليهود فى ألمانيا. والولايات المتحدة لم تقم سوى بالقليل فيما يتعلق بسياسات هتلر الاضطهادية. بل إنها انضمت إلى إنجلترا وفرنسا فى استرضاء هتلر على مدار الثلاثينيات. كان روزفلت ووزير خارجيته كورديل هُلْ **Cordel Hull**، مترددين فى إدانة سياسات هتلر العنصرية ، وعندما قُدم قرار إلى مجلس الشيوخ فى يناير ١٩٣٤ يطالبه والرئيس بالتعبير عن "الاندهاش والألم" لما كان يفعله الألمان باليهود ويطالب باسترداد حقوقهم قامت وزارة الخارجية "بدفن" هذا القرار بقرارها تشكيل لجنة للنظر فيه (كتاب أرنولد أوفينير **Offiner** **الاسترضاء الأمريكى American Appeasement**) .

وعندما قامت إيطاليا موسولينى بغزو إثيوبيا عام ١٩٣٥، أعلنت الولايات المتحدة حظراً على تصدير الأسلحة إلى إيطاليا ، لكنها تركت الشركات الأمريكية تقوم بتصدير البترول بكميات كبيرة وهو الشيء الضرورى لاستمرار إيطاليا فى الحرب. وعندما قام انقلاب فاشيستى فى إسبانيا عام ١٩٣٦ ضد الحكومة الاشتراكية المنتخبة، التزمت إدارة روزفلت الحياد وهو ما حال دون مساعدة الحكومة الإسبانية بينما قدم هتلر وموسولينى عوناً كبيراً لفرانكو.

هل كان هذا مجرد سوء تقدير للأمور وخطأ مؤسفاً؟ أم أنه كان السياسة المنطقية لحكومة هدفها الأساسى لم يكن إيقاف الفاشية بل تنفيذ المصالح الإمبريالية للولايات المتحدة؟ فى الثلاثينيات، كان هذا التوجه منطقياً فى مواجهة الاتحاد السوفيتى. ولكن عندما بدأت اليابان وألمانيا فى تهديد المصالح الأمريكية فى العالم، صار من المفضل انتهاج سياسة مؤيدة للاتحاد السوفيتى ومناهضة للفاشية حيث كان روزفلت معنياً باضطهاد اليهود تماماً كما كان لينكولن معنياً بتحرير العبيد إبان الحرب الأهلية، غير

أن الأولوية الأولى كانت (بغض النظر عن مشاعر روزفلت ولينكولن بشأن ضحايا الاضطهاد) لقوة الولايات المتحدة.

لم يكن هجوم هتلر على اليهود هو السبب فى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية كما لم يكن استعباد أربعة ملايين من السود السبب فى الحرب الأهلية الأمريكية فى عام ١٨٦١ لم يتسبب هجوم إيطاليا على إثيوبيا أو غزو هتلر للنمسا أو استيلاؤه على تشيكوسلوفاكيا أو هجومه على بولندا فى قرار الولايات المتحدة بدخول الحرب العالمية الثانية على الرغم من أن إدارة روزفلت كانت قد بدأت فى تقديم عون كبير لإنجلترا. إن الذى أدخل الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية على نحو كامل كان هجوم اليابانيين على القاعدة البحرية الأمريكية فى بيرل هاربر فى هاواى فى ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ من المؤكد أن الذى دفع إدارة روزفلت إلى أن تعلن صرخة الحرب لم يكن الدافع الإنسانى. فقد هاجمت اليابان الصين من قبل عام ١٩٣٧ وقصفت المدنيين فى نايكنج ، ولم يدفع هذا الولايات المتحدة باتجاه الحرب. كان الهجوم اليابانى على أحد أطراف الإمبراطورية الأمريكية من ناحية المحيط الهادئ هو الذى دفع الولايات المتحدة دون تردد إلى دخول الحرب.

لم تعترض الولايات المتحدة على اليابان طالما ظلت عضواً يعرف حدوده فى النادى الإمبراطورى للقوى العظمى التى كانت تشترك جميعاً فى استغلال الصين. كانت الولايات المتحدة قد أرسلت مذكرة إلى اليابان تقول: "إن الولايات المتحدة تدرك أن لليابان مصالح خاصة فى الصين". وفى عام ١٩٢٨، ووفقا لكتاب **ما بعد الإمبريالية After Imperialism** لأكيرا إرى **Akira Iriye**، أيد القناصل الأمريكيون فى الصين مجىء القوات اليابانية إليها ، ولكن عندما حاولت اليابان أن تهيمن على الأسواق الصينية بما يهدد المصالح الأمريكية ولاسيما عندما اقتربت من التصدير والبترول والمطاط لجنوب شرق آسيا، انزعجت الولايات المتحدة واتخذت إجراءات أدت فى قمتها إلى الهجوم اليابانى على بيرل هاربر.

وقدمت حكومة الولايات المتحدة ما حدث فى بيرل هاربر إلى الرأى العام الأمريكى على أنه شيء جاء مفاجئاً وصادماً وغير أخلاقى ، أما من ناحية أنه كان غير أخلاقى، فهذا صحيح لكنه لم يكن مفاجئاً ولا صادماً للحكومة الأمريكية. يقول بروس راسيت Bruce Russett، فى كتابه **لا خطر مؤكدًا الآن No Clear and Present Danger** " : أن الضربة اليابانية للبحرية الأمريكية جاءت كذروة لسلسلة من الأفعال العدائية المتبادلة. فعن طريق فرضها عقوبات اقتصادية على اليابان، كانت حكومة واشنطن تدرك جيداً أن ذلك يدفع باتجاه الحرب".

وإذا نحينا جانباً الاتهامات العنيفة الموجهة لروزفلت (التى قالت إنه كان يعلم بما قد يحدث فى بيرل هاربر لكنه لم يتكلم – ولكن ليس هناك أدلة دامغة على هذه الاتهامات) فإنه يبدو واضحاً أن روزفلت فعل ما فعله قبله الرئيس جيمس بوك Polk فى الحرب المكسيكية وما فعله ليندون جونسون فى حرب فيتنام ، فقد كذب روزفلت على الرأى العام فيما ظن أنه قضية عادلة. فى سبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٤١، قام روزفلت بخلط الحقائق فى حادثتين بشأن الغواصات الألمانية والمدمرات الأمريكية. كتب مؤرخ متعاطف مع روزفلت هو توماس بيلى Bailey، يقول:

> **خدع فرانكلين روزفلت الشعب الأمريكى مراراً قبل حادثة بيرل هاربر ... لكنه كان مثل الطبيب الذى يضطر إلى أن يكذب على المريض لمصلحته ... لأن الجماهير تتصف بقصر النظر ولا تستطيع رؤية الخطر إلا عندما يصل إليها بالفعل ... .**

وأبدى أحد القضاة (رادابينود بال Radhabinod Pal) الذين اشتركوا فى محاكم طوكيو لجرائم الحرب استياءه من الأحكام العامة الصادرة ضد المسئولين اليابانيين وقال إن الولايات المتحدة قد أثارت الحرب مع اليابان على نحو لا يقبل الغموض ، وأنها توقعت رد فعل اليابان. يلخص ريتشارد مينير Minear فى كتابه **عدالة المنتصر Victor's Justice**، وجهة نظر القاضى بال بقوله إن العقوبات الاقتصادية التى فرضتها الولايات المتحدة على اليابان "كانت إجراءات واضحة من حيث إنها تمثل تهديداً شديداً

للوجود اليابانى نفسه". وهناك سجلات توضح أن مؤتمراً صحفيا للبيت الأبيض توقع حرباً قبل أسبوعين من حادثة بيرل هاربر وناقش كيفية تبرير قيام مثل هذه الحرب.

وبعد هجوم بيرل هاربر، أعلنت كل من ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة. والسؤال الآن: هل أظهر سلوك الولايات المتحدة أن أهدافها فى الحرب كانت إنسانية أم أنها تركزت على القوة والمصلحة؟ هل كانت تحارب كى تنهى سيطرة بعض الدول على البعض الآخر أم لتتأكد أن الدول المسيطرة صديقة لها؟ فى أغسطس عام ١٩٤١ التقى تشرشل وروزفلت وأطلقا إلى العالم "الميثاق الأطلنطى"Atlantic Charter الذى أرسى أهدافاً نبيلة لعالم ما بعد الحرب. وقال الزعيمان إن بلديهما "لا تنشدان توسعاً" وإنهما يحترمان "حق كل الشعوب فى اختيار شكل الحكومة التى يعيشون فى ظلها". ونال الميثاق احتفاءً كبيراً بإعلانه حق الشعوب فى تقرير مصيرها.

قبل إصدار الميثاق بأسبوعين، كان سَمَر ويليس Summer Welles القائم بأعمال وزير الخارجية الأمريكية قد أكد للحكومة الفرنسية أن الإمبراطورية الفرنسية لن يصيبها أذى بعد انتهاء الحرب. قال: "إن حكومة هذه البلاد، إذ تتذكر علاقتها الوطيدة مع فرنسا، تحمل تعاطفاً شديداً مع رغبة الشعب الفرنسى فى أن تظل إمبراطوريته فاعلة". فى أواخر عام ١٩٤٢ أكد الممثل الشخصى لروزفلت للجنرال الفرنسى هينرى جيرو: "نحن نفهم جيداً بأن السيادة الفرنسية ستقوم ثانية وعلى وجه السرعة فى كل أراضيها ومستعمراتها التى رفرف عليها العلم الفرنسى فى عام ١٩٣٩".

فى ١٩٤٥ لم تعد السياسة الأمريكية نحو الهند الصينية غامضة، وفى مايو أكد الرئيس ترومان للفرنسيين أن "السيادة الفرنسية فى الهند الصينية ليست محل تساؤل". وفى خريف العام نفسه، شجعت الولايات المتحدة الصين، التى كانت مسئولة بشكل مؤقت عن الجزء الشمالى من الهند الصينية وفقاً لمؤتمر بوتسدام، أن تقوم بتسليم ذلك الجزء إلى الفرنسيين على الرغم من الرغبة الواضحة للفيتناميين فى الاستقلال.

كان هذا جميلاً قدمته الولايات المتحدة لفرنسا ، ولكن ماذا عن الطموحات الإمبراطورية للولايات المتحدة أثناء الحرب؟ وماذا عن "التوسع" الذى أعلن "الميثاق الأطلنطى" التخلى عنه؟

كانت أخبار المعارك وتحرك القوات تتصدر العناوين الرئيسية للأخبار: غزو شمال إفريقيا فى عام ١٩٤٢ وإيطاليا فى عام ١٩٤٣ وفرنسا (التى كانت محتلة من قبل الألمان) فى عام ١٩٤٤ والمعارك المرة التى أدت إلى ارتداد ألمانيا لحدودها والقصف المتزايد الذى تعرضت له على أيدى البريطانيين والأمريكيين، وفى الوقت نفسه تقريباً، كانت هناك الانتصارات الروسية على الجيوش النازية بحيث كانت روسيا تشتبك مع حوالى ٨٠٪ من القوات الألمانية مما سهل الأمر على البريطانيين والأمريكيين، وفى المحيط الهادى، عامى ١٩٤٣ و١٩٤٤، كان التحرك الأمريكى من جزيرة إلى أخرى بحيث صارت القوات الأمريكية أقرب إلى اليابان مما سهل عليها قصف المدن اليابانية.

وفى هدوء، وبعيداً عن أخبار المعارك، كان الدبلوماسيون ورجال الأعمال الأمريكيون يبذلون أقصى جهد لديهم للتأكد من أن القوة الاقتصادية الأولى فى العالم ستكون للولايات المتحدة دون منازع. كان معنى ذلك أن تخترق الولايات المتحدة مناطق نفوذ كانت حتى ذلك الوقت – وقت الحرب – تحت النفوذ البريطانى. امتد النفوذ الأمريكى من آسيا إلى أوروبا وعكس ذلك نية الولايات المتحدة فى تنحية إنجلترا جانباً والمضى قدماً بمفردها.

هذا ما حدث أيضاً فى منطقة الشرق الأوسط وبترولها، وفى أغسطس عام ١٩٤٥ قال مسئول بوزارة الخارجية إن استعراضاً سريعاً "للتاريخ الدبلوماسى على مدار الخمسة والثلاثين عاماً الماضية يبين أن البترول لعب دوراً تاريخيا فى العلاقات الخارجية أكبر من أى سلعة أخرى". كانت السعودية تمثل أكبر حوض بترولى فى الشرق الأوسط. استطاعت شركة أرامكو للبترول، من خلال وزير الداخلية هارولد إيكيس، أن تجعل الرئيس روزفلت يوافق على تقديم معونة للسعودية ما يعنى وجوداً حكومياً أمريكياً هناك، وهذا من شأنه أن يكون درعاً لمصالح أرامكو. فى عام ١٩٤٤

وقعت بريطانيا والولايات المتحدة اتفاقاً بشأن البترول يوافق على "مبدأ الفرص المتساوية" وعلى حد قول لويد جاردنر فى كتابه **الوجوه الاقتصادية لدبلوماسية الصفقة الجديدة Economic Aspects of New Deal Diplomacy** ": كانت سياسة الباب المفتوح ناجحة فى منطقة الشرق الأوسط كلها".

بعد دراسة السياسة الأمريكية فى وقت الحرب، يخلص المؤرخ جابرييل كولكو **Gabriel Kolko**، فى كتابه سياسات الحرب **The Politics of War**، إلى أن "هدف الحرب الاقتصادية الأمريكية هو إنقاذ الرأسمالية فى داخل البلاد وخارجها". وفى إبريل عام ١٩٤٤ قال مسئول بوزارة الخارجية: "كما تعلمون، علينا أن نخطط لزيادة الإنتاج فى هذه البلاد بعد الحرب ولكن الأسواق الأمريكية لن تستوعب هذا الإنتاج الغزير. ومن ثم، فليس ثمة شك فى أننا سنكون فى حاجة متزايدة للأسواق الأجنبية".

وفى دراسته عن البترول فى العالم تحت عنوان « الأخوات السبعة » **The Seven Sisters**، يقول أنطونى سامبسون:

> **بنهاية الحرب كان النفوذ المسيطر فى السعودية للولايات المتحدة دون جدال ، ولم يعد الملك بن سعود محارب الصحراء الشرس، بل أصبح مفتاحاً فى لعبة القوة يطلب الغرب وده. ففى طريق عودته من يالطا فى فبراير عام ١٩٤٥، استضاف روزفلت على زورقه كوينسى الملك السعودى وحاشيته واثنين من أبنائه ورئيس الوزراء ومُنَجِّماً وعدداً كبيراً من الخراف من أجل الشواء!**

ثم كتب روزفلت رسالة إلى بن سعود وعده فيها ألا تغير الولايات المتحدة سياستها بشأن فلسطين دون الرجوع إلى العرب. فى السنوات التالية، سينافس البترول اهتمام الولايات المتحدة السياسى بالدولة العبرية فى الشرق الأوسط ، وعند هذه النقطة كان البترول هو الأكثر أهمية.

ومع انهيار قوة الإمبراطورية البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت الولايات المتحدة مستعدة للتحرك حيث قال وزير الخارجيـــة الأمريكية كورديل هَلْ أثناء الحرب:

إن قيادة نظام جديد للعلاقات الدولية فى التجارة والشئون الاقتصادية الأخرى سيؤول إلى الولايات المتحدة نتيجة لقوتنا الاقتصادية الكبيرة. لابد أن ننهض بهذه القيادة والمسئولية التى تتبعها لا لشىء إلا لأسباب تتعلق بمصالحنا الوطنية.

وقبل أن تنتهى الحرب، كانت الإدارة الأمريكية تضع الخطوط الرئيسية لنظام اقتصادى عالمى جديد يقوم على شراكة بين الحكومة والشركات الكبرى. يقول لويد جاردنر عن هارى هوبكينز كبير مستشارى روزفلت الذى نظم برامج الإغاثة الخاصة بالصفقة الجديدة: "لم يفق أحد من المحافظين هارى هوبكينز فى حرصه على الاستثمار الأجنبى وحمايته".

انتقد الشاعر أرشيبالد ماكليش، الذى كان فى ذلك الوقت مساعداً لوزير الخارجية الأمريكية، ما رآه فى عالم ما بعد الحرب. قال: "إن السلام الذى سنصنعه والسلام الذى يبدو أننا نصنعه سيكون سلام البترول والذهب وشحن البضائع ... إنه سلام دون غاية أخلاقية أو مصلحة إنسانية ...".

فى أثناء الحرب، أنشأت كل من إنجلترا والولايات المتحدة "صندوق النقد الدولى" لتنظيم تبادل العملات الدولية ولما كان للولايات المتحدة النسبة الأكبر فى رأس المال، فقد تأكدت الهيمنة الأمريكية ، وكذلك تم إنشاء "البنك الدولى" وكان من المفترض من إنشائه مساعدة المناطق التى هدمتها الحرب فى إعادة الإعمار ، ولكن كان أحد أهدافه الرئيسية "تنشيط الاستثمار الأجنبى". كان للولايات المتحدة إطار سياسى تنظر من خلاله للدول التى فى حاجة إلى إعانات اقتصادية، ففى بداية عام ١٩٤٤، قال أفيريل هاريمان، سفير الولايات المتحدة فى روسيا: "إن المعونة الاقتصادية واحدة من أكثر

الأسلحة فاعلية وهو طوع بناننا للسيطرة على الأحداث السياسية الأوروبية وتوجيهها في الاتجاه الذى نريده ... ."

تم تقديم إنشاء هيئة الأمم المتحدة أثناء الحرب للعالم بوصفها تعاوناً دولياً لمنع قيام حروب فى المستقبل، ولكن سيطر على الهيئة الوليدة أربعة قوى منها ثلاثة غربية (الولايات المتحدة وأمريكا وفرنسا) بالإضافة إلى الاتحاد السوفيتى وهو القوة الجديدة التى كانت تتمتع بنفوذ ضخم فى أوروبا الشرقية. كتب السيناتور الجمهورى المهم آرثر فاندينبيرج فى يومياته كلمات عن ميثاق الأمم المتحدة منها:

> **إن الشيء الواضح جداً عن هذه الهيئة هو أنها تنطلق من موقف قومى، فهى تقوم تقريباً على حلف من أربعة قوى، وليس هذا إلا حلماً راديكالياً بإقامة دولة عالمية ... إننى شديد الإعجاب والدهشة أن أرى وزير الخارجية هَلْ Hull يحرس حق الفيتو الأمريكى فى ترتيبه للأشياء.**

لم يكن مأزق اليهود فى أوروبا التى احتلتها ألمانيا، والذى ظن كثيرون أنه كان أحد الأسباب الكبرى للحرب ضد دول المحور، يمثل اهتماماً رئيسياً لدى روزفلت، ففى كتابه **سياسات الإنقاذ The Politics of Rescue**، يوضح هنرى فاينجولد Feingold، أنه بينما كان الألمان يضعون اليهود فى معسكرات حيث بدأت عملية إبادة مرعبة لستة ملايين منهم(*) وملايين آخرين من غيرهم، تقاعس روزفلت عن اتخاذ خطوات ربما

(*) ثمة كثير من الدراسات الموثقة التى تشكك فى هذا الرقم بل وتتهمه بالمبالغة الشديدة، ففى **الكتاب السنوى اليهودى الأمريكى** The American Jewish Year Book رقم ٥٧٠٢، والذى يتناول الفترة من ٢٢ سبتمبر ١٩٤١ حتى ١١ سبتمبر ١٩٤٢ (ص ٦٦٦)، إلى أن عدد اليهود فى بلدان أوروبا الخاضعة للسيطرة الألمانية، فى أعقاب التوسع النازى الكبير وامتداده إلى روسيا، كان يبلغ فى عام ١٩٤١ ثلاثة ملايين ومائة وعشرة آلاف وسبع مائة واثنين وعشرين، بما فى ذلك السهود الذين تبقوا فى ألمانيا، فكيف يُباد منهم ستة ملايين؟ لمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر، ننصح بالرجوع إلى كتاب **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ** للدكتور عبد الوهاب المسيرى (القاهرة: دار الشرق. ١٩٩٧) وكتاب **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** لروجية جارودى، ترجمة: محمد هشام (القاهرة: دار الشرق. ١٩٩٨) (المترجم).

كانت قد أنقذت حياة الآلاف. لم ينظر روزفلت إلى هذه المسألة كإحدى أولوياته حيث تركها لوزارة الخارجية حيث كانت معاداة السامية والبيروقراطية عائقين فى طريق اتخاذ إجراءات حاسمة.

هل قامت الحرب لكى تقول وتؤكد أن هتلر كان على خطأ فى أفكاره عن تفوق الجنس الجرمانى الأبيض على الأجناس "الأدنى"؟ إن جيش الولايات المتحدة فى تلك الحرب كان يقوم على الفصل العنصرى. عندما تدفقت القوات الأمريكية على "كوين مارى" كى تبحر بهم إلى مسرح الحرب فى أوروبا، تم وضع السود فى قاع السفينة تجاورهم غرفة المحركات وبعيداً عن الهواء النقى على نحو يذكّر برحلات نقل العبيد من إفريقيا إلى العالم الجديد. بل إن هيئة الصليب الأحمر، بموافقة الحكومة الأمريكية، كانت تقوم بفصل الدم المتبرع به من السود والبيض ، ومن المفارقات أن الذى كان يشرف على بنك الدم كان طبيباً أسود يدعى تشارلز درو Drew كان درو مسئولاً عن تبرعات الدم أثناء الحرب ولكنه فُصل عندما حاول أن ينهى مسألة الفصل العنصرى فى الدم المتبرع به ، وعلى الرغم من الحاجة إلى قوى عاملة أثناء الحرب، كان السود لا يزالون يتعرضون للتمييز العنصرى فى الوظائف. قال متحدث باسم شركة طيران: "لن نوظف الزنوج إلا فى أعمال النظافة وما شابهها ... لن نوظفهم كعمال طيران بغض النظر عن تدريبهم وكفاءتهم". بل إن الرئيس روزفلت لم يفعل شيئاً من أجل تطبيق توصيات لجنة التوظيف العادل التى أنشأها.

عُرف عن الأمم الفاشية إصرارها على أن مكان المرأة هو البيت. ورغم أن الحرب ضد الفاشية قامت باللجوء إلى النساء، فإن حكومة الولايات المتحدة لم تتخذ أى خطوات لتغيير الدور التابع لهن. كانت لجنة القوى العاملة إبان الحرب، رغم انخراط أعداد كبيرة من النساء فى أعمال الحرب، تقصى النساء عن المجالس والهيئات التى تقوم بوضع السياسات المتبعة.

فى إحدى سياساتها، كانت الولايات المتحدة أقرب إلى تقليد الفاشية ، ولعل أوضح مثال على ذلك هو تعاملها مع الأمريكيين اليابانيين فى منطقة الساحل الغربى ،

فبعد هجوم بيرل هاربر انتشرت هستيريا معادية لليابانيين فى كل أرجاء البلاد. قال أحد أعضاء مجلس النواب: "إننى مع القبض على كل يابانى فى أمريكا ... لعنة الله عليهم! دعونا نتخلص منهم".

لم يشترك الرئيس روزفلت فى هذه الهستيريا لكنه، فى هدوء ودون أى صخب، وقع الأمر التنفيذى رقم ٩٠٦٦ فى فبراير عام ١٩٤٢ وهو الأمر الذى منح الجيش الأمريكى السلطة فى القبض على كل يابانى - أمريكى فى الساحل الغربى دون اتهامات أو محاكمات ونقلهم إلى معسكرات اعتقال يعيشون فيها عيشة السجناء. بلغ عدد من قبض عليهم ١١٠ ألف من الرجال والنساء والأطفال. كان ثلاثة أرباع هؤلاء أطفالاً ولدوا فى الولايات المتحدة من آباء أو أمهات يابانيين ، ومن ثم فهم مواطنون أمريكيون. أما الربع الأخير (ويمثل الذين ولدوا فى اليابان) فقد صدر قرار بمنعهم من الحصول على الجنسية الأمريكية. فى عام ١٩٤٤ أيدت المحكمة الدستورية العليا عملياتَ اعتقال اليابانيين الأمريكيين على أساس أنه ضرورة عسكرية ، وظل اليابانيون الأمريكيون فى معسكرات الاعتقال لمدة ثلاثة أعوام.

وتحكى ميتشى ويجلين Michi Weglyn، فى كتابها **سنوات الخزى** Years of Infamy، عن ذكرياتها وهى فتاة صغيرة عندما تعرضت أسرتها للإجلاء والاعتقال ، وفى الوقت الذى تحكى فيه عن البؤس والخوف والارتباك الذى عاناه اليابانيون الأمريكيون فى معسكرات الاعتقال، فإنها أيضاً تحكى عن مقاومتهم واجتماعاتهم ورفضهم توقيع قسم الولاء ومظاهراتهم ضد سلطات المعسكرات. لقد ظل هؤلاء اليابانيون الأمريكيون يقاومون حتى النهاية.

لم يعرف الرأى العام الأمريكى ما حدث لليابانيين الأمريكيين إلا بعد إعلان انتهاء الحرب. ففى سبتمبر عام ١٩٤٥، وهو الشهر الذى انتهت فيه الحرب، ظهر مقال فى "هاربرز ماجازين" كتبه يوجين روستو Eugene V. Rostow، أستاذ القانون بجامعة ييل أطلق فيه على ما حدث: "أسوأ أخطائنا أثناء الحرب". والسؤال الآن: هل كان ذلك "خطأً"؟ أم أنه كان عملاً متوقعاً من أمة لها تاريخ طويل من العنصرية وكانت تحارب

فى الحرب العالمية الثانية ليس من أجل إنهاء العنصرية ولكن من أجل الحفاظ على العناصر الأساسية للنظام الأمريكى؟.

كانت الحرب العالمية الثانية حرباً شنتها الحكومة من أجل مصالح نخبة ثرية حيث عاد التحالف بين الحكومة والنخبة الثرية إلى الاقتراحات الأولى نفسها التى قدمها ألكسندر هاملتون للكونجرس بعد حرب الثورة الأمريكية، وبحلول الحرب العالمية الثانية تطورت الشراكة بين الحكومة والنخبة الثرية وازدادت قوة. كان الرئيس روزفلت، أثناء الأزمة الاقتصادية، قد أدان من أسماهم "الملكيين الاقتصاديين" لكنه كان دائماً ما يلقى دعماً من أصحاب الشركات الكبرى.

ويصف بروس كاتون Bruce Catton، فى كتابه **أباطرة الحرب فى واشنطن The War Lords of Washington**، عملية التعبئة الصناعية للاستمرار فى الحرب ويقول إن هذه العملية جعلت الثروة تتركز أكثر وأكثر فى أيدى عدد قليل من الشركات الكبرى. فى عام ١٩٤٠ بدأت الولايات المتحدة فى إرسال كميات ضخمة من معدات الحرب ولوازمها إلى كل من إنجلترا وفرنسا. وفى عام ١٩٤١ كانت ثلاثة أرباع العقود العسكرية فى أيدى ستة وخمسين من الشركات الكبرى ، وفى تقرير لمجلس الشيوخ جاء أن الحكومة أنفقت مليار دولار على البحث العلمى الخاص بالصناعة أثناء الحرب ذهبت ٤٠٠ مليون منه إلى عشر شركات كبرى رغم أن ألفى شركة كانت طرفاً فى ذلك الموضوع.

وعلى الرغم من الجو المفعم بالإحساس بالوطنية والاحتشاد الكامل من أجل الانتصار فى الحرب، وعلى الرغم من تعهدات النقابات والاتحادات بعدم القيام بأى إضرابات، فقد أضرب عمال كثيرون نتيجة إحباطهم من تجميد أجورهم فى الوقت الذى كانت أرباح الشركات تصل إلى أرقام فلكية. شهدت فترة الحرب ١٤ ألف إضراباً اشترك فيها حوالى سبعة ملايين من العمال وهو ما لم يحدث من قبل فى تاريخ البلاد. ففى عام ١٩٤٤ وحده أضرب مليون عامل فى المناجم ومصانع الحديد والصلب وصناعة وسائل المواصلات.

وعند انتهاء الحرب، استمرت الإضرابات بتواتر كبير ومشاركة كبيرة من العمال. ففى النصف الأول من عام ١٩٤٦، أضرب ثلاثة ملايين من العمال ، ووفق ما ورد فى كتاب **اضربوا عن العمل!** !Strike، لجيرمى بريتشر فإنه لولا التنسيق الذى تم بين الحكومة والنقابات والاتحادات العمالية لقامت "مواجهة عامة بين العمال وبين الحكومة التى تؤيد أصحاب المصانع والشركات".

فى لويل بولاية ماساشوستس، على سبيل المثال، ووفقاً لمخطوطة لم تنشر تحت عنوان "مفارقة الانتصار: لويل أثناء الحرب العالمية الثانية" كتبها مارك ميللر Marc Miller، كانت هناك إضرابات فى عامى ١٩٤٣ و١٩٤٤ تشبه إضرابات عام ١٩٣٧. ربما كانت الحرب العالمية الثانية "حرباً شعبية" ولكن كان هناك غضب من أن أرباح مصانع النسيج ارتفعت بنسبة ٦٠٠٪ فى الوقت الذى زادت فيه أجور العمال بنسبة ٣٦٪ فقط. ولعل الشىء الذى يؤكد أن الحرب لم تغير سوى القليل من الظروف الصعبة للنسَاء العاملات اللائى كن يَعُلْنَ أطفالاً هو أن نسبة ٥٪ منهن كن يتمتعن بمزية رعاية أطفالهن فى حضانات يوفرها العمل أما الباقيات فكان عليهم تدبير أمورهن.

ووسط صخب الحماس الوطنى المؤيد للحرب، كان هناك كثيرون يعتقدون أن الحرب خطأً حتى ولو كانت لصد العدوان الفاشى ، فمن بين عشرة ملايين تم استدعاؤهم للخدمة فى الجيش الأمريكى، رفض ٤٣ ألف فقط أن يذهبوا للتجنيد. وكان هذا العدد ثلاثة أضعاف العدد الذى رفض أداء الخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الأولى. كان يطلق على هؤلاء وصف "الممتنعون عن أداء الخدمة العسكرية بدافع من الضمير" Conscientious Objectors ومن بين هذا العدد (٤٣ ألف) ذهب ستة آلاف إلى السجن وهو ما يبلغ أربعة أضعاف مَنْ سجنوا أثناء الحرب العالمية الأولى. كان هناك معترض على أداء الخدمة العسكرية بدافع من الضمير من بين كل ستة فى السجون الفيدرالية.

كان هناك كثيرون من رافضى التجنيد لم يظهروا قط فى مكاتب التجنيد. هناك قوائم حكومية تضم ٣٥٠ ألف حالة من الذين رفضوا أو تفادوا التجنيد، ولذلك فمن

الصعب تحديد الرقم الفعلى للذين رفضوا الذهاب إلى الحرب ، وربما يصل عددهم إلى مئات الآلاف وهو رقم ليس صغيراً فى مجتمع أمريكى كان مُجمعاً على تأييد الحرب.

ومن الصعب أيضاً تقدير حجم السخط الذى انتشر بين الجنود الأمريكيين ضد السلطة وضد الاضطرار إلى خوض حرب أهدافها غير واضحة. لم يسجل أحد الإحساس بالمرارة لدى المجندين تجاه المزايا الكبيرة للضباط فى جيش يتباهى بأنه ديمقراطى. على سبيل المثال، فى المسرح الأوروبى للحرب، كان هناك دائما طابوران للمحاربين لمشاهدة أحد الأفلام فى فترات توقف القصف. الطابور الأول (قصير) للضباط والآخر (طويل) للمجندين ، وكان هناك صالتان للطعام إحداهما للضباط والأخرى للمجندين وكان طعام الجنود مختلفاً - أسوأ - عن طعام الضباط.

استطاع أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية أن يمسك بغضب الجنود وإحباطهم أثناء الحرب ولعل أشهر الأمثلة الأدبية تتمثل فى نصوص جيمس جونز: **From here to Eternity**، وجوزيف هيللر: **Catch-22**، ونورمان ميلر **Mailer**، **The Naked and the Dead** حيث يتحدث الجنود فى المعركة ويقول أحدهم: "الخطأ الوحيد فى هذا الجيش هو أنه لم يخسر حرباً."(*)

بدا أنه كانت هناك لا مبالاة كبيرة إن لم يكن عداءً من قبل السود تجاه الحرب على الرغم من محاولات الصحف وقادة السود لحشد مشاعرهم من أجل تأييد الحرب. فى كتابه **متمردون ضد الحرب** **Rebels Against War** يقتبس لورنس ويتنر **Wittner** كلمات صحفى أسود تقول: "الزنجى غاضب وساخط بل وكاره للحرب. يتساءل: لماذا أحارب؟ هذه الحرب لا تعنى شيئاً بالنسبة لى، فإذا انتصرنا فى الحرب، سأكون الخاسر."

وقال طالب فى كلية للزنوج لمدرسه: "إن الجيش يمارس التمييز العنصرى ضدنا والبحرية لا توظفنا إلا فى المهن الصغيرة والحقيرة. والصليب الأحمر يرفض تبرعنا

(*) كان هذا ، بالطبع ، قبل حرب فيتنام (المترجم) .

بالدم. ولا نزال محرومين من حقنا فى التصويت فى الانتخابات ، ولا زال البيض يبصقون علينا ولا زال بعضنا يموتون حرقاً. هل يفعل هتلر ما هو أكثر من ذلك؟

فى يناير عام ١٩٤٣ ظهرت فى إحدى صحف الزنوج قصيدة عنوانها "صلاة المستدعى للتجنيد" Draftee's Prayer، جاء فيها:

يا إلهى

سأذهب اليوم للحرب

كى أحارب، كى أموت

ولست أعرف لماذا

يا إلهى! دلنى على السبب.

يا إلهى! سوف أحارب

فأنا لا أخشى الألمانيين أو اليابانيين

إن خوفى هنا

فى أمريكا.

غير أنه لم تكن هناك حركة منظمة للسود من أجل معارضة الحرب ، وفى حقيقة الأمر، لم تكن هناك حركة منظمة بمعنى الكلمة لمعارضة الحرب. فقد كان الحزب الشيوعى الأمريكى من كبار المتحمسين للحرب وانقسم الحزب الاشتراكى فلم يستطع أن يصدر بياناً واضحاً يعبر عن موقفه من الحرب.

كان حزب العمال الاشتراكيين هو الوحيد تقريباً الذى يمثل جماعة منظمة لمعارضة الحرب، وقد بدأ تطبيق قانون الجاسوسية لعام ١٩١٧ على البيانات الصادرة فى وقت الحرب ، ولكن فى عام ١٩٤٠ أصدر الكونجرس قانون سميث الذى استند إلى قانون الجاسوسية بشأن خطر نشر وترويج أى تصريحات يكون من شأنها أن تفضى

إلى رفض التجنيد فى القوات المسلحة بل وقامت الولايات المتحدة بتطبيق هذا القانون فى وقت السلم، أى بعد انتهاء الحرب. كذلك نص قانون سميث على تجريم أى دفاع عن الإطاحة بالحكومة عن طريق القوة أو اللجوء إلى العنف وعلى تجريم الانضمام إلى أى جماعة تتبنى مثل هذه الأفكار ، وفى منيا بوليس عام ١٩٤٣ اتُهم ثمانية عشر عضواً من حزب العمال الاشتراكيين بالانضمام إلى حزب تنتهك مبادئه قانون سميث. وحُكم عليهم بالسجن ورفضت المحكمة الدستورية العليا إعادة النظر فى قضيتهم.

استمرت أصوات قليلة فى إصرارها على أن الحرب الفعلية كانت بداخل كل أمة. نشرت مجلة "بوليتيكس"، التى كان يصدرها داويت ماكدونالد فى سنوات الحرب، مقالة فى أوائل عام ١٩٤٥ للفيلسوفة الفرنسية سيمون فيل، جاء فيها:

> **سواء كان القناع هو الفاشية أو الديمقراطية أو ديكتاتورية البروليتاريا، فإن خصمنا الأكبر هو النظام نفسه، أى البيروقراطية والبوليس والجيش. ليس خصمنا ذلك الذى نواجهه على حدود البلاد أو فى المعارك، ولكنه النظام الذى يسمى نفسه حامياً لنا فى الوقت الذى يجعلنا فيه عبيداً له. ومهما كانت الظروف والأحوال، فإن أسوأ خيانة ستكون فى قيامنا بجعل أنفسنا تابعين لهذا النظام وفى أن نضع تحت قدميه وفى خدمته كل قيمنا الإنسانية.**

كان معظم الأمريكيين قد تمَّ حشدهم لشن الحرب سواء فى الجيش أو فى الحياة المدنية وهيمن جو الحرب على المزيد والمزيد من الأمريكيين. وتظهر استطلاعات الرأى أن جنوداً كثيرين كانوا يفضلون التجنيد فى الجيش فى فترة ما بعد الحرب. انتشرت كراهية العدو ونالت هذه الكراهية بشكل خاص من اليابانيين. كانت العنصرية تعمل على قدم وساق ، فقد ورد فى مجلة "تايم" أثناء تغطيتها لمعركة أيوو جيما **Iwo Jima** الكلمات التالية: "إن اليابانى العادى جاهل. ربما يكون بشراً. غير أن شيئاً واحداً ... لا يشير إلى ذلك".

كان هناك إذن قاعدة جماهيرية عريضة من التأييد لما أصبح بعد ذلك أشد قصفٍ للمدنيين فى أى حرب، ونقصد بذلك قصف المدن الألمانية واليابانية. ربما يرى المرء أن هذا التأييد الشعبى هو ما جعل هذه الحرب "شعبية". ولكن إذا كانت "الحرب الشعبية" تعنى حرباً يقوم بها الشعب ضد هجوم ما، أى إذا كانت تعنى حرباً دفاعية - إذا كانت تعنى حرباً تقوم لأسباب إنسانية وليس من أجل مزايا تحصل عليها نخبة ثرية، فإن الهجوم الجوى على سكان ألمانيا واليابان يقوّض هذا المعنى.

قصفت إيطالياً مدناً فى إثيوبيا وقصفت كل من إيطاليا وألمانيا المدنيين فى الحرب الأهلية الإسبانية. وفى بداية الحرب العالمية الثانية، قامت الطائرات الألمانية بقصف روتردام فى هولندا ومدينة كوفينترى فى إنجلترا كما قامت بقصف مدن أخرى. فى ذلك الوقت، وصف روزفلت تلك العمليات بأنها "بربرية غير إنسانية صدمت ضمير الإنسانية على نحو شديد".

وكانت عمليات القصف الألمانية هذه صغيرة إذا ما قورنت بعمليات قصف الإنجليز والأمريكيين للمدن الألمانية، ففى يناير عام ١٩٤٣ التقى الحلفاء فى الدار البيضاء واتفقوا على توجيه هجمات جوية واسعة النطاق إلى ألمانيا بهدف القضاء على العسكرية الألمانية وتقويض النظام الاقتصادى والصناعى وتحطيم الروح المعنوية للشعب الألمانى إلى الحد الذى لا يستطيعون فيه القيام بأى مقاومة مسلحة ، وبدأ القصف الشامل للمدن الألمانية عن طريق غارات قامت بها ألف طائرة على كولون وإيسين وفرانكفورت وهامبورج ، وكانت قمة هذا الرعب عند قصف مدينة دريسدن فى أوائل عام ١٩٤٥ حيث اشتعلت النار، نتيجة درجة الحرارة العالية، فى المدينة ومات ١٠٠ ألف من سكانها (اعترف وينستون تشرشل فى مذكراته: "قمنا بغارة كثيفة فى الشهر التالى على مدينة دريسدن التى كانت فى ذلك الوقت مركزاً للاتصالات للجبهة الشرقية لألمانيا".

واستمر القصف الشامل على المدن اليابانية بهدف تحطيم الروح المعنوية للمدنيين، وقد أسفر قصف تمّ فى ليلة واحدة على طوكيو إلى مقتل ٨٠ ألف يابانياً.

وفى ٦ أغسطس ظهرت طائرة وحيدة فى سماء هيروشيما حيث أسقطت عليها أول قنبلة نووية مما أدى إلى مقتل ١٠٠ ألف يابانى وعشرات الآلاف ماتوا موتاً بطيئاً نتيجة التسمم النووى، كما قتل مع هؤلاء اثنا عشر ملاحاً جوياً أمريكياً وهى الحقيقة التى لم تعترف بها الحكومة الأمريكية رسمياً – وفقاً لما جاء فى كتاب **عالم تحطم A World Destroyed**، للمؤرخ مارتن شيروين Sherwin. وبعد ثلاثة أيام من إلقاء القنبلة الأولى، أسقطت أمريكا قنبلة نووية ثانية على مدينة ناجازاكى مما أدى إلى مقتل ٥٠ ألف يابانى آخرين.

كان تبرير ارتكاب هذه الفظائع هو أنها ستنهى الحرب بسرعة بما لا يضطر الحكومة الأمريكية إلى غزو اليابان لأن مثل هذا الغزو كان سيكلف الولايات المتحدة حياة مليون أمريكى حسب تقدير وزير الخارجية الأمريكى بيرنيز ، وزعم الرئيس ترومان أن الجنرال جورج مارشال قال له إن الغزو قد يكلف الحكومة الأمريكية نصف مليون جندى. (عندما نُشرت أوراق مشروع مانهاتن – لبناء القنبلة النووية – أظهرت أن الجنرال مارشال حث الحكومة الأمريكية على إرسال تحذير إلى اليابان بحيث تخلى المدنيين من أماكن القصف). إن تقديرات تكلفة الغزو هذه لم تكن واقعية وتمت المبالغة فيها بهدف تبرير ذلك القصف المرعب واللجوء إلى السلاح النووى. بحلول أغسطس عام ١٩٤٥ كانت اليابان فى حالة شديدة السوء وكانت على استعداد للاستسلام. بعد الحرب بفترة قصيرة، نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالة للمحلل العسكرى هانسون بولدوين جاء فيه:

> **كان العدو، بالمعنى العسكرى للكلمة، فى وضع استراتيجى لا يبعث على الأمل بحلول ٢٦ يوليو حيث طلب من اليابانيين الاستسلام غير المشروط. كان هذا هو الوضع عندما قمنا بمسح هيروشيما وناجازاكى من الوجود. هل كنا فى حاجة لأن نفعل ذلك؟ لا يستطيع أحد، بالطبع، أن يكون متأكداً من ذلك. لكن يكاد يكون من المؤكد أن الإجابة على ذلك السؤال بالنفى.**

وقامت وزارة الحرب الأمريكية فى عام ١٩٤٤ بعمل "مسح القصف الاستراتيجى" للولايات المتحدة بهدف دراسة نتائج الهجمات الجوية فى الحرب. أجرى القائمون على ذلك المسح بعد استسلام اليابان مقابلات مع مئات من العسكريين والمدنيين اليابانيين. ووصل المسح إلى عدة نتائج منها:

> **بعد بحث مفصل لكل الحقائق وبعد سماع شهادات القادة اليابانيين، فإن الرأى هو أنه قبل ٣١ ديسمبر عام ١٩٤٥ بل ومن المحتمل جداً أنه قبل الأول من نوفمبر عام ١٩٤٥، كانت اليابان ستستسلم حتى لو لم يتم إلقاء القنبلتين النوويتين، بل وحتى إذا لم تدخل روسيا الحرب ضد اليابان، وحتى لو لم يكن هناك تخطيط أو تفكير فى الغزو.**

ولكن هل كان يستطيع الأمريكيون أن يعرفوا ذلك فى أغسطس ١٩٤٥؟ الإجابة بكل بوضوح: نعم. كان الأمريكيون قد فكوا أسرار الشفرة اليابانية وكانوا يتنصتون على الرسائل اليابانية ، وكانت الحكومة الأمريكية تعرف بأن السفير اليابانى فى موسكو تلقى تعليمات بعمل خطة للتفاوض مع الحلفاء، وكانت تعلم أن اليابانيين بدأوا يتحدثون عن الاستسلام قبل عام وأن الإمبراطور اليابانى نفسه اقترح فى يونيو ١٩٤٥ النظر فى بدائل استمرار الحرب، وفى ١٣ يوليو أبرق وزير الخارجية اليابانى شيجينورى توجو، إلى سفيره فى موسكو: "إن الاستسلام غير المشروط هو العقبة الوحيدة فى طريق السلام ...". بعد دراسة مفصلة للوثائق التاريخية لما حدث، انتهى مارتن شيروين إلى ما يلى: "بعد كشفها أسرار الشفرة اليابانية قبل الحرب، كانت المخابرات الأمريكية قادرة على إعادة توجيه هذه الرسالة [لوزير الخارجية اليابانى- وقد فعلت – إلى الرئيس لكن هذا لم يكن له تأثير على الجهود المبذولة لإنهاء الحرب".

لو لم يصر الأمريكيون على الاستسلام غير المشروط لليابانيين – أى لو كانوا راغبين فى قبول شرط واحد للاستسلام وهو بقاء الإمبراطور اليابانى فى مكانه، وهو الرمز المقدس لليابانيين، لقبل اليابانيون أن يوقفوا الحرب.

لماذا لم تقم الولايات المتحدة بهذه الخطوة الصغيرة التى كان من شأنها أن تنقذ حياة الآلاف من اليابانيين والأمريكيين؟ هل كان السبب أن الولايات المتحدة أنفقت الكثير من المال والجهد على إنتاج القنبلة النووية بحيث يصير من الترف عدم استعمالها؟ أم أن الولايات المتحدة - كما يقول العالم البريطانى بلاكيت P. M. S. Blackett، فى كتابه **الخوف والحرب والقنبلة** Fear, War and the Bomb كانت تتطلع إلى إلقاء القنبلة النووية قبل أن يدخل الروسيون الحرب ضد اليابان؟

كان الروس قد وافقوا سراً (لم يكونوا رسمياً فى حالة حرب مع اليابان) على دخول الحرب ضد اليابان بعد انتهاء الحرب فى أوروبا بتسعين يوماً ، وكان الثامن من أغسطس هو اليوم الذى كان من المفترض أن يعلن الروس فيه رسمياً دخولهم الحرب ضد اليابان ، ولكن بمجىء ذلك اليوم، كان الأمريكيون قد أسقطوا القنبلتين النوويتين على هيروشيما وناجازاكى ، وكان هذا معناه أن اليابانيين سيعلنون الاستسلام للأمريكيين وليس للروس وأن الولايات المتحدة ستكون هى المحتل ليابان ما بعد الحرب. كان إلقاء القنبلة النووية "أول عملية رئيسية للحرب الدبلوماسية الباردة مع روسيا" على حد قول البريطانى بلاكيت.

قال الرئيس ترومان: "سوف يعرف العالم أننا ألقينا أول قنبلة نووية على هيروشيما لأنها كانت قاعدة عسكرية ، وكان هذا لأننا أردنا أن نتجنب قتل المدنيين قدر المستطاع ". وكان هذا كلاماً يجافى الحقيقة والمنطق. فالذين قُتلوا فى هيروشيما (١٠٠ ألف) كانوا من المدنيين إلا قليلاً. وقد جاء فى تقرير مسح القصف الاستراتيجى، الذى أشرنا إليه من قبل، أنه "تم اختيار هيروشيما ونجازاكى كهدفين بسبب تمركز السكان والأنشطة الكثيرة فيهما".

ويبدو أن إسقاط القنبلة الثانية على نجازاكى كان معداً سلفاً لأن أحداً لا يستطيع أن يقدم سبباً مقنعاً لإسقاطها. هل أسقطتها الحكومة الأمريكية لأنها كانت مصنوعة من البلوتينيوم بينما كانت القنبلة التى أُسقطت على هيروشيما مصنوعة من اليورانيوم؟ هل الذين ماتوا أو أصيبوا بالإشعاع النووى فى ناجازاكى كانوا ضحايا

تجربة علمية؟ يقول مارتن شيروين إن أسرى أمريكيين كانوا من بين ضحايا قنبلة ناجازاكى.

صحيح أن الحرب انتهت سريعاً. فقد هُزمت إيطاليا قبل عام واستسلمت ألمانيا بعد أن قضت عليها جيوش الاتحاد السوفيتى من الجبهة الشرقية وبمساعدة جيوش الحلفاء من الجبهة الغربية ، والآن استسلمت اليابان ، وتم القضاء على القوى الفاشية. ولكن ماذا عن الفاشية كفكرة وكحقيقة؟ هل انتهت عناصرها الأساسية: العسكرية والعنصرية والإمبريالية؟ أم تراها تسربت إلى العظام المسممة للمنتصرين؟ كان إيه. جيه. ميوست، داعية السلام الثورى، قد تنبأ فى عام ١٩٤١ بقوله: "إن المشكلة بعد أى حرب تكون فى المنتصر. إنه يعتقد أنه أثبت أن الحرب والعنف يؤتيان الثمار. فمن ذا الذى يستطيع الآن أن يعلمه درساً؟"

استأنف المنتصران الكبيران الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى (وأيضاً إنجلترا وفرنسا والصين ولكن هؤلاء كانوا ضعفاء) العمل ولكن تحت غطاء "الاشتراكية" من ناحية و"الديمقراطية" من ناحية أخرى فى سبيل بناء إمبراطوريتهما. انطلق الاثنان فى المشاركة والتنافس على الهيمنة على العالم وبدءا فى بناء آلات عسكرية أكبر كثيراً من التى بنتها الدول الفاشية ، ثم راحا يتحكمان فى مصائر دول أكثر مما استطاع الألمان والإيطاليون واليابانيون. ومن أجل تأمين حكمهما، فقد بدءا أيضاً فى إحكام السيطرة على مواطنيهما، كلٌ بطريقته. كانت الدعاية فى الاتحاد السوفيتى زاعقة بينما كانت أكثر ذكاء وعمقاً فى الولايات المتحدة.

لم تضع الحرب الولايات المتحدة فى موقع يسمح لها بالسيطرة على أجزاء كبيرة من العالم فحسب، لكنها أيضاً خلقت لها ظروفاً فعالة لإحكام السيطرة على المواطنين الأمريكيين ، وغطى الحديث عن المجهود الحربى على المشاكل الاقتصادية والبطالة وقد خففت من حدتها برامج الإغاثة للصفقة الجديدة. جاءت الحرب ببعض الخير للفلاحين والعمال بما يمنع التهديد بقيام حركات تمرد. يقول لورنس ويتنر: "أحيت الحرب أمريكا الرأسمالية". وكانت المكاسب الكبيرة من نصيب الشركات الكبرى التى ارتفعت من

٦,٤ مليار فى ١٩٤٠ إلى ١٠,٨ مليار فى عام ١٩٤٤ وذهب ما يكفى فقط من الأرباح إلى العمال والفلاحين بما يجعلهم يشعرون أن النظام كان يفعل شيئاً طيباً من أجلهم.

وتعلمت الحكومات الأمريكية درساً قديماً مفاده أن الحرب تحل لها مشكلة السيطرة على الجماهير. كان تشارلز ويلسون، رئيس شركة جنرال إلكتريك، سعيداً بالموقف أثناء وبعد الحرب حتى أنه اقترح استمرار التحالف بين أصحاب الشركات الكبرى والمؤسسة العسكرية فيما يمكن أن يُسمى "اقتصاد الحرب الدائمة".

وهذا ما حدث عندما بدأ الرأى العام الأمريكى، بعد الحرب، يفضل التهدئة ووقف التسلح، عملت إدارة ترومان (روزفلت مات فى إبريل ١٩٤٥) على خلق جو من الأزمة والحرب الباردة. صحيح أن التنافس مع الاتحاد السوفيتى كان حقيقياً لكن إدارة ترومان لم تقدم الاتحاد السوفيتى إلى الرأى العام الأمريكى كمجرد منافس ولكن كتهديد مباشر للولايات المتحدة ، ومن خلال بعض الإجراءات فى الداخل والخارج، خلقت إدارة ترومان مناخاً من الخوف والهستيريا عن الشيوعية كى تبرر رفع الميزانية العسكرية. كان من شأن هذه السياسة أن تؤدى إلى ارتكاب أعمال عدوانية فى الخارج وأعمالاً قمعية فى داخل البلاد.

كانت الإدارة الأمريكية تصف الحركات الثورية سواء فى أوروبا أو آسيا، للرأى العام الأمريكى، بأنها أمثلة على التوسع السوفيتى وتربط بين الاتحاد السوفيتى وهتلر فى درجة الخطر والتهديد.

وفى اليونان، التى كان يحكمها نظام ملكى وديكتاتورى قبل الحرب، أحبط تدخل للجيش البريطانى حركة جبهة التحرير الوطنية اليسارية EAM، بعد الحرب مباشرة. وأعاد الجيش البريطانى الديكتاتورية اليمينية إلى الحكم. وبعد أن تم إلقاء المعارضين فى السجون وأُزيح قادة النقابات والاتحادات، بدأت حركة عصابات يسارية تظهر. كانت هذه العصابات تتكون من ١٧ ألف مقاتلاً ولها ٥٠ ألفاً من المؤيدين و٢٥٠ ألف من المتعاطفين فى بلد يبلغ عدد سكانه ٧ ملايين. عند هذا الحد قالت بريطانيا العظمى إنها لا تستطيع التعامل مع هذا التمرد الجديد وطلبت من الولايات المتحدة أن تتدخل.

قال أحد مسئولى وزارة الخارجية الأمريكية فيما بعد: "بذلك قامت بريطانيا العظمى بتسليم قيادة العالم ... إلى الولايات المتحدة". وردت الولايات المتحدة "بمبدأ ترومان" وهو الاسم الذى أُطلق على خطاب ترومان أمام الكونجرس فى ربيع عام ١٩٤٧ الذى طالب فيه بتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية قدرها ٤٠٠ مليون دولار لكل من اليونان وتركيا. قال ترومان إن على الولايات المتحدة "أن تساعد الشعوب الحرة التى تقاوم محاولات إخضاعها من قبل أقليات مسلحة أو من قبل ضغوط خارجية".

والحقيقة أن الولايات المتحدة نفسها كانت أكبر ضغط خارجى ، فقد كان المتمردون اليونانيون يحصلون على مساعدات من يوغسلافيا وليس من الاتحاد السوفيتى الذى وعد تشرشل بإطلاق يده فى اليونان إذا سمح للاتحاد السوفيتى بدخول رومانيا وبولندا وبلغاريا ، والاتحاد السوفيتى، مثل الولايات المتحدة، لم يكن يرغب فى مساعدة ثورات لن تكون تحت سيطرته. كان كلارك كليفورد قد اقترح أن يربط ترومان فى حديثه عن التدخل الأمريكى فى اليونان بين هذا التدخل وبين شىء آخر أكثر عملية وهو "المصادر الطبيعية العظمى فى الشرق الأوسط" (كان كليفورد يقصد بالبترول) لكن ترومان لم يذكر ذلك.

لم تتدخل الولايات المتحدة فى الحرب الأهلية فى اليونان بإرسال جنود ولكن بإرسال بعض المستشارين العسكريين ، وفى آخر خمسة شهور من عام ١٩٤٧ أرسلت الولايات المتحدة ما وزنه ٤٧ ألف طن من المعدات العسكرية إلى الحكومة اليمينية فى أثينا. كان هناك مائتان وخمسون ضابطاً أمريكياً تحت قيادة الجنرال جيمس فان فليت Van Fleet يقومون بتقديم النصائح العسكرية للجيش اليونانى فى ساحات القتال. بدأ فان فليت سياسة تعتبر معياراً للتعامل مع الانتفاضات الشعبية وهى إجلاء آلاف اليونانيين عن بيوتهم فى الريف فى محاولة لعزل العصابات المسلحة بقطع دعم الأهالى عنها.

تمت هزيمة التمرد فى عام ١٩٤٩ نتيجة المساعدات الأمريكية واستمرت المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية للحكومة اليونانية بعد ذلك. وتدفقت

استثمارات بعض الشركات الكبرى مثل إسو وداو كيميكال وكريزلر إلى اليونان ، ولكن ظل انتشار الفقر والأمية كما هو فى ظل سيطرة "ديكتاتورية عسكرية شديدة الرجعية والوحشية"، على حد قول ريتشارد بارنيت Barnet، فى كتابه **التدخل والثورة** Intervention and Revolution .

وفى الصين كانت هناك ثورة تولد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكانت تقود هذه الثورة حركة شيوعية تحظى بتأييد جماهيرى كبير. كان الجيش الأحمر الصينى، الذى حارب ضد اليابانيين، يحارب الآن من أجل الإطاحة بدكتاتورية شيانج كاى شيك الفاسدة التى كانت تلقى دعماً كبيراً من الولايات المتحدة. فحتى عام ١٩٤٩ كانت الولايات المتحدة قد قدمت مساعدات قدرها مليارين من الدولارات لقوات شيانج كاى شيك ولكن حسب وزارة الخارجية الأمريكية، فإن حكومة كاى شيك فقدت ثقة قواتها وشعبها ، وفى يناير عام ١٩٤٩ دخلت القوات الشيوعية الصينية بكين وانتهت الحرب الأهلية وأصبحت الصين فى أيدى حركة ثورية هى الأقرب، فى تاريخ ذلك البلد القديم، إلى حكومة شعبية مستقلة عن الضغوط الخارجية.

فى العقد التالى للحرب، كانت الولايات المتحدة تحاول خلق إجماع وطنى - باستثناء الراديكاليين الذين لم يكونوا ليؤيدوا سياسة خارجية هدفها قمع ثورة ما - من قبل المحافظين والليبراليين والجمهوريين والديمقراطيين حول سياسة الحرب الباردة ومناهضة الشيوعية. كان الرئيس الليبرالى الديمقراطى ترومان هو الأقدر على خلق مثل هذا التحالف وهو – الرئيس – الذى تتمتع سياسته الخارجية الجريئة بتأييد المحافظين وتتمتع برامجه للرعاية الاجتماعية فى الداخل بدعم الليبراليين. علاوة على ذلك، فإذا أمكن أن يكون هناك إجماع من الليبراليين والديمقراطيين التقليديين (وليست ذكرى الحرب ببعيدة) لتأييد سياسة خارجية ضد "العدوان"، يصير من الممكن تفكيك الكتلة الليبرالية الراديكالية التى تشكلت جراء الحرب العالمية الثانية ، ولو صار المزاج المعادى للشيوعية قوياً بما يكفى، فربما يؤيد الليبراليون أى إجراءات قمعية فى الداخل وهى الإجراءات التى تعتبر، فى الأوقات العادية، انتهاكاً للتراث الليبرالى من التسامح.

وفى عام ١٩٥٠، وقع حادث عجَّل بتحقيق الإجماع الليبرالى المحافظ ونقصد بذلك حرب ترومان غير المعلنة ضد كوريا ، فقد تحررت كوريا من الاحتلال اليابانى، الذى استمر خمسة وثلاثين عاماً، بعد الحرب العالمية الثانية وانقسمت إلى كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية. كانت الأولى ديكتاتورية اشتراكية تدور فى فلك النفوذ السوفيتى والثانية كانت ديكتاتورية يمينية تدور فى فلك النفوذ الأمريكى. كانت هناك تهديدات متبادلة بين الكوريتين وفى ٢٥ يونيو عام ١٩٥٠ زحف جيش كوريا الشمالية باتجاه الجنوب بهدف احتلاله. عندئذ طالبت الأمم المتحدة، التى كانت تسيطر عليها الولايات المتحدة، أعضاءها بتقديم المساعدة "لدحر الهجوم المسلح". أمر الرئيس ترومان القوات المسلحة الأمريكية بمساعدة كوريا الجنوبية وأصبح الجيش الأمريكى هو جيش الأمم المتحدة. وقال ترومان: "إن العودة إلى استخدام القوة فى الشئون الدولية من شأنه أن تكون له أخطار وتأثيرات كبيرة. ولسوف تستمر الولايات المتحدة فى دعمها لحكم القانون".

تمثلت استجابة الولايات المتحدة "لقانون القوة" فى أنها حولت الكوريتين إلى مجزر كبير من خلال قصف شديد على مدار ثلاث سنوات استخدمت فيه القوات الأمريكية النابالم ما أدى إلى مقتل مليونين من الكوريين الشماليين والجنوبيين ، وكان كل هذا باسم معارضة "حكم القوة".

أما فيما يخص "حكم القانون" الذى تحدث عنه ترومان، فيبدو أن القوات الأمريكية قد ذهبت إلى ما وراءه. لقد نادى قرار الأمم المتحدة "بصد الهجوم واستعادة السلام والأمن للمنطقة". لكن الجيوش الأمريكية، بعد أن أرجعت قوات كوريا الشمالية إلى حدودها، تقدمت على طول الطريق داخل البلاد حتى وصلت إلى نهر يالو Yalu على الحدود مع الصين وهو الأمر الذى حفز الصينيين على دخول الحرب ، وانطلق الصينيون باتجاه الجنوب حتى الحدود مع كوريا الجنوبية وهناك استمرت الحرب حتى الوصول إلى مفاوضات سلام فى عام ١٩٥٣ وعادت الحدود القديمة بين الكوريتين إلى ما كانت عليه.

حشدت الحرب الكورية الرأى الليبرالى خلف الحرب والرئيس. لقد أحدثت الحرب تحالفاً كانت الإدارة الأمريكية فى حاجة إليه لدعم سياسة التدخل فى الخارج وسياسة عسكرة الاقتصاد فى الداخل. وتسبب ذلك فى مشكلة لمن ظلوا خارج نطاق التحالف من منتقدى الحرب الراديكاليين.، وفى كتابه **ما وراء الصفقة الجديدة Beyond the New Deal**، يرصد ألونزو هامبى **Alonzo Hamby** أن مجلات مثل "ذا نيو ريبابليك" و"ذا نيشن" كانت تؤيد الحرب الكورية، كذلك كان يؤيدها هنرى والاس (الذى دخل انتخابات الرئاسة ضد ترومان فى عام ١٩٤٨ عن تحالف اليسار). لم يحب الليبراليون السيناتور جوزيف مكارثى (الذى كان يتصيد الشيوعيين فى كل مكان حتى بين الليبراليين أنفسهم) لكن الحرب الكورية، كما يقول هامبى: "أعطت المكارثية فرصة جديدة فى الحياة".

كان اليسار يتمتع بنفوذ كبير فى سنوات الثلاثينيات العصيبة وأثناء الحرب ضد الفاشية. لم يكن عدد أعضاء الحزب الشيوعى كبيراً، حيث كان يقل قليلاً عن ١٠٠ ألف عضو لكنه كان قوة كامنة فى النقابات والاتحادات التى كان أعضاؤها بالملايين، وكذلك كانت قوة اليسار موجودة فى مجال الفنون وبين عدد لا يُحصى من الأمريكيين الذين ربما لم يدفعهم فشل النظام الرأسمالى إلى أن ينظروا بإنصاف إلى الشيوعية والاشتراكية ، ومن هنا كان على المؤسسة، إذا أرادت أن تضمن للرأسمالية مكاناً آمناً فى البلاد بعد الحرب العالمية الثانية، أن تقوم بإضعاف وعزل قوى اليسار.

وبعد أسبوعين من تقديم مذهب ترومان الخاص بمساعدة اليونان وتركيا إلى الأمريكيين، أصدر الرئيس ترومان الأمر التنفيذى رقم ٩٨٣٥ فى ٢٢ مارس عام ١٩٤٧ والذى يقوم على برنامج يقضى بالبحث عن أى "تسرب للأشخاص الخونة" إلى داخل الحكومة الأمريكية. فى كتابهما **الخمسينيات The Fifties**، يعلق المؤلفان دوجلاس ميللر وماريون نواك:

> **على الرغم من أن ترومان سوف يشكو فيما بعد من "موجة الهستريا الكبرى" التى عصفت بالبلاد، فقد كان التزامه**

بالانتصار على الشيوعية وبتأمين البلاد من مخاطر التهديدات الخارجية المسئول الأكبر لخلق هذه الهستيريا نفسها. فبين بدء هذا البرنامج فى مارس عام ١٩٤٩ وحتى ديسمبر عام ١٩٥٢ تم التحقيق مع ٦,٦ مليون شخص. ولم يتم الكشف عن حالة تجسس واحدة رغم أن خمسمائة فرد فُصلوا من وظائفهم نتيجة الاشتباه فى ولائهم. كان كل هذا يتم بناء على أدلة سرية ومعلومات يقدمها الوشاة دون الاعتماد على قاضٍ أو هيئة محلفين.

لعبت الأحداث العالمية فى فترة ما بعد الحرب دوراً مؤثراً فى بناء تأييد كبير لحملة مناهضة للشيوعية. ففى عام ١٩٤٨ أطاح الحزب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا بالنظام القائم وبدأ يحكم البلاد ، وفى العام نفسه، حاصر الاتحاد السوفيتى برلين. وفى عام ١٩٤٩ كان هناك انتصار شيوعى فى الصين وفى العام نفسه أيضاً فجَّر الاتحاد السوفيتى أول قنبلة نووية فى تاريخه. وفى عام ١٩٥٠ بدأت الحرب الكورية. كانت الحكومة الأمريكية تصور ما حدث للرأى العام الأمريكى بوصفه مؤامرة شيوعية على العالم. اختلف تصوير الحكومة الأمريكية لحركات التحرر التى عمت الشعوب المستعمرة ومطالبتها بالاستقلال. لم تصورها الحكومة الأمريكية كما صورت الانتصارات الشيوعية ولكن بوصفها شيئاً يبعث على القلق. كانت الحركات الثورية فى ازدياد ضد الفرنسيين فى الهند الصينية وضد الهولنديين فى إندونيسيا وضد الولايات المتحدة فى الفلبين ، وكذلك كانت الحال فى إفريقيا.

لم يقتصر التهديد لحكومة الولايات المتحدة والمصالح الأمريكية على اتساع النفوذ السوفيتى. إن الذى حدث فى الصين وكوريا والهند الصينية والفليبين قامت به حركات شيوعية محلية ودون تحريض من الاتحاد السوفيتى. كان ما حدث موجة عامة لمناهضة الإمبريالية وهى الموجة التى ستحتاج إلى جهود أمريكية جبارة لإلحاق الهزيمة بها. تمثلت الجهود الجبارة فى الوحدة الوطنية من أجل عسكرة ميزانية البلاد وقمع

المعارضة الداخلية لمثل هذه السياسة الخارجية ، وتحرك ترومان والليبراليون فى الكونجرس من أجل خلق الوحدة الوطنية التى أشرنا إليها، وتمثل ذلك فى الأمر التنفيذى الخاص بالتشريع لمناهضة الشيوعية وقسم الولاء وإقامة الدعاوى من قبل وزارة العدل ضد الموالين للشيوعية.

فى هذا الجو، استطاع السيناتور جوزيف مكارثى، عن ولاية ويسكنسون، أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه الرئيس ترومان. كان يتحدث فى نادى النساء الجمهورى فى مدينة ويلنج بغرب فرجينيا بداية عام ١٩٥٠ عندما رفع بعض الأوراق صائحاً: "هنا فى يدى قائمة تضم ٢٥٦ اسماً علم وزير الخارجية أنهم أعضاء فى الحزب الشيوعى ورغم ذلك فإنهم لا يزالون يعملون فى وزارة الخارجية ويرسمون سياستها". فى اليوم التالى، وأثناء حديثه في سولت ليك سيتى، زعم مكارثى أن تحت يده قائمة تضم سبعة وخمسين (كان الرقم يتغير فى كل مرة يتحدث فيها) شيوعياً فى وزارة الخارجية. بعد ذلك بوقت قصير، ظهر مكارثى فى مجلس الشيوخ وهو يحمل نسخاً من حوالى ألف ملف من ملفات الولاء بوزارة الخارجية. كانت الملفات ترجع إلى ثلاث سنوات وكان معظم من تحدث عنهم قد غادروا وزارة الخارجية. لكن مكارثى قرأ من الملفات وهو يضيف ويغير أثناء القراءة ، وفى حديثه عن إحدى الحالات غير كلمة "ليبرالى" المكتوبة على الدوسيه إلى "يميل إلى الشيوعية" وفى دوسيه آخر غير العنوان من "دائم التنقل والسفر" إلى "شيوعى نشط" وهكذا.

استمر مكارثى على هذه الحال على مدار السنوات القليلة التالية، بوصفه رئيساً للجنة الفرعية الدائمة للتحقيقات المنبثقة عن لجنة لمجلس الشيوخ تتولى العمليات الحكومية. قام مكارثى بفحص برنامج المعلومات الخاص بوزارة الخارجية وإذاعة "صوت أمريكا" ومكتبات وزارة الخارجية فى الخارج التى كانت تحوى كتباً رأى مكارثى أن كتابها شيوعيون. أصاب ذلك وزارة الخارجية بالهلع، فأصدرت توجيهات إلى مكتباتها فى كل أنحاء العالم. تم رفع أربعين كتاباً من رفوف المكتبات من بينها

الأعمال المختارة لتوماس جيفرسون The Selected Works of Thomas Jefferson الذى حرره فيليب فونر، وكتاب **موعد نوم الأطفال** The Children's Hour من تأليف ليليان هيلمان، بل وتم إحراق بعض الكتب.

أصبح مكارثى أكثر جرأة، ففى ربيع عام ١٩٥٤ بدأ عقد جلسات للتحقيق فى شأن من يفترض أنهم مفسدون فى المؤسسة العسكرية. استعدى مكارثى الديمقراطيين والجمهوريين على السواء عندما هاجم جنرالات المؤسسة العسكرية لأنهم لم يكونوا - فى رأيه - حازمين بما يكفى عند تعاملهم مع المشتبه فيهم من الشيوعيين ، وفى ديسمبر ١٩٥٤ وجه مجلس الشيوخ إليه لوماً شديداً عن "السلوك ... غير اللائق بأحد أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة". لكن قرار المجلس تجنب ذكر أكاذيب مكارثى ومبالغاته المناهضة للشيوعية، وركز على أمور أخرى أقل شأناً مثل رفضه الظهور أمام لجنة فرعية لمجلس الشيوخ بشأن الانتخابات وسوء معاملته أحد جنرالات الجيش فى جلسات التحقيق.

وفى الوقت الذى كان مجلس الشيوخ يوجه اللوم إلى مكارثى، كان مجلس النواب يضع عدة قوانين مناهضة للشيوعية ، وقدم الليبرالى هوبرت همفرى تعديلاً لأحد القوانين كى يجعل الحزب الشيوعى غير شرعى. وقال: "لا أنوى أن أكون نصف وطنى ... إما أن يعترف أعضاء مجلس الشيوخ بالحزب الشيوعى كما هو أو فإنهم سوف يستمرون فى التقافز على الدقائق الفنية للقوانين".

كان الليبراليون فى الحكومة يسعون إلى استبعاد الشيوعيين واضطهادهم وفصلهم من وظائفهم بل وسجنهم. كان الفارق بين هؤلاء وبين مكارثى أن الأخير شطح بعيداً وهاجم ليس فقط الشيوعيين ولكن الليبراليين الأمر الذى وضع التحالف الليبرالى المحافظ موضع الخطر. على سبيل المثال، سعى ليندون جونسون زعيم الأقلية بمجلس الشيوخ، إلى أن يحفظ قرار لوم المجلس لمكارثى فى أضيق حدود "للتصرف غير اللائق بأحد أعضاء مجلس الشيوخ".

كان جون كينيدى حذراً بشأن هذه القضية. لم يتحدث علانية ضد مكارثى (تغيب عن جلسة التصويت الخاصة بلوم مكارثى ولم يقل أبداً كيف كان سيكون تصويته). كان إصرار مكارثى على أن الشيوعية انتصرت فى الصين بسبب تهاون الحكومة فى معالجتها لقضية الشيوعية قريباً لرأى جون كينيدى كما عبر عنه أمام مجلس النواب (يناير ١٩٤٩) عندما وضع الشيوعيون الصينيون أيديهم على بكين. قال: "السيد الرئيس: علمنا فى عطلة الأسبوع بالكارثة الكبرى التى لحقت بالصين والولايات المتحدة. إن مسئولية فشل سياستنا الخارجية فى الشرق الأقصى تقع بكل تأكيد على البيت الأبيض ووزارة الخارجية. ... على مجلسنا هذا أن يتحمل مسئولية منع المد الشيوعى المندفع من إغراق آسيا كلها".

وفى عام ١٩٥٠ عندما رعى الجمهوريون مشروع قانون الأمن الداخلى **Internal Security Act**، بهدف تسجيل أسماء الهيئات والجمعيات ذات النزعة الشيوعية، لم يعترض الليبراليون من أعضاء مجلس الشيوخ. على العكس، اقترح بعضهم، مثل هوبرت همفرى وهربرت ليمان، إجراءً بديلاً يتمثل فى إقامة معسكرات لاعتقال من يكون ثمة شك فى ولائهم دون محاكمة إذا ما أعلن الرئيس حالة "طوارئ أمن داخلى".

لم يصبح هذا الإجراء مجرد بديل لقانون الأمن الداخلى، بل كان إضافة إليه. وبالفعل أقيمت معسكرات الاعتقال وأصبحت جاهزة للاستخدام. (فى عام ١٩٦٨ تم إلغاء هذا القانون بعد انقشاع الوهم العام بشأن معاداة الشيوعية).

وتطلّب الأمر التنفيذى للرئيس ترومان عام ١٩٤٧ والذى يتعلق بإخلاص الأمريكيين وولائهم، أن تقوم وزارة العدل بعمل قائمة تضم أسماء المنظمات التى ترى إنها "شمولية، فاشية، شيوعية، مفسدة ... أو تسعى لتغيير شكل حكومة الولايات المتحدة بطرق غير دستورية". عند تحديد الولاء أو الخيانة، لم يكن يقتصر الأمر على أعضاء هذه المنظمات ولكنه امتد ليشمل المتعاطفين معهم. وبحلول عام ١٩٥٤ كانت هناك، فضلاً عن الحزب الشيوعى وجماعة كو كلوكس كلان العنصرية، مئات المنظمات والهيئات على القائمة المشار إليها.

لم يكن مكارثي والجمهوريون وحدهم الذين أشعلوا لهيب المزاج المعادى للشيوعية عند الرأى العام. بل كان المسئول الأول هو إدارة الرئيس ترومان الليبرالية الديمقراطية التى بدأت سلسلة طويلة من التحقيقات مع من كانت تشتبه فى عدم ولائهم. كان أهم هذه التحقيقات ذلك الذى جرى مع جوليوس وإيثيل روزينبرج فى صيف عام ١٩٥٠ .

كان جوليوس وإيثيل روزينبرج يواجهان اتهاماً بالجاسوسية ، وكان الدليل الأكبر على اتهامهما قد قدمه عدد من الناس اعترفوا بأنهم كانوا جواسيس أو كانوا إما فى السجون أو قيد الاتهام. كان ديفيد جرينجلاس، أخو إيثيل روزينبرج، الشاهد الرئيسى فى القضية. كان يعمل فنياً بأحد معامل مشروع مانهاتن فى نيو مكسيكو عامى ١٩٤٤ و١٩٤٥ حيث كان يتم تصنيع القنبلة النووية هناك. شهد جرينجلاس بأن جوليوس روزينبرج طلب منه أن يمده ببعض المعلومات لصالح الروسيين ، وقال إنه رسم بعض الاسكتشات من الذاكرة عن تجارب نووية تجرى هناك ، وقال إن روزينبرج أعطاه نصف غطاء ورقى لعبوة كريم للشعر وقال له إن النصف الآخر للغطاء سيظهر به رجل ما فى نيو مكسيسكو. فى يونيو عام ١٩٤٥، حسب شهادة جرينجلاس، ظهر هارى جولد ومعه النصف الآخر للغطاء الورقى، وقال جرينجلاس إن روزينبرج أعطاه معلومات طلب منه أن يحفظها عن ظهر قلب دون الاحتفاظ بأى أوراق.

خرج جولد من السجن، حيث كان يقضى حكماً بالسجن لمدة ثلاثين عاماً، كى يؤيد شهادة جرينجلاس ، لم يكن جولد قد التقى جوليوس أو إثيل روزينبرج من قبل، لكنه قال إن مسئولاً بالسفارة الروسية أعطاه نصف غطاء الصندوق الورقى وطلب منه الاتصال بجرينجلاس وأن يقول له: "أنا من طرف جوليوس". قال جولد إنه أخذ الاسكتشات التى رسمها جرينجلاس من الذاكرة وأعطاها للمسئول الروسى.

كانت هناك عناصر غريبة فى كل هذا. هل تعاون جولد فى هذا الموضوع مقابل إطلاق سراح مبكر من السجن؟ فبعد خمس عشر عاماً قضاها من الحكم الذى كان صدر ضده بالسجن لمدة ثلاثين عاماً، نال جولد إطلاق سراح مشروط. وهل علم جرينجلاس، الذى كان قيد الاتهام وقت شهادته، بأن حياته تعتمد على مدى تعاونه؟ لقد

حكم عليه بالسجن مدة خمسة عشر عاماً، لكن أُطلق سراحه بعد أن أمضى سبع سنوات فقط. كيف يمكن الاعتماد على شخص (جرينجلاس) يستطيع حفظ معلومات نووية وهو مجرد مشغل ماكينة وليس عالماً – بل ومعروف أنه حضر ستة كورسات فى معهد بروكلين الفنى أخفق فى خمسة منها؟ فى البداية كانت قصتا جولد وجرينجلاس غير متوافقتين لكنهما، لسبب ما، نزلا فى طابق واحد من سجن تومز فى نيويورك قبل المحاكمة مما أعطاهما فرصة للتنسيق بشأن شهادتهما! إلى أى مدى كانت شهادة جولد صادقة؟ لقد اتضح فيما بعد أنه تم إعداده لقضية روزينبرج بحضوره مقابلات مع أفراد مكتب التحقيق الفيدرالى استمرت ٤٠٠ ساعة. واتضح أيضاً أن جولد كان يمتلك قدرة فائقة على الكذب. كان شاهداً فى محاكمة ما عندما سأله الدفاع عن حديثه عن زوجة وأطفال لا وجود لهم فى الحقيقة. سأله المحامى: "... هل كذبت لفترة امتدت لست سنوات؟" فرد جولد: "لقد كذبت لمدة ستة عشر عاماً غير الستة سنوات التى أشرت إليها"، وكان جولد هو الشاهد الوحيد فى المحاكمة الذى يربط بين جوليوس روزينبرج وجرينجلاس والروسيين.

ورأت المحكمة أن جوليوس وإثيل روزينبرج مذنبان ، وقبل نطقه بالحكم قال القاضى إرفنج كوفمان:

> **أعتقد أن سلوككما، بوضعكما أسراراً نووية فى أيدى الروس ، الذين توقع علماؤنا أنهم سيتأخرون عنا سنوات طويلة فى صنع الأسلحة النووية، قد تسبب فى العدوان الشيوعى فى كوريا الذى راح ضحيته ٥٠ ألف أمريكى. ومن يدرى؟ فلعل ملايين أخرى تدفع ثمن خيانتكما.**

ثم نطق القاضى بالحكم بإعدامهما عن طريق الكرسى الكهربائى.

تعرض مورتون سوبيل أيضاً للمحاكمة كشريك لجوليوس وإثيل روزينبرج ، وكان الشاهد الرئيسى ضده صديقاً قديماً له كان يواجه اتهامات بالحنث باليمين من قبل الحكومة الفيدرالية بشأن ماضيه السياسى. كان هذا هو ماكس إليتشر **Elicher** الذى

شهد بأنه أصطحب سوبيل ذات مرة إلى مشروع سكنى فى مانهاتن حيث يسكن جوليوس روزينبرج. قال إن سوبيل نزل من السيارة وأخذ من حقيبتها ما يشبه علبة أفلام ثم عاد بدونها. لم يكن هناك دليل عن محتوى هذه العلبة وقال محامى سوبيل إن القضية مضمونة وأن سوبيل لم يكن فى حاجة إلى محام. ولكن هيئة المحلفين رأت أنه مذنب وحكم القاضى كوفمان عليه بالسجن لمدة ثلاثين عاماً قضى منها تسعة عشر عاماً قبل أن يطلق سراحه.

أظهرت وثائق مكتب التحقيق الفيدرالى فى السبعينيات أن القاضى كوفمان كان قد التقى على نحو سرى مع المحققين وتفاوض معهم بشأن الأحكام التى سيصدرها. وأظهرت وثيقة أخرى أن اجتماعاً جرى بين النائب العام هربرت براون ويل ورئيس قضاة المحكمة الدستورية العليا، فى ذلك الاجتماع أكد رئيس القضاة فريد فينسون للنائب العام إنه لو قام أى قاضٍ من المحكمة الدستورية العليا بوقف أو تعطيل الحكم بالإعدام، فإنه سيقوم على الفور بالدعوة إلى جلسة تقوم بإبطال ذلك.

قامت حملة احتجاج ضد الحكم فى كل أرجاء العالم ,ناشد ألبرت أينشتين، الذى كان خطابه إلى روزفلت فى بداية الحرب سبباً فى بدء العمل فى إنتاج القنبلة النووية، بوقف الحكم، وكذلك فعل كل من جان بول سارتر وبابلو بيكاسو، وكانت هناك مناشدة للرئيس ترومان قبل أن يترك الرئاسة فى ربيع عام ١٩٥٣، لكنه رفضها، ثم جاءت مناشدة أخرى للرئيس الجديد أيزنهاور ولكن دون جدوى.

وفى اللحظة الأخيرة، أصدر القاضى وليم دوجلاس عضو المحكمة الدستورية العليا قراراً بوقف الحكم بالإعدام، فما كان من رئيس القضاة فينسون إلا أن قام بإرسال طائرات خاصة لإحضار القضاة الذين كانوا فى فترة الإجازة إلى واشنطن من أجزاء متفرقة من البلاد، وقام القضاة فى جلستهم بإلغاء قرار دوجلاس قبل فوات الأوان لأنه كان من المقرر إعدام جوليوس وإيثيل روزينبرج فى ١٩ يونيو عام ١٩٥٣ كان ذلك استعراضاً أمام الشعب الأمريكى بمصير من ترى الحكومة أنهم خونة.

فى الوقت نفسه، كانت لجنة الأنشطة تشهد وقتها الذهبى، حيث كانت تستجوب الأمريكيين عن صلاتهم بالشيوعيين وتحتقر كل من يرفض إجابة الأسئلة الموجهة إليه.

وكانت توزع ملايين النسخ من الكراسات على أبناء الشعب من أمثال "مائة شيء يجب معرفتها عن الشيوعية" و"أين يوجد الشيوعيون؟ فى كل مكان". كثيراً ما انتقد الليبراليون اللجنة وعملها ولكنهم ، فى الكونجرس، كانوا يصوتون إلى جانب المحافظين عند اعتماد ميزانية اللجنة عاماً بعد عام. فى عام ١٩٥٨ صوت عضو واحد من مجلس النواب، هو جيمس روزفلت، ضد اعتماد ميزانية لهذه اللجنة ، وعلى الرغم من انتقاد ترومان للجنة، فقد قال النائب العام: "ثمة شيوعيون كثيرون اليوم فى أمريكا. إنهم فى كل مكان، فى المصانع والمكاتب وفى الشوارع بل وفى محلات الجزارة. وكل منهم يحمل فى داخله جراثيم للقضاء على المجتمع".

وركب المثقفون الليبراليون عربة مناهضة الشيوعية. فقد أدانت مجلة كومينترى Commentary المحافظة جوليوس وإثيل روزينبرج ومؤيديهما والمتعاطفين معهما، وسأل أحد كتابها (إرفنج كريستول) فى مارس عام ١٩٥٢: "هل ندافع عن حقوقنا بحماية الشيوعيين؟" وكانت إجابته على السؤال: "بالطبع لا".

كانت وزارة العدل هى التى تحقق مع قادة الحزب الشيوعى وفقاً لقانون سميث واتهمتهم بالتآمر للإطاحة بالحكومة عن طريق القوة والعنف ، وغالباً ما كان الدليل الذى تقدمه وزارة العدل هو المطبوعات ذات النزعة الماركسية اللينينية التى رأت فيها الوزارة تحريضاً على العنف والثورة. كان واضحاً أن الحزب الشيوعى لم يكن يمثل خطراً مباشراً، حيث قام رئيس المحكمة الدستورية العليا فريد فينسون، والذى كان ترومان قد عينه فى ذلك المنصب، بالمبالغة فى شرح المذهب القديم الخاص "بالخطر الواضح والمؤكد" حيث رأى أن وجود الحزب الشيوعى يمثل "خطراً واضحاً ومؤكداً" قد يفضى إلى التآمر فى سبيل قيام ثورة فى الوقت المناسب ، ومن ثم وضعت الحكومة قادة الحزب الشيوعى فى السجون وبعد فترة بدأ منظمو الحزب الشيوعى فى ممارسة العمل السرى.

ليس هناك من شاك فى أن محاولة إخافة الرأى العام من الشيوعية وجعله يؤيد أى إجراءات صارمة تتخذ ضد الشيوعيين قد نجحت إلى حد كبير ، لقد هيمنت النزعة

المعادية للشيوعية الثقافة الأمريكية كلها. كانت المجلات واسعة الانتشار تنشر مقالات من قبيل "كيف ينجح الشيوعيون" و"الشيوعيون يستهدفون طفلك". فى عام ١٩٥٦ نشرت صحيفة نيويورك تايمز فى افتتاحيتها: "لن نوظف عضواً بالحزب الشيوعى فى أقسام التحرير والرأى ... لأننا لا نثق فى قدرته على نقل الأخبار بموضوعية أو التعليق عليها بأمانة ...". وكتب أحدهم عن مغامراته كشيوعى أصبح عميلاً فى مكتب التحقيق الفيدرالى، ونشرت قصته **عشت أكثر من حياة** I Led Three Lives أكثر من خمسمائة صحيفة بل وقام التليفزيون بعرضها. وخرجت من هوليوود أفلام من نوعية تزوجت شيوعياً I Married a Communist، وكنت شيوعياً لصالح إف بى آى I was a Communist for the FBI . لقد أنتجت هوليوود، فى الفترة من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٤، أكثر من أربعين فيلماً معادياً للشيوعية.

تعلم الصغار والكبار أن معاداة الشيوعية عمل بطولى. لقد بيعت أكثر من ثلاثة ملايين نسخة من كتاب ميكى سبيلين الذى يحمل عنوان **ليلة واحدة موحشة** One Lonely Night، ونشر عام ١٩٥١ فى هذا الكتاب يقول البطل مايك هامر: "قتلت الليلة عدداً من الناس يفوق عدد أصابع يدى. أطلقت عليهم الرصاص بدم بارد واستمتعت بكل دقيقة فعلت فيها ذلك ... لقد كانوا شيوعيين أولاد عاهرة كان يجب أن يموتوا من زمن بعيد ...". فى الخمسينيات شارك أطفال المدارس على مستوى البلاد فى تدريبات عن كيفية اتقاء شر أى هجمات سوفيتية قد تتعرض لها أمريكا. كان على التلاميذ أن يجثموا تحت مقاعد الدرس حتى تنتهى الغارة.

كان هذا مناخاً استطاعت فيه الحكومة أن تحصل على تأييد جماهيرى لانتهاج سياسة إعادة التسليح. لقد تعلم النظام الذى تعرض لهزة كبيرة فى الثلاثينيات، أن الإنتاج الحربى يمكن أن يحقق الاستقرار ويجلب الأرباح. كانت مطبوعة البيزنس الشهيرة "ستيل" Steel قد قالت فى نوفمبر عام ١٩٤٦ - أى قبل مذهب ترومان - إن سياسات ترومان "أعطت تأكيداً حاسماً بأن مسألة الاستعداد للحرب ستكون صناعة كبيرة فى الولايات المتحدة لسنوات طويلة قادمة".

كان هذا التنبؤ دقيقاً ، ففى بداية عام ١٩٥٠، كان إجمالى الميزانية الأمريكية حوالى ٤٠ مليار دولار منها ١٢ مليار للميزانية العسكرية ، ولكن بحلول عام ١٩٥٥ بلغت الميزانية العسكرية وحدها ٤٠ ملياراً من ٦٢ مليار هى إجمالى ميزانية البلاد. أما فى عام ١٩٦٠ فقد بلغت الميزانية العسكرية ٤٥,٨ مليار دولار أى ما يساوى ٤٩,٧٪ من ميزانية البلاد ، وفى هذا العام انتخب جون كينيدى رئيساً للبلاد وتحرك من فوره نحو زيادة الإنفاق العسكرى فى خلال أربعة عشر شهراً، حسب ما ورد فى كتاب إدجار بوتوم **توازن الرعب** **The Balance of Terror** .

وفى عام ١٩٧٠، بلغت الميزانية العسكرية للولايات المتحدة ٨٠ مليار دولار وكانت الشركات الكبرى، التى تقوم بالعمل فى مجال الإنتاج العسكرى، تحقق ثروات خيالية. لقد ذهب ثلثا الأربعين مليار دولار، التى أنفقت على نظم الأسلحة، إلى حوالى خمسة عشر شركة من الشركات الصناعية العملاقة الذى كان السبب الرئيسى لوجودها هو الوفاء بالعقود العسكرية الموقعة مع الحكومة. علق السيناتور بول دوجلاس، عالم الاقتصاد ورئيس اللجنة الاقتصادية المشتركة بمجلس الشيوخ، على ذلك بقوله: "إن ستة أسباع هذه العقود العسكرية ليست تنافسية. فتحت زعم مراعاة السرية، تنتقى الحكومة شركة ما وتوقع معها عقداً عن طريق مفاوضات سرية".

فى كتابه **نخبة السلطة** **The Power Elite** الذى صدر فى الخمسينيات، اعتبر رايت ميلز **C. Wright Mills**، المؤسسة العسكرية جزءاً من النخبة التى تحكم، أى وضعها مع الساسة وأصحاب الشركات الكبرى ، وقد كشف تقرير صادر عن مجلس الشيوخ أن المائة شركة الأكبر فى مجال التعاقدات العسكرية قامت بتوظف أكثر من ألفين من الضباط الكبار المتقاعدين.

فى الوقت نفسه، كانت الولايات المتحدة، وهى تقدم مساعدات اقتصادية لبلاد بعينها، تنسج شبكة من السيطرة على العالم وتؤكد نفوذها السياسى على البلاد التى تقدم لها المساعدات. كان لخطة مارشال عام (١٩٤٨) **Marshal Plan**، التى قدمت مساعدات اقتصادية قيمتها ١٦ مليار دولار إلى بلاد أوروبا الغربية، هدف اقتصادى

هو بناء أسواق للصادرات الأمريكية. فى إحدى نشرات وزارة الخارجية ١٩٤٨ قال وزير الخارجية جورج مارشال الذى كان جنرالاً فى أثناء الحرب العالمية الثانية "لو تقاعسنا عن مساعدة أوروبا الآن ... فمن السذاجة أن نعتقد أنها ستظل مفتوحة أمام رأس المال الأمريكى كما كان الحال فى الماضى".

وكان ثمة دافع سياسى أيضاً وراء خطة مارشال ؛ فالأحزاب الشيوعية فى إيطاليا وفرنسا كانت قوية ، وقررت الولايات المتحدة أن تستخدم الضغوط والأموال للحيلولة دون تغلغل الشيوعيين داخل حكومات هذه البلاد. وفى بداية تنفيذ خطة مارشال قال دين أتشيسون وزير خارجية ترومان: "ليس الدافع من وراء إجراءات الإغاثة وإعادة الإعمار إنسانياً خالصاً. لقد فوض الكونجرس الحكومة فى تنفيذ سياسة الإغاثة وإعادة الإعمار اليوم لأن فى ذلك أموراً تتعلق بالمصالح الوطنية".

وبداية من عام ١٩٥٢، أصبحت المساعدات الأمريكية تتجه بوضوح إلى بناء القوة العسكرية للدول غير الشيوعية. ففى العشر سنوات التالية، بلغت المساعدات الأمريكية إلى تسعين دولة ٥٠ مليار دولار ذهبت منها خمسة مليارات فقط إلى التنمية الاقتصادية غير العسكرية. وعندما تولى جون كينيدى الرئاسة، قام ببدء برنامج "التحالف من أجل التقدم" ، ويهدف إلى مساعدة دول أمريكا اللاتينية مع التأكيد على الإصلاح الاجتماعى بهدف تحسين الأحوال المعيشية للناس. لكن اتضح أن هذا البرنامج كان عبارة عن مساعدات عسكرية تساعد على بقاء الديكتاتوريات اليمينية فى السلطة ، وقمع أية ثورات.

كان التدخل العسكرى الأمريكى يبعد خطوة واحدة عن المساعدات العسكرية. وكان ما قاله ترومان فى بداية الحرب الكورية عن "حكم القوة" و"حكم القانون" يتناقض، سواء فى عهد ترومان نفسه أو فى عهود من خلفوه فى الحكم، مع الأفعال الأمريكية. ففى إيران ١٩٥٣ نجحت المخابرات المركزية الأمريكية فى الإطاحة بالحكومة الإيرانية التى قامت بتأميم صناعة البترول. وفى ١٩٥٤ قامت قوات مرتزقة تدربت على أيدى المخابرات الأمريكية فى قواعد عسكرية أمريكية فى هندوراس ونيكاراجوا بغزو

جواتيمالا للإطاحة بحكومة شرعية منتخبة. وقامت أربع مقاتلات أمريكية بتقديم الدعم اللازم لقوات المرتزقة. وقد أوصل الغزو الكولونيل كارلوس كاستيللو أرماس إلى السلطة وكان الرجل قد تلقى تدريباً عسكرياً فى فورت ليفين ورث بولاية كانساس.

كانت الحكومة التى أطاحت بها الولايات المتحدة أكثر حكومة ديمقراطية شهدتها جواتيمالا. فقد كان رئيسها جاكوب أربينز اشتراكياً ينتمى إلى يسار الوسط ، وكان الشيوعيون يحتلون أربعة مقاعد من بين مقاعد الكونجرس البالغة ستة وخمسين مقعداً. وكان أكثر شىء أزعج مصالح البيزنس الأمريكى هو قيام الرئيس أربينز بمصادرة ٢٣٤ ألف **آكر** من أراضٍ تمتلكها الشركة الأمريكية الكبرى (يونايتيد فروت) ، وقدمت الحكومة الجواتيمالية للشركة تعويضاً قالت عنه الشركة إنه "غير مقبول". أما أرماس الذى جاءت به الولايات المتحدة إلى الحكم فقد قام برد الأراضى إلى يونايتيد فروت ، وألغى ضرائب الفائدة على المستثمرين الأجانب ، وسجن آلاف المعارضين السياسيين.

وفى عام ١٩٥٨ أرسلت حكومة الرئيس أيزنهاور آلافًا من قوات المارينز إلى لبنان من أجل حماية الحكومة اللبنانية الموالية للولايات المتحدة ضد أيّة ثورة ، ولكى يكون هناك وجود عسكرى أمريكى فى مناطق البترول.

وقد ظهر الاتفاق بين الديمقراطيين والجمهوريين والليبراليين على الإطاحة بأية حكومات ثورية، سواء كانت شيوعية أو اشتراكية أو حتى معادية لشركة (يونايتيد فروت) !، أكثر وضوحاً فى عام ١٩٦١ فى كوبا. فقد كانت هذه الجزيرة الصغيرة، التى تبعد ٩٠ ميلاً عن ولاية فلوريدا، قد شهدت ثورة فى عام ١٩٥٩ قادتها قوة ثورية بزعامة فيدل كاسترو. أطاحت هذه الثورة بالدكتاتور باتيستا **Batista** الذى كانت تدعمه الولايات المتحدة. إذ كانت الثورة الكوبية تهديداً مباشراً لمصالح البيزنس الأمريكى. وكانت سياسة روزفلت المعروفة باسم "سياسة الجار الطيب" قد ألغت تعديل بلات **Platt** للدستور الأمريكى (وهو التعديل الذى سمح بالتدخل الأمريكى فى كوبا). غير أن الولايات المتحدة أبقت على قاعدتها البحرية فى جوانتانامو ، وكان البيزنس

الأمريكي يهيمن على الاقتصاد الكوبي ، حيث كانت الشركات الأمريكية تسيطر على أكثر من ٨٠٪ من المرافق والمناجم ومزارع الحيوانات ومصانع تكرير البترول ، وعلى ٤٠٪ من صناعة السكر ، و٥٠٪ من السكك الحديدية.

كان فيدل كاسترو قد قضى وقتاً فى السجن بعد أن قاد هجوماً غير ناجح ضد الثكنات العسكرية فى سانتياجو عام ١٩٥٣ ، ومن السجن ذهب إلى المكسيك والتقى بالثورى الأرجنتينى تشى جيفارا ، وعاد فى عام ١٩٥٦ إلى كوبا. حيث شنت قوته الصغيرة حرب عصابات من الغابات والجبال ضد جيش باتيستا ، واكتسبت قوته دعمًا شعبياً كبيراً. ثم خرجت القوة الثورية من الغابات رأساً إلى هافانا. وانهارت حكومة باتيستا ليلة رأس السنة عام ١٩٥٩ .

ولما تولى كاسترو مقاليد السلطة، بدأ فى إرساء نظام وطنى يشمل التعليم والإسكان وتوزيع الأراضى على صغار الفلاحين. وصادرت الحكومة أكثر من مليون آكر من الشركات الأمريكية بما فيها شركة (يونايتيد فروت). كانت كوبا فى حاجة إلى الأموال للصرف على البرامج الجديدة ، ولكن الولايات المتحدة لم تكن راغبة فى إقراضها. ولم يكن صندوق النقد الدولى، الذى تهيمن عليه الولايات المتحدة، ليقرض كوبا أموالاً ؛ لأن كوبا لم تكن لتقبل بشروطه التى من شأنها أن تقوض البرنامج الثورى الكوبى الذى كان قد بدأ. وعندما وقعت كوبا اتفاقية تجارية مع الاتحاد السوفيتى، رفضت شركات البترول المملوكة للأمريكيين أن تقوم بتكرير البترول الآتى من الاتحاد السوفيتى. إذ حاصر كاسترو هذه الشركات، فقللت الولايات المتحدة من شراء السكر الكوبى ، وهو المحصول الذى يقوم عليه الاقتصاد الكوبى. ووافق الاتحاد السوفيتى فوراً على شراء كل ما ترفض الولايات المتحدة شراءه من سكر.

ولم يتم تطبيق سياسة "الجار الطيب". ففى ربيع عام ١٩٦٠ قام الرئيس أيزنهاور سراً بتكليف المخابرات الأمريكية جواتيمالا بتسليح المنفيين الكوبيين المعادين لكاسترو فى جواتيمالا وتدريبهم بهدف غزو كوبا مستقبلاً. وعندما تولى جون كينيدى مقاليد الرئاسة فى ربيع عام ١٩٦١ كان لدى المخابرات ١٤٠٠ من المنفيين الكوبيين المدربين

والمسلحين. ومضى كينيدى فى خطته. ففى ١٧ أبريل من عام ١٩٦١ نزلت القوة المدربة على أيدى المخابرات الأمريكية، بمساعدة بعض الأمريكيين، فى خليج الخنازير على الشاطئ الجنوبى لكوبا على بعد ٩٠ ميلاً من هافانا. لقد توقع هؤلاء انتفاضة عامة ضد كاسترو. ولأن نظام كاسترو كان يتمتع بشعبية كبيرة، فلم تقم هناك أيّة انتفاضة وسحق جيش كاسترو القوات التابعة للمخابرات الأمريكية فى ثلاثة أيام.

وقد صاحب موضوع خليج الخنازير كثير من النفاق والكذب. فقد كان هذا الغزو انتهاكاً - إذا تذكرنا كلام ترومان عن "حكم القانون" - لاتفاقية وقعتها الولايات المتحدة وهى ميثاق تنظيم الولايات الأمريكية الذى جاء فيه: "ليس لولاية أو مجموعة من الولايات الحق فى التدخل، على نحو مباشر أو غير مباشر، فى الشئون الداخلية أو الخارجية لأيّة دولة أخرى لأى سبب مهما كان".

وكثرت التقارير الصحفية عن القواعد العسكرية السرية وتدريب المخابرات الأمريكية للمنفيين الكوبيين بهدف غزو كوبا. وقبل محاولة الغزو بأربعة أيام، قال الرئيس كينيدى فى مؤتمر صحفى: "..... لن يكون هناك، تحت أية ظروف، تدخل لقوات الولايات المتحدة فى كوبا". صحيح أن القوة التى نزلت فى خليج الخنازير كانت كوبية، لكن الأمر كله كان من تدبير الولايات المتحدة، واشترك فى العملية طيارون أمريكيون وطائرات حربية أمريكية. وكان كينيدى قد وافق على استخدام بعض القطع البحرية التى لا ترفع العلم الأمريكى فى عملية الغزو. وقد قُتل أربعة طيارين فى هذه العملية ولم تخبر الحكومة الأمريكية عائلاتهم بكيفية موتهم.

وقد كان من المعروف أن الإشعاع الناتج عن الأسلحة النووية له تأثيرات خطيرة على الصحة الإنسانية، لكن الرأى العام الأمريكى لم يكن على علم بذلك. لقد أصرت هيئة الطاقة النووية على أن هناك مبالغة فى تصوير الآثار الخطيرة للاختبارات النووية. وجاء فى مقال بمجلة "ريدرز دايجيست"، أوسع المجلات انتشاراً فى أمريكا، فى عام ١٩٥٥: "إن قصص الخوف من الاختبارات النووية فى هذا البلد هى فى بساطة شىء لا مبرر له". وفى عام ١٩٥٧ نشر أستاذ للعلوم السياسية يدعى هنرى كيسينجر كتاباً

جاء فيه: "عن طريق استخدام التكتيكات السليمة، لن تكون الحرب النووية مدمرة كما يبدو من فهم الناس لها ... ."

وقد كانت البلاد تنتهج سياسة اقتصاد الحرب الدائمة فى الوقت الذى تمتلئ فيه بملايين الفقراء. فكان هناك دائماً ما يكفى فقط من الوظائف والأجور التى تحافظ على استقرار الأمور. وكان توزيع الثروة لا يزال ظالماً. فمن عام ١٩٤٤ إلى عام ١٩٦١ لم تتغير أحوال البلاد كثيراً. إذ كان الخمس الأدنى من العائلات يحصل على ٥٪ من إجمالى دخل البلاد بينما كان الخمس الأعلى من العائلات يحصل على ٤٥٪.

وقد بدا كل شىء هادئاً وآمناً. فلم يكن من الضرورى فعل شىء من أجل الأمريكيين السود. ولم يكن من الضرورى فعل شىء لتغيير الهيكل الاقتصادى للبلاد. وكانت البلاد تنتهج سياسة خارجية تقوم على العدوان والمغامرة ، وبدا أن كل شىء كان تحت السيطرة. ثم جاءت الستينيات ومعها سلسلة من حركات التمرد المتفجرة فى كل مناحى الحياة الأمريكية كان من شأنها أن تثبت أن تقديرات النظام كانت كلها خاطئة.

الفصل السابع عشر

الأحلام المؤجلة

جاءت ثورة الأمريكيين السود فى الخمسينيات والستينيات، فى الشمال والجنوب، مفاجأة. لكن ربما لم يكن يجب أن تكون كذلك. إن ذاكرة المظلومين شئ لا يمكن انتزاعه فلقد كانت الثورة بالنسبة لهؤلاء المظلومين الذين يحملون هذه الذاكرة، دائماً قريبة. فلم ينس السود ذكريات الرق والحرق والإذلال، ولم يكن كل هذا مجرد ذكريات ، بل كان واقعاً معاشاً وجزءاً من حياتهم اليومية جيلاً بعد جيل.

وفى ثلاثينيات القرن العشرين، كتب الشاعر الأمريكى الأسود لانجستون هيوز Langston Hughes قصيدة عنوانها "جدارية لينوكس أفينيو" يقول فيها:

ما الذى يحدث لحلم مؤجل؟

هل يجف

كحبة عنب فى الشمس؟

أم يتقيح كقرحة -

ثم ينتهى؟

هل يتعفن كقطعة لحم؟

أم يكتسب قشرة ويحلو طعمه

كشراب حلو؟

ربما فقط يتدلى كحمل ثقيل

أم تُراه ينفجر؟

فى مجتمع يخضع لسيطرة معقدة ومركبة، بإمكان المرء أن يجد الأفكار السرية متخفية فى الفنون. كذلك كانت الحال فى مجتمع السود. ربما أخفت أغانى الزنوج، مهما كانت شجية وتبعث على الحزن، الغضب وربما كانت موسيقى الجاز، مهما كانت مبهجة، تنذر بالتمرد والثورة. ثم يأتى الشعر حيث لم تعد الأفكار سرية. ففى العشرينيات، كتب كلود مكاى Claude Mckay ـ أحد رموز ما عرف بعد ذلك بهارليم رينيسانس (نهضة هارليم) ـ قصيدة وضعها هنرى كابوت لودج Henry Cabot Lodge فى مضبطة الكونجرس بوصفها مثالاً على الأفكار الخطيرة التى تنتشر بين الشباب السود. جاء بالقصيدة:

إذا كان لابد أن نموت

فدعونا لا نموت كالخنازير

تُصاد وتُلْقَى فى مكان مخزٍ.

كما يليق بالرجال

سنواجه العصابة الجبانة القاتلة

حتى لو لم يبق مهرب.

سنموت

ونحن نرد على القتال بمثله.

كذلك، أثارت قصيدة "حادثة"، التى كتبها كاونتى كولين Countee Cullen، ذكريات الطفولة لكل أمريكى أسود:

ذات مرة كنت أقود دراجتى

فى بالتيمور القديمة

يمتلئ قلبى بالسعادة

فرأيت ولداً

لا يرفع بصره عنى

كنت في الثامنة ، وكنت صغير الجسم

لم يكن أكبر منى حجماً

ابتسمت له، لكنه أخرج لسانه

ونادانى "يا زنجى"

رأيت بالتيمور كلها

من مايو حتى ديسمبر

ومن كل الأشياء التى حدثت

هذا كل ما أذكره.

وفى وقت حادثة "أولاد سكوتسبورو" كتب كولين قصيدة مُرَّة عن استخدام الشعراء البيض أقلامهم فى الاحتجاج ضد حالات ظلم كثيرة ، لكن معظمهم التزم الصمت عندما تعلق الأمر بالسود. يقول المقطع الأخير من هذه القصيدة:

قلت: من المؤكد

أن الشعراء سوف يغنون

لكنهم لم يطلقوا صرخة واحدة

أتعجب: لماذا؟!

حتى الخنوع الظاهر، كسلوك العم توم Uncle Tom فى مواقف حقيقية ، وصورة الزنجى الكوميدى أو المتملق على خشبة المسرح ، والسخرية من الذات، كل هذا كان يخفى غضباً كامناً. ففى نهاية القرن التاسع عشر، كتب الشاعر الأسود بول لورنس دونبار Paul Laurence Dunbar قصيدة عنوانها "نحن نرتدى القناع." كان ذلك فى أثناء ازدهار الفرق الغنائية السوداء. جاء بالقصيدة:

نحن نرتدى القناع

الذى يبتسم ويكذب

يغطي وجوهنا ويظلل عيوننا ـ

... نغني ولكن آه!

فاسدة هى الأرض تحت أقدامنا

وطويل هو الطريق.

ألا فليحلم العالم أحلاماً مختلفة!

نحن نرتدى القناع.

وبحلول الثلاثينيات فى القرن العشرين، سقط القناع لدى كثير من الشعراء السود. كتب لانجستون هيوز قصيدته "أنا أيضاً" جاء فيها :

أنا أيضاً أغنى لأمريكا

أنا الأخ الأسمر

يرسلوننى كى أتناول طعامى بالمطبخ

إذا جاءهم زائرون

لكننى أضحك

وآكل جيداً

وأزداد قوة.

غداً سأكون جالساً إلى مائدة الطعام

عندما يأتى الزائرون...

وكانت هناك القصيدة النثرية "من أجل ناسى" التى كتبتها مارجريت ووكر Mar-garet Walker :

...لتكن هناك أرض جديدة. وليولد عالم جديد. وليُكتب السلام على صفحة السماء. وليأت جيل ثان تملؤه الشجاعة. وليخرج إلى الوجود شعب محب للحرية. وليكن الجمال الملىء بالشفاء والقوة نبضاً لأرواحنا ودمائنا. فلتُكتب الأغانى الحماسية ولتختفى الترانيم الجنائزية. وليخرج جنس من الرجال إلى الوجود ويمسك بالزمام!

وبمجىء الأربعينيات، كان هناك ريتشارد رايت Richard Wright وهو روائى أسود موهوب، كانت سيرته الذاتية (**ولد أسود** Black Boy) رواية مهمة إلى حد بعيد؛ على سبيل المثال يحكى رايت كيف كان يوضع السود الواحد فى مواجهة الآخر من أجل إمتاع البيض ، وكيف كان يُنخس كى يواجه ولداً أسود. لقد عبرت الرواية، دون خجل، عن الإذلال الذى تعرض له السود:

> **قال الجنوب الأبيض إنه عرف الزنوج ، وكنت مَن يناديه الجنوب الأبيض بالزنجى. فى حقيقة الأمر، لم يعرفنى الجنوب الأبيض قط. لم يعرف ما أفكر فيه أو ما أشعر به. قال الجنوب الأبيض إن لى "مكاناً" فى الحياة. ولكننى لم أشعر قط بذلك "المكان" أو بالأحرى جعلتنى غرائزى العميقة أرفض "المكان" الذى وضعنى فيه الجنوب الأبيض. لم يدر فى ذهنى قط بأى**

طريقة أننى كائن أدنى، ولم تجعلنى كلمة خرجت من أفواه أهل الجنوب الأبيض أشك ولو للحظة فى جدارتى بإنسانيتى.

كان كل شئ هناك فى الشعر والنثر والموسيقى، أحياناً يتجلى من وراء قناع ، وأحياناً أخرى يكون واضحاً لا تخطئه عين. كانت هناك دائماً علامات تشير إلى شعب لا ينهزم ، ينتظر فى حماس وقلق. فى رواية **ولد أسود** تحدث رايت عن تدريب الأطفال السود فى أمريكا على أن يظلوا صامتين. ولكن أيضاً:

كيف يرى الزنوج الحياة التى يحيونها؟ كيف يناقشونها إذا خلوا إلى أنفسهم؟ أعتقد أن هذا السؤال يمكن إجابته فى جملة واحدة. قال لى صديق يعمل بأحد المصاعد: لولا سياستهم وهجوم الغوغاء، لامتلأت البلاد بالثورة.

التحق ريتشارد رايت، لبعض الوقت، بالحزب الشيوعى (يحكى عن هذه الفترة من حياته وعن تحرره من وهم هذا الحزب فى كتابه **الإله الذى سقط** The God That Failed) .كان معروفاً عن الحزب الشيوعى اهتمامه الخاص بمشكلة المساواة العرقية. ففى قضية سكوتسبورو فى ألاباما فى الثلاثينيات، كان الحزب الاشتراكى هو الذى دافع عن هؤلاء الشباب السود فى السنوات الأولى للأزمة الاقتصادية الذين سجنوا بسبب الظلم فى الجنوب.

اتهم الليبراليون وأعضاء الرابطة الوطنية لتحسين أحوال الملونين NAACP الحزب باستغلال هذه القضية لصالح أهدافه، ولم يكن ذلك سوى نصف الحقيقة، لكن السود كانوا واقعيين بخصوص صعوبة أن يكون لهم حلفاء بيض أنقياء فى دوافعهم، كان النصف الآخر من الحقيقة هو أن الشيوعيين السود فى الجنوب كانوا قد حازوا إعجاب إخوانهم من السود عن طريق عملهم المنظم ضد العقبات التى تواجه السود. كان هناك هوزيا هدسون Hosea Hudson على سبيل المثال، القيادى الأسود فى بيرمنجهام. وفى جورجيا ١٩٣٢ التحق أنجيلو هيرندون، ابن التاسعة عشرة ، والذى مات أبوه بسبب

الالتهاب الرئوى من عمله فى المناجم، بمجلس البطالة فى بيرمنجهام. ثم التحق بعد ذلك بالحزب الشيوعى. كتب فيما بعد:

على مدار حياتى عرفت الكد والعرق ، وتعرضت للظلم والقهر. رقدت على بطنى فى المناجم نظير عدة دولارات فى الأسبوع. ورأيت بعينى كيف يُسرق أجرى. ورأيت رفاقاً لى وهم يُقتلون. كنت أعيش فى أسوأ جزء من البلدة، وكنت أتبع العلامات التى تقول : "للملونين" فى الشوارع وكأن هناك شئ مقزز فىَّ. سمعت النداء علىَّ بكلمة "زنجى" ، وكان علىَّ أن أرد "نعم يا سيدى" لكل شخص أبيض سواء أكنت أحترمه أم لا.

كنت أكره ذلك دائماً ولكننى لم أعرف ماذا يمكن أن أفعل. وهنا، وفجأة، وجدت تنظيمات يجلس فيها الزنوج والبيض معاً ، ويعملون معاً ولم أر فرقاً فى العرق أو اللون...

وأصبح هيرندون أحد منظمى الحزب الشيوعى فى أطلنطا. كوَّن هو ورفاقه الشيوعيون لجانًا كبيرة لمجالس البطالة فى عام ١٩٣٢ ، وهى المجالس التى كانت تقدم معونات للمحتاجين. وقد قاموا بتنظيم مظاهرة اشترك فيها ألف شخص منهم ستمائة من البيض. وفى اليوم الثانى صوتت المدنية لصالح ستة آلاف دولار مساعدة لمَن لا عمل لهم. ولكن بعد ذلك بفترة قصيرة، قُبض على هيرندون ووضع فى زنزانة منفردة ، واتهم بانتهاك أحد قوانين جورجيا الخاصة بتنظيم المظاهرات. تذكر بعد ذلك محاكمته:

عرضت ولاية جورجيا الكتب التى أخذوها من غرفتى وقرأت مقطوعات منها إلى هيئة المحلفين. ثم سألونى كثيراً وبتفصيل شديد. سألونى إن كنت أومن بأن على الحكومة أن تدفع تأميناً للعمال العاطلين ، وعما إذا كان يجب أن يتمتع السود بمساواة كاملة مع البيض ، وهل يطلب للحكم الذاتى لسكان الحزام الأسود ، وإذا ما كان يجب السماح للسود بأن يحكموا الحزام

الأسود بعد طرد مالكى الأراضى البيض ومسئولى الحكومة. وسألونى إذا كنت أومن بأن باستطاعة الطبقة العاملة أن تدير المناجم والمصانع وتقوم بدور الحكومة. كما سألونى إن كان من غير الضرورى أن يكون هناك رؤساء على الإطلاق.

وقلت لهم إننى أومن بذلك وأكثر ... .

أُدين هيرندون، وقضى خمس سنوات فى السجن حتى عام ١٩٣٧ عندما حكمت المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية قانون جورجيا الذى أُدين هيرندون وفقاً له. كان رجال مثل هيرندون هم الذين مثلوا خطراً مسلحاً على المؤسسة، وكان هذا الخطر أكبر فى عيون المؤسسة إذا ما اقترن بالحزب الشيوعى.

وكان هناك آخرون يمثلون خطراً أكبر ، مثل بينيامين ديفيز المحامى الأسود الذى ترافع عن هيرندون فى محاكمته. وكان هناك رجال معروفون على المستوى القومى ، مثل المغنى والممثل بول روبيسون ، والكاتب والباحث دبليو. إى. بى. دى بوا، وكل هؤلاء لم يخفوا تعاطفهم مع الحزب الشيوعى.

لم يكن الزنجى معادياً للشيوعية مثل البيض. فلم يكن يملك هذه الرفاهية، ومن هنا لاقت الأفكار السياسية لهؤلاء المناضلين، مهما تم تحويرها من قِبل المؤسسة، إعجاباً شديداً من المجتمع الأسود.

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية، هدأ المزاج الأسود المسلح عندما قامت الأمة، من ناحية، بإدانة العنصرية ، وأبقت، من ناحية أخرى، على الفصل بين البيض والسود فى القوات المسلحة ، وميزت بين الطرفين فى الرواتب ونوعية الوظائف المسنودة لكل طرف. وعندما انتهت الحرب، دخل عنصر جديد فى الميزان العرقى فى الولايات المتحدة - ونقصد بذلك الثورات وحركات التمرد غير المسبوقة للشعوب السوداء والصفراء فى كل من آسيا وأفريقيا.

كان على الرئيس هارى ترومان أن يحسب حساب ذلك، خاصة بعد بداية صراع الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى ، وبعد ثورة المستعمرات السابقة وشعوبها الملونة وقيامها باتخاذ النهج الماركسى فى أشكال حكوماتها. وقد كانت هناك حاجة لاتخاذ بعض الإجراءات بخصوص المسألة العرقية ، ليس فحسب من أجل تهدئة السود ، داخل الوطن الذين لم تتحسن أحوالهم رغم الوعود التى تلقوها فى أثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن أيضاً من أجل تقديم الولايات المتحدة فى صورة أنها تستطيع مواجهة المد الشيوعى المستمر ، فى وقت تبدو فيه غير قادرة على مواجهة المشكلة العرقية بين سكانها. برز الآن عام (١٩٤٥) فى وضوح ، ما كان المناضل الأمريكى الأسود دى بوا Du Bois قد قاله منذ وقت طويل ولم يلتفت إليه أحد: "إن حاجز اللون هو مشكلة القرن العشرين."

فى أواخر عام ١٩٤٦، عيَّن الرئيس ترومان لجنة للحقوق المدنية، أوصت بتوسيع القسم الخاص بالحقوق المدنية فى وزارة العدل ، وبأن تكون هناك لجنة دائمة للحقوق المدنية ، وأن يقوم الكونجرس بإصدار قوانين توقف عمليات حرق السود ، والتمييز فى عملية التصويت ، واقترحت اللجنة قوانين جديدة تمنع التمييز العرقى فى الوظائف.

ولم يكن لدى لجنة ترومان دوافع قوية وراء التوصيات التى قدمتها. صحيح أنها قالت أن "سبباً أخلاقياً" كان وراء هذه التوصيات - أى أنها كانت مسألة ضمير ، ولكن كان هناك أيضاً "سبب اقتصادى"، حيث كان التمييز العرقى مكلفاً للبلاد ، ويهدر مواهبها. علاوة على وجود سبب دولى:

> **إن موقفنا فى العالم بعد الحرب حيوى إلى حدّ أن أصغر أفعالنا لها تأثيرات بعيدة المدى. ... لا يمكننا أن نهرب من حقيقة أن سجل حقوقنا المدنية يمثل إحدى القضايا المهمة فى السياسة الدولية... إن الذين يعتنقون فلسفة مختلفة عنا يؤكدون عيوبنا ويشوهونها على نحو مُخزٍ... لقد حاولوا أن يثبتوا أن ديمقراطيتنا محض خداع ، وأن أمتنا ظالمة وقاهرة لفقرائها. قد**

يبدو ذلك سخيفاً فى عيون الأمريكيين، لكنه كفيل بأن يُقْلِقَ أصدقاءنا. إن الولايات المتحدة ليست قوية بما يكفى ، والانتصار النهائى للنموذج الديمقراطى ليس حتمياً إلى الدرجة التى نستطيع بها أن نتجاهل ما يقوله العالم عنا وعن سجلنا.

خرجت الولايات المتحدة إلى العالم على نحو لم يسبق له مثيل وكان الرهان كبيراً ـ إنه سيادة العالم. وكما قالت لجنة ترومان : فإن "أصغر أفعالنا لها تأثيرات بعيدة المدى." وهكذا مضت الولايات المتحدة فى القيام ببعض الإجراءات الصغيرة على أمل أن تكون لها تأثيرات بعيدة المدى. ولم يتحرك الكونجرس لإجراء التشريعات التى أوصت بها لجنة الحقوق المدنية. ولكن ترومان (قبل أربعة أشهر من انتخابات الرئاسة فى عام ١٩٤٨ ومدفوعاً بتحدى اليسار الذى كان يمثله مرشح الحزب التقدمى هنرى والاس) أصدر أمراً تنفيذياً يطالب القوات المسلحة بتطبيق المساواة العرقية "على أسرع نحو"، ربما كانت انتخابات الرئاسة وراء ذلك القرار، ولكن كانت هناك أهمية الحفاظ على الروح المعنوية للسود فى القوات المسلحة. واستغرق تطبيق هذا القرار عقداً كاملاً أو يزيد.

كان بإمكان ترومان إصدار قرارات تنفيذية فى نواحٍ أخرى، ولكنه لم يفعل. لقد منح التعديل الرابع عشر والخامس عشر فى الدستور، علاوة على القوانين التى صدرت فى أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، وأوائل سبعينياته الرئيس الأمريكى سلطة كافية تسمح له بإنهاء التمييز العرقى تماماً. لقد طالب الدستور الرئيس بأن ينفذ القوانين، لكن رئيساً واحداً لم يلجأ إلى استخدام هذه السلطة. ولم يكن ترومان استثناءً. فعلى سبيل المثال، طلب ترومان من الكونجرس إصدار تشريعات "تمنع التمييز العرقى فى وسائل المواصلات بين الولايات" وكانت هناك قوانين صدرت بالفعل بهذا الشأن عام ١٨٨٧ ولكنها لم تطبق.

وفى الوقت نفسه، كانت المحكمة الدستورية العليا تتخذ بعض الخطوات ـ بعد تسعين عاماً من تعديل الدستور لإرساء مبدأ المساواة العرقية ـ لتحقيق هذا الهدف

(المساواة العرقية). ففي أثناء الحرب العالمية الثانية، حكمت بعدم دستورية الانتخابات الأولية لأنها كانت تستبعد السود.

وفى عام ١٩٥٤، ضربت المحكمة الدستورية العليا مبدأ "منفصلون لكن متساوون" وهو المذهب الذى كانت تدافع عنه منذ تسعينيات القرن التاسع عشر. رفعت الرابطة الوطنية لتحسين أحوال الملونين (NAACP) عدداً من القضايا أمام المحكمة الدستورية العليا ، من أجل تحدى الفصل بين التلاميذ السود والبيض فى المدارس العامة. وقالت المحكمة: "إن مذهب «منفصلون لكن متساوون، لا وجود له» ولم تُصر المحكمة على التغيير الفورى، لكنها قالت بعد عام إن الفصل بين البيض والسود فى وسائل المواصلات يجب أن ينتهى "بكل سرعة ممكنة." وقد كانت ٧٥٪ من المدارس فى الجنوب لا تزال تطبق سياسة الفصل بين التلاميذ البيض والسود.

ورغم ذلك، كان القرار مفاجئاً، ووصلت رسالة إلى كل أرجاء العالم فى عام ١٩٥٤ تقول : إن الولايات المتحدة حرمت مسألة الفصل بين البيض والسود. وفى الولايات المتحدة، كان هذا القرار، بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون الفجوة بين الكلمة والفعل، علامة على التغيير المتسارع.

لم يكن ما بدا للآخرين على أنه تقدم سريع كافياً بالنسبة للسود. ففى بداية الستينيات، قام السود بحركات تمرد شملت الجنوب كله. وفى أواخر الستينيات، كانوا طرفاً فى مظاهرات غاضبة فى مائة مدينة بالشمال. كان ذلك مفاجئاً لأولئك الذين لا يمتلكون تلك الذاكرة القوية عن العبودية والحضور اليومى للإذلال ، الذى سجلته الأشعار والموسيقى وحركات الغضب التى كانت تقوم بين حين وآخر. كان جزء من تلك الذاكرة يتكون من كلمات قيلت وقوانين صدرت وقرارات اتخذت ـ واتضح أنها بلا معنى.

وبالنسبة لهؤلاء الناس الذين يمتلكون تلك الذاكرة القوية، كانت الثورة دائماً على بعد دقائق فقط وفى توقيت لم يحدده أحد. ولكن هذه الثورة كانت دائماً على وشك الانفجار والتسبب فى ما لا تحمد عقباه من الأحداث. وقد جاءت هذه الأحداث فى نهاية عام ١٩٥٥ فى مدينة مونتجمرى عاصمة ألاباما.

بعد ثلاثة شهور من القبض عليها، شرحت ميسيز روزا باركس، التى كانت فى الثالثة والأربعين من عمرها وتعمل بالخياطة، لماذا رفضت أن تطيع قانون مونتجمرى الذى يقضى بالفصل بين البيض والسود فى وسائل المواصلات ، ولماذا قررت أن تجلس فى الجزء الخاص بالبيض:

> **بدايةً كنت أعمل طوال اليوم. وكنت مجهدة بعد يوم عمل كامل. إننى أعمل بصناعة الملابس التى يرتديها البيض. إن هذا لم يخطر ببالى ولكنه هو ما أردت أن أعرفه: متى وكيف يمكننا أن نأخذ حقوقنا كبشر؟ ... إن ما حدث هو أن سائق الأتوبيس طلب منى أن أغادر مقعدى ، وشعرت أننى لا أريد أن أُلبى طلبه، فطلب رجلاً من البوليس وقُبض علىَّ وأودعت السجن ... .**

دعا السود فى مونتجمرى إلى اجتماع جماهيرى. وكان إى. دى. نيكسون، النقابى المخضرم والمحارب القديم، قوة كبيرة فى مجتمع السود. تم إجراء تصويت حول مقاطعة كل خطوط الأتوبيس فى المدينة. وبدأ معظم الزنوج يذهبون إلى عملهم سيراً على الأقدام. وبدأ كثيرون فى ترتيب توصيل بعضهم البعض بالسيارات إلى العمل. وردت المدينة باتهام مائة من قادة المقاطعة وأرسلت كثيراً منهم إلى السجون. ولجأ البيض، الذين يؤمنون بالفصل بينهم وبين السود، إلى العنف، حيث انفجرت القنابل فى أربع كنائس للزنوج. وأُطلقت النار على المدخل الأمامى لمنزل الدكتور مارتن لوثر كينج راعى الكنيسة المولود فى أطلنطا ، والبالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً ، وأحد قادة حركة المقاطعة. كما أُلقيت قنابل على منزله بعد ذلك. غير أن السود فى مونتجمرى لم يستسلموا . وفى نوفمبر عام ١٩٥٦ حرمت المحكمة الدستورية العليا الفصل بين البيض والسود فى وسائل المواصلات.

كانت مونتجمرى هى البداية. لقد أرست الأسلوب والمزاج اللذين ستتخذهما حركة الغضب والاحتجاج التى ستكتسح الجنوب الأمريكى فى السنوات العشر القادمة: وذلك بالاجتماعات الروحية فى الكنيسة ، والترانيم المسيحية ، والإشارات إلى القيم

الأمريكية الضائعة ، والالتزام بالمقاومة السلمية ، والرغبة فى الكفاح والتضحية. وقد وصف صحفى من نيويورك تايمز لقاءً جماهيرياً فى مونتجمرى فى أثناء المقاطعة بقوله :

اعتلى المتهمون من القادة الزنوج المنبر واحداً بعد الآخر فى كنيسة معمدانية لتحريض أتباعهم على مقاطعة أتوبيسات المدينة و"السير مع الرب." لقد امتلأت الكنيسة بأكثر من ألفين من الزنوج حتى اضطر البعض إلى الوقوف فى الشارع. وراح هؤلاء يشْدُون بالترانيم والأغانى... وانهار كثير منهم فى الممرات ، وأوشك كثيرون على الإغماء نتيجة ارتفاع درجة الحرارة. وجددوا العهد بالالتزام بمبدأ "المقاومة السلبية." واستمرّ هؤلاء، فى بإصرار عنيد، فى مقاطعة أتوبيسات المدينة لمدة ثمانين يوماً.

وفى ذلك الاجتماع، قدم مارتن لوثر كينج تمهيداً لقدرته الخطابية التى ستلهم الملايين من الناس المطالبة بالمساواة العرقية. قال كينج : إن الاحتجاج ليس على الأتوبيسات فحسب ، ولكن على أشياء "فى أعماق أرشيف التاريخ." وقال:

لقد عرفنا الذل واللغة المهينة. لقد تربينا على الظلم والقهر. وقررنا أن نرفع سلاح الاحتجاج. من أعظم أمجاد أمريكا أننا نملك حق الاحتجاج. لو ألقى القبض علينا كل يوم ولو تعرضنا للاستغلال كل يوم، فعلينا ألا ندع أحداً يدفعنا إلى كراهيته. علينا أن نستخدم سلاح المحبة ، ولابد أن نبدى المحبة والتفاهم تجاه من يكرهوننا. وعلينا أن ندرك أن كثيراً من الناس قد تربوا على كراهيتنا. ولابد أن ندرك دائماً أننا نقف فى الحياة عند منتصف الليل ، وأننا دائماً على أعتاب فجر جديد.

كان تركيز مارتن لوثر كينج على المحبة واللاعنف ذا تأثير كبير فى بناء تعاطف فى كل أنحاء البلاد بين السود والبيض على السواء. ولكنْ ، هناك قطاع آخر من السود يرون أن دعوة كينج كانت ساذجة ، وأنه إن كان هناك من بين البيض مَنْ يمكن

كسبهم بالمحبة، فإن هناك أيضاً مَنْ يجب محاربتهم بالسلاح إذا لزم الأمر. وبعد عامين من حادث المقاطعة فى مونتجمرى، خرج روبرت وليامز، أحد جنود المارينز السابقين ، والرئيس المحلى للرابطة الوطنية لتحسين أحوال الملونين (NAACP) فى مونرو بكارولاينا الشمالية، كى ينادى بحق السود فى الدفاع عن أنفسهم بالسلاح عند الضرورة. وعندما هاجم أفراد من جماعة كوكلوكس كلان العنصرية منزل أحد قادة NAACP ، رد عليهم روبرت وليامز وسود آخرون بالبنادق، الأمر الذى أجبر العنصريين على مغادرة المكان فوراً.

غير أن السود، فى السنوات التالية، كانوا يؤكدون على المحبة واللاعنف فى الجنوب. ففى الأول من فبراير عام ١٩٦٠ قرر أربعة من الطلاب الجامعيين الجدد، فى إحدى كليات الزنوج فى جرينزبورو بكارولاينا الشمالية، أن يجلسوا لتناول الغداء على طاولة أحد مطاعم وولورث ولم يكن هذا المكان يخدم سوى البيض. رفض المطعم تقديم خدمة لهم، لكنهم لم ينصرفوا ، فأُغلق المطعم بقية اليوم. فى اليوم التالى عاد الطلبة ويوماً بعد يوم كان المزيد من الطلاب السود يأتون إلى المكان ويجلسون فى صمت.

وفى الأسبوعين التاليين، انتشر هذا الأسلوب من الاعتصام على كراسى المطاعم فى خمس عشرة مدينة فى خمس ولايات جنوبية. كانت روبى دوريس سميث فى السابعة عشرة وفى السنة الجامعية الأولى ، عندما سمعت عن جرينزبورو. تقول:

> **عندما تشكلت لجنة الطلاب... طلبت من أختى الكبرى أن تضع اسمى فى القائمة. وعندما تم اختيار مائتين من الطلبة للقيام بأول مظاهرة، كان اسمى من بينهم. سرت عبر طابور الطعام فى عاصمة الولاية (أطلنطا) مع ستة آخرين من الطلبة وعندما وصلنا إلى الكاشير رفضت أن تأخذ النقود منا.... طُلب منا أن نغادر المكان ، وعندما رفضنا أُلقى القبض علينا وأُخذنا إلى سجن المقاطعة.**

وفى شقته بحى الزنوج "هارليم" بنيويورك، رأى شاب زنجى يعمل مدرساً للرياضيات ويدعى بوب موسيز صورة فى الصحف للمعتصمين فى جرينز بورو وصفها بقوله: "كان للطلبة فى هذه الصورة نظرة محددة تبدو على وجوههم، كانت نظرة كلها غضب وحدّة وعزم. قبل ذلك كان يبدو على الزنوج فى الجنوب موقف الدفاع. وفى هذه المرة كانوا هم المتخذين للمبادرة. كانوا شباباً من سنى ، وعرفت ساعتئذ أن هناك ما يربط بينهم وبينى."

وكان هناك عنف ضد المعتصمين. ولكن كان لفكرة أخذ المبادرة بالفعل ضد الفصل العرقى سحرها الخاص. ففى خلال السنة التالية، اشترك فى المظاهرات المناهضة للفصل بين البيض والسود أكثر من خمسين ألفاً (بعضهم كان من البيض) بشكل أو بآخر فى أكثر من مائة مدينة، وأودع حوالى أربعة آلاف منهم السجون. ولكن بنهاية عام ١٩٦٠ فُتحت المطاعم فى جرينزبورو وأماكن أخرى كثيرة أمام السود.

وبعد عام من حادثة جرينزبورو، تأسست جماعة تتخذ موقعاً لها فى شمال البلاد من أجل تحقيق المساواة العرقية. كانت تُسمى مجلس المساواة العرقية (CORE) Con-gress of Racial Equality نظم هذا المجلس عدة رحلات اشترك فيها البيض والسود إلى مدن مختلفة فى الجنوب ؛ لكسر نمط الفصل بين البيض والسود فى وسائل المواصلات ما بين الولايات. كان ذلك الفصل أمراً غير قانونى منذ زمن ليس بالقصير، لكن الحكومة الفيدرالية لم تتوفر لديها الإرادة الكافية لإلغائه فى الجنوب. وكان الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت هو جون كينيدى ، لكنه - أيضاً - كان حذراً فيما يخص المسألة العرقية لأنه كان يهمه تأييد ودعم القادة البيض الجنوبيين من الحزب الديمقراطى.

لم يصل الأتوبيسان، اللذان غادرا واشنطن دى سى فى الرابع من مايو عام ١٩٦١ المتجهان إلى نيو أورلينز، إلى غايتهما. فقد تعرض المسافرون فى "رحلات الحرية" للضرب فى كارولاينا الجنوبية. وفى ألاباما، تعرض أتوبيس للحرق ، وتمت مهاجمة المسافرين بالعصى والقضبان الحديدية ولم يتدخل البوليس الجنوبى وسط كل هذا العنف ولم تتدخل الحكومة الفيدرالية. أما عملاء مكتب التحقيق الفيدرالى FBI فقد شاهدوا ما حدث ودونوا ملاحظاتهم ولم يفعلوا شيئاً.

وعند هذا الحد، قام قادة الاعتصام، الذين كانوا قد أسسوا لتوهم "لجنة التنسيق الطلابية السلمية SNCC)Student Nonviolent Coordinating Committee) ، بتنظيم رحلة أخرى من "رحلات الحرية" ، تبدأ من ناشفيل وتنتهى عند بيرمينجهام. وقبل أن تبدأ الرحلة، اتصل منظموها بوزارة العدل طلباً لتوفير الحماية لها . تقول روبى دوريس سميث: "رفضت وزارة العدل الطلب ، وقالت إنها لا تستطيع حماية أحد، ولكنها قالت لو أن شيئاً وقع، فإنها ستتولى التحقيق. وأنت تعرف كيف يفعلون ذلك... ".

أُلقى القبض على أصحاب رحلة الحرية من أعضاء تنظيم SNCC فى مدينة بيرمينجهام بولاية ألاباما ، وقضوا ليلة فى السجن ، وأخذوا إلى حدود تينيسى ثم عادوا إلى بيرمينجهام واستقلوا أتوبيسا إلى مونتجمرى ، وهناك هاجمهم البيض بالعصى فى مشهد دموى فظيع. فاستأنفوا رحلتهم إلى جاكسون بولاية ميسيسيبى.

وصار أصحاب "رحلات الحرية" خبراً ثابتاً فى الأخبار كل يومٍ فى كل أنحاء العالم، وكان ما يهم الحكومة هو تضييق دائرة العنف. وبدلاً من أن يصرِّ النائب العام روبرت كينيدى على حق هؤلاء فى السفر بين الولايات دون إلقاء القبض عليهم، وافق على إلقاء القبض عليهم فى جاكسون. ولم يذعن أصحاب "رحلات الحرية" فى السجن. بل قاوموا واحتجوا وطالبوا بحقوقهم. فيما بعد يتذكر ستوكلى كارمايكل(*) Stokely

(*) ستوكلي كارمايكل (كوامي توري Kwame Ture) مناضل أمريكي أسود عرف براديكالية لا تعرف التصالح أو التنازل. ولد في ترينداد بالكاريبى فى عام ١٩٤١ هاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٢ انخرط وهو في الجامعة في أنشطة حركات الحقوق المدنية وصار، لتميزه وفصاحته، من أبرز قادتها رغم صغر سنه. ففى عام ١٩٦٦ وهو في الخامسة والعشرين صار رئيساً للجنة التنسيق الطلابية السلمية SNCC . وبعد عامين ترك اللجنة إلى حزب "بلاك بانثر" (الفهد الأسود) الراديكالي، لكنه ما لبث أن تركه في العام التالي بسبب هيمنة بعض الراديكاليين البيض على الحزب. ترك أمريكا في عام ١٩٦٩ إلى غينيا بغرب إفريقيا. وما لبث أن غير اسمه إلى "كوامي توري" تيمناً باسمي الزعيمين الإفريقيين الكبيرين "كوامي نكروما" و"أحمد سيكو تورD" حيث أخذ من الأول "كوامي" ومن الآخر "توري". ومن هناك بدأ توري في تنظيم حزب الشعب الإفريقي الثوري. عرف عنه أيضاً عداؤه الشديد للصهيونية وله خطبة شهيرة عن القضية الفلسطينية والصهيونية ألقاها في أغسطس ١٩٦٨ أمام مؤتمر منظمة الطلاب العرب. مات في غينيا عام ١٩٩٨ بعد عامين من صراعه مع السرطان. صدرت سيرته الذاتية في عام ٢٠٠٣ تحت عنوان Ready For Revolution بقلم مايكل ثيلويل Michael Thelwell أستاذ الدراسات الأفرو ـ أمريكية بجامعة ماساتشوستس في أمهرست والروائي والناشط السياسى الذى كان صديقاً مقرباً من تورى. وكان تورى قد اختار ثيلويل لمشاركته كتابة تلك السيرة قبل وفاته بعامين (المترجم) .

Carmichael كيف كان هو وزملاؤه يغنون فى سجن بارشمان بولاية ميسيسيبى ، وكيف هدد العمدة بأخذ مراتبهم وتركهم ينامون على الأرض. يقول كارمايكل:

> **وقفت على المراتب وقلت: "أعتقد أن لنا حقاً فى هذه المراتب ، وأنك إنسان ظالم." وقال:"لا أريد أن أسمع هذا الهراء، أيها الزنجى." ...لم أتحرك وبدأت أغنى "سأقول للرب كيف تعاملنى" وبدأ مَنْ حولى فى غناء هذه الكلمات. هنالك استبد به الغضب ونادى الحراس قائلاً: "أخرجوه من هنا ! " وخرج مغلقاً الباب بعنف وترك لنا المراتب.**

فى ألبانى Albany بجورجيا، وفى بلدة صغيرة يخيم عليها جو العبودية، وقعت مظاهرات فى شتاء عام ١٩٦١ ثم مرة ثانية فى عام ١٩٦٢ ، ومن بين سكان البلدة البالغ عددهم ٢٢,٠٠٠ ذهب أكثر من ألف إلى السجن بسبب قيامهم بالمسيرات والتجمع والاحتجاج ضد الفصل والتمييز. هنا، وكشأن كل المظاهرات، التى ستجتاح الجنوب، شارك الأطفال السود فى المسيرات والمظاهرات ، وبدأ جيل جديد فى تعلم الدرس. وبعد أحد مرات القبض الجماعية على المتظاهرين، كان قائد بوليس ألبانى يسجل أسماء السجناء الواقفين أمام مكتبه فى طابور طويل. تطلع إلى الواقف أمامه فرأى ولداً زنجياً يبلغ التاسعة من عمره فسأله: "ما اسمك؟" فنظر الولد فى عينى القائد مباشرة وأجاب: "Freedom, Freedom " أى "الحرية."

ليست ثمة طريقة نستطيع أن نقيس بها تأثير هذه الحركة الجنوبية فى تفكير جيل كامل من الشباب السود وحساسيته أو نعرف كيف أصبح كثيرون منهم نشطاء سياسيين وقادة. فى مقاطعة لى Lee بولاية جورجيا، وبعد أحداث عامَى ١٩٦١-١٩٦٢، التحق مراهق زنجى يدعى جيمس كروفورد بتنظيم SNCC وبدأ يأخذ بعض السود إلى سجلات المقاطعة كى يدلوا بأصواتهم. وفى أحد الأيام، اصطحب امرأة وعندما وصل اقترب منه نائب أمين السجل. كان عضو بتنظيم SNCC يسجل ما حدث بين كروفورد ونائب أمين السجل:

الرجل: ماذا تريد؟

كروفورد: أحضرت هذه السيدة كى تسجل اسمها

الرجل: (بعد إعطائه السيدة استمارة وطلبه منها أن تبقى فى القاعة الخارجية) لماذا أحضرت هذه السيدة هنا؟

كروفورد: لأنها تريد أن تكون مواطنة من الدرجة الأولى مثلكم جميعاً.

الرجل: ومن أنت كى تُحضر الناس إلى السجل؟

كروفورد: إنها وظيفتى.

الرجل: هب أن رصاصتين جاءتا فى رأسك الآن؟

كروفورد: لا مفر من الموت على أى حال.

الرجل: إذا لم أفعل أنا ذلك، باستطاعتى أن آتى بمن يفعلها. (لا يتلقى إجابة)

الرجل: هل أنت خائف؟

كروفورد: لا

الرجل: افرض أن شخصاً ما دخل من هذا الباب وأطلق الرصاص على رأسك من الخلف الآن. ماذا أنت فاعل؟

كروفورد: لن أستطيع أن أفعل شيئاً. لو أطلقوا الرصاص على رأسى من الخلف، هناك أناس سيأتون من أرجاء العالم

الرجل: أى أناس؟

كروفورد: الذين أعمل عندهم.

وفى بيرمنجهام عام ١٩٦٣ خرج آلاف من السود إلى الشوارع فى مواجهة عصى البوليس والكلاب والغاز المسيل للدموع وخراطيم المياه القوية. فى الوقت نفسه تقريباً، وفى كل أنحاء الجنوب، كان شباب تنظيم SNCC يتحركون فى مجتمعات جورجيا وألاباما ومسيسيبى وأركانساس. وكان مع هؤلاء عدد من البيض المتطوعين. كانوا ينظمون الناس من أجل قيد أسمائهم فى سجلات الانتخابات ، ومن أجل الاحتجاج ضد العنصرية وتشجيع الناس على مواجهة العنف وعدم الاستسلام أمامه. وفى ثلاثة شهور فقط من عام ١٩٦٣ سجلت وزارة العدل ١٤١٢ مظاهرة. وأصبح الزج بالسود فى السجون وضربهم شائعاً ومعتاداً وقد جعل هذا بعض السود يخافون بينما تقدم آخرون إلى الأمام دون خوف. فقد قال طالب أسود يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً ويدعى كارفر نيبليت ويعمل فى تنظيم SNCC فى مقاطعة تيريل بولاية جورجيا:

تحدثت مع رجل ضرير أبدى اهتماماً كبيراً بحركة الحقوق المدنية. كان يتابع أخبار الحركة منذ البداية. ورغم أن هذا الرجل ضرير، فإنه يود أن يتعلم كل الأسئلة فى امتحان محو الأمية. تصور ! فى الوقت الذى يخشى فيه كثيرون من أن يقوم البيض بحرق بيوتنا أو طردنا من أملاكهم، يريد رجل ضرير يبلغ من العمر سبعين عاماً أن يأتى إلى اجتماعاتنا.

وعند اقتراب صيف ١٩٦٤، قررت جماعة SNCC وجماعات أخرى للحقوق المدنية، كانوا يعملون معاً فى ميسيسيبى ويواجهون عنفاً متزايداً، أن يطلبوا المساعدة من الشباب من مناطق أخرى من البلاد. كان أملهم أن ذلك سوف يلفت الانتباه إلى الوضع فى ميسيسيبى. ومرة بعد مرة فى ميسيسيبى وغيرها كان رجال مكتب التحقيق الفيدرالى FBI ورجال وزارة العدل يقفون موقف المتفرج فى حين يتعرض العاملون فى مجال الحقوق المدنية للضرب والسجن ، والقوانين الفيدرالية تتعرض للانتهاك.

وفى بداية يونيو عام ١٩٦٤، قامت حركة الحقوق المدنية بتأجير مسرح قريب من البيت الأبيض. وجاء أتوبيس محمل بالسود من ميسيسيبى إلى واشنطن دى سى ؛ كى يقدموا شهادتهم علانية عن العنف اليومى الذى يشهدونه ، والمخاطر التى يتعرض لها

المتطوعون بالعمل فى ميسيسيبى. وشهد المحامون الدستوريون بأن الحكومة الوطنية كان لديها السلطة القانونية لتوفير الحماية من ذلك العنف. ووصل نص هذه الشهادة إلى الرئيس جونسون ، والنائب العام كينيدى مرفقاً بطلب توفير حماية فيدرالية فى أثناء برنامج "صيف ميسيسيبى." ولم تأت أية استجابة.

بعد اثنى عشر يوماً من ذلك الحدث، أُلقى القبض على ثلاثة من العاملين بالحقوق المدنية: الأسود جيمس تشينى من ميسيسيبى ، واثنين من المتطوعين البيض هما أندرو جودمان ومايكل شويرنر. ثم أُطلق سراحهم فى وقت متأخر من الليلة نفسها، ثم أُعيد إلقاء القبض عليهم ورُبطوا بالسلاسل ، وأُطلق عليهم الرصاص حتى الموت. وقد أدت شهادة أحد المصادر المطلعة إلى أحكام بالسجن على العمدة ونائبه وآخرين. غير أن هذا جاء بعد فوات الأوان ، حيث وقعت هذه الجرائم بعد الرفض المتكرر من الحكومة الوطنية، فى عهد كينيدى أو جونسون أو أى رئيس آخر، بتوفير حماية فيدرالية للسود ضد العنف الذى يتعرضون له.

وزادت حدة الغضب على الحكومة الوطنية. ففى أواخر ذلك الصيف، وفى أثناء المؤتمر الوطنى الديمقراطى فى واشنطن بولاية ميسيسيبى، طالب السود بأن تُمثل نسبتهم من سكان الولاية (٤٠٪) فى وفد الولاية. غير أن طلبهم رُفض من قِبل القيادة الديمقراطية الليبرالية ، ومن بينها هوبرت هامفرى المرشح لمقعد نائب الرئيس.

وبدأ الكونجرس فى التفاعل مع ثورة السود وحالة الهياج التى سادت البلاد واهتمام العالم الخارجى بما يحدث بالداخل فقد أصدر الكونجرس قوانين خاصة بالحقوق المدنية فى الأعوام ١٩٥٧و ١٩٦٠ و ١٩٦٤ وعدت هذه القوانين بالكثير فيما يخص المساواة فى التصويت وفرص العمل ، ولكنها لم تُطبق على نحو صارم أو تم تجاهلها. وفى عام ١٩٦٥ رعى الرئيس جونسون قانوناً أقوى للحقوق الانتخابية أصدره الكونجرس ، ويوفر حماية فيدرالية فورية لعمليات تسجيل أسماء المنتخبين وقيامهم بالتصويت. وكان تأثير ذلك كبيراً فى تسجيل السود فى الجنوب أسماءهم فى قوائم الانتخابات. ففي عام ١٩٥٢ كان مليون أسود فقط مسجلين فى قوائم الانتخابات

(وهذه نسبة ٢٠٪ من المستحقين). وفي ١٩٦٤ وصل العدد إلى مليونين (أى ٤٠٪ من المستحقين). وبحلول عام ١٩٦٨ وصل العدد إلى ثلاثة ملايين (أى ٦٠٪ من المستحقين). وكانت هذه هى نفس نسبة البيض.

كانت الحكومة الفيدرالية تحاول، دون إجراء تغييرات جذرية، أن تسيطر على موقف متفجر ، وأن تحول مجرى الغضب إلى آلية تقليدية هادئة هى صندوق الانتخاب. عندما خطط قادة الحقوق المدنية السود لمسيرة كبيرة إلى واشنطن فى صيف عام ١٩٦٣ للاحتجاج على فشل الأمة فى التصدى لحل المسألة العرقية، وسرعان ما نهض الرئيس كينيدى وقادة آخرون لاحتواء المسيرة وحولوها إلى لقاء ودى!

هز خطاب مارتن لوثر كينج بعنوان "لدىّ حلم" مائتى ألف أمريكى من السود والبيض. كانت خطبة عظيمة ، لكنها لم تكن تحمل الغضب الذى كان يشعر به كثير من السود. وعندما حاول جون لويس، وهو شاب أسود ولد فى آلاباما وأحد قادة تنظيم SNCC وتعرض للضرب والاعتقال أكثر من مرة، أن يقدم كلاماً أكثر غضباً فى المؤتمر، اعترض قادة المسيرة وأصروا على حذف بعض العبارات من خطبته ، وهى العبارات التى تنتقد الحكومة الوطنية وتحرض على الفعل المسلح.

وبعد ثمانية عشر يوماً من مسيرة واشنطن وقع شىء بدا وكأنه يسخر من اعتدال المسيرة ، حيث انفجرت قنبلة فى بدروم كنيسة للسود فى بيرمنجهام ، مما أدى إلى مقتل أربع فتيات كن يحضرن درساً لمدرسة الأحد وقد أثنى الرئيس كينيدى على "الحماس العميق والجلال الهادئ" للمسيرة، لكن ربما كان الراديكالى الأسود مالكوم

(*) مالكوم إكس (١٩٢٥ ـ ١٩٦٥) من أبرز الناشطين السود في حركة الحقوق المدنية في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات بالولايات المتحدة. كان راديكالياً يؤمن بأهمية استقلال السود عن البيض، كان خطيباً فصيحاً قوي الحجة، وكان يمتلك شخصية كاريزمية شديدة التأثير. اعتنق الإسلام حيث رأى فيه صيغة تحررية تناسب السود. كتب سيرته الذاتية تحت عنوان سيرة ذاتية Autobiography بالاشتراك مع الروائي الأمريكي الأسود أليكس هيلي Alex Haley صاحب رواية جذور Roots الشهيرة. لا يعرف أحد على وجه اليقين حتى الآن من كان وراء اغتياله، وإن كانت آراء كثيرة ترجح أن مكتب التحقيق الفيدرالي FBI كان وراء ذلك. (المترجم)

إكس[*] Malcolm X أقرب إلى مزاج المجتمع الأسود. فبعد شهرين من المسيرة بواشنطن وحادثة حرق الكنيسة ببيرمنجهام قال مالكوم إكس فى ديترويت فى كلماته القوية ذات الإيقاع الخاص:

خرج الزنوج إلى الشوارع. كانوا يتحدثون عن كيفية قيامهم بالمسيرة فى واشنطن ... وعند مجلس الشيوخ ، وعند البيت الأبيض ، وعند مجلس النواب ، ثم وقفوا وتركوا الحكومة تتصرف بعد ذلك. لقد كانوا يقولون إنهم سيحتلون المطار ولن يسمحوا للطائرات بالهبوط. أنا أقول لكم ما قالوه. لقد كانت ثورة. نعم كانت ثورة. كانت هذه هى الثورة السوداء. لقد خرج الناس العاديون إلى الشارع ، وهذا ما أصاب الرجل الأبيض بالخوف حتى الموت ، وأصاب بناء القوى البيضاء فى واشنطن دى سى حتى الموت. لقد كنت هناك. عندما وجدوا أن هذه القوة الساحقة قادمة إلى العاصمة، قاموا باستدعاء ... هؤلاء القادة القوميين من الزنوج الذين تحترمونهم ، وقالوا لهم "أنهوا هذا الأمر" وقال كينيدى لهم: "أنتم الذين تسمحون لهذا الأمر أن يحدث ويذهب إلى هذا المدى البعيد." ورد أحدهم: "سيادة الرئيس! لا أستطيع أن أوقف هذا الأمر لأننى لم أبدأه." أنا أقول لكم ما قالوه. وقال آخر: "أنا لست حتى طرفاً فى هذه المسيرة." وقال ثالث: "هؤلاء الزنوج يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم. إنهم يسبقوننا." ... هذا ما فعلوه بالمسيرة فى واشنطن. انضموا إليها وصاروا جزءً منها بل تولوا مسئوليتها. وعندما صار هؤلاء القادة القوميون على رأس المسيرة، فقدت المسيرة راديكاليتها. لم تعد غاضبة ولا ساخنة ، ونحت إلى التوفيق والتسوية. بل إنها لم تعد مسيرة. لقد أصبحت نزهة أو سيركاً. نعم صارت سيركاً يملؤه المهرجون ومن شابههم... .

كان ما حدث خيانة وحادث سطو... سيطر أصحاب المؤسسة على المسيرة حتى أنهم حددوا للزنوج متى يهتفون ، ومتى يتوقفون ، وأية لافتات يحملون ، وأية أغنية يغنون ، وأية خطبة يلقون ، وأية خطبة لا يستطيعون إلقاءها ، بل طلبوا منهم الخروج من واشنطن دى سى بغروب شمس اليوم ... .

توافق وضوح وصف مالكوم إكس الساخر للمسيرة فى واشنطن مع الوصف الذى جاء من الجانب الآخر - المؤسسة ، وذلك عن طريق مستشار البيت الأبيض آرثر شليزنجر Schlesinger فى كتابه(ألف يوم A Thousand Days) . يحكى شليزنجر كيف التقى كينيدى مع قادة الحقوق المدنية وقال لهم إن المسيرة من شأنها أن "تخلق مناخاً من الخوف والتهديد" ، فى حين كان الكونجرس ينظر فى قوانين الحقوق المدنية. ورد إيه. فيليب راندولف: "إن الزنوج فى الشارع فعلاً ويكاد يكون من المستحيل فضهم... ." يقول شليزنجر: "لقد أقنع اللقاء مع الرئيس قادة الحقوق المدنية بأنه يجب ألاّ يحاصروا كابيتول هيل (حيث مجلس النواب ومجلس الشيوخ)." ويصف شليزنجر مسيرة واشنطن بإعجاب ، ثم ينتهى إلى القول: "وهكذا فى عام ١٩٦٣ تحرك كينيدى لكى يُدخل ثورة الزنوج فى التحالف الديمقراطى... ."

لكن هذا لم يُجدْ شيئاً، فالسود لم يستطيعوا الدخول فى "التحالف الديمقراطى" بسهولة ، ولاسيما مع استمرار انفجار القنابل فى كنائسهم. علاوة على أن قوانين "الحقوق المدنية" لم تغير من أحوالهم الأساسية. فى ربيع عام ١٩٦٣ كان معدل البطالة بين البيض ٤,٨٪ فى حين كان ١٢,١٪ بين غير البيض. ووفقاً للتقديرات الحكومية، كان خُمس البيض يعيشون تحت خط الفقر فى حين كان نصف السود يعيشون تحت هذا الخط. لقد أكدت قوانين الحقوق المدنية أهمية التصويت ، ولكن التصويت لم يكن حلاً جذرياً للعنصرية أو الفقر. فقد كان السود فى هارليم، وهم الذين مارسوا حق الانتخاب لسنوات طويلة، ما زالوا يعيشون فى أحياء قذرة ترتع فيها الجرذان.

وفى تلك السنوات التى بلغ فيها خروج قوانين الحقوق المدنية من الكونجرس قمته عامى ١٩٦٤و١٩٦٥، حيث انفجرت حركات احتجاج فى كافة أرجاء البلاد: وقعت فى

فلوريدا بعد قتل زنجية ، وتهديد بضرب مدرسة ثانوية للزنوج بالقنابل، وفى كليفلاند بعد مقتل راعى كنيسة أبيض جلس أمام بلدوزر احتجاجاً على التمييز ضد السود فى أحد مواقع الإنشاء والتعمير. وقامت مظاهرة فى نيويورك بعد إطلاق الرصاص على فتى زنجى فى أثناء مشادة مع رجل بوليس فى غير ساعات عمله. وقامت مظاهرات أخرى فى روشيستر وجيرسى سيتى وشيكاغو وفيلادلفيا .

وفى أغسطس من عام ١٩٦٥ ، وبينما كان ليندون جونسون يوقع على قانون الحقوق الانتخابية التى نصت على إجراء عملية تسجيل فيدرالية للناخبين السود، بما يضمن حمايتهم، اندلعت فى واتس بلوس أنجيليس انتفاضة للسود هى الأعنف منذ الحرب العالمية الثانية. تسبب فى هذه الانتفاضة القبض العنيف على سائق زنجى شاب ، وضرب البوليس لأحد المارة من السود ، واعتقال شابة سوداء بعد اتهامها زيفاً بأنها بصقت على رجال البوليس. قامت على أثر ذلك مظاهرة كبيرة فى الشوارع ، ووقعت أحداث سلب ونهب للمحلات. وتم استدعاء البوليس ورجال الحرس الوطنى الذين لم يترددوا فى استخدام أسلحتهم فقُتِل فى المظاهرة أربعة وثلاثون فرداً معظمهم من السود وجرح المئات ، وأُلقى القبض على أربعة آلاف.

فى كتابه **أنهار من الدم، سنوات من الظلام Rivers of Blood, Years of Darkness** كتب الصحفى روبرت كونوت Conot عن تلك المظاهرة قائلاً: "فى لوس أنجيليس أعلن الزنجى بأنه لن يدير خده الآخر ثانية. لقد قرر، بعد الإحباط الذى ذاق مرارته، أن يرد الضربة سواء أكان الرد العنيف مناسباً أم لا."

وفى صيف عام ١٩٦٦، كان هناك المزيد من المظاهرات الثائرة شملت قيام السود فى شيكاغو بإلقاء الحجارة وضرب القنابل ، مما أدى بقوات الحرس الوطنى إلى الرد بعنف أشد ؛ فقتل ثلاثة من السود. وفى كليفلاند استدعى الحرس الوطنى لوقف ثورة مجتمع السود حيث قتل أربعة من السود ، منهم اثنان قتلا على أيدى المدنيين.

بات واضحاً الآن أن اللاعنف الذى تنتهجه الحركة الجنوبية (التى ربما كانت ضرورية من الناحية التكتيكية وسط المناخ الجنوبى ، وربما كانت فاعلة فى مناشدتها

الرأى العام القومى ضد الجنوب الذى يؤمن بالفصل بين البيض والسود) بات واضحاً أن اللاعنف لم يكن كافياً للتعامل مع مشاكل الفقر المتفاقمة فى الجيتو الأسود. ففى عام ١٩١٠ كان يعيش ٩٠٪ من السود فى الجنوب. ولكن فى عام ١٩٦٥ كان يتم جنى ٨١٪ من قطن ميسيسيبى بالطرق الآلية. وبين عامى ١٩٤٠و١٩٧٠ نزح أربعة ملايين أسود من الريف إلى المدن. وبحلول عام ١٩٦٥، كان يعيش بالمدن ٨٠٪ من السود ، و٥٠٪ منهم يعيشون فى الشمال.

كان هناك مزاج جديد فى لجنة التنسيق الطلابية المسالمة SNCC ، وفى جماعات راديكالية أخرى من السود. وصار من الواضح أن كثيراً من هؤلاء بدأوا يتحررون من الوهم. كتب يوليوس ليستر:

> **انتهى الأمر. لقد نالت أمريكا فرصة بعد فرصة لكى تبين وتثبت أنها حقاً تعنى "أن كل الناس خلقوا متساوين ومنحهم الخالق حقوقاً معينة لا يمكن إنكارها." ... الآن انتهى الأمر. انتهت أيام غناء أغانى الحرية ، ومقابلة الرصاص والعصى بالحب. ... إن الحب رقيق وهش ولابد أن يقابله حب مثله. لقد كان الزنوج يغنون "أحب كل الناس" وهم يتفادون الطوب والزجاجات التى كانت تُلقى عليهم. أما الآن فإنهم يغنون:**
>
> **حب كثير عن الحاجة**
>
> **حب كثير عن الحاجة**
>
> **لا شئ يقتل الزنجى**
>
> **كالحب الكثير عن الحاجة.**

وفى عام ١٩٦٧، خرجت من الجيتو الأسود فى مختلف أرجاء البلاد أكبر المظاهرات فى تاريخ البلاد. تضمنت هذه المظاهرات، وفقاً للتقرير الذى كتبته اللجنة الاستشارية القومية بشأن القلاقل المدينية، "قيام زنوج بالهجوم على رموز محلية

للمجتمع الأبيض" وعلى رموز السلطة أكثر منها على الأشخاص البيض. وانتهت اللجنة إلى وقوع ثماني انتفاضات رئيسية ، وثلاث وثلاثين مظاهرة "خطيرة ، ولكن ليست رئيسية" ، بالإضافة إلى ١٢٣ مظاهرة "صغيرة." ، ومات ثلاثة وثمانون نتيجة إطلاق النار ومعظمهم من نيوآرك وديترويت. و"كانت الغالبية العظمى للأشخاص المقتولين والمصابين في كل الاضطرابات من بين الزنوج المدنيين."

كان "المتظاهر النموذجي"، حسب تقرير اللجنة، شاباً زنجياً متهربا من مدرسته الثانوية ولكنه "إلى حد كبير أفضل تعليماً من جاره الزنجي غير المتظاهر ، وعادة ما يكون "عاطلاً أو يعمل في مهنة وضيعة." وهذا المتظاهر النموذجي "فخور بعِرقه وشديد العداء لكل من البيض وأصحاب الطبقة الوسطى من الزنوج ، ورغم علمه بخبايا السياسة، فإنه لا يحمل أية ثقة في النظام السياسي."

وألقى التقرير باللوم على "العنصرية البيضاء" بوصفها سببًا وراء الانتفاضات والقلاقل وحدد العناصر المكونة "للخلطة المتفجرة التي تتراكم في مدننا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية":

> **التمييز المنتشر ضد السود ، والفصل بين البيض والسود في الوظائف والتعليم والإسكان... والتمركز المتنامي لفقراء الزنوج في المدن الكبرى ؛ الأمر الذي أدى إلى خلق أزمة في المرافق والخدمات المتدهورة ، وفي الاحتياجات البشرية. ... لقد انبثق مزاج جديد بين الزنوج ، خاصة الشباب منهم الذين يحل عندهم الإحساس العالي بالذات والفخر العرقي محل الإذعان "للنظام".**

لكن تقرير اللجنة نفسه كان خدعة من قبل النظام عندما يواجه مثل هذه الظروف: تشكيل لجنة تحقيق ، وكتابة تقرير سيكون لكلماته تأثير مهدئ.

غير أن هذا لم يُجد كثيراً. فقد كانت "القوة السوداء" Black Power هي الشعار الجديد، وهو شعار يعبر عن عدم الثقة في أي "تقدم" يُعلن عنه من قِبل البيض ، كما

أنه يعبر عن رفض السود لاتجاه "الأبوية" الذى ينتهجه النظام معهم. قليل من السود (أو البيض) عرفوا العبارة التى قالها الكاتب الأبيض ألدوس هكسلى : "الحريات لا تُمنح. إنها تؤخذ." لكن فكرة هذه العبارة كانت هناك ـ فى شعار "القوة السوداء". كان هناك أيضاً فخر عِرقى ، وإصرار على استقلال السود ، بل أحياناً على انفصالهم من أجل تحقيق استقلالهم. وكان مالكوم إكس الأكثر فصاحة فى التعبير عن هذا الاتجاه. وبعد اغتياله، بينما كان على منصة يلقى خطبةً فى فبراير من عام ١٩٦٥، فى خطة ما تزال أسرارها غامضة، أصبح مالكوم إكس شهيد هذه الحركة. وقرأ مئات الآلاف كتابه (**سيرة ذاتية**) Autobiography وأصبح تأثيره بعد موته أكثر منه فى أثناء حياته.

فى ذلك الوقت، ورغم الاحترام الذى كان لا يزال يتمتع به مارتن لوثر كينج، فقد صار هناك أبطال آخرون يحلون محله ، من أمثال هيوى نيوتن من تنظيم "الفهود السوداء". فأصحاب هذا التنظيم كانوا يحملون السلاح، وكانوا يؤمنون بأن على السود أن يدافعوا عن أنفسهم. فى أواخر عام ١٩٦٤ كان مالكوم إكس يتحدث إلى مجموعة من الطلاب السود من ميسيسيبى كانوا فى زيارة لهارليم:

> **سوف تحصلون على الحرية عندما تجعلون أعداءكم يعرفون أنكم ستفعلون أى شىء فى سبيل الحصول على حريتكم. يومئذ سوف تحصلون عليها. عندما يكون عندكم مثل هذا التوجه سوف يطلقون عليكم لقب "الزنوج المجانين"، أو ربما يطلقون عليكم لقب المتطرفين أو المشاغبين أو الشيوعيين أو الراديكاليين. ولكن عندما تظلون راديكاليين ويلتف حولكم أناس مثلكم، سوف تحصلون على حريتكم.**

استجاب الكونجرس لمظاهرات عام ١٩٦٧ بتمرير قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٨ ، وكان من المفترض أن هذا القانون سيزيد من قوة القوانين التى تحظر العنف ضد السود، حيث غلَّظ العقوبة على أولئك الذين يحرمون الناس من حقوقهم المدنية. وعلى الرغم من ذلك فقد نص القانون على التالى: "لا تنطبق مواد هذا القانون على

المسئولين المنوط بهم تنفيذه إذا ما قاموا بتنفيذه أو غفلوا عن ذلك وكذلك لا تنطبق على أعضاء الحرس الوطنى... أو أفراد القوات المسلحة الذين يشتركون فى قمع مظاهرة أو إنهاء شغب مدنى ... ."

علاوة على ذلك، تضمن القانون جزءاً وافق عليه الأعضاء الليبراليون بالكونجرس من أجل تمرير القانون كله. ينص هذا الجزء على السجن لمدة خمس سنوات لأى شخص يسافر من ولاية لأخرى أو يستخدم وسائل النقل بين الولايات (بما فى ذلك البريد والتليفون) "من أجل الاشتراك فى تنظيم مظاهرة أو المشاركة فيها أو التشجيع عليها." وحدد هذا الجزء كلمة "مظاهرة" بوصفها تعنى فعلاً يقوم به ثلاثة أشخاص فأكثر يمثلون تهديداً باستخدام العنف. وكان أول شخص ينطبق عليه قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٨ هو راب براون H . Rap Brown أحد القادة الشبان لحركة SNCC (لجنة التنسيق الطلابية المسالمة) الذى ألقى خطبة راديكالية غاضبة فى ميريلاند، قبل وقوع حالة شغب هناك. (فيما بعد، سيستخدم هذا القانون ضد المتظاهرين فى شيكاغو ضد الحرب).

وأصبح مارتن لوثر كينج نفسه أكثر قلقاً على المشكلات التى لم يعالجها قانون الحقوق المدنية - وهى المشاكل التى يسببها الفقر - ففى ربيع ١٩٦٨، بدأ يتكلم صراحة ضد نصيحة بعض القادة الزنوج الذين خشوا من خسارة بعض الأصدقاء فى واشنطن ، وكذلك بدأ يتحدث ضد الحرب فى فيتنام وكانت أحاديثه تربط بين الحرب والفقر:

> **... لابد أن نناقش مسألة الخلط المأساوى فى ترتيب الأولويات. نحن ننفق كل هذه الأموال على الموت والدمار ، ولا ننفق ما يكفى من الأموال على الحياة والتنمية ... عندما تصير أسلحة الحرب ولعاً قومياً، فلابد أن تعانى الاحتياجات الاجتماعية.**

هنا أصبح كينج هدفاً رئيسياً لمكتب التحقيق الفيدرالى FBI الذى وضع أجهزة تنصت على تليفونه ، وأرسل له خطابات مزورة وهدده وقام بابتزازه ، بل اقترح عليه

فى خطاب مجهول أن ينتحر. وناقشت مذكرات داخلية لمكتب التحقيق الفيدرالى إيجاد زعيم أسود يحل محل كينج. وقد جاء فى تقرير لمجلس الشيوخ عن مكتب التحقيق الفيدرالى فى عام ١٩٧٦ أنه حاول "تدمير د. مارتن لوثر كينج."

كان كينج يحول اهتمامه إلى أسئلة مزعجة. ورغم ذلك كان مصراً على سياسة اللاعنف إذ كان يعتقد أن المظاهرات تحمل فى داخلها أسباب هزيمتها. لكنها عبرت عن مشاعر عميقة لا يمكن تجاهلها. ولذلك فلابد أن يكون اللاعنف "نضالياً وكبيراً." وقد خطط لعملية "معسكر الفقراء" فى واشنطن دون أخذ موافقة الرئيس هذه المرة. وذهب إلى ميمفيس بولاية تينيسى لدعم إضراب نظمه عمال جمع القمامة هناك. وهناك وبينما كان يقف فى شرفة غرفته بالفندق، أطلق عليه الرصاص فسقط قتيلاً. واستمرت عملية "معسكر الفقراء" حتى فضها البوليس.

وقد أدى مقتل كينج إلى اندلاع مظاهرات فى كل أنحاء البلاد ، حيث قتل فيها ٣٩ فرداً منهم ٣٥ من السود. وتراكمت الأدلة وكان مفادها أنه بالرغم من كل قوانين الحقوق المدنية التى صدرت، فإن المحاكم لم تكن لتحمى السود من العنف والظلم:

١ - فى مظاهرات عام ١٩٦٧ فى ديترويت، قُتل ثلاثة مراهقين سود فى فندق ألجيريز. وقُدم ثلاثة من أفراد شرطة ديترويت ومعهم حارس أسود خاص إلى المحاكمة عن هذه الجريمة. وقال مراسل لوكالة الصحافة الدولية المتحدة UPI أن الدفاع قال إن المتهمين الأربعة أطلقوا النار على اثنين من السود. وبرأت هيئة محلفين ساحة المتهمين.

٢ - فى جاكسون بولاية ميسيسيبى فى ربيع عام ١٩٧٠، وفى الحرم الجامعى لكلية جاكسون الحكومية (وهى كلية للزنوج) ، أقام البوليس سداً من الأسلحة بالإضافة إلى مدفع رشاش حيث قتل طالبان ، وعُثر على أربعمائة طلقة فارغة أُطلقت على سكن الطالبات. ورأت هيئة محلفين محلية كبرى أن ذلك الهجوم كان "مبرراً"، وقال قاضى المقاطعة هارولد كوكس (الذى كان معيناً من قِبل كينيدى) : إن الطلاب الذين يشتركون فى شغب مدنى "لابد أن يتوقعوا القتل أو الإصابة."

٣ – فى بوسطن وفى إبريل من عام ١٩٧٠، قتل رجل بوليس رجلاً أسود غير مسلح فى مستشفى بوسطن سيتى بإطلاقه خمسة أعيرة نارية عليه ، بعد أن قذفه الرجل الأسود بفوطة فى وجهه. وبرأته محكمة محلية.

٤ – فى أوجاستا بولاية جورجيا، قتل ستة من الزنوج فى مايو عام ١٩٧٠ فى أثناء أحداث نهب وسلب فى المدينة. ونشرت نيويورك تايمز:

> **يشير تقرير سرى للبوليس إلى أن خمسة على الأقل من الضحايا قد قتلوا على أيدى البوليس... قال أحد شهود العيان بأنه شاهد زنجياً وشريكه الأبيض يطلقون تسع رصاصات فى ظهر رجل أسود اشتبها فى قيامه بالسلب. لم يطلق الرجلان طلقات تحذير ، ولم يطلبا من الرجل أن يتوقف عن الجرى، هذا ما صرح به شارلز إيه. رايد وهو رجل أعمال يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً.**

كانت هذه حالات "طبيعية" تتكرر على نحو لا ينتهى فى تاريخ البلاد. كانت تحدث بشكل عشوائى لكنه مستمر ، نتيجة عنصرية عميقة فى مؤسسات البلاد وعقلها. لكن كان هناك شىء آخر ـ وهو نمط مخطط من العنف ضد قادة المنظمات الراديكالية يقوم به أفراد من البوليس ومكتب التحقيق الفيدرالى. ففى الرابع من ديسمبر عام ١٩٦٩ قبل الخامسة صباحاً، أغارت فرقة من بوليس شيكاغو تحمل مسدسات ومدفعاً رشاشاً على الشقة التى كان يسكنها بعض من قادة تنظيم "الفهود السوداء". أطلقت هذه الفرقة اثنتين وثمانين طلقة على الأقل ، وربما أطلقت النار مائتى مرة على نحو جماعى فى تلك الشقة ، مما أدى إلى مقتل فريْد هامتون **Fred Hampton** ومعه أحد أفراد التنظيم ويدعى مارك كلارك. كان هامتون، الذى كان نائماً فى سريره وقت قتله، فى الحادية والعشرين من عمره وكان أحد القادة البارزين رغم حداثة سنه. وبعد عدة سنوات وعن طريق المحكمة، ظهر أن مكتب التحقيق الفيدرالى كان قد قام بزرع أحد

مرشديه بين أفراد التنظيم ، وأنه أمد البوليس بخريطة عن الشقة المستهدفة وخاصة المكان الذى ينام فيه هامتون.

هل كانت الحكومة تتحول إلى القتل والإرهاب : لأن الامتيازات (التى تمثلت فى التشريعات والخُطب وترنيم الشعار الذى رفعه الرئيس جونسون "سوف ننتصر") لم تؤت ثماراً؟ اكتُشف فيما بعد أن الحكومة فى أثناء سنوات حركة الحقوق المدنية، فى الوقت الذى كانت تمنح فيه الامتيازات عن طريق الكونجرس، كانت تتحرك من خلال مكتب التحقيق الفيدرالى للقيام بالقضاء على الجماعات الراديكالية. فى الفترة من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٧١ وضع مكتب التحقيق الفيدرالى برنامجاً ضخماً فقد قام بتنفيذ ٢٩٥ عملية ضد الجماعات السوداء. لكن هذه الجماعات أبدت صلابة شديدة فى مقاومة عمليات تقويضها. وقد جاء فى تقرير سرى رفعه مكتب التحقيق الفيدرالى إلى الرئيس نيكسون عام ١٩٧٠ أن "استطلاعاً حديثاً للرأى يشير إلى أن ٢٥٪ تقريباً من عدد السكان السود يكنون احتراماً كبيراً لحزب "الفهود السوداء" ، ويمثل الشباب السود تحت سن الواحدة والعشرين ٤٣٪ من تلك النسبة" . هل كان هناك خوف من أن يتحول السود من مجال الانتخابات (وهى التى يمكن السيطرة عليها) إلى الساحة الأكثر خطراً - أى إلى مجال الثروة والفقر - أى الصراع الطبقى. فى عام ١٩٦٦ قام سبعون من بين السود الفقراء فى جرينفيل بميسيسيبى باحتلال ثكنات قاعدة جوية حتى أخلاها الجيش. ووقفت امرأة سوداء من أهل المنطقة وتدعى بونيتا بلاك ويل وقالت:

> **أشعر أن الحكومة الفيدرالية أثبتت أنها لا تبالى بالفقراء. كل شىء طالبنا به على مدار سنوات طويلة لم يكن إلا حبراً على ورق. لقد أصابنا التعب والإرهاق نحن فقراء ميسيسيبى. لقد مللنا وسوف نتحرك من أجل البناء لأنفسنا ؛ لأنه ليست هناك حكومة تمثلنا.**

ومن بين مظاهرات ديترويت فى عام ١٩٦٧، خرجت منظمة أخذت على عاتقها تنظيم العمال السود من أجل إحداث تغيير ثورى. كانت هذه هى "رابطة العمال السود

الثوريين" التى استمرت حتى عام ١٩٧١ وكان لها تأثير على آلاف العمال السود فى ديترويت فى أثناء فترة نشاطها.

وقد كان توجه هذه الرابطة أكثر خطراً من حركات الحقوق المدنية ؛ لأنها خلقت احتمالية توحيد السود والبيض حول قضية الاستغلال الطبقى وكان إيه. فيليب راندولف قد تكلم فى عام ١٩٦٣ أمام أحد المؤتمرات وتنبأ بهذا التوجه فقال : "إن احتجاج الزنجى اليوم ليس إلا التحرك الأول للطبقة المطحونة. وكما خرج الزنجى إلى الشوارع، فسوف يخرج أيضاً العاطلون من كافة الأجناس."

بدأت محاولات احتواء للسود كما حدث تاريخياً مع البيض - وتتلخص هذه المحاولات فى غواية عدد صغير للوقوع تحت تأثير الإغراءات الاقتصادية. فبات هناك كلام عن "الرأسمالية السوداء." ودُعى قادة NAACP و CORE إلى البيت الأبيض ، حيث منح البيت الأبيض جيمس فارم من CORE وظيفة فى إدارة الرئيس نيكسون. وتسلم فلويد ماكيسيك قرضاً حكومياً قدره ١٤ مليون دولار من أجل التنمية السكنية فى كارولاينا الشمالية. وقدم الرئيس جونسون وظائف إلى بعض السود من خلال مكتب الفرص الاقتصادية ، وأنشأ نيكسون مكتباً لرجال أعمال الأقليات.

كذلك أظهر بنك تشيز مانهاتن وعائلة روكفيللر (المسيطرون الفعليون على هذا البنك) اهتماماً خاصاً بتطوير "الرأسمالية السوداء". وكثيراً ما كان أفراد عائلة روكفيللر رعاة ماليين فى مجال تعليم السود ، من خلال دعمهم لكليات الزنوج فى الجنوب. وحاول ديفيد روكفيللر إقناع زملائه الرأسماليين أن مساعدة رجال الأعمال السود قد لا يكون مثمراً على المدى القصير لكنه ضرورى "فى تشكيل بيئة يستطيع فيها البيزنس أن يستمر فى تحقيق مكاسبه لمدة أربع أو خمس سنوات من الآن." ومع كل ذلك، بقيت أعمال السود محدودة جداً، حيث كان لدى أكبر شركة للسود "Motown Industries " مبيعات تساوى ٤٥ مليون دولار فى عام ١٩٧٤ فى حين كانت تمتلك شركة إكسون مبيعات تساوى ٤٢ بليون دولار. ولم تكن شركات السود تمثل سوى ٠,٣٪ من إجمالى دخل البيزينس فى البلاد.

كان هناك قليل من التغيير وكثير من الدعاية والإعلان. وبدأت تظهر وجوه كثيرة للسود فى الصحافة والتلفزيون بما يعطى انطباعاً بالتغيير ويسمح بإدخال عدد صغير من القادة السود فى مجال المناخ السائد. نعم عدد صغير لكنه شديد الدلالة.

وهاجم بعض السود هذا الاتجاه. فعلى سبيل المثال، كتب روبرت ألين Allen فى كتابه : **الصحوة السوداء فى أمريكا الرأسمالية** Black Awakening in Capitalist America يقول :

> **إذا أراد المجتمع ككل أن يستفيد، فإن عليه أن يُنَّظم بحيث يستطيع أن يسيطر على اقتصاده الداخلى ، وعلى علاقاته مع أمريكا البيضاء. لابد أن تعامل شركات البيزينس السوداء وأن تُدار كملكية اجتماعية تنتمى إلى المجتمع الأسود بشكل عام ، وليس إلى مجموعة محدودة من الأفراد. ومن ثم يتأتى تفكيك علاقات الملكية الرأسمالية فى المجتمع الأسود بحيث يحل محلها اقتصاد جماعى مخطط.**

وفى كتيب وزعته فى بوسطن عام ١٩٧٠ وعنوانه **امرأة سوداء فقيرة** Poor Black Woman ربطت باتريشيا روبنسون Patricia Robinson بين السيادة الذكورية وبين الرأسمالية ، وقالت : إن المرأة السوداء "تضع نفسها مع الفقراء فى العالم الواسع وحركات النضال الثورية فيه." وقالت أيضاً : إن المرأة الفقيرة السوداء "لم تُسائل النظام الاجتماعى والاقتصادى" فى الماضى ، ولكنها الآن "بدأت تتساءل بشأن الهيمنة الذكورية الواسعة والمجتمع الطبقى الذى يعزز من قوة هذه الهيمنة برأسماليته."

وقالت أمريكية سوداء أخرى هى مارجريت رايت إنها لم تكن تناضل من أجل المساواة مع الرجل لو كان ذلك معناه المساواة فى القتل والصراع. وقالت: "لا أريد أن أتنافس على مستوى استغلالى كريه. لا أريد استغلال أحد ... فقط أريد الحق فى أن أكون سوداء وأن أكون نفسى .... ."

كان النظام يعمل على قدم وساق فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من أجل احتواء احتمالية الانفجار المرعبة للانتفاضات السوداء. وكان السود يقومون بالتصويت فى الانتخابات بأعداد غفيرة فى الجنوب . وفى المؤتمر الديمقراطى لعام ١٩٦٨ تم قبول ثلاثة من السود فى وفد ميسيسيبى. وبمجىء عام ١٩٧٧ تولى أكثر من ألفين من السود مناصب فى إحدى عشرة ولاية جنوبية (فى عام ١٩٦٥ كان عددهم اثنين وسبعين فقط). كان هناك عضوان بمجلس النواب من السود بينما بلغ عددهم بمجلس الشيوخ أحد عشر عضواً، وكان هناك خمس وتسعون من ممثلى الولايات من السود ، وصار ٢٦٧ منهم أعضاء فى لجان المقاطعات ، وستة وسبعون عمدة و٨٢٤ عضواً فى المجالس المحلية للمدن ، وصار هناك أيضاً ثمانية عشر قائداً للشرطة. وقد كان ذلك تقدماً كبيراً فى أحوال السود. وبالرغم من ذلك، كان السود لا يشغلون من المناصب الانتخابية سوى ٣٪ فقط. وقد حلّل صحفيٌ فى نيويورك تايمز عام ١٩٧٧ هذا الموقف بقوله: إنه حتى فى الأماكن التى شغل فيها السود وظائف مهمة "فإن البيض دائماً يقبضون على القوة الاقتصادية." وحتى بعد أن أصبح الأسود مانيارد جاكسون عمدة لمدينة أطلنطا "كانت مؤسسة البيزينس البيضاء لا تزال تبسط نفوذها."

ولم يعد السود يُمنعون فى الجنوب من الذهاب إلى المطاعم أو الإقامة بالفنادق بسبب لونهم. وصاروا يستطيعون الذهاب إلى الجامعات ولاسيما مدارس الطب والحقوق. وبدأت المدن الشمالية بترتيب رحلات تحمل الأطفال السود فى زيارة لمدارس البيض والعكس فى سبيل خلق مدارس مختلطة من السود والبيض رغم استمرار الفصل بينهم فى الإسكان. غير أن شيئاً من هذا لم يكن يوقف ما أسماه فرانسيس بيفين وريتشارد كلوارد (فى كتابهما: **حركات الفقراء** Poor People's Movements) "الطبقة السوداء الدنيا" - أى لم يوقف البطالة وتدهور أحوال السود فى الجيتوهات ، وارتفاع معدل الجريمة وإدمان المخدرات والعنف.

فى صيف عام ١٩٧٧، قالت وزارة العمل إن نسبة البطالة بين الشباب السود بلغت ٣٤,٨٪. لقد صار هناك طبقة وسطى صغيرة جديدة، وهو ما رفع من الإجمالى

العام لدخل السود، ولكن كان هناك تفاوت كبير بين أفراد هذه الطبقة الوسطى الصغيرة وبين الغالبية الفقيرة من السود. ورغم الفرص الجديدة التى حصل عليها عدد من السود، فإن دخل الأسرة السوداء عام ١٩٧٧ لم يكن يتجاوز ٦٠٪ من دخل الأسرة البيضاء. ونشرت نيويورك تايمز فى بداية عام ١٩٧٨ تقول: "... إن الأماكن التى شهدت المظاهرات فى الستينيات قد تغيرت نتيجة بعض الاستثناءات القليلة ، وانتشر الفقر فى معظم المدن."

بيد أن الإحصائيات لم تذكر القصة كلها. فالعنصرية، التى هى دائماً حقيقة قومية وليست حقيقة جنوبية فقط، ظهرت فى المدن الشمالية ؛ لأن الحكومة الفيدرالية منحت بعض الامتيازات إلى فقراء السود بطريقة حرضتهم ضد فقراء البيض. كان السود يدفعون دفعاً، وهم المتحررون من العبودية ويبحثون عن مكان لهم وسط الجو الرأسمالى، إلى الصراع مع البيض على الوظائف القليلة المتاحة.

هل كان السود، المطوقون داخل الجيتوهات، والمنقسمون بسبب ظهور طبقة وسطى صغيرة من بينهم، والذين يضربهم الفقر وتهاجمهم الحكومة ، والواقعون فى صراع مرير مع البيض، هل كانوا تحت السيطرة؟ من المؤكد أنه لم تكن ثمة حركة كبيرة للسود تتخلق فى منتصف السبعينيات. غير أن وعياً أسود كان قد ولد وما يزال حياً لدى الناس. علاوة على أن البيض والسود كانوا قد بدأوا فى عبور الحواجز العرقية فى الجنوب ، فى سبيل الاتحاد كطبقة واحدة ضد أصحاب العمل. ففى عام ١٩٧١ قام ألفان من عمال الخشب فى ميسيسيبى من البيض والسود باحتجاج معاً ضد خفض أجورهم. وفى مصانع النسيج التى تحمل اسم جيه. بى. ستيفنس، حيث كان يعمل ٤٤ ألف عامل فى خمسة وثمانين مصنعاً معظمها فى الجنوب، كان العمال البيض والسود يعملون معاً من أجل تحسين أوضاعهم.

ولكن هل كان لحركة سوداء جديدة أن تقوم وتذهب إلى ما بعد حدود حركات الحقوق المدنية فى الستينيات - أى إلى أبعد من المظاهرات التلقائية فى السبعينيات - وتصل إلى تحالف تاريخى بين السود والبيض؟ لم يكن هناك سبيل لمعرفة ذلك عام

١٩٧٨ . فى ذلك العام، كان ستة ملايين من السود يعانون من البطالة. وكما قال لانجستون هيوز: "ماذا يحدث لحلم مؤجل؟ هل يجف؟ أم تراه ينفجر؟" لو انفجر الحلم كما حدث فى الماضى، فإنه سيفعل ذلك بحتمية معينة (بسبب أحوال حياة السود فى أمريكا). غير أن هذا الانفجار سوف يأتى مفاجئاً لأن أحداً لا يعرف متى يكون ذلك.

الفصل الثامن عشر

فيتنام: النصر المستحيل

فى الفترة ما بين عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٢، قامت أغنى وأقوى دولة فى التاريخ ببذل أكبر جهد عسكرى، لم ينقصه سوى القنابل النووية، لكى تهزم حركة ثورية قومية فى بلد زراعى صغير ـ وفشلت. عندما حاربت الولايات المتحدة الأمريكية فى فيتنام، كانت تمثل التكنولوجيا الحديثة المنظمة فى مقابل البشر المنظمين، وانتصر البشر. وفى أثناء تلك الفترة، تشكلت فى الولايات المتحدة أعظم حركة مناهضة للحرب شهدتها البلاد، تلك الحركة التى لعبت دوراً خطيراً فى إنهاء حرب فيتنام. وكانت تلك حقيقة أخرى مفزعة من حقائق الستينيات.

فى خريف عام ١٩٤٥، أُجبرت اليابان بعد هزيمتها على مغادرة الهند الصينية، وهى المستعمرة الفرنسية السابقة، والتى احتلتها اليابان فى بداية الحرب. وفى الوقت نفسه، كانت حركة ثورية قد نمت هناك، وكانت عازمة على إنهاء السيطرة الاستعمارية وتحقيق حياة جديدة لفلاحى الهند الصينية. وقد حارب الثوار، تحت قيادة "هو شى منهْ" Ho Chi Minh، اليابانيين، وعندما رحل اليابانيون، أقام الثوار احتفالاً كبيراً فى هانوى فى أواخر عام ١٩٤٥، حيث امتلأت الشوارع بأكثر من مليون من البشر، كما أصدر الثوار إعلاناً للاستقلال. وقد استعار ذلك الإعلان بعضاً من إعلان حقوق الإنسان فى الثورة الفرنسية، وبعضاً من إعلان الاستقلال الأمريكى، وبدأ كما يلى: "خُلق الناس جميعاً متساوين؛ ومنحهم الخالق حقوقاً لا تُنكر، من بينها الحق فى الحياة والحرية ونشدان السعادة." وكما عدّد الأمريكيون فى عام ١٧٧٦ شكاواهم ضد الملك الإنجليزى، عدّد الفيتناميون شكاواهم ضد الحكم الفرنسى:

لقد فرضوا قوانين غير إنسانية... وأقاموا سجوناً يزيد عددها عن عدد ما أقاموه من مدارس. وذبحوا دون رحمة ذوى النزعة الوطنية منا، وأغرقوا حركات الانتفاضة فى أنهار من الدماء. وقيدوا الرأى العام... وسرقوا حقول أرزنا ومناجمنا وموادنا الخام وغاباتنا. ... كما اخترعوا أنواعاً غير مبررة من الضرائب ، وأنزلوا الفقر المدقع على أهالينا خاصة المزارعين. ومنذ نهاية العام الماضى وحتى بداية هذا العام، مات أكثر من مليونين من شعبنا جوعاً... . إن الفيتناميين، يدفعهم تحقيق هدف مشترك، عازمون على محاربة أيّة محاولة من قِبل المستعمرين الفرنسيين لإعادة غزو بلادهم.

أجرت وزارة الدفاع الأمريكية دراسة عن حرب فيتنام ، وكانت تنوى لهذه الدراسة أن تكون "سرية للغاية" ، لكنها تسربت إلى الرأى العام عن طريق دانيل إيلسبيرج **Daniel Ellsberg** وأنطونى روسو **Anthony Russo** فى القضية الشهيرة "أوراق البنتاجون" **Pentagon Papers** وقد صفت هذه الدراسة عمل "هوشى منهْ" كما يلى:

لقد حوَّل هوشى منهْ البلاد إلى منظمة سياسية كبيرة قادرة على المقاومة الفاعلة ، سواء ضد اليابانيين أو الفرنسيين. لقد كان القائد الفيتنامى الوحيد فى وقت الحرب الذى ضمن لنفسه ولاء وإخلاصاً كبيرين بين الفيتناميين، وذلك عندما أطاح باليابانيين فى أغسطس وسبتمبر من عام ١٩٤٥ ، وأسس جمهورية فيتنام الديمقراطية.... كانت فيتنام، لعدة أسابيع فى سبتمبر ١٩٤٥، خالية لأول مرة وللمرة الوحيدة فى تاريخها الحديث، من الهيمنة الأجنبية ، وموحدةً من الشمال إلى الجنوب تحت قيادة هوشى منهْ...

كانت القوى الغربية قد بدأت بالفعل تغيير ذلك الوضع؛ فقد احتلت إنجلترا الجزء الجنوبى من الهند الصينية ثم أعادتها إلى الفرنسيين. واحتلت الصين ذات النزعة القومية (تحت قيادة شيانج كاى شيك وقبل الثورة الشيوعية) الجزء الشمالى ، ثم أقنعتها الولايات المتحدة بإعادته إلى الفرنسيين. وكما قال "هوشى منهْ" لصحفى أمريكى: "من الواضح أننا نقف وحيدين.... لابد أن نعتمد على أنفسنا."

وفى الفترة ما بين أكتوبر من عام ١٩٤٥ وفبراير من عام ١٩٤٦، كتب "هوشى منهْ" ثمانية خطابات إلى الرئيس ترومان مذكراً إياه بوعود ميثاق الأطلنطى بشأن تقرير المصير. وقد جاء فى أحد الخطابات والذى كان قد أُرسل إلى كل من الرئيس ترومان والأمم المتحدة:

> **أود أن ألفت انتباه سيادتكم إلى الأسباب الإنسانية وراء هذا الخطاب. لقد مات مليونان من الفيتناميين جوعاً بين شتاء عام ١٩٤٤ وربيع عام ١٩٤٥ بسبب سياسة التجويع الفرنسية، حيث كان يجمع الفرنسيون الأرز ويخزنونه حتى يتعفن... . وقد أتلف الفيضان فى صيف ١٩٤٥ ثلاثة أرباع الأرض المزروعة، وقد تبع هذا موجة جفاف قاسية ، حيث فُقد خمسة أسداس المحصول. ...إن كثيراً من الناس يهددهم الموت جوعاً. ... وإذا لم تسعفنا القوى العظمى فى العالم ومنظمات الإغاثة الدولية بمساعدات عاجلة، فإننا سنواجه كارثة محدقة... .**

لكن الرئيس ترومان لم يرد على أى من الرسائل الثمانى. وفى أكتوبر من عام ١٩٤٦ أمطر الفرنسيون ميناء هايفونج فى شمال فيتنام بالقنابل ، حيث بدأت حرب السنوات الثمانى بين حركة "فيت منه" وبين الفرنسيين حول من سيحكم فيتنام. وقد بدأت الولايات المتحدة، بعد النصر الشيوعى فى الصين فى عام ١٩٤٩ وفى الحرب الكورية فى العام التالى، فى تقديم كميات ضخمة من المساعدات العسكرية إلى الفرنسيين. وبمجىء عام ١٩٥٤، كانت الولايات المتحدة قد قدمت ثلاثمائة ألف قطعة

من مختلف الأسلحة والمدافع، وهو ما يكفى لتسليح الجيش الفرنسى كله فى الهند الصينية ، بالإضافة إلى بليون دولار. كانت الولايات المتحدة تموِّل ٨٠٪ من الجهد الفرنسى فى تلك الحرب.

ولكن لماذا كانت الولايات المتحدة تفعل ذلك؟ كان ما يقال لعامة الشعب أن الولايات المتحدة كانت تساعد فى وقف انتشار الشيوعية فى آسيا. والحقيقة أنه لم يكن هناك مناقشة عامة حول الموضوع. أما فى الأجندة السرية للأمن القومى (التى تنصح الرئيس بشأن السياسة الخارجية) فقد كان هناك حديث بشأن ما أصبح فيما بعد يسمى "نظرية الدومينو" - التى كانت تعنى أنه لو سقط بلد تحت الهيمنة الشيوعية، فسوف تتبعه البلاد المجاورة له فى السقوط كصف قطع الدومينو. لذلك كان من المهم حماية الدولة الأولى فى الصف من السقوط.

وفى يونيو ١٩٥٢ أشارت مذكرة سرية لمجلس الأمن القومى إلى سلسلة القواعد العسكرية الأمريكية على طول ساحل الصين والفليبين وتايوان واليابان وكوريا الجنوبية:

> **إن السيطرة الشيوعية على جنوب شرق آسيا تجعل الوجود الأمريكى هناك محفوفاً بالمخاطر، كما أنه ينال من المصالح الأساسية لأمن الولايات المتحدة فى منطقة الشرق الأقصى. ..كما أن هذه المنطقة، خاصة جزر الملايا وإندونيسيا، هى المصدّر الرئيسى للمطاط الطبيعى والقصدير، كما أنها منطقة منتجة للبترول ولبعض من السلع الاستراتيجية الأخرى.**

وقد لوحظ أيضاً أن اليابان كانت تعتمد على أرز جنوب شرق آسيا، وإذا تُركت الشيوعية تنتصر هناك، فإن هذا من شأنه أن "يُصعِّب من الحيلولة دون احتمالية تواؤم اليابان مع الشيوعية."

بعد مهمة قام بها بعض أعضاء من مجلس النواب فى عام ١٩٥٣، جاء بتقريرهم "إن منطقة الهند الصينية بالغة الثراء بالأرز والمطاط والفحم والحديد. كما أن موقعها

يجعل منها مفتاحاً استراتيجياً لباقى جنوب شرق آسيا." وفى ذلك العام جاء بمذكرة لوزارة الخارجية أن الفرنسيين كانوا يخسرون الحرب فى الهند الصينية ، وأنهم قد فشلوا فى "كسب تأييد كافٍ من أهل البلاد" ، وخشيت الخارجية الأمريكية من أن أية تسوية "ستعنى ليس فقط الخسارة أمام الشيوعية فى الهند الصينية ، ولكن فى جنوب شرق آسيا كله". وانتهت المذكرة إلى ما يلى: "إذا قرر الفرنسيون الانسحاب فعلاً، فعلى الولايات المتحدة أن تفكر بجدية فيما إذا كان عليها أن تخلف الفرنسيين فى تلك المنطقة."

وفى عام ١٩٥٤، وعندما وجد الفرنسيون أنهم غير قادرين على كسب التأييد الشعبى الفيتنامى، الذى كان يقف فى صلابة وراء هوشى منه والحركة الثورية، اضطروا إلى الانسحاب. وأشرف تجمع دولى فى جنيف على معاهدة السلام المبرمة بين الفيتناميين والفرنسيين ، والتى نصت على أن ينسحب الفرنسيون مؤقتاً إلى الجزء الجنوبى من فيتنام ، وأن يبقى أتباع حركة هوشى منه فى الشمال وأن تُجرى انتخابات فى خلال عامين بشأن إقامة فيتنام موحدة ، وذلك كى يتمكن الفيتناميون من اختيار حكومتهم.

وتحركت الولايات المتحدة سريعاً كى تحول دون مسألة توحيد البلاد ، ولكى تجعل من جنوب فيتنام مجالاً أمريكياً. جاءت الولايات المتحدة بأحد المسئولين الفيتناميين السابقين يدعى "نجو دين ديام" ، والذى كان يعيش فى ولاية نيو جيرسى ، ووضعته على رأس نظام يحكم جنوب البلاد من مدينة سايجون بالجنوب، وشجعته أمريكا على عدم عقد الانتخابات المنتظرة. وفى عام ١٩٥٤ جاءت مذكرة من رئاسة الأركان المشتركة تقول فيه : إن تقديرات الاستخبارات كشفت عن أن "تسوية تقوم على الانتخابات الحرة سوف تؤدى إلى خسارة مؤكدة للولايات المتحدة (لاوس وكمبوديا وفيتنام وهى الأجزاء الثلاثة التى أقرّها مؤتمر جنيف) أمام الهيمنة الشيوعية." واستطاع ديام تعطيل إجراء الانتخابات مرة بعد الأخرى وتمكنت شوكة حكومته

بمساعدة الأموال والأسلحة الأمريكية. وكما جاء بكتاب أوراق البنتاجون: "كانت جنوب فيتنام في الأساس صناعة أمريكية."

ساءت شعبية نظام ديام على نحو متزايد؛ فقد كان ديام كاثوليكياً بينما كان معظم الفيتناميين بوذيين، وكان قريباً من أصحاب الأملاك وهو فى بلد زراعى معظم أهلها من المزارعين ولم تسفر مزاعمه عن الإصلاح الزراعى عن أى شيء، كما أحل رجاله محل القادة المحليين المختارين من قِبل الناس ، حتى إنه بحلول عام ١٩٦٢ كان ٨٠٪ من القادة المحليين عسكريين. وقد سجن "ديام" كثيراً وكثيراً من الفيتناميين الذين انتقدوا النظام السياسى لفساده وتقاعسه عن القيام بأى إصلاح.

وقد انتشرت المعارضة سريعاً فى الريف حيث لا يستطيع نظام ديام أن يصل إلى هناك، وفي عام ١٩٥٨ بدأت أنشطة العصابات ضد النظام. ولم يتقاعس الشيوعيون فى الشمال عن إرسال المساعدات من هانوى ، وعن التشجيع وإرسال أفرادهم أساساً من الجنوب ، ولكنهم ذهبوا إلى الشمال بعد اتفاقات جنيف وذلك لدعم حركة العصابات. وفى عام ١٩٦٠ تشكلت جبهة التحرير القومية فى الجنوب، حيث قامت الجبهة بتوحيد خيوط المعارضة للنظام. وكانت قوة الجبهة تكمن فى فلاحى الجنوب الذين رأوا فى الجبهة وما تقوم به تغييراً فى حياتهم اليومية. وفى كتابه **فيات كونج** (أى ثوار شمال فيتنام) ـ والذى كان عبارة عن حوارات ومقابلات مع المتمردين ـ حاول دوجلاس بايك، وهو محلل سياسى تابع للحكومة الأمريكية، أن يقدم تقييماً واقعياً عما كانت تواجهه الحكومة الأمريكية:

> **قامت جبهة التحرير القومية بإنشاء منظمات اجتماعية سياسية فى ٢٥٦١ قرية فى مختلف أرجاء البلاد وذلك فى بلد لم تكن تعرف مثل هذه المنظمات الجماهيرية... وباستثناء جبهة التحرير لم يكن هناك حزب سياسى حقيقى ذو قاعدة جماهيرية فى جنوب فيتنام.**

كتب بايك: "لقد أتى الشيوعيون بتغيير اجتماعى كبير فى القرى بجنوب فيتنام ، وقد أنجزوا ذلك عن طريق عملية الاتصال." أى أنهم كانوا منظِّمين أكثر من كونهم محاربين. كان بايك مندهشاً وسعيداً بالانغماس الكبير للفلاحين فى الحركة. كتب: "إن ما أدهشنى كثيراً فى جبهة التحرير هو شموليتها بوصفها ثورة ... اجتماعية أولاً ثم بوصفها قوة ... حرب ثانياً. ... لم يكن الفيتنامى الريفى مجرد مخلب فى صراع القوة والسلطة ، ولكنه كان عنصراً نشيطاً فى قوة الدفع، بل كان هو قوة الدفع." كما كتب بايك:

> **كان الهدف من وراء هذا الجهد التنظيمى الكبير هو إعادة بناء النظام الاجتماعى للقرية وتدريب القرى على ضبط أنفسها. وكان ذلك هو الهدف الأكبر لجبهة التحرير القومية منذ البداية. فلم يكن الهدف قتل جنود الجنوب ، ولا احتلال أراض ولا كسب معركة مدوية... ولكن التنظيم فى عمق السكان من أهل الريف وذلك من خلال أداة ضبط النفس.**

لقد قدَّر بايك أن عضوية جبهة التحرير القومية قد بلغت ثلاثمائة ألف عضوٍ فى بدايات عام ١٩٦٢ ، ويقول كتاب أوراق البنتاجون عن هذه الفترة: "لم يكن هناك دعم قوى أو تأثير واسع فى ريف البلاد سوى لثوار الشمال أو الفيات كونج."

وعندما تولى كينيدى الرئاسة فى بداية عام ١٩٦١، استمر فى نفس سياسة ترومان وايزنهاور فيما يخص جنوب شرق آسيا. فبمجرد توليه السلطة تقريباً، أعطى موافقته على خطة سرية خاصة ببعض الأعمال العسكرية فى فيتنام ولاوس ، بما فى ذلك "إرسال عملاء إلى شمال فيتنام" كى ينخرطوا فى "أعمال خطف وتحرش"، حسب ما ورد فى أوراق البنتاجون. وكان كينيدى قد تكلم فى عام ١٩٥٦ عن "النجاح المدهش للرئيس ديام" ووصف فيتنام ديام بقوله: "إن حريتها السياسية شىء ملهم."

وفى أحد أيام يونيو من عام ١٩٦٣، جلس راهب بوذى على الأرض فى أحد الشوارع وأشعل النار فى نفسه، وأخذ رهبان بوذيون آخرون فى الانتحار بهذه الطريقة كى يعبِّروا عن معارضتهم لنظام ديام. وقد أغار بوليس ديام على هياكل

البوذيين ومعابدهم فجُرح ثلاثون راهباً ، وقُبض على ألف وأربعمائة شخص ، وأغلق عدد من الهياكل والمعابد. وعمت المظاهرات المدينة وأطلق البوليس النار على الناس فقتل تسعة منهم. ثم سار عشرة آلاف من أهل هوى، العاصمة القديمة، فى مسيرات احتجاج.

ووفقاً لاتفاقات جنيف، كان مسموحاً للولايات المتحدة أن يكون لها ٦٨٥ مستشاراً عسكرياً فى جنوب فيتنام، لكن ايزنهاور قام سراً بإرسال عدة آلاف، ثم ارتفع الرقم فى عهد كينيدى إلى ستة عشر ألفاً، وبدأ بعضهم فى الاشتراك فى عمليات القتال. كان واضحاً أن ديام يخسر يوماً بعد يوم وكان القرويون يسيطرون على معظم ريف جنوب فيتنام بفضل تدريب جبهة التحرير لهم.

ثم أصبح ديام يمثل عقبة فى سبيل إحكام السيطرة الفاعلة على فيتنام، وبدأ بعض الجنرالات الفيتناميين فى التآمر من أجل الإطاحة به ، وكان هؤلاء على صلة بأحد رجال المخابرات يدعى لوسيان كونين. التقى كونين سراً بالسفير الأمريكى هنرى كابوت لودج الذى كان متحمساً للإطاحة بديام. وأبلغ السفير الأمريكى مساعد الرئيس كينيدى (ماكجورج باندى) فى ٢٥ اكتوبر (أوراق البينتاجون): "لقد وافقت شخصياً على كل لقاء بين الجنرال تران فان دون وكونين الذى نفَّذ كل ما أعطيته من أوامر." بدا كينيدى متردداً ولكن لم تصدر أية إشارة لتحذير ديام. وفى حقيقة الأمر أن السفير الأمريكى، قبل الانقلاب مباشرة وبعد أن كان على اتصال مع المتآمرين عن طريق كونين، أمضى إجازة نهاية الأسبوع مع ديام فى منتجع بحرى. وعندما هاجم الجنرالات القصر الرئاسى فى الأول من نوفمبر عام ١٩٦٣، اتصل ديام تليفونياً بالسفير الأمريكى لودج وسارت المحادثة بينهما كالتالى:

ديام: قامت بعض الوحدات بحركة تمرد وأود أن أعرف موقف الولايات المتحدة؟

السفير: أخشى ألا يكون لدى علم بما يمكننى من الإجابة. لقد سمعت صوت طلقات الرصاص لكننى لست مُلماً بكل الحقائق.

كما أن الساعة الآن الرابعة والنصف صباحاً فى واشنطن وظنى أن الحكومة الأمريكية ليس لديها رأى محدد الآن.

ديام: لكن لابد أن لديكم بعض الأفكار العامة...

أخبر لودج الرئيس ديام أن يتصل به ربما يستطيع أن يفعل له شيئاً من أجل سلامته. كانت هذه آخر محادثة يجريها أمريكى مع ديام الذى فر من القصر ، لكنه وأخاه وقعا فى أيدى المتآمرين الذين اقتادوهما فى سيارة نصف نقل ثم قاموا بقتلهما. فى أوائل عام ١٩٦٣، كان نائب وزير خارجية كينيدى يو.أليكسيز جونسون يتحدث أمام نادى ديترويت الاقتصادى:

ما قوة الجذب الذى يمثله جنوب شرق آسيا على مدار قرون فى عيون القوى العظمى التى تحيطها من كل جانب؟ لماذا هى مرغوبة ومهمة إلى هذا الحد؟ أولاً، إن بها مناخاً معتدلاً وتربة خصبة وموارد طبيعية غنية. كما أن هذه المنطقة لا تتسم بالكثافة السكانية العالية. وتنتج بلاد هذه المنطقة فائضاً كبيراً للتصدير من الأرز والمطاط والأخشاب والذرة والقصدير والتوابل والبترول وغير ذلك... .

وليست هذه هى اللغة التى يستخدمها الرئيس كينيدى فى حديثه للرأى العام بشأن هذه المنطقة. لقد تحدث عن الشيوعية والحرية؛ فقال فى مؤتمر صحفى فى ١٤ فبراير ١٩٦٢: "نعم، كما تعلمون، الحكومة الأمريكية تساعد حكومة فيتنام وشعبها على مدار أكثر من قرن من أجل المحافظة على استقلالهم." وبعد ثلاثة أسابيع من إعدام ديام، أُغْتِيل كينيدى وتولى نائبه ليندون جونسون رئاسة البلاد. أما الجنرالات الذين خلفوا ديام، فإنهم لم يستطيعوا كبح جبهة التحرير ، القومية. ومرة بعد أخرى، عبر الأمريكيون عن انزعاجهم الشديد من شعبية جبهة التحرير ومن الروح المعنوية العالية لجنودها. لقد كتب مؤرخو البنتاجون : إن ايزنهاور عندما التقى مع الرئيس المنتخب كينيدى فى يناير من عام ١٩٦١، "تعجب بشدة متسائلاً بصوت غير منخفض: لماذا،

فى مثل هذا النوع من التدخلات، نجد دائماً أن الروح المعنوية للقوات الشيوعية أفضل من الروح المعنوية للقوات الديمقراطية." وقال الجنرال ماكسويل تيلور فى أواخر عام ١٩٦٤:

> **إن قدرة الفيات كونج (ثوار شمال فيتنام) على إعادة بناء وحداتهم وتعويض خسائرهم هو أحد ألغاز حرب العصابات. إن وحداتهم ليست فقط مثل العنقاء فى قوتها المتجددة ، لكنها تمتلك قدرة مذهلة على الاحتفاظ بروح معنوية عالية. لم نجد أدلة على انخفاض الروح المعنوية بين المسجونين من الفيات كونج أو فى أيّة وثائق تنتمى إليهم ـ لم نجد ذلك إلا فى حالات نادرة جداً.**

وفى أوائل عام ١٩٦٤ لجأ الرئيس جونسون إلى استخدام عدة أحداث ضبابية فى خليج تونكن، وذلك ليشن حرباً شاملة على فيتنام. فقد قال جونسون ووزير دفاعه روبرت ماكنمارا للرأى العام الأمريكى إن المدمرات الأمريكية تعرضت لهجوم من قِبل توربيدات فيتنامية. قال ماكنمارا: "تعرضت المدمرة الأمريكية مادوكس لهجوم مباغت وغير مبَّرر بينما كانت فى دورية استطلاع روتينية فى المياه الدولية." وقد اتضح فيما بعد أن هذا كان مُخْتَلَقًا وأن أكبر المسئولين كذبوا على الرأى العام، تماماً كما فعلوا عند غزو كوبا فى عهد الرئيس كينيدى. وحقيقة الأمر هى أن المخابرات الأمريكية دخلت فى عملية سرية تضمنت الهجوم على بعض المنشآت الساحلية فى شمال فيتنام، أى لو حدث هجوم، فإنه لن يكون "غير مبرر". فلم تكن المدمرة الأمريكية فى "دورية استطلاع روتينية" لأنها ـ مادوكس ـ كانت فى مهمة تجسس إلكترونية خاصة، كما تبين فيما بعد أن المدمرة لم تتعرض لأى هجوم كما زعم ماكنمارا. ويبدو أن الهجوم الذى تعرضت له مدمرة أخرى بعد ليلتين ، ووصفه الرئيس جونسون بأنه "عدوان مفتوح" لم يكن إلا من اختراع الإدارة الأمريكية.

وقد أجرت المحطة التليفزيونية NBC لقاءً مع وزير الخارجية "راسك":

المحاور: كيف تفسر إذن هذا الهجوم غير المبرر؟

راسك: في حقيقة الأمر، وبصراحة شديدة لم أستطع أن أخرج بتفسير مرضٍ. هناك فجوة كبيرة بين ذلك العالم وبين عالمنا ، وهي فجوة أيديولوجية في طبيعتها. إنهم يرون ما نراه على أنه العالم الحقيقي بطريقة مختلفة تماماً. حتى فهمهم للمنطق مختلف، ومن هنا فإنه من الصعب أن يدخل كل منا ومنهم عقل الآخر عبر هذه الفجوة الأيديولوجية الكبيرة.

أدى "هجوم" تونكن إلى قرار نيابي مر بموافقة جميع أعضاء الكونجرس ، ولم يعترض عليه في مجلس الشيوخ سوى صوتين فقط. وقد كان هذا القرار يعني تفويض الرئيس جونسون في اتخاذ قرار بعمل عسكري في جنوب شرق آسيا بالطريقة التي يراها مناسبة. والغريب أن قادة الحكومة كانوا قد عقدوا اجتماعاً في هونو لولو، وذلك قبل شهرين من حادثة خليج تونكن ، حيث ناقشوا هذا القرار. وقال وزير الخارجية راسك، حسب ما ورد في أوراق البنتاجون: "كان الرأي العام منقسماً بشأن سياستنا في جنوب شرق آسيا في تلك اللحظة ، ولذلك كان الرئيس في حاجة إلى تأكيد بأنه مسنود في قراره."

لقد منح هذا القرار الرئيس جونسون السلطة في أن يبدأ باتخاذ أفعال عدائية دون إعلان الحرب عن طريق الكونجرس، وهو ما يطالب به الدستور. حتى المحكمة الدستورية العليا، وهي المنوط بها حراسة الدستور، تلقت طلباً من جماعة من المعارضين للحرب يطالبها بإعلان عدم دستورية هذه الحرب. غير أن المحكمة رفضت حتى النظر في ذلك الطلب.

وفي أعقاب موضوع تونكن، بدأت الطائرات الحربية الأمريكية في إمطار شمال فيتنام بالقنابل. وفي أثناء عام ١٩٦٥ أُرسل مائتا ألف جندي أمريكي إلى جنوب فيتنام وتضاعف الرقم في العام التالي. وبأوائل عام ١٩٦٨ كان هناك أكثر من نصف مليون جندي أمريكي ، وكان الطيران الجوي الأمريكي يسقط قنابل على شمال فيتنام بمعدل غير مسبوق في التاريخ. ولم تكن تصل أخبار كاملة عن تلك المعاناة البشرية إلى العالم

الخارجي. وفي الخامس من يونيو عام ١٩٦٥ نشرت نيويورك تايمز رسالة صحفية من سايجون جاء فيها:

بينما انسحب الشيوعيون من كوانج نجاى يوم الاثنين الماضى، قامت قاذفات القنابل النفاثة بدك التلال التى توجهوا إليها. حتى أن أحد التقديرات تقول بأن عدد من قتلوا نتيجة تلك الضربات قد بلغ الخمسمائة. وكان الهدف الأمريكى هو قتل الجنود الفايت كونج. كان ثلاثة من بين كل أربعة من المرضى الذين يتلقون علاجاً فى مستشفى فيتنامى بسبب حروق النابلم والجازولين ـ من القرويات.

وفى السادس من سبتمبر، نُشرت رسالة صحفية أخرى من سايجون:

فى مقاطعة "بيان هوا" جنوب سايجون وفى يوم الخامس عشر من أغسطس، قام الطيران الجوى الأمريكى، وبالمصادفة، بضرب معبد بوذى وكنيسة كاثوليكية... وكانت تلك هى المرة الثالثة التى يُضرب فيها ذلك المعبد فى عام ١٩٦٥ ، كذلك ضرب معبد يتبع طائفة كاو داى مرتين فى هذا العام. وفى مقاطعة أخرى، ثمة امرأة أحرق النابلم ذراعيها كما احترق جفناها ، حتى إنها لا تستطيع إغلاقهما. وعندما يأتى وقت نومها تضع لها أسرتها غطاءً على رأسها. وقد قُتل اثنان من أطفال هذه السيدة بسبب نفس الضربة التى ذهبت بذراعيها وأفسدت عينيها. ... إن مواطنين أبرياء يموتون كل يوم فى جنوب فيتنام.

كانت مناطق كبيرة من جنوب فيتنام قد أُعلنت "مناطق قتالية" وهو ما يعنى أن كل من يتبقى فيها من الناس، سواء كانوا أطفالاً أو كباراً فى السن، يعتبر عدواً ، ومن ثم تضرب المناطق فى أى وقت. أما القرى المتهمة بإيواء الفيات كونج فقد كانت معرضة لمهمات "بحث وتدمير" حيث كان يقتل الشباب فى سن التجنيد وتحرق البيوت وترسل

النساء وكبار السن والأطفال إلى معسكرات اللاجئين. وفى كتابه (قرية بين سوك) يصف جوناثان شيل مثل هذه العملية بقوله : حوصرت قرية، هوجمت، قتل رجل يقود دراجة، كما قتل ثلاثة أشخاص كانوا فى نزهة على النهر.

وقامت المخابرات الأمريكية فى جنوب فيتنام، وفى برنامج سرى يُسمى "عملية العنقاء"، بإعدام ما لا يقل عن عشرين ألفاً من المدنيين الذين شكت فى أنهم أعضاء فى المنظمات الشيوعية السرية. وقد كتب محلل سياسى حكومى فى صحيفة فورين أفيرز فى يناير عام ١٩٧٥ يقول: "رغم أن برنامج العنقاء أدى إلى قتل كثير من المواطنين الأبرياء، فإنه قضى على أعضاء كثيرين من البُنى التحتية للمنظمات الشيوعية."

وبعد الحرب، كشف الإفراج عن وثائق هيئة الصليب الأحمر الدولية أن ما بين خمسة وستين وسبعين ألفاً من الفيتناميين كانوا محجوزين فى معسكرات سجون جنوب فيتنام ، وكانوا غالباً ما يتعرضون للضرب والتعذيب ، وكان المستشارون الأمريكيون يراقبون ذلك كله وكانوا يشاركون فيه أحياناً. وقد وجد مراقبو الصليب الأحمر استعمال القسوة المستمرة بشكل منتظم فى المعسكرين الرئيسيين لأسرى الحرب ـ فى منطقتى "فوكوك" و "كوى نون" حيث كان يقيم المراقبون الأمريكيون.

وبنهاية حرب فيتنام، كانت قد أُسقطت سبعة ملايين طن من القنابل على فيتنام، وهو ما يفوق أكثر من مرتين إجمالى ما أُلقى من قنابل على أوروبا وآسيا فى الحرب العالمية الثانية؛ أى قنبلة تزن خمسمائة رطل لكل إنسان فى فيتنام. علاوة على ذلك، أُلقيت غازات سامة بالطائرات لتقضى على الشجر ـ وقد وصل الأمر أن منطقة باتساع ولاية ماساتشوستس قد غطيت بهذه الغازات." وقد أبلغت أمهات فيتناميات عن تشوهات فى أطفالهن. وقال علماء الأحياء بجامعة "ييل"، بعد أن استخدموا نفس السم على الفئران، إن هذا السم (T,2,4,5) أدى إلى ولادة فئران مشوهة ، وقالوا ليس هناك سبب يجعلهم يعتقدون أن تأثير هذا السم على البشر سيكون مختلفاً.

وفى السادس عشر من مارس عام ١٩٦٨، دخلت جماعة من الجنود الأمريكيين قرية "ماى لاى" فى مقاطعة كوانج نجاى. وأحاط الجنود بسكان القرية بما فيهم كبار

السن ونساء يحملن أطفالهن الرضع، ثم أمروهم بأن ينزلوا إلى خندق كبير ، ثم أطلق الجنود الرصاص عليهم حتى الموت. وقد نشرت النيو يورك تايمز شهادة جيمس دورسى، أحد حملة البنادق وذلك فى أثناء المحاكمة التى عقدت فيما بعد للضابط وليم كاللى. قال دورسى:

قام الضابط كاللى وأحد حملة البنادق الذى كان دائم البكاء ويدعى بول دى. ميدلو ـ وهو نفس الجندى الذى كان يطعم الأطفال الشيكولاتة قبل أن يطلق الرصاص عليهم، قام الضابط والجندى بدفع الأسرى داخل خندق.... كان هناك أمر من الضابط كاللى بإطلاق الرصاص عليهم، لا أستطيع تذكر الكلمات التى قالها.. كانت شيئاً من قبيل "ابدءوا إطلاق الرصاص." التفت ميدلو إلىّ وقال: هيا! لماذا لا تطلق الرصاص؟ كان يبكى.

قلت: لا أستطيع! لن أفعل!

ثم وجه كاللى وميدلو بندقيتيهما نحو الخندق وأطلقا الرصاص. كان الناس يغطسون تحت بعضهم البعض، وكانت الأمهات تحاولن حماية أطفالهن.

وفى كتابه ماى لاى ٤ يقول الصحفى سيمور هيرش:

عندما وصل محققو الجيش إلى المنطقة البور فى نوفمبر عام ١٩٦٩، وذلك فى تنسيق مع التحقيق الذى كان يدور فى الولايات المتحدة، وجدوا مقابر جماعية فى ثلاثة مواقع، علاوة على خندق مليء بالجثث التى كانت تقدر بحوالى ٤٥٠ إلى ٥٠٠ جثة معظمهم من النساء والأطفال وكبار السن.

وقد حاول الجيش تغطية ما حدث، لكن خطاباً من جندى أمريكى يُدعى رون ريدنهاور – وكان قد سمع عن المذبحة ـ بدأ فى الانتشار بين الناس. كما كانت هناك بعض صور للقتل التقطها مصور حربى يدعى رونالد هايبيرل. كما كتب عما حدث سيمور هيرش الذى كان فى ذلك الوقت يعمل لصالح وكالة أخبار معادية للحرب تُسمى Dispatch News Service. ظهرت قصة المذبحة فى مايو عام ١٩٦٨ فى مطبوعتين فرنسيتين : إحداهما هى Sud Vietnam en Lutte والأخرى كان يحررها الوفد الفيتنامى فى مباحثات السلام فى باريس. أما الصحافة الأمريكية فلم تُبد أى اهتمام.

وقد مَثُل كثيرون من الضباط الأمريكيين فى ماى لاى للمحاكمة ، غير أن الضابط كاللى هو فقط الذى أُدين وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ولكن الحكم تم تخفيفه مرتين، حيث أمضى من المدة ثلاث سنوات ثم أصدر الرئيس نيكسون قراراً بأن يكون كاللى رهن الإقامة الجبرية بمنزله وليس فى سجن عادى، وبعد ذلك أُفرج عنه إفراجاً مشروطاً. وقد دافع عنه آلاف الأمريكيين، وربما يعود جزء من هذا الدفاع إلى التبرير ذى الروح الوطنية بوصف أن أعماله كانت ضرورية ضد "الشيوعيين". ويعود جزء من الدفاع إلى الإحساس بأن هذا الرجل قد انتُقى بطريقة ظالمة فى حرب مليئة بفظائع أخرى. وقد قال العقيد أوران هندرسون، الذى كان متهماً بتغطية حوادث القتل فى ماى لاى، فى حديثه للصحفيين فى بداية عام ١٩٧١: "لكل وحدة عسكرية ماى لاى خاصة بها ولكنها مختفية فى مكان ما."

كانت ماى لاى فريدة حقاً فى تفاصيلها. وقد أشار هيرش إلى خطاب أرسله جندى أمريكى إلى أسرته ونشر فى صحيفة محلية. جاء بهذا الخطاب:

أمى وأبى العزيزين:

كنا اليوم فى مهمة وأشعر بالخزى من نفسى ومن أصدقائى ومن بلدى. لقد أحرقنا كل كوخ وقعت عليه عيوننا. كانت هذه شبكة صغيرة من القرى ، وسكانها فقراء فقراً شديداً. قامت وحدتى بحرق ممتلكات هؤلاء الفقراء وسلبها.

دعانى أحاول شرح الأمر لكما. الأكواخ هنا مغطاة بجريد النخيل، وكل كوخ به غرفة مبنية من الطين الجاف. مثل هذه الغرف بنيت لحماية الناس وقت الغارات الجوية. وقد اختار قادة وحدتى أن يعتقدوا أن هذه الغرف مستفزة ويجب إزالتها. لذلك كنا مأمورين بحرق أيّة غرفة من هذا النوع حتى تأتى النار عليها تماماً. وعندما هبطت المروحيات العشر هذا الصباح وسط هذه الأكواخ وقفز ستة جنود من كل مروحية، كنا نطلق الرصاص فى لحظة قفزنا من المروحيات... . وهكذا حرقنا كل الأكواخ.. كان الكل يبكى ويتوسل إلينا بألا نفصل بينهم بأخذ الآباء والأزواج والأبناء والأجداد. وكانت النساء تبكى وتنوح. كانوا ينظرون إلينا فى رعب ونحن نحرق منازلهم وممتلكاتهم الشخصية وطعامهم. نعم كنا نحرق الأرز ونقتل الماشية.

كان كلما قلت شعبية حكومة سايجون، زاد الاحتياج إلى الجهد العسكرى من أجل تعويض الشعبية المتدهورة. وقد جاء فى تقرير سرى صادر من الكونجرس فى أواخر عام ١٩٦٧ أن ثوار الشمال (الفايت كونج) كان يعطون الفلاحين خمسة أضعاف الأرض التى كان يحصل عليها الفلاحون فى الجنو ، ، حيث كاد أن يتوقف برنامج توزيع الأرض. يقول التقرير: "لقد قضى الثوار الشماليون على هيمنة الأثرياء على الأرض ، وأعادوا توزيع الأرض التى كانت مملوكة للحكومة والأثرياء بحيث حصل عليها المعدمون والمتعاونون مع الثوار."وقد ساعد تدهور شعبية حكومة سايجون على نجاح جبهة التحرير القومية فى التسلل إلى سايجون ومدن حكومية أخرى دون أن يقوم الناس فى هذه المناطق بإبلاغ حكومتهم بما يحدث. قامت جبهة التحرير القومية بشن هجوم مفاجئ (حيث كان ذلك وقت Tet ـ أى إجازة العام الجديد) مكّنهم من قلب سايجون وشلّ حركة طيران Tan San Nhut ، بل احتلال السفارة الأمريكية فى زمن قياسى. صحيح أن القوات الأمريكية قامت بصد ذلك الهجوم، لكن ما حدث كان له دلالة خاصة، وهى أن كل الضرب الذى وجّهته القوات الأمريكية إلى فيتنام لم يقض

على جبهة التحرير أو روحها المعنوية أو الدعم الشعبى الذى تتمتع به أو إرادتها القتالية. لقد أدى هجوم Tet إلى عملية إعادة تقييم فى الحكومة الأمريكية ، كما نشرت شكوكاً كثيرة داخل كثير من الأمريكيين.

ورغم كل هذا، كانت مذبحة ماى لاى التى ارتكبها جنود عاديون حدثاً صغيراً إذا ما قورن بخطط على مستوى عالٍ لقادة عسكريين ومدنيين لإلحاق تدمير واسع النطاق بفيتنام. فعندما رأى مساعد وزير الدفاع جون ماكنوتن فى بداية عام ١٩٦٦ أن ضرب قرى شمال فيتنام على نطاق واسع لم يفض إلى النتيجة المرغوبة، اقترح استراتيجية مختلفة. لقد رأى أن الضربات الجوية للقرى من شأنها أن "تخلق موجة عكسية من الاشمئزاز والسخط داخل الولايات المتحدة وخارجها على السواء. فكان اقتراحه كالتالى:

> **إن تدمير المعابر والسدود ربما يكون واعداً فى نتائجه إذا ما أحسن فعله. مثل هذا التدمير لا يقتل ولا يغرق الناس. إغراق حقول الأرز يمكن أن يؤدى إلى موت أكثر من مليون إذا لم تُحل مشكلة الطعام ـ وحل هذه المشكلة هو ما يمكن أن نقدمه "على مائدة المفاوضات."**

كان الهدف من القصف الثقيل بالقنابل هو تحطيم إرادة الفيتناميين العاديين حتى لا يقاوموا، تماماً كما حدث فى ضرب المناطق السكنية فى ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية. هذا بالرغم من إعلان الرئيس جونسون أن ما يضرب هو "الأهداف العسكرية" فقط. ففى فترة ما من عام ١٩٦٦ أوصت المخابرات الأمريكية باستخدام "برنامج قصف جوى ذى فاعلية كبرى"، حسب ما ورد بكتاب أوراق البنتاجون ويوجه هذا البرنامج ضد "إرادة النظام كنظام مستهدف." فى الوقت نفسه وعلى حدود فيتنام فى لاوس المجاورة كانت حكومتها اليمينية التى أتت بها المخابرات الأمريكية تواجه انقلاباً. فى الوقت ذاته، كانت منطقة سهل الجِرار Plain of The Jars فى لاوس، وهى من أجمل بقاع الأرض، تتعرض للقصف الأمريكى. غير أن الحكومة

والصحافة الأمريكية لم تكشف عما حدث هناك، حتى حكى أمريكى يُدعى فريد برانفمان Fred Branfman القصة كاملة فى كتابه: **أصوات من سهل الجِرار Voices from the Plain of Jars** فقال :

> **أغارت على سهل الجرار أكثر من خمسة وعشرين ألف هجمة مفاجئة فى الفترة من مايو عام ١٩٦٤ وحتى سبتمبرعام ١٩٦٩ حيث أسقط عليها أكثر من خمسة وسبعين ألف طن من القنابل، مما أدى إلى قتل وجرح الآلاف ، ونزوح عشرات الآلاف وتسوية كل ما على الأرض بها تماماً.**

وأجرى برانفمان، الذى كان يجيد لغة لاوس وعاش فى إحدى قراها مع أسرة لاوسية، لقاءات مع مئات اللاجئين الذين فروا من القصف الجوى. من بينهم فتاة من زيانج كوانج فى السادسة والعشرين من عمرها تحكى عن حياتها القروية:

> **كنت شديدة الارتباط بالأرض والهواء والحقول لاسيما حقول الأرز فى قريتى. كل يوم وكل ليلة على ضوء القمر كنت وأصدقائى من القرية نتجول ونتزاور ونغنى عبر الغابات والحقول تلفنا أصوات الطير. وفى أثناء الحصاد وفى فصل بذر البذور كنا نعمل ونكد معاً تحت الشمس وتحت المطر. نناطح الفقر والظروف البائسة ونمارس ونعيش حياة الفِلاحة التى كانت مهنة أجدادنا.**
>
> **ولكن فى عامى ١٩٦٤ و١٩٦٥ كنت أشعر بزلزلة الأرض وبالصدمة القادمة من دوى الانفجارات حول قريتى. فى ذلك الوقت كنت أسمع ضجيج الطائرات وهى تحلق فى السماء. وكانت إحداهما تحنى رأسها باتجاه الأرض وتطلق زئيراً مرعباً يزلزل القلوب بينما الضوء والدخان يغطى كل شئ حتى**

لا يستطيع أحد أن يرى شيئاً. كنا كل يوم نتبادل الأخبار مع جيراننا عن القصف والبيوت التى هدمت وعدد من قتلوا أو أصيبوا... .

وتحكى فتاة أخرى لماذا جذبتها الحركة الثورية "لاوس الجديدة" كما جذبت كثيراً من أصدقائها:

بوصفى فتاة صغيرة رأيت أن الماضى لم يكن طيباً ؛ لأن الرجال كان يعاملون النساء معاملة سيئة ، وكانوا دائمى السخرية منهن بصفتهن الجنس الضعيف. لكن بعد أن بدأ حزب "لاوس الجديدة" يدير شئون المنطقة... اختلف الأمر تماماً. تغيرت الأشياء من الناحية النفسية، حيث كان ثوار الحزب يعلمون النساء أن عليهن أن يتمتعن بالشجاعة مثل الرجال. وعلى سبيل المثال، رغم أننى التحقت بالمدرسة من قبل، كان الكبار فى الأسرة ينصحوننى بألا ألتحق بها. قالوا إن ذلك غير مفيد ؛ حيث إننى لا أطمح فى منصب رفيع بعد تخرجى. وأن ذلك الطموح مقتصر على أبناء النخبة الثرية. أما أعضاء حزب "لاوس الجديدة" فقد قالوا إن النساء يجب أن يحصلن على نفس التعليم الذى يحصل عليه الرجال، كما منحونا مميزات متساوية مع ما يحصل عليه الرجال من مميزات ، ولم يسمحوا لأحد أن يسخر منا... .

أدى اليأس بالمخابرات الأمريكية إلى أن تضع أفراد قبيلة "مونج" الكبيرة ضمن حملاتها العسكرية، مما أدى إلى وفاة الآلاف من أفرادها. كان هذا مصحوباً بالسرية والكذب كعهد معظم ما كان يحدث فى لاوس. وفى سبتمبر ١٩٧٣ كتب جيروم دوليتل، وهو مسئول حكومى سابق فى لاوس، فى نيويورك تايمز:

إن أحدث أكاذيب البنتاجون تعيدنى إلى سؤال طالما سألته نفسى عندما كنت ملحقاً صحفياً فى السفارة الأمريكية فى لاوس. كان السؤال: لماذا نكذب؟ عندما وصلت إلى لاوس، كانت لدى تعليمات بإجابة كل الأسئلة الصحفية عن القصف الأمريكى الكبير الذى لا يعرف هوادة فى تلك البلد الصغيرة كالتالى: "بناء على طلب من الحكومة الملكية للاوس تقوم الولايات المتحدة بطلعات استكشافية غير مسلحة ، ويصاحبها مرافقون عسكريون لهم الحق فى الرجوع إذا فُتحت عليهم النيران." كانت هذه كذبة. وكان كل صحفى أقول له هذا الجواب يعرف أننى أكذب. وكانت العاصمة هانوى تعرف أن ذلك كذب. كما كان كل عضو بمجلس النواب وكل قارئ للصحف يعرف أن ذلك كان كذباً... على أية حال، لقد ساعدت هذه الأكاذيب فى إخفاء شىء ما عن شخص ما، وكان هذا الشخص هو نحن.

وفى أوائل عام ١٩٦٩، بدأت وحشية الحرب تمس ضمير كثير من الأمريكيين. بالنسبة لأمريكيين آخرين، كانت المشكلة أن الولايات المتحدة كانت غير قادرة على الانتصار فى الحرب، فى حين كان أربعون ألف جندى أمريكى قد ماتوا فى فيتنام حتى ذلك الوقت، وكان هناك حوالى ربع مليون مصاب، دون أن تلوح فى الأفق نهاية.

وكان الرئيس جونسون قد صعَّد من الحرب وفشل فى الانتصار فيها ، وكانت شعبيته دائماً منخفضة حيث لم يستطع الظهور علانية دون أن يجد أمامه مظاهرة ضده وضد الحرب. وكان الهتاف فى مثل تلك المظاهرات: "مستر جونسون! كم طفلاً قُتلت اليوم؟" وفى ربيع العام نفسه، أعلن جونسون أنه لن يخوض انتخابات الرئاسة القادمة وأن مفاوضات مع الفيتناميين على وشك أن تبدأ فى باريس.

وفى خريف نفس العام، انتُخب ريتشارد نيكسون، الذى أقسم فى أثناء الانتخابات أنه سوف يخرج بالولايات المتحدة من فيتنام، رئيساً. وقد بدأ فى سحب

القوات الأمريكية من فيتنام ، حتى إنه بحلول عام ١٩٧٢ كان عدد الجنود الأمريكيين فى فيتنام أقل من ١٥٠ ألفاً. غير أن القصف لم يتوقف. كانت سياسة نيكسون هى "فتنمة" الحرب؛ بمعنى أن تقوم حكومة سايجون [جنوب فيتنام]مع القوات الفيتنامية باستخدام السلاح الأمريكي والاستمرار فى الحرب. لم يكن نيكسون ينهى الحرب. إنه كان ينهى الوجه الكريه فيها الذى تمثل فى تورط الجنود الأمريكيين في حرب تدور فى بلد بعيدة.

وفى ربيع عام ١٩٧٠، قام نيكسون ووزير خارجيته هنرى كيسنجر بغزو كمبوديا بعد طول قصف لها على نحو لم تكشف الحكومة عنه قط. لم يؤد الغزو إلى صرخات الاحتجاج فى أمريكا فحسب، لكن عملية الغزو نفسها كانت فاشلة، وقال مجلس النواب إن على نيكسون ألا يستخدم القوات الأمريكية فى توسيع قيام جنوب فيتنام بغزو لاوس. لكن هذا فشل أيضاً. وفى عام ١٩٧١ أُلقىَ ٨٠٠ ألف طن من القنابل على لاوس وكمبوديا وفيتنام. كان ذلك فى الوقت الذى كان فيه الرئيس "نجوين فان ثيو" يعتقل آلافاً من معارضيه.

وكانت بعض أوائل علامات معارضة الحكومة الأمريكية فى حربها قد أتت من حركة الحقوق المدنية، ربما لأن التجربة التى خاضها السود مع الحكومة جعلتهم لا يصدقون زعمها بأنها تحارب فى سبيل الحرية. ففى نفس اليوم الذى كان يحكى فيه الرئيس جونسون حادثة خليج تونكن ومعلناً قصف شمال فيتنام، كان ناشطون من البيض والسود يجتمعون بالقرب من فلادلفيا، بولاية ميسيسيبى لإحياء ذكرى ثلاثة عمال من حركة الحقوق المدنية كانوا قد قتلوا فى ذلك الصيف. وأشار أحد المتحدثين لاستخدام جونسون للقوة فى آسيا، مقارناً ذلك مع العنف المستخدم ضد السود فى ميسيسيبى.

وفى منتصف عام ١٩٦٥، وفى ماكوم بولاية ميسيسيبى، قام مجموعة من الشباب السود، فور علمهم بمقتل أحد زملائهم فى الحرب، بتوزيع وريقة قالوا فيها:

يجب ألا يذهب زنوج ميسيسيبى إلى فيتنام كى يحاربوا من أجل حرية الرجل الأبيض قبل أن يصبح كل زنوج ميسيسيبى أحراراً. يجب ألا أن يستجيب الشباب الزنوج لطلبات التجنيد، وعلى الأمهات أن يشجعن أولادهن على رفض الذهاب إلى الحرب... . ليس لأحد الحق فى أن يطلب منا أن نخاطر بحياتنا ونقتل أناساً آخرين ملونين فى سانتو دومينجو وفى فيتنام كى يصبح الرجل الأمريكى الأبيض أكثر ثراءً.

عندما ذهب روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكى، إلى ميسيسيبى وأثنى على السيناتور جون ستينيس، وهو أحد العنصريين البارزين، قائلاً إنه "رجل ذو عظمة حقيقية"، مشى الطلاب البيض والسود فى مسيرة احتجاج رافعين لافتات تقول: "فى ذكرى أطفال فيتنام المحترقين."

أما لجنة التنسيق الطلابية السلمية SNCC فقد أعلنت فى أوائل عام ١٩٦٦ أن "الولايات المتحدة تنتهج سياسة عدوانية فى انتهاك واضح للقانون الدولى" وطالبت بخروجها من فيتنام. وفى ذلك الصيف ألقى القبض على ستة من أعضاء اللجنة وحكم عليهم بقضاء عدة سنوات فى السجن ، وذلك لقيامهم باقتحام أحد مراكز تدريب المجندين فى أطلنطا. وفى الوقت نفسه تقريباً، قام جوليان بوند، وهو أحد ناشطى اللجنة وكان قد انتخب لتوه عضواً فى مجلس النواب لولاية جورجيا، بمهاجمة التورط فى حرب فيتنام ، ومهاجمة عملية تجنيد الشباب الأمريكى، فما كان من مجلس النواب بالولاية إلا أن صوت بألا يمارس بوند عمله ؛ بالمجلس بوصفه عضواً لأنه بتصرفه ذلك قد نال من سمعة المجلس. غير أن المحكمة الدستورية العليا حكمت بأن يستعيد بوند كرسيه بالمجلس ، واعتبرت ما فعله حقاً له فى التعبير كما ينص عليه الدستور فى مادته الأولى.

كذلك قام محمد على، أحد نجوم الرياضة فى الولايات المتحدة ، والملاكم الأسود وبطل الوزن الثقيل، برفض الخدمة فيما أسماه "حرب الرجل الأبيض"، فقامت سلطات

الملاكمة بسحب لقب "بطل" منه. وتكلم مارتن لوثر كنج فى عام ١٩٦٧ بكنيسة ريفر ساید فی نیویورك قائلا :

لابد أن ينتهى هذا الجنون على أى نحو. لابد أن نتوقف الآن. أتكلم كطفل من أطفال الرب وكأخٍ للفقراء المحرومين فى فيتنام. إننى أتحدث نيابة عن الذين تُخَرَّب أراضيهم وتُهَدَّم منازلهم وتُهان ثقافتهم. وأتحدث نيابة عن فقراء أمريكا الذين يدفعون ثمناً مضاعفاً فى الوطن ، حيث الآمال المحطمة وفى فيتنام حيث الموت والفساد. أتحدث بوصفيٍ مواطنًا من مواطنى العالم الذى يقف مشدوهاً من الطريق الذى أخذناه. أتكلم بوصفيٍ أمريكيًا إلى قادة أمتى. إن المبادرة العظيمة بوقف هذه الحرب لابد أن تكون من جانبنا.

بدأ الشباب الأمريكى المطلوب للتجنيد فى رفض الخدمة أو التدريب إذا تم الاستدعاء. ففى بواكير عام ١٩٦٤، كان الشعار الذى صار معروفاً على نطاق كبير هو "لن نذهب." كذلك بدأ من كانوا قد تسلموا كروت الاستدعاء فى حرقها على الملأ. وأحرق أحدهم، وهو ديفيد أوبراين، كرته فى جنوب بوسطن، فقبض عليه وحكم عليه بالسجن. غير أن المحكمة الدستورية العليا ألغت الحكم ، واعتبرت ما فعله من قبيل حرية التعبير. وفى أكتوبر عام ١٩٦٧ كان هناك عمليات تسليم كروت الاستدعاء على نحو منظم وفى كافة أرجاء البلاد؛ ففى سان فرانسيسكو وحدها أُعيد ٣٠٠ كارت استدعاء إلى الحكومة وبمنتصف عام ١٩٦٥ كان هناك ٣٨٠ حالة مقاضاة لشباب رفضوا التدرب فى مراكز التدريب قبل إرسالهم إلى فيتنام. وبحلول عام ١٩٦٨ وصل عدد حالات المقاضاة إلى ٣.٣٠٥ ثم إلى ٣٣.٩٦٠ بنهاية عام ١٩٦٩ .

وفى مايو ١٩٦٩ أبلغ مركز تدريب أوكلاند، حيث يتدرب المستدعون من شمال كاليفورنيا، أن من بين ٤.٤٠٠ فرد تم استدعاؤهم للتدريب، لم يحضر سوى ٢.٤٠٠ ، وفى الربع الأول من عام ١٩٧٠ لم يستطع نظام خدمة انتقاء المجندين، لأول مرة فى

تاريخه، أن يوفىً بما هو مطلوب. وكتب خريج من جامعة بوسطن درس بها التاريخ ويدعى فيليب سوبينا ـ كتب فى الأول من مايو عام ١٩٦٩ إلى لجنة التجنيد فى طاكسون بولاية أريزونا:

> **مرفق مع خطابى هذا الأمر الذى تلقيته بالحضور لإجراء الاختبار البدنى الخاص بالقوات المسلحة. ليس لدىَّ أيّة نية أن أخوض هذا الاختبار أو أحضر التدريب أو أن أساعد بأية طريقة فى الجهد الحربى الأمريكى ضد شعب فيتنام... .**

وقد أنهى خطابه باقتباس من الفيلسوف الأسبانى ميجيل أونا مونو الذى قال فى أثناء الحرب الأهلية الأسبانية "أحياناً يكون الصمت كذباً." وحوكم سوبينا وصدر ضده حكم بالسجن لمدة أربع سنوات.

فى بدايات الحرب، كان هناك حادثتان ربما لم يلحظهما معظم الأمريكيين. ففى الثانى من نوفمبر عام ١٩٦٥، وأمام مبنى وزارة الدفاع بواشنطن، وفى الوقت الذى كان يخرج فيه آلاف الموظفين من المبنى، قام نورمان موريسون، أحد أعضاء رابطة السلام المناهضة للعنف، وأبُ لثلاثة أطفال ويبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، بالوقوف أسفل نوافذ الدور الثالث، أى تحت مكتب وزير الدفاع ماكنمارا وأغرق نفسه بالكيروسين ، ثم أشعل النار فى نفسه احتجاجاً على الحرب. وفى العام نفسه وفى ديترويت أحرقت امرأة فى الثانية والثمانين، وتدعى أليس هيرز، نفسها احتجاجاً على الرعب المخيم على الهند الصينية.

وبعد بداية الحرب، بدأ تغير ملحوظ فى مشاعر الناس؛ ففى أوائل عام ١٩٦٥ عندما بدأ قصف شمال فيتنام، تجمع مائة شخص فى وسط بوسطن كى يعبروا عن سخطهم من تلك الحرب. وفى أكتوبر عام ١٩٦٩ وصل عدد الذين تجمعوا فى وسط بوسطن إلى مائة ألف. وربما كان هناك مليونان من الشعب الأمريكى تجمعوا فى مختلف مدن البلاد التى لم تشهد مظاهرات مناهضة للحرب على هذا النحو من قبل.

وفى صيف عام ١٩٦٥ تجمع عدة مئات فى واشنطن للقيام بمسيرة مناهضة للحرب ، وتعرضوا لرش البوية الحمراء عليهم من قبل من يسخفون من اعتراض هؤلاء على الحرب وكان فى الصف الأول من هذه المسيرة المؤرخ ستوتون ليند وبوب موسيز أحد منظمى SNCC ، وديفيد ديلنجر أحد دعاة السلام. ولكن بحلول عام ١٩٧٠ كانت المسيرات تضم مئات الألوف. وفى عام ١٩٧١ جاء إلى واشنطن عشرون ألفاً كى يقوموا بالعصيان المدنى ، محاولين أن يوقفوا مرور العاصمة الأمريكية كى يعبروا عن رفضهم للقتل الدائر فى فيتنام. وكان أن أُلقى القبض على أربعة عشر ألفاً منهم وهو أكبر عملية إلقاء القبض على نحو جماعى فى التاريخ الأمريكى.

وقد انتقد مئات من متطوعى رابطة السلام الحرب فى فيتنام. وفى شيلى تحدى اثنان وتسعون من أعضاء رابطة السلام رئيس الرابطة ، وأصدروا بياناً يدين الحرب. كما أصدر ثمانمائة عضو سابق فى الرابطة بياناً آخر يعربون فيه عن احتجاجهم على الحرب.

وقد رفض الشاعر روبرت لويل Lowell دعوة على العشاء بالبيت الأبيض، وأرسل الكاتب المسرحى آرثر ميللر برقية إلى البيت الأبيض يقول فيها: "عندما تدوى أصوات المدافع، تموت الفنون." وكان ذلك رداً على دعوة للعشاء تلقاها من البيت الأبيض. وكانت المغنية ايرثا كيت مدعوة للغداء فى حديقة البيت الأبيض، فما كان منها إلا أن صدمت كل الحاضرين وفى وجود زوجة الرئيس عندما هاجمت استمرار الحرب فى فيتنام. ودعى فتى مراهق إلى البيت الأبيض لتسلم جائزة ، فوقف ينتقد الحرب من البيت الأبيض. وفى هوليود قام الفنانون بتشكيل برج من الاحتجاج يبلغ ارتفاعه ٦٠ قدماً فى صن سيت بوليفار. وفى احتفالات جائزة الكتاب القومى فى نيويورك، انسحب خمسون كاتباً وناشراً من خطاب نائب الرئيس همفرى تعبيراً عن غضبهم من دوره فى الحرب فى فيتنام.

وفى لندن، حطم أمريكيان مدخل احتفال السفير الأمريكى بعيد الاستقلال وصاحوا: "إلى كل الذين ماتوا والذين يموتون فى فيتنام." فألقى الحراس القبض

عليهم. وفى المحيط الهادى، قام بحاران أمريكيان بخطف سفينة أمريكية محملة بالذخيرة ومتجهة إلى القواعد الأمريكية فى تايلاند. وسيطر الشابان على السفينة وطاقمها لمدة أربعة أيام ، وكانا يتعاطيان حبوباً تساعدهم على عدم النوم حتى وصلت السفينة إلى المياه الكمبودية. وفى أواخر عام ١٩٧٢، قالت وكالة أسوشيتيد بريس من يورك بولاية بنسلفانيا: "ألقى البوليس اليوم القبض على خمسة من الناشطين المناهضين للحرب ، وذلك لاتهامهم باختطاف معدات سكك حديدية بالقرب من مصنع يقوم بتصنيع أغطية القنابل المستخدمة فى الحرب فى فيتنام." حتى الذين لم يعتادوا أن يكونوا ناشطين فى قضايا عامة من أبناء الطبقة الوسطى ومن المهنيين ـ بدأوا فى الاحتجاج ضد الحرب. ففى مايو من عام ١٩٧٠ كتبت نيويورك تايمز من واشنطن: "ألفٌ من محاميى المؤسسة ينضمون للاحتجاج على الحرب." وبدأت هيئات كبرى تتساءل عما إذا كانت الحرب ستنال من مصالح أعمالهم، وبدأت صحيفة وول ستريت جورنال فى انتقاد استمرار الحرب.

وكلما زاد سوء الكلام عن الحرب، بدأ أناس فى الحكومة أو من المقربين منها فى الخروج عن دائرة الإجماع، وكانت أكثر حلقات هذه النقطة إثارة تلك التى تخص حالة دانيل ايلسبيرج. فقد كان ايلسبيرج اقتصادياً تدرب فى جامعة هارفارد وضابط مارينز سابق. وكان يعمل موظفاً لدى هيئة "راند" التى كانت تقوم بإجراء أبحاث سرية للحكومة الأمريكية. وقد ساعد ايلسبيرج وزارة الدفاع فى كتابة تاريخ الحرب فى فيتنام. ثم حدث أن قرر أن يذيع وثيقة سرية للغاية بمساعدة صديقه أنطونى روسو Russo رجل هيئة "راند" السابق. كان الاثنان قد تقابلا فى سايجون حيث تأثر الاثنان، فى تجاربهما المختلفة، بالرؤية المباشرة للحرب وازدادت قوة سخطهما على ما كانت تفعله الولايات المتحدة بشعب فيتنام.

وقد قضى ايلسبيرج وروسو ليلة بعد ليلة فى وكالة إعلان يمتلكها صديق لهما حيث طفقا يصوران الوثيقة التى يبلغ عدد صفحاتها سبعة آلاف صفحة. ثم أوصل ايلسبيرج نسخاً إلى بعض رجال الكونجرس والى جريدة نيويورك تايمز. وفى يونيو من

عـام ١٩٧١، بدأت الجـريدة فى نشـر مـخـتـارات مما عُرف فـيـمـا بـعـد باسم أوراق البنتاجون. وكان لذلك صدى كبير فى كافة أرجاء البلاد. وحاولت إدارة نيكسون أن تجعل المحكمة الدستورية العليا توقف عملية النشر، ولكن المحكمة رأت فى ذلك "تقييداً مسبقاً" لحرية الصحافة ، ومن ثم فهو أمر غير دستورى. وقد أدانت الحكومة الرجلين لانتهاكهما قانون التجسس لنشرهما وثائق سرية، مما جعلهما يواجهان عقوبة السجن لمدد طويلة فى حالة ثبوت الاتهام. غير أن القاضى ألغى المحاكمة فى أثناء مداولات هيئة المحلفين، وذلك لأن أحداث فضيحة (وترجيت) كشفت عن ممارسات غير سليمة من قِبل الجهة المدعية.

لقد حطم ايلسبيرج، بفعلته الجريئة تلك، الطريقة العادية للغاضبين والساخطين داخل جهاز الحكومة الذين يمضون أوقاتهم محتفظين بآرائهم الشخصية، آملين فى حدوث تغيّرات صغيرة فى السياسة القائمة. لقد ألح عليه زميل بألا يترك عمله بالحكومة لأنه استطاع من خلاله "الوصول" إلى الأسرار. ونصحه هذا الزميل: "لا تعزل نفسك. لا تقطع رقبتك بيديك." لكنه رد بقوله: "إن الحياة موجودة خارج الحكومة أيضاً."

وقد اكتسبت الحركة المناهضة للحرب منذ بدايتها جمهوراً عريضاً. وكان من بين هذا الجمهور قساوسة وراهبات من الكنيسة الكاثوليكية. تحمس بعضهم تأثراً بحركة الحقوق المدنية ، وتحمس آخرون نتيجة تجاربهم فى أمريكا اللاتينية ، حيث رأوا الفقر والظلم فى ظل حكومات تحظى بدعم الولايات المتحدة. ففى خريف عام ١٩٦٧، دخل الأب فيليب بيريجان (أحد محاربى الحرب العالمية الثانية القدماء) ومعه الفنان توم لويس وصديقاه ديفيد ايبرهارت وجيمس مينجل مكتب استدعاء للتجنيد فى بالتيمور بولاية مريلاند ، حيث رشوا سجلات الاستدعاء بالدم وانتظروا كى يتم إلقاء القبض عليهم. وقد حوكموا وصدر حكم بالسجن عليهم لمدد تتراوح بين سنتين وست سنوات.

وفى مايو التالى أُفرج عن فيليب بيريجان بكفالة فى قضية بالتيمور وانضم إليه أخوه دانييل ، وهو قس جوسويتى كان قد زار شمال فيتنام ورأى تأثير القصف

الأمريكى هناك. لقد دخل الاثنان ومعهما سبعة آخرون مكتباً آخر خص باستدعاء الشباب للتجنيد فى كاتونزفيل بولاية مريلاند ، حيث أزاحوا السجلات وأشعلوا النيران فيها فى حضور عدد من الصحفيين وكثير من المارة. وقد صدر ضدهم حكم بالسجن وعرفوا باسم "تسعة كاتونزفيل." وفى أثناء تلك الحادثة، كتب دانييل سطوراً تأملية جاء فيها:

أيها الأصدقاء الطيبون: نقدم اعتذارنا عن إخلالنا بالنظام ، وعن حرقنا للأوراق بدلاً من الأطفال ، وعن إغضابنا للجنود الواقفين فى المدخل الأمامى للمدافن. لم نستطع أن نفعل غير ذلك، والله شاهد علينا ... نحن نقول: إن القتل هو الفوضى وإن الحياة واللطف وغياب الأنانية هو النظام الأوحد الذى نعرفه. فى سبيل هذا النظام، نخاطر بحريتنا وسمعتنا الطيبة. لقد ولى الزمان الذى يستطيع فيه الناس الطيبون أن يظلوا صامتين... .

ولما فشلت توسلاته وكان من المفترض أن يذهب إلى السجن، اختفى دانييل بيريجان، وبينما كان رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI يبحثون عنه، ظهر فى احتفال لعيد الفصح بجامعة كورنيل ، حيث كان يقوم بالتدريس. وبينما كان عشرات من رجال FBI يبحثون وسط الزحام، ظهر هو فجأة على المسرح، وانقطع التيار الكهربائى وتخفىً داخل أحد الأقنعة العملاقة لفرقة بريد آند بابيت [الخبز والعرائس] التى كانت موجودة على المسرح ، ثم استطاع أن يهرب إلى مزرعة قريبة. وظل متخفياً لمدة أربعة شهور يكتب القصائد ويصدر التصريحات ويجرى لقاءات سرية مع مراسلى الصحف ، ثم يظهر فجأة فى فلادلفيا بإحدى الكنائس يلقى موعظة ، ثم يختفى مرة أخرى خادعاً رجال FBI حتى قام أحد مرشدى البوليس من خلال خطاب لبيريجان بالكشف عن مكانه حيث قُبض عليه وأُدخل السجن.

أما مارى مويلان، المرأة الوحيدة من بين تسعة كاتونزفيل ، والتى كانت راهبة سابقة، فقد رفضت الاستسلام لرجال FBI الذين لم يستطيعوا العثور عليها. لقد كتبت

خبرتها النضالية من مخبئها ، وتحكى هنا جزءاً من هذه الخبرة وكيف وصلت إلى ما هى فيه:

كنا قد علمنا جميعاً أننا كنا فى طريقنا إلى السجن، فأخذنا فرش أسناننا معنا. كنت متعبة تماماً. أخذت صندوق ملابسى الصغير ووضعته تحت السرير ثم قفزت على السرير. كانت كل النساء فى سجن مقاطعة بالتيمور من السود ـ أعتقد أن كان ثمة امرأة بيضاء واحدة. كانت النساء يوقظننى قائلات: "ألن تبكى؟" قلت: "علام أبكى؟" قلن: "أنت فى السجن." وقلت: "نعم. فقد عرفت أنى سأكون هنا." ... كنت أنام بين اثنتين من هؤلاء النساء وكنت استيقظ كل صباح لأجدهما يستندان على مرفقيهما يتأملاننى. وكن يقلن: "لقد نمت طول الليلة." ولم يكُنّ يصدّقْن ذلك. كنّ طيبات وقضينا معاً أوقاتاً طيبة.

أعتقد أن نقطة التحول السياسية فى حياتى جاءت عندما كنت فى أوغندا، حيث كانت الطائرات الأمريكية تقوم بقصف الكونغو، وكنا قريبين جداً من الحدود معها. بل إن الطائرات قصفت قريتين فى أوغندا... فيما بعد، كنت فى دار السلام ، وجاء الزعيم الصينى شوين لاى إلى المدينة. أرسلت السفارة الأمريكية خطابات إلينا تقول بأن على الأمريكيين عدم الخروج إلى الشوارع لاستقبال الزعيم الصينى لأنه، كما قالت الخطابات، قائد شيوعى قذر. لكننى قررت أن أذهب لأن هذا الرجل كان من صناع التاريخ وأنا أحببت أن أراه... .

وعندما عدت من أوغندا، انتقلت إلى واشنطن، كان علىّ أن أتعامل مع المشهد القائم هناك ، حيث جنون رجال البوليس ووحشيتهم وكذلك نوع الحياة التى يعيشها معظم الناس هناك

حيث ٧٠٪ من سكان المدينة العاصمة من السود... ثم فيتنام والنابالم والمواد الحارقة للأشجار والقصف بالقنابل... . دخلت حركة النساء منذ عام تقريباً ... وفى وقت حادثة كاتونزفيل، كان الذهاب إلى السجن شيئاً مفهوماً بالنسبة لى ؛ بسبب المشهد الخاص بحياة السود... فكثير منهم يملأون السجون طول الوقت... . إننى لا أريد أن يُساق الناس إلى السجن والابتسامة تعلو وجوههم! لا أريدهم أن يذهبوا إلى السجون. ستكون السبعينيات وقتاً صعباً جداً ، وأنا لا أريد أن أخسر الأخوات والأخوة بأن يؤخذوا إلى السجون.

ساعد تأثير الحرب والأفعال الجريئة لبعض القساوسة والراهبات على كسّر جدار المحافظة التقليدية للمجتمع الكاثوليكى. ففى بوسطن كوليدج - وهى عبارة عن معهد كاثوليكى - تجمع ستة آلاف من الأمريكيين ذات مساء فى الصالة الرياضية للمعهد ، وذلك من أجل إدانة الحرب.

وانخرط الطلاب بأعداد كبيرة فى مسيرات الاحتجاج المبكرة ضد الحرب. فقد اكتشفت دراسة لمركز أبحاث "ايربان ريسيرش كوربوريشان" أن ما لا يقل عن ٢١٥,٠٠٠ طالب قد شاركوا فى مسيرات الاحتجاج التى نظمت بالجامعات خلال الأشهر الستة الأولى فقط من عام ١٩٦٩، وأن ٣,٦٥٢ طالباً قد قبض عليهم، كما أن ٩٥٦ قد أوقفت دراستهم أو طردوا من الجامعة. حتى فى المدارس الثانوية، فى أواخر الستينيات، كانت هناك حوالى خمسمائة صحيفة سرية. وفى افتتاح جامعة براون عام ١٩٦٩، أعطى الطلاب ظهورهم لهنرى كيسنجر الذى كان يوجه إليهم خطاباً.

أما قمة الاحتجاج فقد جاءت فى ربيع عام ١٩٧٠ عندما أمر الرئيس نيكسون بغزو كمبوديا. ففى جامعة كينت بولاية أوهايو وفى الرابع من مايو عندما تجمع الطلاب ليتظاهروا ضد الحرب، أطلق أفراد الحرس الوطنى النار على الطلاب فقتلوا أربعة منهم. وأصيب طالب بالشلل مدى الحياة. وقام طلاب أربعمائة كلية وجامعة بإضراب

احتجاجاً على ما حدث. وكان ذلك أول إضراب طلابى عام فى تاريخ الولايات المتحدة. وأثناء العام الدراسى ١٩٦٩ـ١٩٧٠، سجل رجال FBI ‏١,٧٨٥ مظاهرة طلابية من بينها قيام الطلبة باحتلال ٣١٣ مبنى.

كانت أيام افتتاح العام الدراسى بالجامعات الأمريكية، بعد حادثة جامعة كينت، كما لم ترها الولايات المتحدة من قبل. فمن أمهرست بولاية ماساتشوسيتس، جاء هذا التقرير الصحفى:

> **اتخذ بداية العام الدراسى المائة لجامعة ماساتشوستس أمس شكلاً مختلفاً تماماً. لقد كان احتجاجاً ودعوة من أجل السلام. لقد حددت الإيقاعات الجنائزية خطوة ٢٦٠٠ من الشبان والشابات السائرين "فى خوف ويأس وإحباط." وكانت الأرواب الأكاديمية تحمل صوراً للحمام والقبضات الحمراء والرموز البيضاء التى ترمز للسلام.**

وقد أدت احتجاجات الطلاب ضد "برنامج تدريب الضباط الاحتياط" إلى إلغاء هذه البرامج فى أكثر من أربعين كلية وجامعة. ففى عام ١٩٦٦، كان هناك ١٩١,٤٧٩ طالباً جامعياً منضمين إلى ذلك البرنامج، لكنهم بلغوا ٧٢,٤٥٩ فى عام ١٩٧٣ فقد كان الاعتماد على برنامج تدريب الضباط الاحتياط كبيراً فى الوفاء بنصف عدد الضباط المحاربين فى فيتنام. وفى سبتمبر عام ١٩٧٣ وللشهر السادس على التوالى، لم يستطع برنامج التدريب الوفاء بما هو مطلوب حتى لقد قال مسئول عسكرى: "أتمنى فقط ألا نتورط فى حرب أخرى ؛ لأن هذا لو حدث فإنى أشك فى قدرتنا على خوضها." إن الشعبية التى حازتها مسيرات الاحتجاج الطلابية خلقت انطباعاً بأن معارضة الحرب جاءت فى معظمها من مثقفى الطبقة الوسطى. وعندما اعتدى بعض عمال الإنشاء فى نيويورك على الطلاب المتظاهرين، أبرزت الأخبار ما حدث فى نشرات التليفزيون ووسائل الإعلام الأخرى. ورغم ذلك فقد أظهرت عدة انتخابات فى بعض المدن الأمريكية ، بما فى ذلك المدن التى تسكنها طبقات عاملة أن الشعور المعادى

للحرب كان قوياً بين تلك الطبقات. فعلى سبيل المثال، فى دير بورن بولاية ميتشجان وهى - ديربورن - مدينة لصناعة السيارات، أظهر استطلاع أُجرى فى عام ١٩٦٧ أن ٤١٪ من سكان المدينة فضَّلوا الانسحاب من حرب فيتنام. وفى عام ١٩٧٠ حازت مذكرات الاقتراع، فى مقاطعتى سان فرانسيسكو ومارين بولاية كاليفورنيا، والتى تطالب بانسحاب القوات الأمريكية من فيتنام، أغلبية الأصوات. وفى أواخر العام نفسه، عندما قدم استطلاع جالوب العبارة التالية للاستفتاء: "يجب أن تسحب الولايات المتحدة كل قواتها من فيتنام بنهاية العام القادم"، أجاب ٦٥٪ من المشاركين بالإيجاب. وفى ربيع عام ١٩٧١ فى ماديسون بولاية ويسكنسون كان المؤيدون لقرار بالانسحاب الفورى للقوات الأمريكية من جنوب شرق آسيا ٣١،٠٠٠ بينما كان المعارضون ١٦،٠٠٠ .

أما أكثر الأشياء إدهاشاً فقد تمثلت فى دراسة قامت بها جامعة ميتشجان، حيث بينت أن معارضة الحرب فى فيتنام كانت أقوى بين خريجى المدارس الثانوية عنها بين المتخرجين من الجامعة. ففي يونيو من عام ١٩٦٦، كان ٢٧٪ من خريجى الجامعات يؤيدون الانسحاب الفورى من فيتنام. أما خريجو المدارس الثانوية فبلغت نسبة المؤيدين للانسحاب ٤١٪. وبحلول سبتمبر من عام ١٩٧٠، زادت النسبة المؤيدة للانسحاب فى المجموعتين حيث بلغت نسبة الأولى ٤٧٪ بينما بلغت الثانية ٦١٪.

وثمة دليل أقوى على دراسة جامعة ميتشجان؛ ففى مقالة نُشرت فى مجلة "أمريكان سوسيو لوجيكال ريفيو" (يونيو ١٩٦٨) وجد ريتشارد ف. هاملتون فى المسح الذى قام به على الرأى العام أن "كان اختيار سياسات بديلة أكثر شدة، موجودة بين المجموعات التالية: أصحاب التعليم العالى، أصحاب الوظائف المهمة، أصحاب الدخول الكبيرة، الشباب الأصغر وأولئك الذين يهتمون بالصحف والمجلات." وفى دراسة للعالم السياسى هارلان هان عن الاستفتاءات المختلفة التى أجرتها مدن أمريكية بشأن الحرب فى فيتنام، وجد أن أعلى نسبة مؤيدة للانسحاب من فيتنام جاءت من بين الطبقات الدنيا، سواء اجتماعياً أو اقتصادياً. كما أنه وجد أن الاستطلاعات المنتظمة القائمة على العينات هونت من قوة المعارضة للحرب بين الطبقات الدنيا.

كان هذا جزءاً من التغيير العام الذى ساد سكان البلاد؛ ففى عام ١٩٦٥ اعتقد ٦٥٪ من السكان أن التورط الأمريكى فى فيتنام لم يكن خطأ. بينما رأت النسبة نفسها فى عام ١٩٧١ أن هذا التورط كان خطأ. وقد وجد بروس آندروز، الذى درس الرأى العام فى هارفارد، أن معظم المعارضين للحرب كانوا من بين من هم فوق الخمسين والسود والنساء. وقد لاحظ أيضاً أن دراسة أُجريت فى ربيع عام ١٩٦٤ ـ عندما كانت فيتنام قضية غير بارزة فى الصحف ـ كشفت عن أن ٥٣٪ من خريجى الجامعات كانوا راغبين فى إرسال قوات إلى فيتنام ، فى حين ٣٣٪ فقط من خريجى المدارس الثانوية كانوا راغبين فى ذلك.

يبدو أن وسائل الإعلام، التى كانت تحت سيطرة أصحاب التعليم العالى والدخول العالية ، والذين كانوا أكثر عدوانية ومغامرة فى السياسة الخارجية، كانت تميل إلى أن تعطى انطباعاً خاطئاً بأن أصحاب الطبقات الدنيا كانوا أكثر تأييداً للحرب ؛ لامتلاكهم روحاً وطنية فائقة. وفى دراسة له أجراها فى منتصف عام ١٩٦٨ عن الفقراء عامة والسود خاصة فى الجنوب، خرج لويس ليبستيز بالتالى: "إن الطريق الوحيد لمساعدة الإنسان الأمريكى الفقير هو الخروج من الحرب فى فيتنام... فهذه الضرائب العالية... تذهب إلى هناك لتمول قتل البشر ، وأنا لا أرى أى مبرر لذلك."

ربما تتجلى القدرة على الحكم المستقل بين الأمريكيين العاديين فى التطور السريع للشعور المناهض للحرب ، الذى انتشر بين الجنود الأمريكيين ـ سواء المتطوعين أو المجندين ـ الذين جاءوا من طبقات ذات دخل منخفض. لقد شهد التاريخ الأمريكى حالات من الاحتجاج ضد الحرب فى أوقات سابقة؛ ففى الحرب الثورية كانت هناك حركات غضب منعزلة، وكان هناك رفض بإعادة الخدمة العسكرية إبان الحرب المكسيكية، كما كان هناك هروب واعتراض على أداء الخدمة العسكرية بوازع الضمير فى الحرب العالمية الأولى والثانية. لكن حرب فيتنام خلَّفت معارضة من قبل الجنود والمحاربين القدماء على نطاق غير مسبوق.

لقد بدأ ذلك فى شكل موجات احتجاج منعزلة؛ ففى يونيو من عام ١٩٦٥، رفض ريتشارد ستاينكى - خريج من جامعة ويست بوينت، أن يستقل طائرة تنقله إلى قرية فيتنامية نائية، حيث قال: "إن الحرب الفيتنامية لا تساوى حياة أمريكى واحد." وقد حوكم ستاينكى محاكمة عسكرية وطرد من الخدمة. وفى العام التالى رفض ثلاثة أفراد من المجندين، أحدهما أسود والثانى بورتريكى والثالث ليتوانى - إيطالى وكلهم فقراء، رفض الثلاثة السفر إلى فيتنام واصفين الحرب هناك بأنها "غير أخلاقية، وغير قانونية ، وغير عادلة." وقد نالوا محاكمة عسكرية قضت بسجنهم.

وفى بداية عام ١٩٦٧، رفض الكابتن هاورد ليفى، وهو طبيب عسكرى فى فورت جاكسون بكارولاينا الجنوبية، أن يدرس برنامجاً لذوى البريهات الخضر، وهى قوات خاصة جداً فى العسكرية الأمريكية. قال عنهم إنهم "قتلة النساء والأطفال" و "قتلة الفلاحين." وقد نال ليفى محاكمة عسكرية على أساس أنه كان يحاول ترويج الاستياء بين مَنْ سيُرسلون إلى فيتنام من خلال تصريحاته. وقال العقيد الذى كان يشرف على المحاكمة: "إن حقيقة التصريحات ليست هى القضية هنا." وأُدين ليفى وصدر ضده حكم بالسجن.

وتزايدت الأعمال الفردية: فقد رفض جندى أسود فى أوكلاند أن يستقل طائرة للقوات متجهة إلى فيتنام ، رغم أنه واجه بذلك حكماً بالسجن لمدة أحد عشر عاماً من الأشغال الشاقة. وحوكمت سوزان شنول، وهى ممرضة بحرية، للسير فى مظاهرة سلمية وهى ترتدى زيها الرسمى ، ولقيامها بإسقاط نشرات مناهضة للحرب من طائرة على المنشآت البحرية ، وفى نورفوك بولاية فرجينيا، رفض بحار تدريب الطيارين المقاتلين لأنه يرى أن تلك الحرب غير أخلاقية. وقبض على ضابط فى واشنطن دى سى فى أوائل عام ١٩٦٨ لأنه رابط بجوار البيت الأبيض رافعاً لوحة تقول: "١٢٠,٠٠٠ ضحية أمريكية - لماذا؟" وصدر بحق اثنين من السود بقوات المارينز مدد طويلة بالسجن (٦ سنوات لجورج دانيالز و١٠ سنوات لوليم هارفى. وقد خُفض الحكمان فيما بعد) وذلك لحديثهما مع أفراد سود من قوات المارينز ضد الحرب فى فيتنام.

ومع استمرار الحرب، تزايد الهروب من القوات المسلحة، حيث ذهب الآلاف إلى أوروبا الغربية - إلى فرنسا والسويد وهولندا. واتجه معظم الهاربين إلى كندا ، حيث بلغ تقدير أعدادهم ما بين ٥٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ ، وتحدى قليلون فى صراحة السلطات العسكرية عن طريق الاحتماء بالكنائس انتظاراً، وسط حماية أصدقائهم المعادين للحرب، للقبض عليهم ومحاكمتهم محاكمة عسكرية. وفى جامعة بوسطن، أقام ألف طالب صلاة مسائية لخمس ليالٍ على التوالى فى كنيسة الجامعة، وذلك تأييداً لهارب من القوات العسكرية يبلغ من العمر ١٨ عاماً ، ويُدعى راى كرول. وأصبحت قصة كرول شائعة. وكان، وهو من عائلة فقيرة، قد أُغرى بالانضمام للجيش. وسيق كرول إلى المحكمة لاتهامه بالسكر ، وكان عليه أن يختار بين السجن وبين القيد فى صفوف القوات العسكرية، فاختار الثانية. ثم بدأ يفكر بعد ذلك القرار فى طبيعة الحرب. وفى صباح يوم أحد، شق أفراد فيدراليون طريقهم وسط الطلاب بجامعة بوسطن متجهين إلى الكنيسة بالجامعة ، وألقوا القبض على كرول. وكتب كرول من أحد مراكز تجمع القوات المسلحة إلى أصدقائه: "لن أقتل. إن هذا ضد طبيعتى..." كان أحد أصدقائه بالكنيسة قد أحضر له عدداً من الكتب ، ووجد كرول فى أحدها الكلمات التالية: "ما فعلناه لن يضيع أبداً. وكل شئ له أوان ويحين قطفه فى ساعة خاصة به."

وأصبحت حركة الجنود المعادية للحرب أكثر تنظيماً. فبالقرب من فورت جاكسون بجنوب كاليفورنيا، أُنشئَ أول "مقهىً للجنود وهو مكان يلتقى فيه الجنود يشربون القهوة ويأكلون المخبوزات ، ويتبادلون الكتابات المناهضة للحرب ، ويتحدثون بعضهم مع بعض. واستمر هذا المقهى لسنوات قبل أن يُغلق عن طريق حكم قضائى بوصفه "إزعاجاً عاماً." ولكن انتشرت هذه النوعية من المقاهى فى حوالى ستة أماكن أخرى من البلاد، وفُتح محل للكتب المعادية للحرب بالقرب من فورت ديفنز بولاية ماساتشوستس ، وفُتح آخر فى نيو بورت برود آيلاند التى تقع بها قاعدة بحرية.

كذلك انتشرت الصحف السرية فى القواعد العسكرية في مختلف أنحاء البلاد حتى بلغ عددهم عام ١٩٧٠ أكثر من خمسين صحيفة من بينها "About Face " فى

لوس أنجليس، و"Fed Up " فى تاكوما بواشنطن، و"Short Times " فى فورت جاكسون، و" Vietnam GI " فى شيكاغو، و" Graffiti " فى هايدلبيرج بألمانيا، و"Bragg Briefs " فى كارولاينا الشمالية، و"Last Harass " فى فورت جوردن بجورجيا، و"Helping Hand " فى القاعدة الجوية بماونتين هوم بولاية آيدهو. كانت هذه الصحف تنشر مقالات معادية للحرب ، وتقدم أخباراً عن تحرشات الجنود الأمريكيين ونصائح عن الحقوق القانونية لمن هم فى الخدمة العسكرية ، وعن كيفية مقاومة الهيمنة العسكرية.

كان السخط على قسوة الحياة العسكرية ولا إنسانيتها يختلط بالمشاعر المناهضة للحرب. وكان ذلك شيئاً حقيقياً لاسيما فى السجون العسكرية، حتى إنه فى عام ١٩٦٨ وفى سجن بريسيديو بكاليفورنيا أطلق حارس النار على سجين عسكرى يعانى من اضطراب عاطفى فأرداه قتيلاً ؛ لمجرد أنه ترك ما كلف به من عمل. هنالك جلس سبعة وعشرون سجيناً ورفضوا العمل صائحين ومغنيين: "سوف ننتصر". وقد حوكم هؤلاء محاكمة عسكرية وأدينوا عن شغبهم وصدرت بشأنهم أحكام بالسجن تصل إلى أربعة عشر عاماً، ثم خُفضت فيما بعد عندما أثارت القضية اهتمام الرأى العام واحتجاجه.

وانتشر السخط حتى وصل إلى جبهة الحرب نفسها. فعندما كانت هناك مظاهرات فى أكتوبر من عام ١٩٦٩ بالولايات المتحدة، ارتدى بعض الجنود الأمريكيين شارات سوداء كى يظهروا تأييدهم لتلك المظاهرات. وقال مصور صحفى إن ارتدى فصيلة عسكرية، كانت فى دورية بالقرب من دانانج، ارتدى شارات سوداء. وكتب جندى يتمركز فى سو شى إلى صديق له فى ٢٦ أكتوبر عام ١٩٧٠: "لم يعد رفض الذهاب إلى جبهة القتال أمراً كبيراً." ونشرت صحيفة لوموند الفرنسية أنه فى خلال أربعة شهور، اتهم مائة وتسعة جنود فى قسم الفرسان الجوى برفض القتال. وكتب مراسل الجريدة: "إن المشهد الشائع هنا هو لجندى أسود بقبضة يده اليسرى مرفوعة فى تحدٍ لحرب لم يعتبرها قط حرباً له."

وقد قام والاس تيرى، المراسل الصحفى الأسود لمجلة تايم بتسجيل مقابلات مع مئات من الجنود السود، ووجد لديهم إحساساً بالمرارة من العنصرية التى يمارسها

البيض ضدهم، كما وجد لديهم اشمئزازاً من تلك الحرب، مما جعل روحهم المعنوية دائمة الانخفاض. وقد زادت حالات قتل الضباط الأمريكيين على أيدى الجنود الأمريكيين ، وذلك تعبيراً عن يأسهم وعن رفضهم لهؤلاء الضباط وأوامرهم بالحرب. وقد بلغت هذه الحالات ٢٠٩ حالة فى عام ١٩٧٠ فقط.

وقد شكَّل المحاربون العائدون من فيتنام جماعة أطلقوا عليها "محاربو فيتنام القدماء ضد الحرب". وفى ديسمبر من عام ١٩٧٠، ذهب مئات منهم إلى ديترويت حيث تجرى تحقيقات تُسمى Winter Soldier ، وذلك لكى يقدموا شهاداتهم علانية عن الفظائع التى شاركوا فيها أو شهدوها فى فيتنام، وهى الفظائع التى ارتكبها الجنود الأمريكيون ضد الفيتناميين. وفى إبريل عام ١٩٧١، ذهب أكثر من ألف محارب قديم إلى واشنطن دى سى لتنظيم مسيرة معادية للحرب، وقاموا بتسلق السور السلكى حول مبنى الكابيتول [الذى يضم مجلسى الشيوخ والنواب] وقاموا بإلقاء ميدالياتهم التى مُنحوها فى فيتنام، ثم أدلوا بتصريحات مقتضبة على نحو يثير المشاعر وأحياناً فى نبرة مرة هادئة.

وفى صيف عام ١٩٧٠، أعلن ثمانية وعشرون ضابطاً، من بينهم بعض المحاربين القدماء فى فيتنام ، ويقولون إنهم يمثلون حوالى ٢٥٠ ضابطاً، أعلن هؤلاء تشكيل حركة مناهضة للحرب أسموها حركة الضباط المعنيين. وفى أثناء القصف العنيف لكل من هانوى وهايفونج، فى وقت الكريسماس عام ١٩٧٢، جاء أول تحدٍّ لاثنين وخمسين طياراً رفضوا القيام بهذه المهام. وفى الثالث من يونيو عام ١٩٧٣، كتبت نيويورك تايمز عن التسرب فى صفوف طلبة الكلية الحربية فى ويست بوينت، وأرجع المسئولون ذلك، حسب ما نشرت الصحيفة، إلى "جيل مرفّه فى وفرة، ولم ينل ما يكفى من التهذيب ، ويهيمن عليه الشك والتردد. كما أن ذلك يعود إلى المزاج المعادى للعسكرية ، وهو المزاج الذى خلقته أقلية راديكالية صغيرة وكذلك الحرب فى فيتنام."

غير أن معظم العمل المناهض للحرب جاء من الجنود العاديين، ومعظم هؤلاء جاءوا من الجماعات أصحاب الدخول الدنيا ، سواء من البيض أو السود أو الهنود

الحمر أو الصينيين أو الشايكانو (هؤلاء كانوا يتظاهرون بالآلاف بعد عودتهم من الحرب).

وقد أرسل إلى فيتنام وهو فى السابعة عشرة فتى صينى - أمريكى من نيويورك ويدعى سام شوى ، وهناك عمل طباخاً. لكنه وجد نفسه هدفاً لتحرش زملائه من الجنود الذين كانوا يسبونه كما يسبون الفيتناميين ؛ لمجرد الشبه بينه وبينهم. كان زملاؤه يقولون إنه يشبه الأعداء. وفى أحد الأيام، أخذ بندقية وأطلق رصاصات تحذيرية على من يقهرونه. "فى ذلك الوقت كنت عند الحدود الخارجية للقاعدة ، وكنت أفكر فى الالتحاق بالفيات كونج [ثوار شمال فيتنام]، فهم على الأقل سيثقون بى." وقد قبض البوليس العسكرى على شوى الذى تعرض للضرب. ثم قُدم لمحاكمة عسكرية وصدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانية عشر شهراً مع الأشغال الشاقة بفورت ليفينورث. قال شوى لجريدة خاصة بالجالية الصينية فى نيويورك: "كانوا يضربوننى كل يوم... أود أن أقول شيئاً لكل الشباب الصينيين: لقد أصابنى الجيش بالمرض... ."

وفى إبريل ١٩٧٢ قال مراسل من "فو باى" إن خمسين جندياً من بين ١٤٢ رفضوا أن يقوموا بنوبة الحراسة صائحين: "هذه ليست حربنا ! " ونشرت نيويورك تايمز فى ١٤ يوليو عام ١٩٧٣ أن أسرى الحرب الأمريكيين فى فيتنام، لما أُمروا بألا يتعاونوا مع العدو، صاحوا جميعاً: "من هو العدو؟" وكونوا لجنة للسلام فى المعسكر، ويتذكر رقيب فى تلك اللجنة مسيرته من الأسر إلى معسكر الأسرى:

> **حتى وصلنا إلى المعسكر الأول، لم نكن قد رأينا قرية واحدة قائمة. كانت كل القرى مهدمة. جلست وسألت نفسى: هل هذا صواب أم خطأ؟ هل من الصواب أن يدمر المرء هذه القرى؟ وهل من الصواب قتل الناس بهذه الأعداد؟ عندئذ جاءتنى الفكرة.**

وبعد أن سحبت الولايات المتحدة قواتها فى فيتنام عام ١٩٧٣، أعلن مسئولو وزارة الدفاع فى واشنطن ، والمتحدثون باسم البحرية الأمريكية فى سان دييجو أن

البحرية سوف تطهر نفسها من "غير المرغوب فيهم" ، ووصل هؤلاء إلى ستة آلاف فرد فى أسطول المحيط الهادى، "نسبة كبيرة منهم من السود." وبلغ عدد جميع من سُرحوا من الخدمة ٧٠٠.٠٠٠ جندياً. كان واحد من بين كل خمسة مُسَرَّحين قد حصل على تقدير "أقل من مشرِّف." جديرٌ بالذكر أنه فى عام ١٩٧١، كان ١٧٧ جندياً من بين كل ألف متغيبين عن الخدمة. وتزايد عدد الهاربين من الخدمة من ٤٧ ألفاً فى عامى ١٩٦٧ إلى عام ٨٩ ألفاً فى عام ١٩٧١

كان رون كوفيك Ron Kovic واحداً من بين الذين بقوا فى الخدمة ، وقد شارك فى الحرب لفترة ، لكنه تغير وأصبح معادياً للحرب. وكان والده يعمل فى سوبر ماركت فى لونج آيلاند. وفى عام ١٩٦٣، انضم كوفيك إلى سلاح المارينز. وبعد عامين وبينما هو فى فيتنام، تحطم عموده الفقرى بعد إصابته بقذيفة فأصيب بالشلل الكامل فى نصفه الأسفل، فصار يستخدم كرسياً متحركاً. ولما عاد إلى الوطن، شاهد المعاملة القاسية التى يلقاها المحاربون القدماء فى المستشفيات، فانضم إلى جماعة "محاربو فيتنام القدماء ضد الحرب." وبدأ يذهب إلى المظاهرات كى يتحدث ضد الحرب. وفى إحدى الأمسيات، سمع الممثل دونالد سازرلاند يقرأ مقاطع من الرواية التى كتبها دالتون ترامبو Dalton Trumbo بعد الحرب العالمية الأولى وعنوانها: **جونى حصل على سلاحه** Gohnny got his Gun . وتدور هذه الرواية حول جندى أطاحت النيران بأطرافه ووجهه ، فصار جذعاً بشرياً مفكراً اخترع طريقة خاصة به للتواصل مع العالم الخارجى:

> **بدأ الممثل سازر لاند فى قراءة المقطوعة ثم هيمن علىَّ شىء لن أنساه أبداً. كان ذلك كأن شخصاً كان يتكلم عن كل شىء مررت به فى المستشفى... بدأ جسمى فى الاهتزاز.. وأذكر أن دموعاً قد ملأت عيونى.**

تظاهر كوفيك ضد الحرب فى فيتنام ، وقبض عليه. ونرى قصته يحكيها فى وُلِدِ فى **الرابع من يوليو** Born on the Fourth of July :

يساعدونى فى الجلوس على كرسيّ ، ويأخذونى إلى جزء آخر من مبنى السجن ليحجزونى هناك.

"ما اسمك؟" يسألنى الضابط الجالس خلف المكتب. أقول:

"رون كوفيك، المهنة: محارب قديم فى فيتنام ومناهض للحرب."

"ماذا؟" يقول الضابط فى سخرية بادية فى عيونه أيضاً.

أقول صائحاً تقريباً: "أنا محارب قديم فى فيتنام ومناهض للحرب."

يقول: "كان يجب أن تموت هناك" ثم وجه كلامه إلى مساعده: "بودى أن ألقى بهذا الشخص من فوق سطح المبنى." يأخذون بصماتى ويصورونني ثم يضعوننى فى زنزانة. بدأت فى بلل بنطلونى كرضيع صغير. فقد انفصلت الأنبوبة أثناء اختبار الطبيب لى. ورغم إرهاقى الشديد، لا أستطيع النوم؛ فالغضب لا يزال حياً كجمرة فى صدرى. أسند رأسى على الحائط واستمع إلى صوت المياه المنسربة فى الحمام مرة بعد أخرى.

اتجه رون كوفيك ومن معه من المحاربين القدماء إلى ميامى حيث المؤتمر القومى الجمهورى ، وفى عام ١٩٧٢ دخلوا قاعة المؤتمر بكراسيهم المتحركة، وما كاد الرئيس نيكسون يبدأ حديثه، حتى صاح هؤلاء: "أوقف القصف! أوقف الحرب!" وبدأت الوفود فى لعن الصائحين متهمة إياهم بالخيانة ، وأخرجهم أفراد الخدمة السرية إلى خارج القاعة.

فى خريف عام ١٩٧٣، وحيث لا نصر يلوح فى الأفق ، وقوات الشمال تسيطر على مناطق كثيرة فى الجنوب، وافقت الولايات المتحدة على أن تقبل تسوية تنسحب طبقاً لها القوات الأمريكية ، وتترك القوات الثورية فى أماكنها حتى تُنتخب حكومة جديدة من عناصر الشيوعيين. لكن حكومة سايجون رفضت أن تقبل بالتسوية وقررت

الولايات المتحدة أن تقوم بمحاولة أخيرة ربما ترغم الشماليين على الإذعان، فأرسلت موجات من طائرات ب ٥٢ فوق هانوى وهايفونج قامت بهدم بيوت ومستشفيات وبقتل أعداد غير معروفة من المدنيين. غير أن الهجوم لم يفض إلى شئ. أسقط الشماليون عدداً كبيراً من طائرات ب ٥٢ ، وسادت موجة غضب شديدة كل أنحاء العالم. فلم يملك وزير الخارجية كيسنجر إلا أن يعود إلى باريس كى يوقع على نفس اتفاقية السلام التى كان قد وَقَّع عليها من قبل.

سحبت الولايات المتحدة قواتها، لكنها استمرت فى تقديم الدعم لحكومة سايجون. وعندما بدأت قوات شمال فيتنام هجماتها فى أوائل عام ١٩٧٥ على المدن الرئيسية فى جنوب فيتنام، انهارت الحكومة. وفى أواخر إبريل من عام ١٩٧٥، دخلت قوات شمال فيتنام عاصمة الجنوب: سايجون. وهرب موظفو السفارة الأمريكية ومعهم فيتناميون كثيرون كانوا يخشون الحكم الشيوعى، وانتهت بذلك الحرب فى فيتنام: وأُطلق على سايجون اسم الزعيم الشيوعى "هوشى منه" وتوحد الشمال والجنوب وصارا يسميان: جمهورية فيتنام الديمقراطية.

عادة ما يصور التاريخ التقليدى نهاية الحروب على أنها تأتى من مبادرات القادة - كالمفاوضات فى باريس أو جنيف أو فرساى - وغالباً ما يراها تأتى استجابة لطلب "الشعب". لقد قدمت حرب فيتنام دليلاً واضحاً على أنه فى تلك الحرب على وجه خاص (ما يجعل المرء يتعجب من شأن الحروب الأخرى) ، فقد كان القادة السياسيون آخر من يتخذ خطوات لإنهاء الحرب - كان "الشعب" سباقاً. وكان الرئيس متأخراً جداً، وأشاحت المحكمة الدستورية العليا بوجهها عن الحالات التى تتحدى دستورية الحرب. أما الكونجرس فقد كان متأخراً بسنوات عن الرأى العام.

وفى ربيع عام ١٩٧١، كتب الصحفيان البارزان رولاند ايفانز وروبرت نوفاك، وهما من كبار مؤيدى الحرب، وفى نبرة نادمة عن "تَفَشٍّ مفاجئ للمشاعر المعادية للحرب" فى مجلس النواب. وقال الصحفيان: "إن المشاعر المناهضة للحرب والتى

انتشرت على نحو مفاجئ بين ديمقراطيي المجلس ، تراها الإدارة الأمريكية ومؤيدوها استجابة لضغوط كبيرة أكثر منها معاداة للرئيس نيكسون."

لم يكن قبل انتهاء التدخل فى كمبوديا ، أو قبل الاحتجاج الكبير الذى ساد الجامعات أن أصدر الكونجرس قراراً يقضى بألا تذهب القوات الأمريكية إلى كمبوديا دون موافقة منه. ولم تغادر القوات الأمريكية الأراضى الفيتنامية على نحو نهائى قبل نهاية عام ١٩٧٣ ، أو قبل أن يمرر الكونجرس قراراً يقضى بتقليص سلطة الرئيس فى شن الحرب باشتراط موافقة الكونجرس. ومع ذلك فقد صار من سلطة الرئيس شن حرب لمدة شهرين دون تصريح من الكونجرس.

وقد حاولت الإدارة أن تقنع الأمريكيين بأن الحرب كانت فى طريقها للانتهاء بسبب قرارها بالتفاوض من أجل السلام، وليس لأنها كانت تخسر الحرب ، أو بسبب الحركة القوية المناهضة للحرب فى الولايات المتحدة. لكن المذكرات السرية للحكومة على مدار الحرب تشهد على حساسيتها فى كل مرحلة من مراحل الحرب من "الرأى العام" داخل البلاد أو فى الخارج. وكل المعلومات موجودة فى أوراق البنتاجون.

وفى يونيو عام ١٩٦٤، اجتمع كبار القادة العسكريين ومسئولو السياسة الخارجية، ومن بينهم السفير هنرى كابوت لودج، فى هونو لولو. "وصرح راسك أن الرأى العام فيما يتعلق بسياستنا فى جنوب شرق آسيا منقسم على نحو كبير. ومن هنا احتاج الرئيس إلى أن يتأكد من وجود دعم خلفه." وكان الجنرال خان قد حل محل ديام. يكتب مؤرخو البنتاجون: "عند عودته إلى سايجون فى الخامس من يونيو، ذهب السفير لودج مباشرة من المطار كى يتصل بالجنرال خان... كان الهدف الرئيسى من هذه المكالمة هو الإشارة إلى أن الولايات المتحدة ستقوم فى المستقبل القريب بتجهيز الرأى العام الأمريكى لاتخاذ إجراءات ضد شمال فيتنام ، وبعد شهرين، جاءت حادثة خليج تونكن.

وفى الثانى من إبريل عام ١٩٦٥، اقترحت مذكرة من مدير المخابرات المركزية جون ماكون أن يزيد القصف على شمال فيتنام ؛ لأنه لم يكن "بالشدة الكافية" بحيث

يجبر شمال فيتنام على تغيير سياسته. "من ناحية أخرى... من الممكن أن يقع علينا ضغط متزايد لوقف القصف ـ وذلك من عناصر كثيرة من الرأى العام الأمريكى ، والصحافة ، والأمم المتحدة ومن الرأى العام العالمى." وأضاف ماكون بأن الولايات المتحدة يجب أن تحاول توجيه ضربة قاضية قبل أن يتكون رأى عام مناهض لها.

واقترحت مذكرة مساعد وزير الدفاع جون ماكنوتون فى أوائل عام ١٩٦٦ هدم المعابر والسدود مما يفضى إلى مجاعة جماعية مميتة ؛ لأن "الضربات الموجهة إلى أهداف بشرية" من شأنها أن "تخلق موجة مضادة من السخط سواء داخل البلاد أو فى الخارج. وفى مايو من عام ١٩٦٧، يكتب مؤرخو البنتاجون: "كان قلق ماكنوتون عميقاً بشأن اتساع وقوة الغضب والسخط العام ضد الحرب... خاصة ذلك القادم من الشباب والفقراء والمثقفين والنساء." كان قلق ماكنوتون يتمثل فى التالى: "هل الدعوة باستدعاء ٢٠,٠٠٠ من الاحتياط من شأنه أن يستقطب الرأى العام إلى الدرجة التى نخسر "الحمائم" ويكون هناك رفض جماعى للخدمة العسكرية ، أو رفض للقتال أو التعاون أو ربما ما هو أسوأ من ذلك؟" حذر ماكنوتون:

> **ربما يكون هناك حد لن يسمح الأمريكيون والعالم للحكومة الأمريكية بتجاوزه. إن صورة أكبر قوة فى العالم وهى تمارس القتل بما فى ذلك قتل المدنيين ، وجرح ما لا يقل عن ألف من غير المحاربين كل أسبوع، بينما هى تحاول إجبار دولة صغيرة على الإذعان لإرادتها ـ مثل هذه الصورة ليست طيبة. وذلك على قضية ليس هناك اتفاق على مزاياها. ومن ثم، فمن الممكن أن يؤدى ذلك إلى تمزق مكلف فى الوعى القومى للبلاد.**

بيد أن "التمزق المكلف" قد وقع فى ربيع عام ١٩٦٨ عندما طالب الجنرال ويست مورلاند من الرئيس جونسون إرسال ٢٠٠,٠٠٠ جندى ، إضافة إلى القوات الموجودة بالفعل هناك والبالغ عددها ٥٢٥,٠٠٠ كان ذلك بعد هجوم "تيت" الذى تحدثنا عنه من قبل. وطلب جونسون نصيحة بعض القادة فى البنتاجون. وقد درس هؤلاء الموقف

وانتهوا إلى أن إرسال مثل هذه القوات من شأنه أن يؤمرك الحرب كما أنه لن يضيف إلى قوة حكومة سايجون ؛ لأن "قيادة سايجون لا تبدى أيّة علامات على الرغبة - ناهيك عن المقدرة - فى جذب ولاء الشعب وتأييده لها." علاوة على ذلك، قال التقرير إن إرسال مزيد من القوات سوف يعنى حشد القوات الاحتياطية ، وزيادة فى الميزانية العسكرية. وسوف يعنى ذلك أيضاً مزيداً من الضحايا الأمريكيين ومزيداً من الضرائب. وأضاف التقرير:

> **هذا الاستياء المتصاعد، بما يصاحبه من تَحَدّ متزايد لكروت الاستدعاء للخدمة العسكرية ، والقلق المتنامى فى المدن بسبب الاعتقاد بأننا نهمل المشاكل الداخلية، كل هذا ينبىء عن مخاطر إثارة أزمات محلية على نحو غير مسبوق.**

لابد أن "القلق المتنامى فى المدن" كان إشارة إلى انتفاضات السود التى وقعت عام ١٩٦٧ ، وأظهرت العلاقة - سواء أقصد السود ذلك أم لا - بين الحرب فى الخارج وبين الفقر فى الداخل. والدليل من كتاب (أوراق البنتاجون) واضح. إن قرار الرئيس جونسون فى ربيع ١٩٦٨ برفض طلب الجنرال ويست مورلاند بتهدئة تصعيد الحرب للمرة الأولى وبتقليل القصف، بل بالذهاب إلى طاولة التفاوض - كل هذا كان نتيجة تأثير أفعال قام بها أمريكيون فى إظهار معارضتهم لتلك الحرب.

وعندما تولى نيكسون مقاليد الرئاسة، حاول هو أيضاً أن يقنع الشعب بأن الاحتجاج ضد الحرب لن يؤثر عليه فى شئ. لكنه اهتاج على نحو فظيع لمجرد أن قام شاب من المناهضين للحرب بالمرابطة أمام البيت الأبيض. إن أفعال نيكسون ضد الساخطين والمعارضين للحرب - كالسطو على منازلهم والتنصت على اتصالاتهم وبريدهم - يدل على أهمية الحركة المناهضة للحرب فى عقول قادة البلاد. هناك علامة تدل على أن أفكار الحركة المناهضة للحرب تركت أثراً كبيراً فى عقول الناس ، تمثلت فى أن هيئات المحلفين صارت أقل رغبة فى اتهام المناهضين للحرب، كما كان القضاة يعاملونهم على نحو مختلف. ففى واشنطن عام ١٩٧١، كان القضاة يسقطون

الاتهامات ضد المتظاهرين فى حالات كانت تلقى أحكامًا بالسجن قبل عامين. وكانت الجماعات التى أغارت على مراكز التجنيد ـ مثل "أربعة بالتيمور" و"تسعة كاتونزفيل"، و"أربعة عشر ميلوكى" و"خمسة بوسطن" وغيرهم ـ تنال أحكاماً خفيفة ، مما يدل على درجة من تعاطف القضاة معهم.

أما المجموعة الأخيرة من المغيرين على مراكز الاستدعاء من أجل التجنيد، وهم "مجموعة كامدين" البالغ عددهم ٢٨، فكانوا قساوسة وراهبات أغاروا على مركز استدعاء المجندين بكامدين بولاية نيو جيرسى فى أغسطس عام ١٩٧١ كان هذا ما فعله "أربعة بالتيمور" تماماً قبل أربعة أعوام ثم أُدينوا ، وحوكموا ونال فيل بيريجان حكماً بالسجن لمدة ست سنوات. ولكن فى حادثة كامدين بُرِّئت ساحة المتهمين من قِبل هيئة المحلفين. وبعد المحاكمة، ترك أحد المحلفين ـ وهو أسود فى الثالثة والخمسين ويُدعى صامويل بريثويت وكان قد أمضى أحد عشر عاماً فى الجيش ـ خطاباً للمتهمين جاء فيه:

> **أقول لكم، يا من تعالجون الناس بما وهبكم الله من مواهب: أحسنتم! أحسنتم لمحاولتكم إبراء مَنْ يعوزهم الإحساس بالمسئولية، وهم الذين اختارهم الناس كى يحكموهم ويقودوهم. لكن هؤلاء خذلوا الناس بإلحاق الدمار والموت بأمة صغيرة... أما أنتم فقد خرجتم إلى الشارع كى تقوموا بواجبكم فى حين بقى إخوانكم فى أبراجهم العاجية يشاهدون ما يجرى... أملى أن يأتى يوم قريب يعم فيه السلام كل البشر.**

كان ذلك فى مايو من عام ١٩٧٣ حيث كانت القوات الأمريكية تغادر فيتنام. وقد كتب سى. إل. سالزبيرجر Sulzberger مراسل نيويورك تايمز والمعروف بقربه من الحكومة الأمريكية: "تخرج الولايات المتحدة الآن كخاسر كبير ، ولابد أن تعترف كتب التاريخ بذلك... لقد خسرنا الحرب فى وادى الميسيسيبى وليس فى وادى ميكونج. لم تكن أىُ من الحكومات المتعاقبة قادرة على حشد التأييد الجماهيرى الضرورى فى

الداخل." فى حقيقة الأمر، لقد خسرت الولايات المتحدة الحرب فى كل من وادى الميسيسيبى ووادى ميكونج. كانت هذه أول هزيمة واضحة للإمبراطورية الأمريكية التى تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية. ألحق هذه الهزيمة بالحكومة الأمريكية الفلاحون الثوريون فى فيتنام وحركة احتجاج مدهشة فى الوطن.

وفى ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٩، أعلن الرئيس نيكسون، وهو يرى النشاط المتنامى فى الرأى العام المناهض للحرب، أنه "لن يتأثر بأى من هذا تحت أى ظرف من الظروف." لكنه بعد تسع سنوات، اعترف فى مذكراته أن الحركة المناهضة للحرب جعلته يُسقط أكثر من خطة لتصعيد الحرب. قال: "رغم أننى واصلت علانية تجاهل الغضب والاحتجاج الشديدين ضد الحرب، فإننى كنت أعرف أن الرأى العام الأمريكى سينقم على نحو أكبر إذا تم أى تصعيد عسكرى للحرب." كان ذلك اعترافاً رئاسياً نادراً بقوة الرأى العام وحركات الاحتجاج. ومن وجهة نظر أشمل، كان شىء ما أكثر أهمية قد حدث ، فقد كان التمرد داخل الوطن ينتشر متجاوزاً قضية الحرب فى فيتنام.

الفصل التاسع عشر

الستينيات: سنوات المفاجآت

فى عام ١٩١١ كتبت هيلين كيللر: "نحن النساء نقوم بالتصويت فى الانتخابات؟ وماذا يعنى ذلك؟" فى الوقت نفسه تقريباً، كتبت إيما جولدمان: "إن هدفنا الحديث هو الحق فى التصويت فى الانتخابات." وبعد عام ١٩٢٠ صار من حق النساء التصويت فى الانتخابات كالرجال، غير أن وضعهن التابع لم يتغير كثيراً.

بعد حصول النساء على حق التصويت فى الانتخابات، يمكننا رؤية مدى تقدمهن الاجتماعى فى النصائح التى كتبتها دوروثى ديكس Dorothy Dix ، والتى كانت تظهر فى كثير من صحف ذلك الوقت. قالت:

> **إن زوجة الرجل هى الواجهة التى يعرض من خلالها إنجازاته... فأكبر الصفقات تُعقد على طاولات الغداء ... إننا نلتقى على العشاء مع الذين يستطيعون أن يمنحونا دفعة نحو الرخاء والرفاهية.... والمرأة التى تصنع دائرة محترمة من الصداقات عن طريق عضويتها فى الأندية ، وعن طريق شخصيتها... هى بلا شك عون لزوجها.**

وفى أواخر العشرينيات من القرن الماضى، ركز كل من روبرت وهيلين ليند Lynd على أهمية الملامح الحسنة والأزياء عند تقييم النساء. كما وجدا أن الرجال، عندما يتحدثون فى صراحة فيما بينهم، "يتكلمون عن النساء بوصفهن مخلوقات رقيقة تفضل الرجال أخلاقاً ، لكنهن غير عمليات نسبياً، تحركهن العواطف ويتصفن بالتحامل

والقلق، ولا يستطعن مواجهة الحقائق أو التفكير الجاد والصعب." وفى بداية عام ١٩٣٠ بدأ كاتب مقالته التى تروج لمراكز التجميل بهذه الجملة: "تملك المرأة الأمريكية فى المتوسط ١٦ قدماً مربعاً من الجلد." ثم مضى يقول إن هناك أربعين ألفاً من مراكز التجميل فى البلاد ، وأن النساء ينفقن مليارين من الدولارات سنوياً على مستحضرات التجميل. لكن هذا، فى رأيه، لم يكن كافياً: "إن الأمريكيات لا ينفقن على مستحضرات التجميل سوى ما يساوى خُمس الكمية الضرورية من أجل تحسين مظهرهن." بعد ذلك قدم قائمة تحتوى على الكميات المطلوبة من مستحضرات التجميل للمرأة الأمريكية.

ويبدو أن النساء كنّ يستطعن الخروج من سجن الزوجية والأمومة والأنوثة وعمل البيت والتجميل والعزلة عندما يكون الاحتياج إليهن شديداً ، سواء كان ذلك فى الصناعة أو فى الحرب أو فى الحركات الاجتماعية. وفى كل مرة، كانت النزعة العملية تُخرج المرأة من سجنها. وبمجرد انتهاء الظروف التى حتمت خروجها، تظهر المحاولات من جديد لدفعها إلى الخلف ، وهذا ما دفع النساء إلى النضال من أجل التغيير.

أخرجت الحرب العالمية الثانية الكثير والكثير من النساء من البيت إلى مجال العمل ، حتى أنه بحلول عام ١٩٦٠ كانت ٣٦٪ من النساء (٢٣ مليون امرأة وفتاة) يعملن مقابل أجر. ورغم أن ٤٣٪ من النساء العائلات لأطفال فى سن المدارس كن يعملن، فلم تكن هناك حضانات سوى لنسبة ٢٪ وكان على الباقيات أن يدبرن شئونهن بأنفسهن. وكنّ يمثّلن نسبة ٥٠٪ من عدد الناخبين، لكنهن - حتى عام ١٩٦٧ - لم يشغلن سوى ٤٪ من المقاعد النيابية و٢٪ من مناصب القضاء. وكان دخل المرأة العاملة لا يزيد على ثلث دخل الرجل. ولم تتغير النظرة إلى النساء كثيراً منذ عشرينيات القرن الماضى.

وفى أحد مكاتب لجنة التنسيق الطلابية السلمية (SNCC) فى أطلنطا، عبرت فتاة جامعية تدعى روبى دوريث سميث، التى كانت قد تعرضت للسجن بسبب اشتراكها فى الجلسات التعليمية للجنة، عن غضبها من الأدوار المحدودة التى كانت اللجنة تعهد بها إلى النساء. وانضم إليها فى غضبها اثنان من النساء البيض فى اللجنة. وقد استمع الرجال فى اللجنة إلى هؤلاء فى احترام وقرءوا الورقة التى أعدتها النساء الثلاثة ،

والتى تؤكد حقوقهن في القيام بأدوار أكبر. لكنهم لم يفعلوا أكثر من ذلك. أما إيلا بيكر Ella Baker ، مناضلة هارلم المخضرمة، فقد قالت بخبرتها: "عرفت من البداية، بوصفى امرأة عجوز وسط جماعة من الرعاة المعتادين على أن تكون النساء مجرد داعمات، أن لا مكان لى فى أدوار القيادة."

وعلى الرغم من ذلك، لعبت النساء دوراً مهماً فى سنوات التنظيم الأولى فى الجنوب، وكن ينلن إعجاب الكثيرين. كانت هناك المخضرمات إيلا بيكر وإيمليا بوينتون Amelia Boynton فى سيلما بألاباما و"ماما دولى" فى ألبانى بجورجيا. وكانت هناك الشابات جلوريا ريتشاردسون فى ميريلاند وأنيلل بوندر فى ميسيسيبى. لم يكن هؤلاء ناشطات فحسب ولكن كن قائدات. لقد تظاهرت نساء من كافة الأعمار وذهبن إلى السجون. لقد أصبحت مسز فانى لو هامير، من صغار المزارعين بولاية ميسيسيبى، أسطورة فى قدرتها على التنظيم والخطابة. كانت تجيد الغناء وتتصدر المظاهرات بعرجها المألوف (كانت مصابة بشلل الأطفال) وتجيد إثارة الناس وتحريضهم.

وفى الوقت نفسه تقريباً، بدأت النساء العاملات من الطبقة المتوسطة الكلام عن المشاكل التى تواجه المرأة بشكل عام. كان أحد الكتب الرائدة والقوية فى هذا المجال كتاب **اللغز الأنثوى الغامض** The Feminine Mystique الذى كتبته بيتى فريدان Betty Friedan جاء فيه:

> **ما المشكلة التى لا اسم لها؟ ما الكلمات التى كانت النساء تستخدمها للتعبير عن هذه المشكلة؟ أحياناً تقول امرأة: "أشعر أنى فارغة... وغير كاملة." أو تقول: "أشعر كأنى غير موجودة." وتقول أخرى: "أشعر بالإرهاق... وتزيد عصبيتى مع الأطفال على نحو يخيفنى... وأشعر بالرغبة فى البكاء دون أى سبب."**

كتبت فريدان من واقع تجربتها بوصفها ربة بيت من الطبقة المتوسطة، ولكن ما كتبته ترك أثراً ملموساً فى نفوس كل النساء. تقول:

> **ظلت المشكلة مطمورة عنها لسنوات طويلة فى عقول النساء. وكانت تتمثل فى إحساس غريب بعدم الرضا والشفقة على حال**

النساء ومعاناتهن حتى منتصف القرن العشرين فى الولايات المتحدة. كانت كل امرأة تجاهد مع هذه المشكلة وحدها. بينما تقوم المرأة بأعمال البيت وتتسوق ما تحتاجه الأسرة وتربى الأطفال وترعى زوجها ... كانت تخشى من أن تسأل نفسها: "هل هذا هو كل شئ؟"...

ولكن فى صباح أحد أيام أبريل عام ١٩٥٩، سمعت امرأة لديها أربعة أطفال وتشرب القهوة مع أربع أمهات أخريات، تقول فى نبرة يائسة "المشكلة". وعرفت الأخريات، دون كلمات، بأن المرأة لم تكن تتكلم عن مشكلة مع زوجها أو أطفالها أو بيتها. لقد أدركت النساء أنهن يشتركن فى المشكلة نفسها، المشكلة التى لا اسم لها. لقد بدأوا يتحدثون عنها فى تردد. فيما بعد، أحضرت هؤلاء النسوة أطفالهن من الحضانة وعدن بهم إلى البيت وأخذتهم إلى أسرتهم ثم... بكت منهن اثنتان لإحساسهما بالراحة لمجرد معرفتهما أنهما ليستا وحدهما.

كان "اللغز" الذى كانت تتحدث عنه فريدان هو صورة المرأة بوصفها أُمًا وزوجة تعيش من خلال زوجها وأطفالها متخلية عن أحلامها. وخلصت فرايدان إلى ما يلى: "كما هى الحال بالنسبة للرجل، فإن الطريق الوحيد للمرأة كى تحقق ذاتها وتعرف نفسها بوصفها إنسانًا هو العمل المبدع الخاص بها هى."

وفى صيف عام ١٩٦٤ فى ماكوم بولاية ميسيسيبى، وفى أحد مقار حركة الحقوق المدنية حيث يعمل الناس ويعيشون معا، أضربت النساء احتجاجاً على أن الرجال كانوا ينطلقون فى السيارات لمتابعة أعمالهم التنظيمية فى حين يريدون النساء للقيام بأعمال البيت وتجهيز الطعام. كان الدافع الذى تحدثت عنه فريدان ينطبق على كل النساء وفى كل مكان، على ما يبدو. وبمجىء عام ١٩٦٩، كانت النساء تمثل ٤٠٪ من قوة العمل فى

الولايات المتحدة لكن معظمهن كن يعملن سكرتيرات وبائعات فى المحلات ومدرسات بالمدارس الابتدائية وممرضات.

ولكن ماذا عن النساء اللائى لم يكن لديهن وظائف؟ كن يعملن بكل جد فى البيت ولكن هذا الجهد لم يكن يُنظر إليه بوصفه عملاً ؛ لأنه فى المجتمع الرأسمالى (أو فى أى مجتمع حديث حيث يباع الناس والأشياء ويُشترون مقابل المال) إذا لم يجلب العمل مالاً أو قيمة مالية، فإنه يصبح بلا قيمة. بدأت النساء يفكرن أكثر فى هذه الحقيقة فى الستينيات ، وكتبت مارجريت بينستون مقالتها الشهيرة "الاقتصاد السياسى لتحرير النساء" الذى قالت فيه إن النساء اللائى يقمن بعمل البيت لا يدخلن فى النظام الاقتصادى الحديث ومن ثم فإنهن مثل عبيد الأرض. كانت النساء فى وظائفهن - كسكرتيرات أو ممرضات أو موظفات استقبال أو عاملات نظافة يعانين من قدر كبير من نظرة الرجال إليهن بوصفهن الأدنى. هذا فضلاً عن إحساس بالمهانة لكونهن نساء؛ كان عليهن تحمل نظرة الرجال إليهن بوصفهن موضوعات جنسية، فضلاً عن تحملهن السخرية من تفكيرهن وسماع التعليقات والنكات الجنسية رغماً عنهن.

وكتبت امرأة تعمل فى أحد مصانع بيد فورد بولاية ماساتشوستس فى شركة متوسطة الحجم (بلغ نصيب رئيسها من الأرباح ٣٢٥,٠٠٠ دولار فى عام ١٩٧٠) فى أحد الصحف التنظيمية فى بداية السبعينيات أن ٩٪ من العاملين فى قسمها كُنّ من النساء ، لكن كل المشرفين كانوا من الرجال. قالت:

> **منذ عدة سنوات، تم إيقافى عن العمل لثلاثة أيام لأن أطفالى كانوا ما يزالون صغاراً ، وكان لابد أن أنقطع عن العمل إذا مرض أحدهم ... إن أصحاب المصانع والشركات يريدون عمالاً هائلين ليس لديهم أيّة مشاكل ويعملون كالإنسان الآلى. ... إن الزمن يتغير، ومن الآن فصاعداً سوف يتكلم الكثيرون عن مشاكلهم ، ويطلبون ممن يسمون رؤساءهم أن يعاملوهم المعاملة التى يحب هؤلاء الرؤساء أن يُعاملوا بها.**

كان الزمن يتغير حقاً. ففى عام ١٩٦٧ بدأت النساء فى الحركات الاجتماعية والسياسية المختلفة فى الاجتماع بعضهن ببعض بوصفهن نساء. وفى بداية عام ١٩٦٨ وفى لقاء بواشنطن من أجل مناهضة الحرب فى فيتنام، قامت مئات النساء بمسيرة إلى مدافن أرلنجتون القومية يحملن المشاعل ، وقمن بمسرحية "دفن الأنوثة التقليدية" The Burial of Traditional Womanhood . عند هذه النقطة، وفيما بعد أيضاً، كان هناك بعض الخلاف بين النساء، بل بين كثير من الرجال، حول ما إذا كان على النساء أن يناضلن فى القضايا النسائية فقط ، أم أن عليهن أن يشتركن فى الحركات العامة المناهضة للعنصرية والرأسمالية والحرب. كان واضحاً أن هناك نمواً فى التوجه النسوى.

وفى خريف ١٩٦٨، لفتت جماعة تُسمى "النساء الراديكاليات" الانتباه القومى عندما قامت بالاحتجاج على اختيار ملكة جمال أمريكا Miss America وقالوا إن هذه "صورة تقهر النساء." قامت نساء هذه الجماعة بإلقاء مشدات الصدر والأرداف ومقصات الشعر والرموش والشعور المستعارة وأشياء أخرى سموها "قمامة النساء" فى صفائح قمامة أسموها "صفائح قمامة الحرية". ثم قمن بتتويج نعجة كملكة لجمال أمريكا! الأهم من ذلك أن الناس بدأوا يتحدثون عن "تحرر النساء."

عبَّرت النساء الفقيرات والسود عن المشكلة العامة للنساء بطريقتهن الخاصة. ففى عام ١٩٦٤ أجرى روبرت كولز Coles ، فى كتابه **أطفال الأزمة** Children of Crisis مقابلة مع امرأة سوداء انتقلت حديثاً من الجنوب إلى بوسطن. تكلمت المرأة عن مدى اليأس الذى تشعر به فى حياتها ، وعن صعوبة شعورها بالسعادة. قالت: "بالنسبة لى، لا يمنحنى الإحساس بالحياة والسعادة إلا وجود جنين بأحشائى." دون الحديث بشكل خاص عن مشاكلهن بوصفهن نساء، قامت نساء كثيرات، من بين الفقراء، بتنظيم جيرانهن فى هدوء كمحاولة لرفع الظلم عنهم عن طريق الحصول على الخدمات التى يحتاجونها. وفى منتصف الستينيات، تكاتف عشرة آلاف من السود فى منطقة تُسمى فاين سيتى فى أطلنطا من أجل مساعدة بعضهم البعض. وقاموا بإنشاء محل لبيع

الأشياء المستعملة وحضانة للأطفال ومركزٍ طبىّ وقاموا بترتيب عشاء عائلى شهرى ، وتوفير الصحف وبعض الخدمات الأسرية الأخرى. حكت إحدى منظمات هذه الجماعة وتدعى هيلين هاوارد فى كتاب **النساء السود فى أمريكا البيضاء** **Black Women in White America** لصاحبته جيردا ليرنير عن هذه التجربة:

> **بدأ هذا التنظيم برجلين وست سيدات. كانت البداية صعبة ثم انضم إلينا الكثيرون بعد ذلك. وعلى مدى خمسة شهور تقريباً كنا نعقد اجتماعاً كل ليلة. تعلمنا كيف نعمل مع الآخرين... كان كثير من الناس يخشون فعل أى شىء. كان الناس يخشون الذهاب إلى مجلس المدينة لطلب أى شىء. بل كانوا يخشون سؤال مالك البيت أى شىء، كانوا يخافون منه. وبعد أن بدأنا فى عقد اجتماعاتنا، لم نعد نخشى أحداً أو نخشى شيئاً ... .**

وكتبت امرأة تدعى باتريشيا روبينسون كتيباً صغيراً عنوانه **امرأة سوداء فقيرة** **Black Poor Woman** ربطت فيه بين مشاكل النساء والحاجة إلى التغيير الاجتماعى:

> **إن تمرد النساء السود، اللائى يمثلن قاع طبقة اجتماعية لا يناقش أحد مشاكلها، يطرح سؤالاً بشأن نوع المجتمع الذى يُرِدْنَهُ ويناضلن فى سبيل تحقيقه. تطالب المرأة السوداء أن يكون لها حق تنظيم النسل مثل نساء الطبقة الوسطى البيض والسود ... إنها تضم نفسها إلى الفقراء فى العالم الواسع ، وإلى نضالهم المرير من أجل حياة أفضل. لقد أجبرتها ظروف تاريخية أن تسحب أطفالها من الهيمنة الذكورية وأن تعلمهم بنفسها. ومثل هذه العملية تضعف من السلطة الذكورية والاستغلال الذكورى. إنها تدرك أن الأطفال سوف يتم استخدامهم - ككل الأطفال الفقراء على مدار التاريخ - من أجل الحفاظ على سلطة النخبة وثروتها. لقد بدأت... من خلال هذه الخطوات أن تسائل**

الهيمنة الذكورية والمجتمع الطبقى الرأسمالى الذى يقوى من شوكتها.

وفى عام ١٩٧٠ قالت دوروثى بولدين، التى كانت أماً لستة أطفال وتعمل بمغسلة فى أطلنطا، لماذا بدأت تنظيم النساء اللائى يقمن بعمل البيت فى عام ١٩٦٨ وكونت اتحاداً أسمته الاتحاد الوطنى للنساء القائمات بالأعمال المنزلية. قالت: "أعتقد أنه يجب أن يكون للنساء صوت فى اتخاذ القرارات الخاصة بتنمية مجتمعهن. إن المرأة التى تكدح فى حى فقير ولها عقل ناضج فى تدبير الأمور يتم تجاهلها منذ سنوات طويلة. أعتقد أنه يجب أن يكون لها صوت فيما يحدث."

واعتصمت بعض الفنانات التشكيليات بمتحف ويتنى إدانة للتمييز الجنسى الواضح الذى تتضمنه أعمال أحد الفنانين المعروضة بالمتحف. كذلك اعتصمت الصحفيات بنادى جريديرون فى واشنطن الذى كان يمنع عضويته عن النساء. وفى بداية عام ١٩٧٤، صارت برامج الدراسات النسائية أو دراسات المرأة موجودة فى المناهج الدراسية لسبعة وثمانين معهداً وصار هناك حوالى ألفى منهج دراسى عن النساء فى أكثر من خمسمائة كلية.

وبدأت الصحف والمجلات النسائية فى الظهور على المستوى المحلى والمستوى القومى على السواء، وظهرت كتب كثيرة عن تاريخ المرأة والحركات النسائية، حتى خصصت بعض محلات الكتب أقساماً خاصة بالموضوع. وأظهرت النكات والكاريكاتير الذى يبثه التلفزيون (كان بعضها ساخراً وبعضها متعاطفاً) مدى التأثير الذى أوجدته الحركة النسائية فى المستوى القومى. وبعد احتجاج النساء على كثير مما تبثه الإعلانات التجارية التى رأت فيها النساء إهانة لهن، اختفت مثل هذه الإعلانات.

وفى عام ١٩٦٧، وبعد تضامن الجماعات النسائية، وقَّع الرئيس جونسون على أمر تنفيذى يحظر التمييز الجنسى فى الوظائف الفيدرالية، وطالبت النساء، على مدار السنوات التالية، بتنفيذ ذلك الأمر. وأصبح الحق فى الإجهاض قضية رئيسية. فقبل عام ١٩٧٠، كانت تتم ما يقرب من مليونى عملية إجهاض سنوياً. لم يكن من بين هذه

العمليات ما يحمل صفة القانونية سوى عشرة آلاف. وربما كان ثلث عدد النساء اللائى أجرين عمليات إجهاض غير قانونية ـ ومعظمهن من الفقراء ـ فى حاجة إلى رعاية طبية بعد العملية.

كم ألفًا منهن متن نتيجة عدم وجود هذه الرعاية؟ لا أحد يعرف. كانت النساء الفقيرات مَنْ دفعن ثمن عدم قانونية الإجهاض ؛ لأن النساء الثريات يستطعن إن أردن أن يحتفظن بالجنين أو أن يجرين عملية الإجهاض فى ظروف صحية آمنة.

وبدأ وقف القوانين التى تحرم عمليات الإجهاض فى أكثر من عشرين ولاية ما بين عامى ١٩٦٨ و ١٩٧٠ وبات الرأى العام يؤيد بقوة حق المرأة فى أن تحدد بنفسها ـ دون تدخل من الحكومة ـ قرارها بالإجهاض من عدمه. وفى ربيع عام ١٩٦٩ أظهر استطلاع للرأى بأن ٦٤٪ من الأمريكيين يعتقدون أن قرار الإجهاض أمر شخصى. وفى نهاية المطاف، قررت المحكمة الدستورية العليا فى أوائل عام ١٩٧٣ بأن الولاية تستطيع أن "تحظر" عمليات الإجهاض فى الشهور الثلاثة الأخيرة للحمل وتستطيع أن "تنظم" مسألة الإجهاض لأسباب صحية فى الشهور الثلاثة الثانية للحمل. أما فى الشهور الثلاثة الأولى للحمل فإن قرار الإجهاض متروك للمرأة نفسها وطبيبها.

بدأت النساء أيضاً يتحدثن فى صراحة، لأول مرة، عن مشكلة الاغتصاب. كان يتم الإبلاغ عن ٥٠٠٠٠ حالة اغتصاب سنوياً، ناهيك عن الحالات التى لم يكن يتم الإبلاغ عنها. وبدأت النساء تعلم دروس الدفاع عن النفس. وظهرت مسيرات احتجاج ضد الطريقة التى كان يتعامل بها أفراد البوليس مع النساء ، والإهانات التى كانوا يوجهونها لمن يبلغن عن تعرضهن للاغتصاب. وظهر كتاب سوزان براون ميللر وعنوانه **ضد إرادتنا** **Against Our Will** وانتشر على نطاق واسع. كان الكتاب غاضباً ، وقدم تاريخ المشكلة وأوصى بالتدرب على الدفاع عن النفس ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى.

ونشطت نساء كثيرات فى سبيل الحصول على تعديل دستورى بشأن الحقوق المتساوية يوافق عليه عدد كاف من الولايات. ولكن كان واضحاً أنه حتى لو صار ذلك

قانونياً، فإنه لن يكون كافياً. وكان واضحاً أن الإنجازات التى حققتها النساء كانت من خلال الاحتجاج والتنظيم. حتى هذا القانون لن يكون مساعداً إلا إذا دعمته الأفعال. قالت شيرلى شيزوم Shirley Chisholm عضو مجلس النواب:

> **لا يستطيع القانون أن يأتى لنا بحقوقنا. لابد أن نحصل عليها بأنفسنا. لابد أن تصبح النساء فى هذه البلاد ثوريات. علينا أن نرفض الأدوار القديمة والتقليدية ، وأن نرفض الصور النمطية التي رسمها لنا المجتمع. ...لابد أن نستبدل بهذه الأدوار والصور القديمة والسلبية عن أنوثتنا صوراً وأفعالاً إيجابية.**

ربما كان التأثير الأقوى للحركة النسائية فى الستينيات ـ بعد الانتصار فى قضيتى الإجهاض وتكافؤ فرص العمل ـ ما أُطلق عليه "الارتقاء بالوعى" وهو ما كانت تقوم به جماعات من النساء يلتقين بعضهن ببعض فى البيوت فى أنحاء البلاد المختلفة. وكان هذا يعنى إعادة النظر فى الأدوار المرسومة للنساء من قِبل المجتمع ، ورفض الدونية وتعزيز الثقة فى النفس ، وتوثيق العلاقة بين الأم وابنتها.

وفى ذلك الوقت، كان هناك، لأول مرة، نقاش صريح للتفرد البيولوجى للمرأة ، ورأى بعض المنظِّرين (شولاميت فايرستون، على سبيل المثال) أن مثل هذا النقاش أكثر أهمية فيما يتعلق بقهر النساء من أى نظام اقتصادى. بذلك أصبح شيئاً عادياً أن تناقش النساء أشياءً ظلت سرية ومسكوتاً عنها ؛ لأنها كانت تسبب الخجل والارتباك. من بين هذه الأشياء الدورة الشهرية وممارسة العادة السرية وسن اليأس والإجهاض والشذوذ الجنسى بين النساء. وفى أوائل السبعينيات، ظهر واحد من أهم الكتب حول هذه النقطة. وقد اشتركت إحدى عشرة امرأة فى وضع هذا الكتاب وعنوانه **أجسادنا، ذواتنا** Our Bodies, Ourselves. احتوى الكتاب على كم كبير من المعلومات العملية عن تشريح جسد المرأة والنشاط الجنسى والعلاقات الجنسية النسائية والحمل والإجهاض. الشيء الذى كان أكثر أهمية من المعلومات تمثل فى الصور والرسوم التوضيحية ، والحديث عن متعة الجسد ، والسعادة فى الفهم الجديد للجسد والعلاقة

الحميمة بين النساء من مختلف الأعمار. واقتبس الكتاب كلمات الإنجليزية كريستابل بانكهرست Christabel Pankhurst التى تقول:

تذكرى كبرياء أنوثتك

لا تستغيثى

لا تتوسلى

أو تستعطفى

أو تتذللى .

ولتكن لديك الشجاعة

في أن تمدي يديك

وتقفى إلى جوارنا

وتقاتلى معنا ... .

قالت نساء كثيرات إن القتال بدأ بالجسد الذى يبدو أنه كان البداية لاستغلال النساء، حيث كانت المرأة شيئاً للهو الجنسى (أى ضعيفة وناقصة التأهيل) ، أو حاملاً (أى عاجزة) ، أو امرأة متوسطة العمر (أى لم تعد تعتبر جميلة) ، أو امرأة مسنة (أى تُترك جانباً). لقد فرض الرجل والمجتمع سجناً بيولوجياً على المرأة.وقد قالت الكاتبة الأمريكية الشهيرة أدريان ريتش Adrienne Rich فى كتابها **أنا بنت أمي** Of Woman Born :

أنكر جيداً وفى وضوح كيف كنت أول يوم بعد زواجى. كنت أكنس إحدى غرف البيت وغالباً أنها لم تكن فى حاجة إلى ذلك ، وربما أننى ببساطة لم أعرف ماذا أعمل غير ذلك. ولكنى كنت أفكر فى أثناء عملية الكنس وأقول لنفسى: "الآن أنا امرأة ...

وهكذا تفعل النساء دائماً." أذكر أننى كنت أنحنى فى شكل ما قديم بما يكفى كى لا أسأل. هكذا تفعل النساء دائماً.

وبمجرد أن ظهر أنى حامل، شعرت، لأول مرة فى حياتى، أننى غير مذنبة. كان جو الموافقة والاستحسان الذى غمرنى حتى من قِبل الغرباء كالعبير أحمله معى أنى ذهبت ، دون شكوك أو خوف. هذا ما فعلته النساء دائماً... .

قالت ريتش : إن النساء بإمكانهن استخدام الجسد "كمورد وليس كغاية فى حد ذاته." ورأت أن الأنظمة الأبوية، سواء تحت ظل الرأسمالية أو الاشتراكية، قامت بتحديد جسد المرأة فى حدود تلبية الحاجة. ونوهت فى الكتاب ذاته إلى أن المجتمع يقوم بتدريب النساء على السلبية. فقد تربت أجيال من فتيات المدارس على كتاب **نساء صغيرات Little Women** الذى تقول فيه الأم لابنتها: "أغضب كل يوم تقريباً من أيام حياتى ولكنى تعلمت كيف أخفى ذلك الغضب، ولا أزال أتمنى أن أتعلم كيف لا أشعر به من الأساس، رغم أن ذلك قد يستغرق منى أربعين سنة أخرى."

واستخدم الأطباء أدوات لتوليد النساء ، وهى أدوات حلت محل الأيدى الرقيقة والحساسة للقابلات. وقد اختلفت ريتش مع زميلتها فى الحركة النسائية فايرستون التى أرادت أن تغير من الحتمية البيولوجية عند المرأة بحيث لا تلد ؛ لأن هذه المسألة مؤلمة ومصدر للتبعية. لقد أرادت ريتش أن تجعل من عملية الحمل والولادة، فى ظل ظروف اجتماعية مختلفة، مصدراً للبهجة النفسية والبدنية. تقول ريتش:

لا أعرف امرأة ... لا يمثل جسدها مشكلة كبيرة لها بمعناه الضبابى وخصوبته ورغبته وفتوره الجنسى وحديثه الدموى وفترات صمته وتغيراته ونضجه واغتصابه.

وحل هذه المشكلة فى رأى ريتش يكمن فى "إعادة امتلاك أجسادنا... فى عالم تكون فيه كل امرأة هى المتحكمة فى جسدها." ومثل هذا جدير بأن يقدم ليس فقط أطفالاً بل رؤى جديدة ومعانىَ جديدة - إنه باختصار يقدم لنا عالماً جديداً.

أما بالنسبة للسيدات غير المثقفات، فقد كان السؤال أكثر مباشرة: كيف السبيل إلى القضاء على الجوع والمعاناة والتبعية والإذلال هنا والآن؟ كتبت امرأة تدعى جونى تيلمون Johnie Tillmon فى عام ١٩٧٢ :

أنا امرأة. امرأة سوداء. امرأة فقيرة. امرأة بدينة. فى الخريف من عمرى. وأعيش على برامج الرعاية الاجتماعية... ربيت ستة أطفال... نشأت وكبرت فى أركانساس... وعملت هناك لمدة خمسة عشر عاماً كعاملة فى مغسلة... ثم انتقلت إلى كاليفورنيا... فى عام ١٩٦٣، نال منى المرض حتى عجزت عن العمل. وساعدنى الأصدقاء كى أُدرج على قوائم المستفيدين من برامج الرعاية الاجتماعية... . إن مسألة الرعاية الاجتماعية مثل حادثة مرورية. قد تحدث لأى شخص، لكنها تحدث على وجه الخصوص للنساء. ولذلك فقضية الرعاية الاجتماعية قضية تخص النساء. إنها، بالنسبة لنساء الطبقة الوسطى فى هذه البلاد، مسألة اهتمام مطلوب. أما بالنسبة لمن هم مثلى، فإنها مسألة تتعلق بالبقاء على قيد الحياة.

كان ذلك وقت الانتفاضات وحركات التمرد. فإذا كانت الأسرة، التى هى أكثر السجون تعقيداً، قد أصابها التمرد، فقد كان من المنطقى أن يكون هناك تمرد فى أكثر السجون وحشية . وتُمُرِّد على نظام السجون فى البلاد. تزايدت حركات التمرد فى السجون على نحو كبير فى الستينيات وأوائل السبعينيات. واكتسبت هذه الحركات صبغة سياسية غير مسبوقة حتى وصلت قمتها فى حادثة سجن أتيكا بنيويورك فى سبتمبر من عام ,١٩٧١

ظهر السجن فى الولايات المتحدة بوصفه محاولة للإصلاح تحل محل الشنق وبتر الأعضاء والنفى ـ وهى العقوبات التقليدية التى عرفتها فترة المستعمرات. كان الهدف من السجن أن يأتى، من خلال العزلة المفروضة على السجناء، بالتوبة والخلاص، لكن

السجناء أصيبوا بالجنون وماتوا بسبب تلك العزلة. ففى منتصف القرن التاسع عشر، كان السجن يقوم على الأشغال الشاقة إلى جانب عقوبات أخرى. وكان المبدأ الذى يحكم نظام السجن يقول: "لكى تقوم بإصلاح مجرم، عليك أن تكسر روحه."

كان مسئولو السجون - يجتمعون سنوياً - ليهنئوا أنفسهم على التقدم الذى يحرزوه. فى أثناء إلقائه حديثه السنوى فى عام ١٩٦٦، وصف رئيس "الرابطة الإصلاحية الأمريكية" الطبعة الجديدة من كتاب **دليل المعايير الإصلاحية Manual of Correctional Standards** بقوله: "لنا أن نتمشى على مهل أمام بوابات السجون ، وأن نمتلئ فخراً لأننا نؤدى وظيفتنا على أكمل وجه! من حقنا أن نفتخر وأن نمتلئ بالرضا." قال الرجل هذا الكلام ربما بعد أو ربما فى وسط أو ربما قبل أقوى سلسلة من انتفاضات السجون شهدتها البلاد فى تاريخها.

وكثيراً ما شهدت السجون وقوع مظاهرات. فقد شهدت العشرينيات من القرن الماضى موجة منها فى سجن "كلينتون" بنيويورك حيث تظاهر ١,٦٠٠ سجين وقام البوليس بقمع المظاهرة وسقط ثلاثة قتلى من السجناء. وفى الفترة بين عامى ١٩٥٠ و١٩٥٣ قامت أكثر من خمسين مظاهرة فى السجون الأمريكية. وفى أوائل الستينيات، لجأ السجناء فى أحد سجون جورجيا، فى أثناء عملهم الشاق فى تكسير الأحجار، إلى تكسير أرجلهم بنفس المعاول التى كانوا يكسرون بها الأحجار بهدف جذب الانتباه إلى الوحشية اليومية التى يتعرضون لها. وفى سجن سان كوينتين بكاليفورنيا، الذى كان به أربعة آلاف من السجناء، وقعت سلسلة من المظاهرات: وقعت واحدة ضد التمييز العنصرى فى عام ١٩٦٧ وقام إضراب عام من البيض والسود فى أوائل عام ١٩٦٨ ، وشهد الصيف من العام نفسه إضراباً آخر. وفى مركز كوينز للاعتقال فى لونج آيلاند بنيويورك، قام السجناء فى خريف عام ١٩٧١، باحتلال السجن واحتجزوا بعض الرهائن وأعلنوا مطالبهم. واشتملت لجنة السجناء للتفاوض على أربعة من السود وبورتوريكى وأمريكى أبيض. وطالبت اللجنة بعقد جلسات محاكمة لسبع وأربعين حالة يرون أنها تستحق الإفراج عنها بكفالة ، ونددت بالتمييز العنصرى فى منح الكفالة.

وجاء القضاة إلى السجن وقاموا بمنح البعض إطلاق سراح مشروط ، وخفضوا مدد السجن لبعض آخر. وأطلق السجناء سراح الرهائن. ولكن عندما عاود السجناء التظاهر، جاء البوليس وأخمد التظاهر باستخدام العصى والغازات المسيلة للدموع.

فى نفس الوقت تقريباً من نوفمبر عام ١٩٧٠ وفى سجن فولوم بكاليفورنيا، بدأ أطول إضراب أو توقف عن العمل فى تاريخ إضرابات السجون فى الولايات المتحدة. تحمل ٢.٤٠٠ سجين الاحتجاز فى الزنزانات لمدة تسعة عشر يوماً دون طعام فى مواجهة التهديدات والتخويف. وانتهى الإضراب بمزيج من القوة والخداع ، وأُرسل أربعة سجناء إلى سجن آخر فى رحلة استغرقت أربع عشرة ساعة وهم فى القيود وعرايا داخل سيارة لنقلهم. وكتب أحد المتمردين: "... لقد نمت روح الوعى بقضيتنا... فقد بُذرت البذور... ."

كانت السجون فى الولايات المتحدة انعكاساً واضحاً للنظام الأمريكى نفسه ، من حيث الفروق الصارخة بين الأغنياء والفقراء والعنصرية وتأليب الضحايا بعضهم ضد بعض و"الإصلاحات" التى لا تنتهى والتى لا تغير إلا القليل. يوما ما قال دوستويفسكى: "يمكننا الحكم على مدى تحضر أى مجتمع من خلال أحوال سجونه."

نعم! ما قاله دوستويفسكى صحيح. فمنذ زمن بعيد والسجناء يعرفون هذه الحقيقة أكثر من غيرهم. فكلما ازداد فقرك، يزيد احتمال انتهاء حياتك فى السجن. وهذا ليس عدلاً ؛ لأن الفقراء أكثر ارتكاباً للجرائم. ولم يكن الأغنياء فى حاجة لارتكاب جرائم ليحصلوا على ما يريدون ، والقوانين كانت دائماً فى جانبهم. وحتى عندما كان الأغنياء يرتكبون جرائم، غالباً ما كانوا يتفادون المحاكمة، وإذا حوكموا، كان يُطلق سراحهم مقابل كفالة. كان بإمكانهم دائماً اللجوء إلى محامين ماهرين ، وكانوا يلقون معاملة طيبة من القضاة. باختصار، امتلأت السجون بالفقراء خاصة السود منهم.

وفى عام ١٩٦٩ كان هناك ٥٠٢ حالة احتيال وتهرب ضريبى. مثل هذه الحالات، التى يطلق عليها "جرائم أصحاب الياقات البيضاء"، عادة تخص مَنْ يملكون أموالاً كثيرة. من بين هذه الحالات، انتهى ٢٠٪ فى السجن ، وكان متوسط التهرب الضريبى

١٩٠٠٠٠ دولار ، وكان متوسط الأحكام بالسجن سبعة شهور. وفى العام نفسه، من بين حالات السطو على المنازل وسرقة السيارات (أى جرائم الفقراء) انتهى ٦٠٪ منهم فى السجن. بلغ قيمة متوسط المسروق من السيارات ٩٩٢ دولاراً وكان متوسط الحكم بسجن مرتكبيها ١٨ شهراً. أما حالات السطو على المنازل، فكان متوسط كل حالة ٣٢١ دولاراً وكان متوسط الأحكام بالسجن ثلاثة وثلاثين شهراً.

يحكى المحلل النفسى ويلارد جايلين Willard Gaylin فى كتابه **العدالة العوجاء** Partial Justice عن حالة من الممكن، مع تغيير فى التفاصيل، أن تحدث آلاف المرات. كان جايلين أجرى مقابلة مع ١٧ من "شهود يهوه" كانوا قد رفضوا تسجيل أسمائهم فى سجلات التجنيد للذهاب إلى فيتنام وحكم عليهم بالسجن لمدة عامين. وكان من بين هؤلاء شاب أسود كان قد أخبر مجلس التجنيد أن ضميره لا يسمح له بالتعاون فى هذا الأمر ؛ لأن الحرب فى فيتنام أصابته بالاشمئزاز. وحُكم عليه بالسجن خمسة أعوام. يقول جايلين : إن هانكس - الشاب الأسود - كان أول أسود يجرى معه مقابلة وكان الحكم بحبس هانكس خمس سنوات الأول من نوعه بالنسبة لجايلين. كانت هناك عوامل أخرى نستطيع أن نراها فى الحوار الذى دار بين جايلين وهانكس:

- "كيف كانت تسريحة شعرك ساعتئذ؟"

- "أفرو"

- "وماذا كنت ترتدى؟"

- "داشيكى"(*)

- "ألا تعتقد أن ذلك قد يكون له تأثير على الحكم بسجنك خمس سنوات؟"

- "بالطبع!"

- "وهل كان الأمر يستحق أن تخسر سنة أو اثنتين من حياتك؟"

(*) سترة إفريقية فضفاضة ذات ألوان زاهية يرتديها الرجال (المترجم) .

- "إن هذا هو كل حياتى" قال وهو ينظر إلى فى خليط من الفزع والارتباك. ثم أضاف: "يا عزيزى، هذا هو لب المسألة. هل أنا حر فى أن أصنع تسريحة الشعر التى أفضلها وأن أرتدى ما أشاء؟

- قلت: "نعم، نعم، لديك حق."

وجد جايلين أن القضاة كانوا يتمتعون بحرية التصرف فى إصدار الأحكام. ففى أوريجون وضع القضاة ثمانية عشر من بين ثلاثة وثلاثين من المتهمين بانتهاك قانون التجنيد تحت المراقبة مع تعليق العقوبة. وفى جنوبى تكساس، لم يوضع واحد من الستة عشر المتهمين بانتهاك نفس القانون تحت المراقبة. أما فى جنوبى ميسيسيبى، فقد حُكم على كل متهم بانتهاك قانون التجنيد بأقصى عقوبة وهى السجن لمدة خمس سنوات. وفى أحد أجزاء البلاد (نيو انجلاند) كان متوسط الحكم بالسجن عن كل الجرائم أحد عشر شهراً. فى حين كان المتوسط فى جزء آخر .. ثمانية وسبعين شهراً. لم يكن الأمر ببساطة مسألة شمال وجنوب. ففى مدينة نيويورك قام قاض بمحاكمة ٦٧٣ شخصاً بتهمة السُكْر العام (كلهم فقراء، فالأغنياء يسكرون خلف الأبواب المغلقة) فأطلق سراح ٥٣١ منهم. قاض آخر كان يقوم بمحاكمة ٥٦٦ شخصاً عن نفس التهمة لم يطلق إلا سراح شخص واحد.

وفى ظل مثل هذه السلطة التى تمتلكها المحاكم، يصير من المستبعد أن ينال السود والفقراء والهيبيز وذوو الميول الجنسية المثلية والراديكاليون محاكمة عادلة أمام قضاة كلهم تقريباً من البيض ، ومن أصحاب الطبقة المتوسطة العليا الذين يحملون أفكاراً محافظة.

إننا لو فكرنا فى حقيقة أن ١,٦٠٠,٠٠٠ من الأمريكيين قد تأثروا بالقانون الجنائى فى أوائل السبعينيات، فلنا أن نتصور أن عدة ملايين يمرون بهذا القانون ، منهم من يطلق سراحه ومنهم من يبقى. مثل هذا العدد "لا تراه" أمريكا الطبقة الوسطى أو العليا. ولكن لا عجب ، فقد ظل أكثر من عشرين مليون أسود "محجوبين"

عن العيون لزمن طويل. فلم لا ينطبق الحال على أربعة ملايين أو خمسة من "المجرمين"؟ كشفت دراسة قام بها توماس كوتل Cottle في منتصف السبعينيات تحت عنوان **أطفال في السجن** Children in Jail عن أن أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ ممن هم دون الثامنة عشرة يتعرضون للسجن على مدار العام.

كان الاتصال بالعالم الخارجي بالنسبة للسجناء أمراً صعباً. إذ كان الحراس يمزقون أيّة خطابات تقع تحت أيديهم ، وكانوا يفضون الخطابات ويقرءونها. أرسل سجين يُدعى جيرى سوسا Sousa بسجن ولبول بماساشوستس خطابين فى عام ١٩٧٠ أحدهما إلى قاض والآخر إلى هيئة الإفراج المشروط عن السجناء ، يحكى فيهما تعرضه للضرب على أيدى حراس السجن. لكنه لم يتلق أى رد. وبعد ثمانية أعوام وفىِ أثناء جلسة بالمحكمة، اكتشف السجين أن مسئولى السجن فضوا الخطابين ولم يرسلوهما.

واكتسبت حركات التمرد فى السجون فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات صبغة مختلفة عن كل الحركات السابقة. لقد وصف سجناء مركز كوينز للاعتقال أنفسهم بأنهم "ثوريون." وكان السجناء، فى كل مكان فى البلاد، متأثرين إلى حد كبير بحالة القلق التى كانت تسود البلاد من ثورة السود إلى انتفاضة الشباب إلى الحركات المناهضة للحرب فى فيتنام. لقد أكدت أحداث تلك السنوات ما كان يشعر به السجناء- أى مهما كانت الجرائم التى ارتكبوها فإن أعظم الجرائم ارتكبتها السلطات التى تقيم السجون، أى حكومة الولايات المتحدة. وكان الرئيس الأمريكى ينتهك القانون كل يوم، إذ كان يرسل الطائرات لقتل أبناء الشعب الفيتنامى ، ويرسل شباباً أمريكيين ليلقوا حتفهم فى الحرب. وكل هذا لم يتمتع بأيّة صفة دستورية. وفى الوقت نفسه كان المسئولون ينتهكون الحقوق المدنية للسود دون مراعاة للقانون ، فضلاً عن أنه لم تكن هناك محاكمة لهؤلاء المسئولين.

بدأت الكتب التى تتناول حركة السود للحقوق المدنية والكتب التى تتناول التورط الأمريكى فى فيتنام تتسرب إلى السجون. وبدأ يتزايد النموذج الذى أرساه السود والمتظاهرون ضد الحرب فى فيتنام فى الشوارع. كان تحدى النظام الذى لا قانون له

هو الحل الوحيد. كان هذا هو النظام الذى حكم على رجل مثل مارتن سوستر Sostre ـ البالغ من العمر اثنين وخمسين عاماً ويدير مكتبة لبيع الكتب الأفرو ـ أسيوية فى بافالو بولاية نيويورك ـ بالسجن ثلاثين عاماً لاتهامه ببيع ما يساوى ١٥ دولاراً من الهيروين إلى أحد مرشدى البوليس. جدير بالذكر أن هذا المرشد تخلى عن شهادته بعد ذلك. لكن ذلك لم يطلق سراح سوستر ولم تنصفه أيّة محكمة بما فى ذلك المحكمة الدستورية العليا. وقد قضى سوستر ثمانية أعوام فى السجن وتعرض للضرب وقضى ثلاث سنوات فى الحبس الانفرادى متحدياً السلطات حتى أُفرج عنه. ومثل هذه السلطات لم تكن تستحق إلا التمرد عليها.

كان هناك دائماً السجناء السياسيون، أى أولئك الذين سُجنوا بسبب انضمامهم إلى حركات راديكالية أو معارضتهم للحرب. لكن فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، ظهر نوع جديد من السجناء السياسيين. كان هؤلاء عبارة عن متهمين عن جريمة عادية لكنهم، فى السجون، استيقظ وعيهم السياسى ، حيث بدأ بعضهم يربط بين جريمته وأزمته الشخصية وبين النظام الاجتماعى. ومن ثم تحولوا ليس إلى التمرد الفردى ولكن إلى الفعل الجماعى، فقد أصبحوا ـ وسط بيئة تفرض على الموجود فيها أن يركز على سلامته الشخصية نتيجة الوحشية السائدة ـ معنيين بحقوق الآخرين وأمانهم.

كان جورج جاكسون أحد هؤلاء السجناء السياسيين الجدد. فى سجن سوليداد بكاليفورنيا، وعن حكم بالسجن غير محدد نتيجة سرقة قيمتها ٧٠ دولارًا، أصبح جاكسون ثورياً بعد أن أمضى فى السجن عشر سنوات. كان كلامه غاضباً بما يساوى الظروف التى مر بها. من كلماته الثأرية:

> **إن الوحش الذى خلقوه داخلى سوف يعود لينتقم ممن صنعه. سيعود من القبر أو من الشَرَك الذى نصبوه له ... ولن يصرفنى عن ذلك شىء حتى لو كان الجحيم مكانى ... سيدفعون ثمن ما فعلوه دماً. وستكون ثورتى عليهم ثورة الفيل المجنون الذى شرد عن قطيعه ... .**

سجين مثل جاكسون لم يكن ليستمر على قيد الحياة. وعندما أصبح كتابه **رفيق سجن سوليداد** Soledad Brother من أكثر الكتب قراءة فى الولايات المتحدة سواء من قِبل السجناء أو السود أو حتى البيض، تأكد الأمر بأنه لم يكن ليستمر على قيد الحياة. من كلماته فى هذا الكتاب:

> **على مدار حياتى كلها قلت دائماً ما أريده فى الوقت الذى أريده... لم أجُر على نفسى كى أتأقلم. حتى الآن لم أتأقلم وقد قضيت نصف حياتى فى السجون .... ولدت ابن موت ... لم أمتهن مهنة محددة... هذا أنا الضحية الاستعمارية. يستطيع أى واحد يمر باختبار الخدمة المدنية اليوم أن يقتلنى غداً... محمياً بحصانة كاملة.**

وفى أغسطس عام ١٩٧١ أطلق عليه الحراس النار من الخلف فى سجن سان كوينتين بينما كان يحاول الهرب على حد زعم الحراس. وجاءت القصة التى قالتها الولاية (قام إيريك مان بتحليلها فى كتابه **الرفيق جورج** Comrade George) مليئة بالثقوب. فقد عرف السجناء فى كل أرجاء البلاد، وحتى قبل التقرير النهائى لتشريح الجثة، بل حتى قبل التسريبات اللاحقة التى قالت بأن الحكومة دبرت لقتله، أنه قُتل لأنه جَرُؤَ على أن يكون ثورياً فى السجن. وبعد موت جاكسون بوقت قصير، قامت سلسلة من التمردات فى سجون البلاد: فى سجن مقاطعة دالاس وسجن مقاطعة سافوك ببوسطن وسجن مقاطعة كمبرلاند فى بريدجتون بولاية نيوجرسى وسجن مقاطعة بيكسر فى سان أنطونيو بولاية تكساس.

وكان أكبر التأثيرات المباشرة لمقتل جورج جاكسون هو التمرد الذى شهده سجن أتيكا Attica فى سبتمبر عام ١٩٧١ وهو التمرد الذى جاء نتيجة مظالم كبيرة وعميقة تعرض لها السجناء ، لكنها وصلت نقطة الغليان بعد مقتل جاكسون. كان سجن أتيكا محاطاً بسور يبلغ ارتفاعه ٣٠ قدماً ، ويبلغ سمك السور قدمين ، وينتشر فى أركانه أربعة عشر برجاً يقف فيه حراس مشهورو السلاح. كان ٥٤٪ من السجناء من السود

و١٠٠٪ من الحراس من البيض. وكان السجناء يقضون من أربع عشرة إلى ست عشرة ساعة يومياً فى زنزاناتهم. كانوا محرومين من الرسائل التى كانت تُفض وتُقرأ إذا أُرسلت أو استقبلت. وكان المسموح به من المواد المقروءة للسجناء محدوداً جداً، وزيارات أهلهم تتم معهم عبر شاشات بها ثقوب صغيرة ، ولا يتمتعون برعاية صحية ، والعنصرية تعشش فى كل مكان من السجن. أما كيف كانت إدارة السجن تتفهم ظروف السجناء، فيمكن لنا أن نراها فى كلمات المشرف العام على سجن أتيكا التى قالها عقب ثورة السجناء: "لماذا يدمرون بيتهم؟"

يقول التقرير الرسمى عن تمرد سجن أتيكا كيف تحول فصل، يقوم فيه سجين بتدريس علم الاجتماع للسجناء، إلى منتدى للأفكار التى تتحدث عن التغيير. ثم كانت هناك سلسلة من الجهود المنظمة للاحتجاج والتمرد ، وفى يوليو خرج أحد النزلاء بمانيفستو يطالب ببعض المطالب المعتدلة. بعد ذلك "بدأت التوترات تتزايد" حتى وصلت إلى قمتها بعد وصول أخبار مقتل جورج جاكسون فى سجن سان كوينتين. وفى ذلك اليوم لم يتناول الغداء والعشاء إلا عدد قليل من السجناء ، وارتدى كثيرون من السجناء شارات سوداء.

وفى التاسع من سبتمبر عام ١٩٧١، انتهت سلسلة من التوترات بين السجناء والحراس بأن قام عدد من السجناء باختراق حائط أحد أفنية السجن الأربعة ، واحتجزوا أربعين منهم كرهائن. ومضت خمسة أيام أقام فيها السجناء مجتمعاً متميزاً. ودعا السجناء أن يزورهم مجموعة من المواطنين كى يروا ما يحدث، وكان من بينهم توم ويكر الصحفى بجريدة نيويورك تايمز. قال ويكر: "كان الانسجام العرقى بين السجناء شيئاً مدهشاً... كان فناء السجن أول مكان ليس به عنصرية." وقال سجين أسود فيما بعد: "لم أتوقع أبداً أن ينجح البيض فى هذا الاختبار... لا أستطيع أن أحكى لك كيف كانت العلاقة بين السجناء فى فناء السجن. لقد كنت أبكى وأنا أراهم بهذه الروح... ."

وبعد خمسة أيام، نفد صبر الولاية حيث أمر الحاكم نيلسون روكفيللر بشن هجوم عسكرى على السجن (راجع الفيلم الرائع أتيكا لسيندا فايرستون) ودخل أفراد

الحرس الوطنى وحراس السجن ورجال البوليس المحلى إلى السجن وشنوا هجوماً شاملاً على السجناء بالبنادق الكبيرة والصغيرة والأسلحة الأتوماتيكية. وبالطبع لم يكن مع السجناء أيّة أسلحة نارية. ونتج عن الهجوم مقتل واحد وثلاثين سجيناً. وقد قالت سلطات السجن للصحافة : إن السجناء قد ذبحوا تسعة من الحراس الرهائن فى أثناء الهجوم. لكن تقارير التشريح أظهرت كذب السلطات، فقد مات الحراس التسعة نتيجة إطلاق النار الذى كان من المستحيل أن يكون السجناء مصدره.

من الصعب تقدير التأثير الذى خلفه تمرد أتيكا وما تلاه من عواقب. فبعد شهرين من هذا التمرد، بدأ السجناء فى سجن نورفوك بماساتشوستس فى تنظيم أنفسهم. وفى الثامن من نوفمبر من عام ١٩٧١، اقتحم الحراس المسلحون وقوات مسلحة تابعة للولاية، فى غارة مفاجئة، زنزانات السجناء وأخرجوا منها ستة عشر سجيناً قاموا بشحنهم إلى سجن آخر.

وفى الأسبوع نفسه، كانت هناك غارة أخرى على سجن كونكورد بماساتشوستس. ويبدو أن سلطات السجون، فى الأسابيع والشهور التى تلت تمرد أتيكا، كانت تتخذ بعض الإجراءات الوقائية للقضاء على أيّة جهود تنظيمية بين السجناء. فجيرى سوسا، أحد القادة الشبان لحركة إصلاح السجون فى سجن كونكورد، تم ترحيله بعد منتصف الليل إلى سجن ولبول ، ثم تم وضعه مباشرة فى وحدة "ناين بلوك" المنعزلة. ولم يلبث سوسا أن تمكن من تسريب تقرير عن أحوال السجن إلى أصدقائه فى الخارج. يحكى مضمون التقرير ما كان يجرى داخل عقول السجناء قبل تمرد أتيكا وبعده:

> **هذا تقرير نكتبه حول الملابسات التى أحاطت بمقتل السجين جوزيف تشيسنولافيتش الذى وقع منذ ساعة واحدة فى وحدة ناين بلوك.**
>
> **منذ ليلة الكريسماس، خلق حراس وحدة ناين بلوك الأشرار جواً من الرعب لنا نحن السجناء. وتعرض أربعة منا للضرب. وفى**

محاولة لتجنب التحرش المستمر والمعاملة غير الإنسانية، بلع السجين جورج هايز شفرات حلاقة ، وبلع السجين فريد أهرن إبرة... . فتم نقلهما إلى المستشفى العام.

وفى السادسة من مساء اليوم قام الحراس بابتيست وسانزبيرى ومونتيجا بتشغيل طفاية الحريق التى كانت تحتوى على رغاوى كيماوية على السجين جو داخل زنزانته ثم أغلقوا عليه باب الزنزانة ثم انصرفوا مهددين. وفى التاسعة مساءً وُجد جو ميتاً... سوف تقول سلطات السجن وكذلك الصحافة أن موت جو كان انتحاراً، لكن الرجال هنا الذين شهدوا ما حدث يعرفون الحقيقة. هل الدور علينا؟

كان ما يحدث هو تنظيم السجناء أنفسهم ورعايتهم بعضهم لبعض ، ومحاولة تحويل التمرد والغضب الفردى إلى جهد جماعى من أجل التغيير. وكان شئ جديد يحدث خارج السجون؛ فقد تشكلت جماعات دعم للسجناء فى كل أنحاء البلاد. وخرجت دراسات أكثر عن الجريمة والعقاب ، وظهرت حركة متنامية تطالب بإلغاء السجون على أساس أنها لم تمنع الجريمة بل لعلها ساهمت فى ازدياد معدلها. وكانت هناك مناقشات لإيجاد بدائل للسجون كإنشاء بيوت للسجناء داخل كل مجتمع على المدى القصير (باستثناء من يستعصى عنفهم على العلاج) وتوفير الحد الأدنى من الأمان الاقتصادى على المدى البعيد.

وبدأ السجناء يفكرون فى قضايا تتجاوز حدود السجون. ففى سجن ولبول وقّع السجناء كل باسمه على بيان يطالب بسحب القوات الأمريكية من فيتنام ، وهذا جهد تنظيمى مدهش. وفى أحد أعياد الشكر، رفض معظم السجناء، ليس فى سجن ولبول فقط ولكن فى ثلاثة سجون أخرى، أن يتناولوا الوجبة الخاصة بهذا العيد قائلين إنهم أرادوا أن يلفتوا الانتباه إلى الجوعى فى كل أرجاء البلاد.

وأحرز السجناء بعض النصر فى قضاياهم أمام المحاكم. وكان لذيوع أحداث أتيكا وتكوين جماعات دعم السجناء أثر كبير. ورغم أن المتمردين فى سجن أتيكا نالوا أحكاماً مضاعفة بالسجن عن الاتهامات الموجهة إليهم، فإن هذه الاتهامات تم إسقاطها. ولكن بصفة عامة أعلنت المحاكم عن عدم رغبتها فى الدخول إلى عالم السجون المغلق ، وبذلك ظل السجناء على حالهم. وحتى عند إحراز "انتصار" ما، يتضح فيما بعد، مع القراءة الفاحصة، أن الأشياء لم تتغير إلا بقدر قليل جداً. ففى عام ١٩٧٣ أعلنت المحكمة الدستورية العليا عدم دستورية الرقابة على الخطابات ، ولكن عند النظر المتفحص إلى قرار المحكمة بلغته التى تفتخر بالتعديل الأول للدستور ، والخاص بالحرية الشخصية، نكتشف أنه يقول: "... نرى أن الرقابة على الخطابات الصادرة من السجون أو الواردة إليها مبررة إذا ما توفرت المعايير التالية... . " وقال القرار : إن الرقابة مبررة إذا ما كان هناك مصلحة تتعلق "بالأمن أو النظام أو إعادة التأهيل."

وفى عام ١٩٧٨، حكمت المحكمة الدستورية العليا بأن وسائل الإعلام ليس لها حقوق مضمونة للاطلاع على ما يحدث فى السجون. وقالت أيضاً : إن من حق سلطات السجون أن تمنع السجناء من الحديث بعضهم مع بعض أو من التجمع أو من السعى فى سبيل إقامة اتحاد للسجناء.

وأصبح واضحاً ـ وبدا أن السجناء كانوا يعرفون ذلك منذ البداية ـ أن أحوال السجناء لن تتغير بالقانون، ولكن عن طريق التمرد والاحتجاج والتنظيم والمقاومة وخلق ثقافة خاصة بهم وبناء قنوات اتصال بينهم وبين العالم الخارجى. وصار هناك كثيرون من خارج السجون يعلمون ما يحدث بداخلها. فقد قضى عشرات الآلاف من الذين اشتركوا فى حركات الحقوق المدنية والحركات المناهضة للحرب مدة ما فى السجون ، وعرفوا كيف يسير النظام فيها. وصار هناك قاعدة لاختراق العزلة المفروضة على السجناء. بدأ كل هذا يحدث فى منتصف السبعينيات.

كان ذلك وقت التمرد والثورة. فقد تمردت النساء وتمرد السجناء الذين ظل عالمهم محجوباً عن عيون الناس. ولكن أكبر المفاجآت كانت لم تحدث بعد.

كان من المعتقد أن الهنود الحمر، بعد أن قام الغزاة البيض بإبادة غالبيتهم ودفعوا الباقين منهم للعيش فى محميات، لن يسمع أحد أصواتهم ثانية. ففى الأيام الأخيرة لعام ١٨٩٠، وبعد أعياد الكريسماس، وقعت المذبحة الأخيرة للهنود فى باين ريدج بداكوتا الجنوبية بالقرب من خليج وونديد نى Wounded Knee .كان البوليس الهندى قد قام لتوه باغتيال سيتينج بُلْ Sitting Bull (الثور الجالس) القائد العظيم لهنود سو Sioux لصالح حكومة الولايات المتحدة ، ولجأ الهنود الباقون إلى باين ريدج (١٢٠ رجلاً و٢٣٠ امرأة وطفلاً). وعندما أمرت القوات الأمريكية الهنود بتسليم أسلحتهم، أطلق أحدهم النار باتجاه القوات. فما كان من الجنود إلا أن أطلقوا النار من البنادق والمدافع على الخيام المنصوبة على التل. ولما انتهى الهجوم الوحشى كان ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ من الهنود، الذين كان يبلغ عددهم ٣٥٠، قد سقطوا قتلى. ومات خمسة وعشرون جندياً غالباً برصاص زملائهم الطائش لأن أسلحة الهنود كانت قليلة.

وكانت الحكومة الأمريكية، من خلال الهجوم الدائم على الهنود وتجويعهم، قد قامت بتقسيمهم فى محميات يحيون فيها حياة شديدة الفقر. وفى عام ١٨٨٧، حاول قانون التحصيص Allotment Act أن يفكك المحميات إلى قطع صغيرة من الأراضى يمتلكها أفراد هنود ، وذلك بهدف تحويل أراضى المحميات إلى مزارع صغيرة على النمط الأمريكى. لكن معظم هذه الأراضى كانت من نصيب المضاربين على الأرض من البيض. وبقيت المحميات.

وقد حاول الهنود استعادة حياتهم القبلية القديمة ، لكن كانت هناك صعوبات كبيرة فى طريق ذلك. وكان كثير من الشباب الهنود يغادرون المحميات. قال عالم أنثروبولوجيا هندى: "إن المحمية الهندية هى النظام الاستعمارى الأكثر اكتمالاً فى العالم." فى وقت من الأوقات، بدا أن اختفاء الهنود أو انصهارهم فى المجتمع الأمريكى كان أمراً حتمياً. ففى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن قد بقى من المليون أو أكثر الذين كانوا موجودين إلا ٣٠٠ ألف. لكن عددهم بدأ فى الازدياد ثانية وكأنهم نبات

رفض أن يمـوت وبدأ فى الازدهار. وبحلول عـام ١٩٦٦ كـان هناك ٨٠٠.٠٠٠ منـهم يعيش نصفهم فى المحميات وينتشر النصف الآخر فى مدن البلاد المختلفة.

وتشهد السير الذاتية للهنود برفضـهم لأن تستوعبهم حضارة الرجل الأبيض. كتب أحدهم:

نعم ذهبت إلى مـدارس الرجل الأبيض وتعلمت فى المدرسـة قراءة الكتب والصـحف والإنجيل. ولكن بعد ذلك اكتشفت أن كل هذا لم يكن كافـياً. فالمتـحضـرون يعولون كثيراً على ما يصنعه الإنسـان. لكننى أتوجه إلى كتـاب الروح الأعظم، أى كل مـا خلقت هذه الروح... .

وقال أحد هنود الهوبى ويُدعى صن شيف:

تعلمت كلمـات انجليزية كثيرة وأسـتطيع أن أتلو جـزءاً من الوصـايا العـشـر. تعلمت كـيف أنام على سـرير، وكـيف أصلى للمـسيح ، وكيف أسوى شـعرى وآكل بالشـوكة والسكين ، وكيف استـخدم التواليت... لكنى تعلمت أيضـاً كيف يفـكر المرء بعــقله لا بقلبه.

وفى سيرته الذاتية من **أرض النسر المنقوط** From the Land of the Spotted Eagle كتب شيف لوثر ستاندينج بير (الدب الواقف):

صـحيح أن الرجل الأبيض جلب لنا كثيراً من التـغيير. لكن ثمـار حضـارته، رغم جاذبيتـها وألوانـها الزاهية، تصيب بالغثيـان والموت. فإذا كان دور الحضـارة هو التشويه والسرقة، فماذا يعنى التـقـدم؟ وسـوف أتجـرأ وأقـول إن الرجل الذى كـان يجلس على الأرض فى خيمـته يتأمل الحيـاة ومعنـاها ، ويشـعر بما يربط بينه وبين كل المخلوقـات من وشـائج حمـيمـة، ويقـر بوجود وحـدة بين

الكون والأشـيـاء، هذا الرجل كـان يسكب فى وجـوده الجـوهر الحقيقى للحضارة... .

وكما تطورت حركات الحقوق المدنية والحركة المناهضة للحرب فى الستينيات، كان الهنود الحمر قد بدأوا بالفعل فى تجميع طاقتهم من أجل المقاومة وتغيير أحوالهم. ففى عام ١٩٦١ اجتمع خمسمائة من قادة الهنود فى شيكاغو. ومن هذا الاجتماع انبثق اجتماع آخر للشباب من الهنود الجامعيين الذين أنشأوا "مجلس الشباب الهندى الوطنى." كتب ميل توم أول رئيس للمجلس:

هناك نشــاط مـتـزايد من الجـانب الهندى، وهناك بعض الخـلافات وبعض الضـحك وبعض الانفجارات الغـاضبة وبعض التخطيط... إن الهنود يكتسبون الشجاعة والثقة فى أن قضيتهم عادلة. كفاح الهنود مستمر... إنهم يتجمعون من أجل تقرير مصيرهم... .

فى ذلك الوقت، بدأ الهنود الاقتراب من الحكومة الأمريكية بشأن موضوع "المعاهدات." ففى كتابه ذائع الصيت **كاستر ماتت بخطاياكم** (١٩٦٩) **Custer Died for your Sins** لاحظ فـاين ديلوريا **Vine Deloria** أن الرئيس جـونسـون تحـدث عن "التزامات" أمريكا ، والرئيس نيكسون تحدث عن تقاعس روسيا عن احترام المعاهدات. وقال: "إن الهنود يموتون ضحكاً عندما يسمعون مثل هذه البيانات."

وكانت حكومات الولايات المتحدة قد وقعت أكثر من أربعمائة معاهدة مع الهنود ، لكنها انتهكت كل واحدة منها. فعلى سبيل المثال، وقعت الحكومة الأمريكية، فى عهد الرئيس جورج واشنطن، معاهدة مع هنود إريكويز جاء فيها: "تقر الولايات المتحدة بأن كل الأراضى المذكورة الحدود هى ملك أمة سينيكا..." ولكن فى أوائل الستينيات، وفى عهد الرئيس كينيدى، تجاهلت الحكومة الأمريكية تلك المعاهدة ، وقامت ببناء سد على الأراضى الهندية مما تسبب فى غرق محمية سينيكا.

وبدأت مقاومة الهنود تتشكل فى أجزاء مختلفة من البلاد. ففى ولاية واشنطن كان هناك معاهدة قديمة أخذت بموجبها الحكومة الأمريكية الأراضى من الهنود ، لكنها تركت لهم حقوق الصيد فى هذه الأراضى. وقد أصبح هذا الأمر غير مرغوب فيه بعد أن زاد عدد السكان البيض الذين أرادوا أن يستأثروا بمناطق الصيد لأنفسهم. وعندما حالت محاكم الولاية بين الهنود وبين مناطق الصيد، بدأ الصيادون الهنود فى ممارسة الصيد من نهر نيسكوالى فى تحد لأوامر المحاكم ، وذهب بعضهم إلى السجن بهدف جذب الانتباه إلى قضيتهم.

وفى العام التالى، حكم قاض محلى بأن قبيلة بويالوب لا وجود لها ، ومن ثم فليس من حق أعضائها الصيد من النهر المسمى عندهم باسم نهر بويالوب. وقد أغار رجال البوليس على جماعات الصيادين وحطموا المراكب والشباك ، وضربوا الصيادين وألقوا القبض على سبعة منهم. وقد أكدت المحكمة الدستورية العليا فى عام ١٩٦٨ أن للهنود الحق فى الصيد وفقاً للمعاهدة المذكورة ، لكنها قالت إن الولاية لها أن "تنظّم عملية الصيد" دون أن يكون هناك تمييز ضد الهنود. لكن الولاية استمرت فى القبض على الصيادين الهنود. وكانت سلطات الولاية تفعل بحكم المحكمة الدستورية العليا ما فعله البيض فى الجنوب مع التعديل الرابع عشر للدستور لسنوات طويلة - أى التجاهل. واستمرت عمليات الاحتجاج وعمليات القبض على الهنود فى أوائل السبعينيات.

وكان بعض المشاركين فى عمليات الصيد من الهنود قد اشتركوا فى حرب فيتنام. وكان سِيْد ميلز أحد الذين قُبض عليهم عند نهر نيسكوالى فى ١٣ أكتوبر من عام ١٩٦٨ ومن بين كلمات ميلز الذى كان قد شارك فى الحرب فى فيتنام:

> **أنا من قبيلتى ياكيما وشيروكى. كنت جندياً فى الجيش الأمريكى لمدة عامين وأربعة شهور. خدمت فى المعارك فى فيتنام حتى لحقت بى إصابة... أعلن الآن أننى أتخلى عن أى التزام بالخدمة فى الجيش الأمريكى. إن التزامى الأول الآن هو تجاه شعبى من الهنود فى نضالهم للحصول على حقوقهم فى الصيد**

من مياه نيسكوالى والأنهار الأخرى فى الغرب الشرقى من المحيط الهادى. أعلن الآن التزامى بالقتال إلى جانبهم بأيّة طريقة ممكنة... .

السبب وراء قرارى هو أننا عدنا لتونا من دفن الصيادين الهنود بينما يعيش الآخرون منهم دون حماية وتحت الخطر الدائم بتعرضهم للهجوم...

منذ ثلاث سنوات، وفى أكتوبر عام ١٩٦٣، هاجم ٤٥ من أفراد الجيش الأمريكى ١٩ من النساء والأطفال على نحو وحشى عند نهر نيسكوالى. ومن المفارقات أنه تم الكشف مؤخراً عن أن أقدم بقايا إنسان فى التاريخ قد عُثر عليها على ضفاف نهر كولومبيا، وكانت هذه البقايا لصيادين هنود! أيّة حكومة هذه وأى مجتمع ذلك الذى لديه الاستعداد أن ينفق ملايين الدولارات بحثاً عن عظامنا وأن يحمى بقايانا القديمة من التلف ـ بينما فى الوقت نفسه يأكل لحم الأحياء من شعبنا...؟ سوف نقاتل فى سبيل الحصول على حقوقنا.

لم يعتمد الهنود فى كفاحهم على المقاومة البدنية فحسب، ولكن على الكلمة أيضاً. ففى عام ١٩٦٩ بدأت جماعة من الهنود عند نهر سانت لورانس عند الحدود بين الولايات المتحدة وكندا فى إنشاء صحيفة متميزة هى "Akwesasne Notes" تنشر الأخبار ومقالات الرأى والشعر. وكانت تتسم دائماً بروح التحدى. ولم تخل بعض المواد المنشورة من الحس الساخر. كتب فاين ديلوريا:

يمتعنى من وقت لآخر تفكير غير الهنود. كنت فى كليفلاند العام الماضى ، وجرى حديث بينى وبين شخص غير هندى عن التاريخ الأمريكى. قال إنه يأسف كثيراً لما حدث للهنود ، لكنه قال إن هذا كان شيئاً لابد منه لوجاهة السبب ورائه. قال إنه

كان لابد من تطوير القارة ، وإن الهنود كانوا يقفون عقبة فى طريق التطور ، ومن ثم كان لابد من إزاحتهم. ثم قال: "وعلى أية حال، ماذا فعلتم بالأرض عندما كانت تحت أيديكم؟" لم أفهمه إلا فيما بعد عندما اكتشفت أن نهر كويا هوجا الذى يمر بكليفلاند قابل للاشتعال! كان يتم التخلص من الملوثات المحترقة برميها فى هذا النهر حتى أن السكان القريبين منه يتخذون احتياطات خاصة فى الصيف كى يتجنبوا نشوب حريق فيه. ساعتئذ راجعت كلام صديقى غير الهندى، فقلت إنه ربما كان على صواب! نعم! لقد أحسن البيض استغلال الأرض. فكم من الهنود كان يمكن لهم أن يفكروا بأن يكون لديهم نهر قابل للاشتعال؟

وفى ٩ نوفمبر عام ١٩٦٩ وقع حادث كبير لفت الانتباه إلى ما لحق بالهنود من مظالم. أعلن هذا الحادث للعالم أجمع أن الهنود لا زالوا هناك ، وأنهم سيقاتلون فى سبيل الحصول على حقوقهم. فى ذلك اليوم، وقبل الفجر، قام ثمانية وسبعون من الهنود الحمر بالنزول فى جزيرة ألكاتراز بخليج سان فرانسيسكو ، وأعلنوا احتلالهم لها. كانت ألكاتراز سجناً فيدرالياً مهجوراً ، وكان مكاناً مكروهاً حتى أن الناس أطلقوا عليه اسم "الصخرة." وكان بعض الشباب من الهنود قد قاموا باحتلالها فى عام ١٩٦٤ لإنشاء جامعة هندية لكنهم أُزيحوا عنها بالقوة وسط غياب أيّة تغطية إعلامية.

أما هذه المرة، فكان الأمر مختلفاً. كان قائد المجموعة ريتشارد أوكس **Oakes**، وهو هندى من قبيلة موهوك ، وكان يرأس قسم الدراسات الهندية فى كلية سان فرانسيسكو الحكومية. وكان معه جريس ثورب ، وهى هندية من قبيلتى ساك وفوكس وابنة البطل الأوليمبى جيم ثورب. وتبع هنود آخرون هذه المجموعة حتى بلغ عدد الهنود بالجزيرة بنهاية الشهر (أى بعد عشرين يوماً) ستمائة يمثلون أكثر من خمسين قبيلة. وقد أطلقوا على أنفسهم اسم "هنود من كل القبائل" وأصدروا بياناً جاء فيه: "نحن نضع أيدينا على الصخرة." وأعلنوا فى ذلك البيان أيضاً أنهم مستعدون لشراء

الجزيرة مقابل المشغولات الزجاجية والقماش الأحمر ، وهو نفس الثمن الذى دُفع للهنود مقابل جزيرة مانهاتن قبل ثلاثمائة عام. وأعلن الهنود إنهم سيجعلون من الجزيرة (ألكاتراز) مركزاً للدراسات الهندية لشئون البيئة ، وقالوا: "سنعمل كى نقضى على تلوث الهواء والماء فى منطقة خليج فرانسيسكو... ونعمل من أجل استعادة حياة الأسماك والحيوان... ."

وفى الشهور التالية، قطعت الحكومة خطوط التليفون والكهرباء والماء عن الجزيرة، واضطر كثيرون إلى مغادرتها فى حين أصر آخرون على البقاء. وبعد عام كامل كانوا ما يزالون هناك وأرسلوا رسالة إلى "إخوتنا وأخواتنا من كل الأجناس واللغات على وجه أمنا الأرض" جاء فيها:

مازلنا نضع أيدينا على جزيرة ألكاتراز باسم الحرية والعدل والمساواة بمعناهم الحقيقى ؛ لأنكم ـ إخوتنا وأخواتنا على وجه الأرض ـ أيدتم قضيتنا العادلة. نمد إليكم أيادينا ونفتح لكم قلوبنا ونرسل رسائل روحية إلى كل واحد منكم ـ نحن ما نزال نضع أيدينا على الصخرة. ...لقد تعلمنا أن العنف لا يجلب إلا العنف ، ولذلك فقد قمنا باحتلالنا للجزيرة بطريقة سلمية ، ونتمنى أن تحنو حكومة هذه الولايات المتحدة حنونا... . نحن شعب ذو كبرياء! نحن هنود! رفضنا كثيراً مما يُسمى ثمار الحضارة. نحن هنود! سنحافظ على تراثنا وطريقتنا فى العيش عن طريق تعليم أطفالنا... فأمنا الأرض تنتظر أصواتنا.

وبعد ستة أشهر، احتلت قوات فيدرالية الجزيرة وأزاحت الهنود منها تماماً.

كانت الحكومة الأمريكية قد اعتقدت أن هنود نافاجو لن يصدر عنهم صوت بعد ما حدث لهم فى منتصف القرن الثامن عشر ، عندما قامت قوات الحكومة، تحت قيادة كيت كارسون بإشعال النار فى قراهم وهدم محاصيلهم وبساتينهم ، وأزاحتهم عن أرضهم. ولكن من بقى من هؤلاء فى نيو مكسيكو لم يستسلموا. ففى أواخر الستينيات،

بدأت شركة بيبودى فى تجريف أراضى هنود نافاجو بحثاً عن الفحم ، تحت زعم أنها وقعت "عقوداً" مع البعض منهم. وكان هذا الأمر شبيهاً بمسألة "المعاهدات" الموقعة مع الهنود ، والتى فقدوا أراضيهم بسببها. وقد اجتمع مائة وخمسون من هنود نافاجو فى ربيع عام ١٩٦٩ ليعلنوا أن ما تقوم به الشركة المذكورة من شأنه أن يلوث الماء والهواء ، ويفسد حياة الحيوانات ، ويستنفذ الموارد المائية الطبيعية. وقالت عجوز هندية من منظمى الاجتماع: "إن وحوش بيبودى يحفرون قلب أمنا الأرض وجبلنا المقدس، ونحن نشعر بالألم... لقد عشت هنا لسنوات ولا أنوى أن أغادر هذا المكان."

وفى خريف عام ١٩٧٠، خرجت مجلة عنوانها "لا رازا" La Raza وهى واحدة من المجلات التى خرجت من معطف الحركات الهندية ، ولكن تم تجاهلها من قِبل وسائل الإعلام. تناولت المجلة حياة الهنود الذين يعيشون على نهر بيت بشمالى كاليفورنيا ، حيث قام ستون من هؤلاء باحتلال أرض قالوا إنها أرضهم. ، وقد طالب هؤلاء الهنود الحكومة أن تثبت لهم صحة زعمها بملكية الأرض. لكن الحكومة لم تقدم أيّة وثيقة. ولجأ هؤلاء الهنود إلى قانون فيدرالى يقول بأنه فى حالة وقوع نزاع بين أبيض وهندى على أرض، "يقع عبء الإثبات وتقديم الأدلة على الرجل الأبيض."

قام الهنود ببناء كوخ متنقل لكن السلطات قالت إنه كوخ قبيح وقامت بتحطيمه. وقد كتب داريل ويلسون فيما بعد:

> **العالم كله يتعفن ، والماء يتسمم ، والهواء يتلوث، والسياسة تتشوه ، والأرض تَخْرُجُ أحشاؤها والغابات تتعرض للنهب والضفاف تتحطم والمدن تحترق وحياة الناس تتعرض للتدمير والفيدراليون قضوا شهر أكتوبر فى القول لنا بأن الكوخ الذى بنيناه "قبيح"! لكنه كان جميلاً بالنسبة لنا. كان بداية مدرستنا ومكانا لاجتماعاتنا وبيتاً لمن لا بيت له. كان ملاذاً لمن يبحثون عن الراحة. كان كنيسة لنا... كان رمز اقترابنا من الحرية. وما يزال كذلك. كان هذا الكوخ أيضاً مركزاً لإحياء وتجميع ثقافتنا التى**

نويها الرجل الأبيض. كان بدايتنا وكان شمسنا المشرقة فى يوم ربيعى لا غيوم فيه. وكان شيئاً طيباً يسر القلب... .

وجاء إلى المكان مائة وخمسون من رجال البوليس ومعهم الأسلحة والبنادق والكلاب والسلاسل. "وفزع الشيوخ والعجائز وتحدى الشباب فى شجاعة أما الأطفال فقد كانوا كغزالة تترنح. وخفقت القلوب بسرعة كأن سباقاً قد بدأ فى حرارة الصيف." لوح رجال البوليس بعصيهم فى الهواء ، ثم بدأت الدماء تسيل. أمسك ويلسون بعصا أحد رجال البوليس، فوُضِعَ فى القيود وتعرض للضرب على رأسه ووجهه. وتعرض هندى فى السادسة والستين للضرب حتى سقط فاقداً وعيه. وقُبض على صحفى أبيض وتعرضت زوجته للضرب. وأُلقى بالجميع فى عربات البوليس ووجهت إليهم تهمة التعدى على مسئولى الولاية وعلى المسئولين الفيدراليين ، وتهمة تقطيع الأشجار. ولما انتهت هذه المسألة، لم يعرف هؤلاء الهنود الاستسلام.

وبدأ الهنود يفعلون شيئاً بشأن تعرضهم للتدمير وتعرض ثقافتهم للإبادة. ففى عام ١٩٦٩ وفى أثناء "الاجتماع الأول للباحثين الهنود الأمريكيين"، تكلم الهنود بسخط شديد عن تجاهل الهنود والإساءة إليهم فى الكتب المدرسية التى يدرسها الأطفال فى كل أرجاء البلاد. وفى ذلك العام أيضاً تأسست دار نشر خاصة بالتاريخ الهندى قامت بتقييم أربعمائة كتاب من التى يدرسها التلاميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية ، ووجدوا أن كتاباً واحداً منهم لم يقدم صورة دقيقة عن الهنود.

وبدأ هجوم مضاد فى المدارس. ففى أوائل عام ١٩٧١، كتب خمسة وأربعون طالباً هندياً من مدرسة كوبر فالى فى جلينالين بألاسكا ، خطاباً إلى نائب الكونجرس عن ولايتهم يعارضون فيه مد خط أنابيب للبترول عبر ألاسكا وقالوا إنه يهدد البيئة "والهدوء والسلام والأمن فى ألاسكا." وبدأ أمريكيون آخرون يعيدون النظر فى تعليمهم. وكان أول فيلم رسوم متحركة يصحح تاريخ الهنود قد ظهر تحت عنوان الرجل الكبير الصغير Little Big Man عن رواية كتبها توماس بيزجر. وظهرت كتب كثيرة تتناول تاريخ الهنود حتى صار هناك أدب جديد بشأن هذه المسألة. وصار عند المدرسين

حساسية ضد الصور النمطية ، حيث تخلصوا من الكتب المدرسية القديمة وبدءوا يستخدمون مادة جديدة. وفى ربيع عام ١٩٧٧ تحدثت مُدرسة بالمدارس الابتدائية بمدينة نيويورك وتُدعى جين كاليف Califf عن تجاربها مع تلاميذ الفرقتين الرابعة والخامسة. فقد أحضرت كتب المدارس التقليدية وطلبت من التلاميذ تحديد الصور النمطية فيها. وقرأت لهم اقتباسات لكتاب هنود وأجزاء من مجلة Akwesasne Notes وقامت بتعليق ملصقات تحتج على الصور النمطية فوق جدران الفصل. وبدأ التلاميذ يكتبون خطابات إلى محررى الكتب التى تحوى الصور النمطية يبدون فيها اعتراضهم على ذلك. كتب أحدهم:

عزيزى المحرر

لم أحب كتابك الذى يحمل عنوان الطواف البحرى لكريستوفر كولومبس The Cruise of Christopher Columbus لأنك ذكرت أشياء عن الهنود ليست صحيحة... كذلك لم أحب ما ذكرته فى الصفحة ٦٩ من أن كولومبس قام بدعوة الهنود إلى أسبانيا. فالذى حدث فى الحقيقة هو أنه قام بسرقتهم ونقلهم إلى أسبانيا. (المخلص: ريموند ميراندا)

فى يوم عيد الشكر لعام ١٩٧٠، وفى الاحتفال السنوى لمجىء الحجاج البيوريتانيين، قررت السلطات أن تفعل شيئاً مختلفاً. فقامت بدعوة هندى ليلقى خطبة الاحتفال. وقد جدوا هندياً من قبيلة وامبانوج ويُدعى فرانك جيمس وطلبوا منه أن يلقى تلك الخطبة. لكنهم عندما رأوها عدلوا عن رأيهم. جاء فى تلك الخطبة التى لم تُلق فى بلايماوث بولاية ماساتشوستس فى تلك المناسبة (النص الكامل للخطبة موجود فى حوليات الاحتجاج الأمريكى الهندى Chronicles of American Indian History) :

أتحدث إليكم بوصفى رجلاً من قبيلة وامبانوج... أقف هنا بمشاعر مختلطة كى أشارككم بعض أفكارى... لم يكد الحجاج يكتشفون شواطئ كيب كود حتى قاموا بسرقة قبور أجدادى

وسرقوا محاصيلهم من القمح والذُرة والفاصوليا... . ترفض أرواحنا أن تموت. لقد مشينا بالأمس عبر الطرق الرملية والغابات. واليوم علينا أن نسير على الطرق المرصوفة والطرق السريعة. إننا نتحد بعضنا مع بعض الآن ولسنا نقف فى أكواخنا هذه المرة بل نقف فى خيامكم الخرسانية. نحن نقف فى كبرياء. ولن تبزغ أقمار كثيرة حتى نكون قد صححنا الأخطاء التى سمحنا بوقوعها... .

بالنسبة للهنود، لم يكن هناك خط واضح يفصل بين لغة النثر ولغة الشعر. عندما أثنى الحاضرون على شعر طالب هندى يدرس فى نيو مكسيكو، قال لهم: "ليس فى قبيلتنا شعراء. فكل الناس يتكلمون شعراً." ومع ذلك فهناك "قصائد" جمعت فى كتابين شهيرين: الأول جمعه وليام براندون **Brandon** تحت عنوان **آخر الأمريكيين The Last Americans** والآخر جمعته شيرلى هيل ويت **Shirley Hill Witt** وستان ستاينر **Stan Steiner** تحت عنوان (الطريق) **The Way**. ففى قصيدة تنتمى لقبيلة أشينابى **Ashi-nabe**وترجمها جيرالد فيزنيور وعنوانها قصيدة الربيع:

بينما تتطلع عيونى

عبر البرارى

أشعر بأن الصيف

قد جاء فى الربيع.

وفى قصيدة "الثلج" لجوزيف كونشا:

الثلج يأتى فى النهاية

كى يُهدِّئ كل شىء.

والسطور التالية كتبها عدد من تلاميذ الفرقة الخامسة فى برنامج خاص بهنود نافاجو **Navajo** فى عام ١٩٤٠, عنوان القصيدة "ليست كذلك!":

هل محمية نافاجو مكان موحش؟

لا ليست كذلك

فالسماء مشمسة

وزرقاء صافية

أو رمادية تنبئ بالمطر.

كل يوم مبهج

على طريقة الطبيعة

إنها ليست مكاناً موحشاً على الإطلاق.

هل بيوت نافاجو رثة وصغيرة؟

لا ليست كذلك

ففي داخلها الحب

والضحك الطيب

وحديث كبير

والأجمل من ذلك

أنها بيوت

مفتحة الأبواب

ودائماً تسع الجميع.

فهل بالقلعة شيء أكثر من هذا؟

وفى مارس من عام ١٩٧٣، جاء تأكيد قوى بأن الهنود فى أمريكا الشمالية لم يموتوا ولم تمت أصواتهم. ففى موقع مذبحة ١٨٩٠ فى محمية باين ريدج، عاد عدة مئات من هنود أوجلالا سيو Oglala Sioux وأصدقاء لهم إلى قرية "وونديد نى" كى يحتلوها بوصفها رمزاً لمطالبة الهنود بأرضهم وحقوقهم. أما تاريخ هذا الحدث وكلمات المشاركين فيه فقد سجلها كتاب نادر عنوانه **أصوات من وونديد نى** Voices from Wounded Knee (1973).

وفى السبعينيات، كان ٥٤٪ من ذكور محمية باين ريدج يعانون من البطالة ، وكان ثلث العائلات يستفيدون من برامج الرعاية الاجتماعية ، وانتشر تعاطى المشروبات الكحولية بين الهنود ، وارتفعت نسبة الانتحار فيما بينهم. وكان متوسط عمر هنود قبيلة أوجلالا سيو ٤٦ عاماً. وقبل عملية احتلال "وونديد نى" كان العنف يملأ مدينة كاستر Custer حيث قُتل هندى يُدعى ويسلى باد هارت بوْل Wesley Bad Heart Bull على يدى رجل أبيض يعمل بمحطة للوقود. وأُطلق سراح القاتل مقابل غرامة قدرها خمسة آلاف دولار مع اتهامه بارتكاب جريمة قد يواجه عنها حكماً بالسجن لعشر سنوات. واحتج جمع من الهنود على ذلك مما أدى إلى وقوع صدام بينهم وبين رجال البوليس. وقُبض على أم القتيل ووجهت لها اتهامات تصل العقوبة عنها إلى ثلاثين عاماً سجناً.

فى ٢٧ فبراير من عام ١٩٧٣ قام حوالى ثلاثمائة من هنود أوجلالا سيو، كثير منهم كانوا أعضاء فى التنظيم المسلح المسمى "الحركة الأمريكية الهندية"، بدخول قرية وونديد نى وأعلنوها منطقة محررة. وبعد ساعات قام أكثر من مائتين من وكلاء مكتب التحقيق الفيدرالى والبوليس الفيدرالى وبوليس مكتب الشئون الهندية بمحاصرة القرية ، وكانت معهم المركبات المصفحة والأسلحة وقنابل الغاز المسيل للدموع. وبعد قليل بدأوا فى إطلاق النيران. بعد ثلاثة أسابيع قالت جلاديس بيسونيت:

> **منذ أن جئنا هنا ونحن نتعرض لطلقات الرصاص مرات ومرات ، ودائماً بعد أن يحل الظلام. ولكن ليلة أمس كانت الأصعب. وأعتقد أن الروح العظمى كانت معنا فلم تصب.**

الطلقات أجسامنا... سنبقى على موقفنا هنا حتى تصير أمتنا، أمة هنود أوجلالا سيو، أمة مستقلة ذات سيادة.

وبعد بداية الحصار، بدأت المؤن الغذائية تشح. فأرسل الهنود فى ميتشجان غذاء عن طريق طائرة هبطت وسط معسكر الهنود المتمركزين فى القرية. وفى اليوم التالى ألقى أفراد مكتب التحقيق الفيدرالى القبض على الطيار وعلى طبيب من ميتشجان كان هو الذى استأجر الطائرة. وفى نيفادا، أُلقى القبض على أحد عشر هندياً قاموا بنقل غذاء وأدوية وملابس إلى داكوتا الجنوبية. وفى منتصف إبريل قامت طائرات بإسقاط ١.٢٠٠ رطلٍ من الطعام على معسكر الهنود بالقرية. وعندما تجمع الناس لجمع الطعام، ظهرت فوقهم مروحية حكومية وأطلقت بعض النار عليهم. وأُصيب هندى يُدعى فرانك كليرووتر ومات بالمستشفى. أما زوجته التى رافقته إلى المستشفى فقد أُلقى القبض عليها وأودعت السجن. وقُتل هندى آخر وفى النهاية وقع الجانبان اتفاق سلام وافق فيه الطرفان على إلقاء السلاح (كان الهنود قد رفضوا إلقاء السلاح فى الوقت الذى يحاصرهم فيه رجال مسلحون الأمر الذى يعيد للأذهان مذبحة ١٨٩٠). ووعدت الحكومة الأمريكية بالتحقيق فى الشئون الهندية ووعدت بأن تقوم لجنة رئاسية بإعادة النظر فى معاهدة عام ١٨٦٨ وانتهى الحصار وقُبض على الهنود (١٢٠ فرداً) الذين كانوا يحتلون القرية. ثم قالت الحكومة الأمريكية إنها أعادت النظر فى المعاهدة ووجدت أنها سليمة ، ولكن هناك حق للحكومة فى ما يعرف باسم **eminent domain** أى الحق فى مصادرة الملكية الخاصة إذا رأت ذلك ضرورياً.

كان الهنود قد صمدوا لواحد وسبعين يوماً ، وخلقوا مجتمعاً رائعاً داخل الأراضى المحاصرة، حيث أقاموا مطابخ جماعية وعيادة ومستشفى. وقد قال أحد الهنود الذين كانوا قد شاركوا فى حرب فيتنام:

الناس باقون هنا رغم نفاد أسلحتهم ؛ لأنهم يؤمنون أن لهم قضية. لقد خسرنا الحرب فى فيتنام لأنه لم تكن هناك قضية.

كنا نحارب لمصلحة الأثرياء... أما فى ووندید نى فإن روحنا المعنوية مرتفعة جداً لأننا ما نزال قادرين على الضحك.

وجاءت رسائل دعم إلى الهنود فى ووندید نى من أستراليا وفنلندا وألمانيا واليابان وإنجلترا. وجاءت رسالة من سجناء أتيكا كان اثنان منهم من الهنود. جاء فيها: "أنتم تحاربون من أجل أمنا الأرض وأطفالها. أرواحنا تحارب معكم!" ورد والاس بلاك إيلك: "لقد تحولت ووندید نى الصغيرة إلى عالم كبير."

ورغم ما حدث فى ووندید نى، ورغم الموت والمحاكمات ولجوء الحكومة إلى البوليس والمحاكم للقضاء عليها، استمرت حركة الهنود فى كفاحها.

واستمرت مجلة "Akwesasne Notes" فى الصدور وعلى صفحاتها المخصصة للشعر ظهرت قصائد فى أواخر خريف عام ١٩٧٦ تعبر عن روح ذلك الوقت. كتبت الشاعرة إيلا أبيرناثى Ila Abernathy فى إحدى القصائد:

أنا العشب النامى ومجز العشب أنا

أنا الصفصافة وقاطعة الشرائح الخشبية

أنا الناسجة والمنسوج

زواج الصفصافة والعشب أنا.

أنا الصقيع على الأرض وحياة الأرض أنا

أنا النَفَس والحيوان والصخرة الحادة تحت الأقدام

يسكن فيَّ الجبل وفيَّ تخفق البومة بجناحيها

يعيشان فىَّ وأعيش فيهما.

أنا توأم الشمس

ومحركة الدماء فى الجسد

وأنا الدم المراق

أنا الغزالة وموت الغزالة أنا

أنا الشوكة فى ضمائركم

فاعترفوا بى

واقبلونى

واشكرونى.

فى الستينيات والسبعينيات، لم يقتصر الأمر على الحركة النسائية أو حركة السجناء أو حركة الهنود. كانت هناك ثورة عامة ضد طريقة العيش القمعية والصناعية التى كانت تُقبل كما هى دون نقاش. وقد أثرت هذه الثورة على كافة مناحى الحياة الشخصية مثل ولادة الأطفال وتربيتهم والحب والجنس والزواج والملبس والموسيقى والفن والرياضة واللغة والطعام والسكن والدين والأدب والموت والتعليم.

وقد تسبب هذا المزاج الجديد أو السلوك الجديد فى صدمة كثير من الأمريكيين ، وخلق توترات كبيرة ، وكان أحياناً يُنظر إلى هذه التوترات بوصفها نتيجة لما سمى "فجوة الأجيال" حيث يبتعد الجيل الجديد من الشباب بعيداً بعيداً عن الجيل الأقدم وطريقته فى الحياة. ولكن بعد فترة لم تكن طويلة، ظهر أن المسألة لم تكن مسألة سن، فقد بقى شباب كثيرون "مستقيمين" بينما كان كثير من الكبار يغيرون من طريقة عيشهم ، بل بدأ كثير من الشيوخ والعجائز يتصرفون بطريقة أذهلت الآخرين!

كذلك مر السلوك الجنسى بتغيرات مذهلة. فلم يعد هناك سرية بشأن الجنس فى مرحلة ما قبل الزواج. وعاش رجال ونساء معاً خارج مؤسسة الزواج ، وحاول كل طرف أن يبحث عن كلمة مناسبة يقدم بها شريك حياته: "أقدم لك... صديقى/صديقتى." وتحدث المتزوجون فى صراحة عن شئونهم ، وظهرت كتب كثيرة تتناول "الزواج المفتوح" ، وصار الحديث عن أمور مثل العادة السرية صريحاً بل مقبولاً. ولم يعد هناك تكتم حول الشذوذ الجنسى. بل بدأ الشواذ جنسياً ـ من الرجال

والنساء - فى التنظيم من أجل محاربة التمييز الذى يتعرضون له ، ولكى يمنحوا أنفسهم إحساساً بالجماعة ويتغلبوا على الإحساس بالخجل والعزلة والوحدة.

وقد انعكس كل ذلك فى الأدب وفى وسائل الإعلام ، ونقضت قرارات المحاكم قوانين حظر الكتب الإيروتيكية أو حتى الإباحية. وظهر أدب جديد (من أشهره كتاب **بهجة الجنس** The Joy of Sex) يعلم الرجال والنساء كيفية تحقيق الإشباع الجنسى. ولم تتردد الأفلام السينمائية فى عرض مشاهد عارية رغم أن صناعة السينما، التى أرادت أن تحافظ على المبادئ حفاظها على الربح، وضعت نظاماً لتصنيف الأفلام وتحديد ما يصلح للكبار أو ما لا يصلح للأطفال وهكذا. وصارت لغة الجنس أكثر شيوعاً ، سواء فى النصوص الأدبية أو فى لغة الحوار بين الناس.

وارتبط كل هذا بترتيبات معيشية جديدة. انتشرت طرق عيش جماعية بين الشباب كانت تشبه الكميونات الحقيقية حيث كانت تقوم على المشاركة فى الأموال والقرارات والإيجار مما خلق نوعاً من الحميمية والثقة بين المشاركين. ولم يعد من غير العادى أن يشترك الرجال والنساء فى غرف ، أو أن يعيشوا جماعات من اثنين أو ثلاثة أو أكثر، دون وجود علاقة جنسية، كطريقة عملية للمعيشة.

وكان أهم شئ يتعلق بالملبس، فى التغيير الثقافى الذى حدث فى الستينيات، هو الاتجاه نحو اللارسمية. فبالنسبة للنساء، كان هذا استمراراً لإصرار الحركة النسائية التاريخى بالتخلى عن الملبس "النسائى" بقيوده المعروفة. فتوقفت نساء كثيرات عن ارتداء مشدات الصدور. وصار الكورسيه، الذى كان يشبه الزى الموحد بين النساء فى الأربعينيات والخمسينيات، نادر الاستعمال. وارتدى الشباب والشابات ملابس متشابهة سواء كانت ملابس الجينز أو مخلفات الملابس العسكرية. وتوقف الرجال عن استخدام رابطات العنق وارتدت النساء من كافة الأعمار البنطلونات.

وظهرت موسيقى شعبية جديدة تتسم بالاحتجاج. كان بيتى سيجر يغنى أغانى الاحتجاج منذ الأربعينيات، لكنه الآن صار يتمتع بجماهيرية كبيرة. وصار كل من بوب ديلان وجوان بايز من معبودى الجماهير ؛ لأغانيهما التى كانت تحمل روح الثقافة

الجديدة. وكانت هناك مالفينا رينولدز التى كانت تكتب وتغنى أغانى تحمل روح تفكيرها الاشتراكى. وكان بوب ديلان ظاهرة فى حد ذاته بأغانيه القوية عن الاحتجاج والثورة وبأغانيه الشخصية عن الحرية ، خاصة حرية التعبير عن الذات. فى أغنية غاضبة عنوانها "سادة الحرب" **Masters of War** يتمنى أن يموت هؤلاء السادة يوما ما ، ويقول إنه سوف يمشى فى جنازتهم "فى عصر يوم شاحب." وتروى أغنيته "سيسقط مطر شديد" **A Hard Rain's A-Gonna Fall** الأحداث الفظيعة للسنوات السابقة من الموت جوعاً والحرب والدموع والمياه المسممة والنفايات والسجون القذرة. وغنى ديلان أغنية مناهضة للحرب فى فيتنام هى "الرب يقف إلى جوارنا" **With God on Our Side** وأغنية أخرى عن قاتل الناشط الأسود ميدجر إيفرز **Medgar Evers** . كان فى أغانيه، بصفة عامة، يمثل التحدى للقديم والأمل فى الجديد .

كان الغضب الكاثوليكى ضد الحرب فى فيتنام جزءاً من ثورة عامة داخل الكنيسة الكاثوليكية التى ظلت لوقت طويل رمزاً للمحافظة والعنصرية والشوفينية والحرب. وقد استقال كثير من القساوسة والراهبات من الكنيسة وانفتحوا على الحياة العامة وتزوجوا وصار لهم أطفال. صحيح أنه كان ما يزال هناك شعبية ضخمة للإحيائيين الدينيين ، وصحيح أن رجلاً مثل بيلى جراهام كان لا يزال يستحوذ على إعجاب الملايين وطاعتهم، ولكن صار هناك تيارات صغيرة سريعة تعارض الثقافة السائدة.

ومع ضياع الثقة فى القوى الكبرى - البيزنس والحكومة والدين - برز إيمان أقوى بالذات ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى. وبدأ الناس ينظرون إلى "الخبراء" فى كل المجالات بشك كبير ، وزاد الاعتقاد بأن الناس يستطيعون أن يحددوا لأنفسهم ماذا يأكلون وكيف يعيشون حياة صحية. كما صار هناك شك كبير فى الصناعة الدوائية ، وقامت حملات إعلامية ضد المواد الكيماوية الحافظة للطعام ، والغذاء معدوم الفائدة وضد الإعلانات ، عن السلع. ومع الأدلة العلمية على مخاطر التدخين كالسرطان وأمراض القلب، اضطرت الحكومة أن تحظر الإعلان عن السجائر فى التليفزيون والصحف.

كذلك بدأت إعادة النظر فى التعليم التقليدى ، فقد قامت المدارس بتعليم أجيال كاملة قيم الوطنية وطاعة السلطات ، مما أدى إلى جهل كبير لدى الأمريكيين جعلهم يحتقرون الشعوب والأجناس الأخرى. ولم تقتصر المراجعة على محتوى التعليم ولكنها شملت الأسلوب نفسه - أى الرسمية والبيروقراطية والإصرار على الإذعان والتبعية للسلطات. ولم يكن هذا إلا ثقباً صغيراً فى جدار النظام الوطنى للتعليم التقليدى. لكن الروح الجديدة انعكست على جيل جديد من المدرسين فى كافة أرجاء البلاد ، وفى الكتب والمواد الجديدة التى دعمتهم فى تحدى نظام التعليم التقليدى.

لم يحدث فى التاريخ الأمريكى أن قامت حركات للتغيير بهذه الكثرة وفى عدد قليل من السنوات. لكن النظام الحاكم على مدار قرنين من الزمان (منذ الاستقلال) كان قد تعلم الكثير والكثير عن كيفية إحكام قبضة السيطرة على الناس. ومن ثم، فقد عاد النظام فى منتصف السبعينيات إلى استئناف عمله القديم.

الفصل العشرون

السبعينيات

فى مطلع السبعينيات، بدا واضحاً أن النظام يفقد السيطرة ، وظهر عدم قدرته على الاحتفاظ بولاء الشعب وثقته . ففى مستهل عام ١٩٧٠، ورجوعاً إلى ما أظهره مركز الأبحاث التابع لجامعة ميتشيجان، كانت الثقة فى الحكومة متدنية لدى كل مستويات الشعب وإن كانت تختلف من طبقة لأخرى. فبالنسبة للطبقة المثقفة أظهر ٤٠٪ منهم تدنى ثقتهم السياسية فى الحكومة ، أما بالنسبة للطبقة العاملة فالنسبة كانت أكبر حيث وصلت إلى ٦٦٪.

وبالنسبة لاستطلاعات الرأى العام التى تمت فى عام ١٩٧١ (بعد سبع سنوات من التدخل فى فيتنام) فقد أظهرت رفض التدخل لمساعدة أيّة دولة أجنبية فى حالة مهاجمتها من القوات الموالية للنظام الشيوعى. حتى بالنسبة للبلدان الحليفة للولايات المتحدة فى حلف شمال الأطلنطى أو المكسيك على الحدود الجنوبية كان الرأى العام الأغلب هو عدم المشاركة مع القوات الأمريكية. ووافق ١٢٪ فقط من البيض ممن أُخذت آراؤهم على إرسال قوات للدفاع عن تايلاند لو تعرضت لأى تهديد شيوعى ، والنسبة كانت أكثر بالنسبة للملونين حيث وصلت إلى ٤٤٪.

وقد تجمهر عدد من دعاة السلام فى صيف عام ١٩٧٢ فى بوسطن أمام شركة هانى ويل للاحتجاج على قيام الشركة بإنتاج أسلحة مضادة للأفراد لاستخدامها فى فيتنام ، مثل القنابل العنقودية التى أمطرت الفيتناميين المدنيين بكرات من القذائف

الميتة والمشوّهة. وعلى أثر ذلك تم توزيع ستمائة ورقة اقتراع على العاملين فى شركة "هانى ويل" لمعرفة قبولهم أو رفضهم لاستمرار الشركة فى إنتاج هذه الأسلحة.

وتمت إعادة ٢٣١ ورقة اقتراع فقط من الستمائة ورقة، حيث وافق ١٣١ على توقف الشركة عن إنتاج هذه الأسلحة ورأى الباقون أن على الشركة الاستمرار فى إنتاجها. كان رأى المؤيدين للفكرة يرتكز على أن الشركة ليس لديها دخل فى ما تقوم به وزارة الدفاع بالأسلحة التى تشتريها منها، وكانت وجهة نظر المعترضين هى "كيف نشعر بالفخر ونحن نعلم أن عملنا مرتكز على مبدأ لا أخلاقى؟!"

وقام مركز الأبحاث التابع لجامعة ميتشيجان فى عام ١٩٦٤ بطرح السؤال التالى: هل ما تقوم به الحكومة يتم بدافع تحقيق مصالح شخصية لها؟ الجواب كان "نعم" بنسبة ٢٦٪ ممن قاموا بالاقتراع أما عندما أعيد طرح السؤال عام ١٩٧٢، كانت نسبة "نعم" ٥٣٪.

وفى مقالة للكاتب آرثر ميللر فى مجلة "أمريكان بوليتيكال ساينس" عن الاستفتاءات المكثفة التى قام بها مركز أبحاث جامعة ميتشيجان، قال إن الاستفتاءات أظهرت استياءً واسع المدى ، ونفوراً سياسياً عاماً وأضاف قائلاً: "إن الشىء المروع هو درجة التغير الكبيرة فى الاتجاهات خلال فترة السنوات الست الماضية."

وقد رفض كثير من الناخبين أكثر من أيّة فترة سابقة تحديد ما إذا كانوا جمهوريين أو ديمقراطيين، وكانت نسبة من كانوا يطلقون على أنفسهم "مستقلين" فى عام ١٩٤٠ عشرين بالمائة ولكن فى عام ١٩٧٤ زادت النسبة إلى أربعة وثلاثين بالمائة.

حتى المحاكم والقضاة والمحلفون لم يعودوا يتصرفون كالمعتاد، فقد قام المحلفون بتبرئة الثوريين الراديكاليين. وحتى أنجيلا ديفيز المعروف عنها انضمامها للمعسكر الشيوعى تمت تبرئتها فى الساحل الغربى. بل تم إطلاق سراح أفراد جماعة "بلاك بانثر" **Black Panther** (الفهد الأسود) الذين كانت الحكومة تحاول أن تلفق لهم التهم فى محاولة للقضاء عليهم. ويذكر أن أحد القضاة رفض دعوى ضد سام لفجوى **Lovejoy**

أحد الثوريين الذى أطاح ببرج بلغ ارتفاعه ٥٠٠ قدماً (وكان قد شُيد لإنشاء مصنع نووى فى واشنطن دى سى عام ١٩٧٣) ، ورفضت المحكمة الدستورية العليا الحكم على ستة أشخاص دخلوا البلاد بطرق غير مشروعة فى سبيل الوصول إلى البيت الأبيض للاحتجاج على إلقاء قنبلة على كمبوديا.

ومما لا شك فيه أن هذا الإحساس الوطنى بالعداء للحكومة ظهر من بعد حرب فيتنام، فقد خلفت هذه الحرب ٥٥,٠٠٠ قتيلٍ أمريكيّ، فضلا عن الخزى الأخلاقى مما حدث ومما قامت به الحكومة من أكاذيب وأعمال وحشية، وعلى رأس كل ذلك جاء الاحتقار السياسى لحكومة نيكسون ، خاصة بعد فضيحة ووترجيت التى انتهت بالاستقالة التاريخية للرئيس نيكسون ، وكانت الأولى فى تاريخ أمريكا فى أغسطس عام ١٩٧٤ .

وقعت تفاصيل هذه الفضيحة فى أثناء الحملة الانتخابية فى يونيو عام ١٩٧٢، عندما تم القبض على خمسة لصوص معهم أدوات تصوير وتنصت وهم يتسللون لمكتب من مكاتب اللجنة الوطنية الديمقراطية فى مجمع ووترجيت فى واشنطن دى سى ، وقد كان أحد المتسللين جيمس ماكورد **James McCord** أحد المسئولين فى حملة نيكسون الانتخابية ، ووجد مع آخر أجندة تليفونات مدون فيها اسم هاورد هانت **Howard Hunt** وعنوانه البيت الأبيض ، وقد كان هانت مساعداً لشارلز كولسون الذى يعتبر من أهم مستشارى الرئيس نيكسون!

كان كل من هانت وماكورد يعملان لفترة طويلة فى المخابرات المركزية الأمريكية. وبالنسبة لهانت، كان هو المسئول عن غزو كوبا فى عام ١٩٦١، أما ماكورد فقد كان يعمل مسئول أمن للجنة المسئولة عن إعادة انتخاب الرئيس نيكسون ، وكان يعمل أيضا مع النائب العام للولايات المتحدة جون ميتشيل ، وكان الثلاثة الآخرون من الجنود المشاركين فى غزو كوبا.

وهكذا، وبسبب القبض غير المتوقع من قبل الشرطة على هؤلاء اللصوص وعدم معرفة الشرطة بمكانتهم وصلاتهم فى المجتمع، تسربت الأنباء إلى العامة قبل أن

يستطيع أحد منهم فعل أى شىء ، وتم ربط هذه السرقة بشخصيات رسمية من داخل لجنة حملة انتخابات نيكسون وبالمخابرات المركزية أيضا. وكذلك جون ميتشيل النائب العام الذى رفض أن تكون له أيّة صلة بحادثة السطو هذه، وقام نيكسون فى مؤتمر صحفى بعد خمسة أيام من حدوث السرقة بنفى أن تكون له صلة بما حدث وقال: "البيت الأبيض ليس له أى دخل بما حدث فى هذه الواقعة."

وفى السنة التالية وبعد محاكمة كبيرة، أدانت المحكمة المتسللين الخمسة ومعهم جى. جوردون ليدى وهاوارد هانت، وأوجد هذا نوعاً من الخوف والفزع داخل حكومة نيكسون لاحتمال تعرضهم للمحاكمة ، مما جعلهم يدلون بمعلومات أيضا للجنة التحقيق المنبثقة من مجلس الشيوخ وللصحافة. وهذه المعلومات مفادها أن الأمر لم يقتصر على جون ميتشيل فقط ، ولكنه شمل روبرت هولدمان وجون إلشمان أكبر مساعدى الرئيس نيكسون وأخيرا ريتشارد نيكسون نفسه. كل هؤلاء كانوا متورطين فى فضيحة ووترجيت. ليس ذلك فقط بل كانوا متورطين فى سلسلة من العمليات غير الشرعية ضد منافسى نيكسون السياسيين وضد ناشطى السلام، ولكن نيكسون استمر بعد كل ذلك فى الكذب ومحاولة التغطية على الحقائق.

ولكن الحقائق التالية ظهرت بعد عدد من الشهادات:

١ - كان النائب العام جون ميتشيل يتحكم فى وديعة سرية تقدر من ٣٥٠,٠٠٠ دولار إلى ٧٠٠,٠٠٠ دولار لاستخدامها ضد الحزب الديمقراطى ، ولتزييف الخطابات وتسريب أخبار خاطئة للصحافة ، وأيضا لسرقة ملفات الحملة الانتخابية.

٢ - قدمت مؤسسات - مثل شركة جالف أويل (بترول الخليج) وشركة التليفون والتلغراف (ITT) وشركة الخطوط الجوية الأمريكية وشركات أمريكية أخرى عملاقة - مساهمات غير مشروعة تقدر بملايين الدولارات لدعم حملة نيكسون الانتخابية.

٣ - فى سبتمبر من عام ١٩٧١ بعد نشر جريدة النيويورك تايمز للأوراق فائقة السرية التى عثر عليها دانيل إلسبيرج تحت عنوان أوراق البينتاجون **Pentagon Pa-**

pers، خططت الإدارة لأن يقوم هاوارد هانت وجوردون ليدى باقتحام مكتب الطبيب النفسى الخاص بإلسبيرج لسرقة ملفاته وتسجيلاته.

٤ - بعد إلقاء القبض على لصوص ووترجيت، تعهد نيكسون بضمان حصولهم على الرأفة لو تم الحكم عليهم بالسجن ، واقترح أيضا إعطاءهم حتى مليون دولار لضمان سكوتهم ، وبالفعل تم إعطاؤهم ٤٥٠,٠٠٠ دولار بناءً على أوامر إرليتشمان.

٥ - صرح باتريك جراى (مرشح نيكسون لرئاسة مكتب التحقيقات الفيدرالى بعد وفاة رئيسها جيه. إدجار هوفر) أنه سلم كل ملفات مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI المتعلقة بحادثة ووترجيت إلى جون دين المساعد القانونى لنيكسون ، وأن النائب العام ريتشارد كلايندينست الذى خلف ميتشيل (الذى كان قد أعلن استقالته ليتفرغ لحياته الخاصة) كان قد أمره بألا يناقش قضية ووترجيت مع اللجنة القضائية لمجلس الشيوخ.

٦ - اتُهم جون ميتشيل وموريس ستانز العضوان السابقان فى معسكر نيكسون بأخذ ٢٥٠,٠٠٠ دولار من ممول يدعى روبرت فيسكو لمساعدته فى بعض نشاطات شركته.

٧ - اتضح بعد فترة أن بعض المواد فقدت من ملفات مكتب التحقيقات الفيدرالى وأن هذه المواد عبارة عن سلسلة من شرائط تنصت غير شرعية أمر بها الرئيس وزير خارجيته هنرى كيسينجر ، وقد تم وضع هذه الشرائط على الهواتف الخاصة بأربعة صحفيين وثلاثة عشر مسئولاً فى الحكومة ، كانت فى الخزينة الخاصة بإرليتشمان مستشار الرئيس.

٨ - أخبر برنارد باركر أحد المتهمين الخمسة فى فضيحة ووترجيت لجنة مجلس الشيوخ أنه كان ضالعاً أيضا فى خطة للاعتداء البدنى على دانيل إلسبيرج فى أثناء إلقائه خطبة فى إحدى مسيرات مناهضة الحرب فى واشنطن.

٩ - شهد أحد نواب جهاز الاستخبارات المركزية بأن هولدمان وإرليتشمان أخبراه برغبة الرئيس نيكسون فى أن تطلب المخابرات من مكتب التحقيقات الفيدرالى عدم القيام بتحريات فى حادثة ووترجيت.

١٠ - بالصدفة البحتة، أبلغ أحد الشهود أن الرئيس نيكسون لديه شرائط لكل المكالمات الهاتفية والشخصية فى البيت الأبيض. فى البداية رفض نيكسون تسليم الشرائط ولكن عندما اضطر فى النهاية لتسليمها قام بمسح حوالى ثمانى عشرة دقيقة ونصف من أحد الشرائط.

١١ - وسط كل هذه الأحداث تم اتهام سبيرو أجنو نائب الرئيس بتقاضى رشاوى من المقاولين فى ميريلاند مقابل بعض الخدمات السياسية. فاستقال من منصبه فى أكتوبر ١٩٧٣ وعين نيكسون بدلا منه رجل الكونجرس جيرالد فورد.

١٢- استخدم نيكسون أكثر من عشرة ملايين دولار من أموال الحكومة فى بناء منازل خاصة له فى سان كليمنت وكى بيسكين. وقد حصل نيكسون على هذه الأموال بطرق غير مشروعة وبالاستعانة ببعض التزييف مثل تخفيض الضرائب على بعض أوراقه بمبلغ ٥٧٦,٠٠٠ دولار.

١٣- وتم كشف النقاب عن أنه خلال عامى ١٩٦٩ - ١٩٧٠، شاركت الولايات المتحدة فى إلقاء قنابل مكثفة سراً على كمبوديا وتم إخفاء ذلك عن الشعب الأمريكى وحتى عن الكونجرس.

كان الانهيار سريعاً ومفاجئاً. وفى الانتخابات الرئاسية فى نوفمبر عام ١٩٧٢ حصد نيكسون ونائبه ٦٠٪ من الأصوات ضد المرشح الذى كان يعتبر من أنصار السلام السناتور جورج ماكجفرن وخلال يونيو عام ١٩٧٣، أظهر استطلاع للرأى أن نسبة ٦٧٪ ممن قاموا بانتخاب نيكسون يرون أنه متورط فى فضيحة ووترجيت أو أنه كذب ليغطى على الفضيحة.

وفى خريف عام ١٩٧٣ تم تقديم ثمانية قرارات من قبل مجلس النواب لاتهام الرئيس نيكسون. وفى العام التالى تم رفع هذه التهم إلى المجلس لحجب الثقة عن الرئيس نيكسون ـ وقام مستشارو الرئيس بإبلاغه أن بموافقة ثلثى الأعضاء ستتم

الإطاحة به من البيت الأبيض. وعلى أثر ذلك قدم الرئيس نيكسون استقالته فى الثامن من أغسطس عام ١٩٧٤ .

ولكن قبل ستة شهور من استقالة نيكسون نشرت مجلة رجال الأعمال "دانز ريفيو" استطلاعا للرأى اشترك فيه ثلاثمائة من رؤساء الشركات التنفيذيين. فى عام ١٩٧٢ صوت كل هؤلاء تقريبا لصالح الرئيس نيكسون. ولكن أكثريتهم ترى الآن أنه لابد أن يقدم استقالته. "إن ٩٠٪ من العاملين بوول ستريت سوف يشعرون بالسعادة لو قدم نيكسون استقالته" هذا ما قاله نائب رئيس مؤسسة ميريل لينش Merrill Lynch وعندما قدم نيكسون استقالته بالفعل، حدث ارتياح كبير فى كل قطاعات المؤسسة.

"انتهى الكابوس الوطنى الطويل" هذا ما قاله جيرالد فورد عندما حل محل الرئيس نيكسون واحتفل الجميع بالنهاية الهادئة لفضيحة ووترجيت من لبراليين ومحافظين. واحتفلت الصحف سواء كانت مع الرئيس نيكسون أو ضده بالنهاية السلمية والهادئة لأزمة ووترجيت. أما بالنسبة للصحفيين من جريدة واشنطن بوست اللذين فجرا قضية ووترجيت (كارل بيرنستاين وبوب وودوارد) فقد قالا إنه برحيل نيكسون "يمكن أن يعود الحال إلى ما كان عليه." تم كل هذا فى جو من الارتياح والامتنان.

ولم تقل صحيفة أمريكية محترمة ما قاله كلود جوليان المحرر فى جريدة "لوموند ديبلوماتيك" فى سبتمبر عام ١٩٧٤: "على الرغم من التخلص من الرئيس نيكسون، فإن كل الآليات والقيم الخاطئة التى سمحت بوقوع فضيحة ووترجيت ظلت قائمة كما هى." وألمح جوليان إلى أن هنرى كيسينجر وزير الخارجية ما زال فى منصبه، أى أن السياسة الخارجية للرئيس نيكسون ستظل كما كانت وأضاف أيضا أن "واشنطن ستستمر فى دعم الجنرال بينوشيه فى شيلى والجنرال جيزيل فى البرازيل والجنرال ستروزنر فى بروجواى...الخ."

وفى غضون شهور بعد مقالة جوليان، نُشر أن الزعماء الديمقراطيين والجمهوريين فى البيت الأبيض قد أعطوا لنيكسون تأكيداً سرياً بأنه إذا ما استقال

من منصبه سيضمنون له عدم موافقتهم على أيّة إجراءات قانونية تتخذ ضده. وقال أحد أفراد هيئة المحلفين: "إننا جميعا نرتجف من المداولات العلنية التى استغرقت أسبوعيين لتوجيه الاتهامات للرئيس. إن شيئاً كهذا سوف يمزق الدولة ويضر بسياستها الخارجية." وقد اقتبست مقالات نيويورك تايمز التى كانت تنقل أمل وول ستريت باستقالة نيكسون قول أحد رجال الأعمال: "إن ما سيحدث بعد استقالة نيكسون هو استمرار نفس المسرحية و لكن بأبطال آخرين."

وعندما تم ترشيح جيرالد فورد أحد الجمهوريين المحافظين للرئاسة ، والذى يعتبر من مؤيدى سياسات نيكسون، تحدث لصالحه السيناتور الليبرالى فى ولاية كاليفورنيا ألان كرانستون قائلاً إنه التقى كثيراً من الديمقراطيين والجمهوريين ووجد أن هناك إجماعا مذهلا عليه. وعندما استقال نيكسون وتولى فورد الرئاسة، كتبت نيويورك تايمز: "من بعد الإحباط من فضيحة ووترجيت تظهر إدارة جديدة من القوة والتفرد للديمقراطية الأمريكية." وبعدها بأيام كتبت نفس الجريدة أن هناك "انتقالا هادئا للسلطة" استجلب معه "إحساسا بالراحة النفسية للشعب الأمريكى."

أما بالنسبة للاتهامات الموجهة ضد نيكسون، فقد بات واضحاً أن لجنة التحقيق أرادت عدم التطرق لمركبات سلوكه ، والتى يمكن أن يوجد مثلها فى الرؤساء السابقين أو الرؤساء القادمين. وتبين أنه بسبب صلات نيكسون وعلاقاته بالمؤسسات الكبرى والقوية، لم يتم ذكر إلقاء القنابل على كمبوديا، وتم التركيز فقط على موضوعات بعيدة عن نيكسون ، وليس على السياسات الأساسية المستمرة التى يشترك فيها جميع الرؤساء فى الداخل أو فى الخارج.

وكانت الكلمة النهائية: التخلص من نيكسون مع إبقاء النظام كما هو وفى أثناء قضية ووترجيت كتب تيودور سورينسين المستشار السابق للرئيس كينيدى: "إن السبب الرئيسى لسوء الإدارة فى تنفيذ القانون بدا واضحاً أن سببه الأساسى هو السلوك الشخصى للأفراد وليس النظام نفسه ولابد من حدوث تغيرات هيكلية، بحيث يتم التخلص من كل التفاح الفاسد. لابد من الحفاظ على السلة."

فى الحقيقة تم إنقاذ السلة، إذ لم تتغير سياسات نيكسون، كذلك العلاقات برجال الأعمال بقيت كما هى، والجدير بالذكر أن أقرب صديق للرئيس فورد فى واشنطن كان من أهم مجموعات الضغط . ألكسندر هيج أحد المستشارين المقربين لنيكسون و الذى ساعد فى فحص الشرائط قبل عرضها على العامة ، والذى قام أيضا بإعطاء معلومات غير صحيحة عن محتوى هذه الشرائط، هذا الرجل تم تعيينه من قبل الرئيس فورد ليكون رئيس القوات المسلحة فى حلف شمال الأطلنطى. كان من أوائل أفعال فورد هو تبرئة أو إيجاد عذر للرئيس السابق نيكسون لحمايته من أية محاكمة محتملة ، ولإعطائه فرصة للحصول على معاش مناسب فى كاليفورنيا.

وقد قامت المؤسسة بتنظيف نفسها من كل الأعضاء الذين انتهكوا قوانينها ، ولكن من غير أن تعاملهم معاملة قاسية. كان الحكم بالسجن على المدانين لفترات قصيرة جدا ، وتم إيداعهم المؤسسات الفيدرالية المريحة ، وتم إعطائهم أيضا مزايا خاصة جداً. فعلى سبيل المثال، قدم ريتشارد كلايندينست التماساً وبعدها حكم عليه بغرامة قدرها ١٠٠ دولار وبالسجن لمدة شهر مع إيقاف التنفيذ.

رحل نيكسون ولكن قوة الرئيس لفعل أى شىء ظلت كما هى تحت اسم "الأمن الداخلى" هذا ما تمت الإشارة إليه بقرار المحكمة الدستورية العليا فى يوليو عام ١٩٧٤ لقد أمرت المحكمة نيكسون بتسليم الشرائط إلى المدعى العام فى قضية ووترجيت، ولكن فى الوقت نفسه أكدت على السرية التامة ، والتى لن تكون فقط فى قضية نيكسون ولكن بوصفها أساساً عاماً عندما يقدم الرئيس مطالبه بحماية الأسرار الوطنية والأمنية سواء كانت أسراراً عسكرية أو دبلوماسية أو خاصة.

وفى أثناء لجنة الاستماع المصورة بمجلس الشيوخ وعند التطرق لموضوع الاتصالات بالمصالح المادية، توقفت الإذاعة. لقد كانت الجلسة نموذجاً لانتقاء مواضيع معينة لتغطيتها دون غيرها ، مثل الخدعة الخاصة بعملية السرقة وكيف تمت ، ولكن الممارسات المستمرة مثل مذبحة ماى لاى My Lai وإلقاء القنابل على كمبوديا سراً وعمل مكتب التحقيقات الفيدرالى والمخابرات المركزية فقد تناولتها الجلسة تناولاً عابراً.

وبالنسبة للحيل الخبيثة ضد حزب العمال الاشتراكى وتنظيم "بلاك بانثر" Black Panther (الفهد الأسود) والجماعات الراديكالية الأخرى، فلابد من البحث عن أخبارهم فى عدد قليل من الصحف والمجلات.

وكان واضحا أن للمصالح المادية تأثيراً كبيراً على البيت الأبيض ، وأنها جزء لا يتجزأ من السياسة الأمريكية. ومعظم أصحاب هذه المصالح على قدر كبير من الحكمة بحيث يظلون طول الوقت فى نطاق القانون وقد أخذوا فرصتهم تحت حكم نيكسون.

وقد أعلن أحد العاملين فى صناعة تعليب اللحوم أنه فى وقت فضيحة ووترجيت اقترب منه أحد الموظفين فى حملة نيكسون الانتخابية قائلاً: "إن ٢٥,٠٠٠ دولاراً مساهمة فى الحملة سوف تقابل بالتقدير ، ولكن ٥٠,٠٠٠ دولار ستمكنك من الحديث إلى الرئيس!"

كانت كثير من المؤسسات تساهم بالمال لكلا الجانبيين ، وذلك بهدف اكتساب أصدقاء فى حالة فوز أى من الحزبين. فعلى سبيل المثال، كانت شركة كرايزلر تدفع موظفيها لتقديم مساعدات مالية للمرشح الذى يرغبون فى ترشيحه ، ثم يقومون بعد ذلك بإعطاء الشيكات المجمعة للحزبين الديموقراطى والجمهورى. ومن أهم الشركات التى كانت تدعم الحزبين الشركة العالمية للتليفون والتلغراف ITT وفى عام ١٩٦٠ قامت بإعطاء مساهمة غير قانونية لبوبى بيكر أحد العاملين مع أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين. وقد استشهد أحد المساعدين لنائب رئيس شركة ITTبقوله: "هل سنقوم "بإطعام" كلا الجانبين حتى نكون فى موضع جيد إذا فاز أحدهما؟"

وفى عام ١٩٧٠ أبلغ أحد رؤساء ITT (وهو جون ماكون الذى رأس المخابرات المركزية يوماً ما) هنرى كيسينجر الذى كان وزيراً للخارجية فى ذلك الوقت وريتشارد هيلمز مدير المخابرات المركزية أن ITT على استعداد لدفع مبلغ مليون دولار لمساعدة الحكومة الأمريكية فى الإطاحة بحكومة ألليندى فى شيلى.

وفى عام ١٩٧١ خططت ITT للاندماج مع شركة هارتفورد للتأمين ضد الحريق - التى يقدر رأس مالها بمليار ونصف المليار دولار - وتعتبر هذه العملية من أكبر عمليات الاندماج فى تاريخ الأعمال ، وقد تحرك قسم مكافحة التكتلات الضخمة التابع لوزارة العدل لمقاضاة ITT لانتهاكها قانون مكافحة التكتلات ولكن لم يستطيعوا محاكمتها ، واستطاعت ITT الاندماج مع هارتفورد وتم إنهاء النزاع خارج المحاكم فى اتفاق سرى يجعل ITT تقوم بتبرع قدره ٤٠٠,٠٠٠ دولار للحزب الجمهورى!

واحدة من الفقرات التى لم تذكر فى قائمة الاتهامات ، والتى لم تذع فى أثناء لجنة الاستماع الفيدرالية هى تعاون الحكومة مع صُناع الألبان. ففى مستهل عام ١٩٧١ أعلن وزير الزراعة أن الحكومة لن تقوم برفع أسعار إعانات الألبان - التى تعتبر إعانة مالية ثابتة لكبار منتجى الألبان - الأمر الذى أدى إلى اجتماع اتحاد منتجى الألبان وقرروا جمع تبرعات لحملة نيكسون الانتخابية واجتمعوا كذلك فى البيت الأبيض مع الرئيس نيكسون ووزير الزراعة ، واتفقوا على دفع مبالغ أكثر، الأمر الذى جعل الوزير يعلن أن هناك "تحليلاً جديداً" يجعل من الضرورى زيادة الإعانات المقدمة لصناعة الألبان من ٤,٦٦ دولار إلى ٤,٩٣ دولار! وتوالت الإعانات حتى زاد المجموع عن ٤٠٠,٠٠٠ دولار. وقد نتج عن ذلك إضافة ٥٠٠ مليون دولار أرباحاً لمن يعملون فى صناعة الألبان على حساب المستهلكين.

وقد كشفت إحدى اللجان الفرعية لمجلس الشيوخ الخاصة بالتحرى عن الشركات متعددة الجنسية عن وثيقة (لم يتم التطرق إليها إلا عابرا فى الصحف) توضح أن أصحاب شركات البترول قرروا فيما بينهم تقليل إنتاج البترول حتى يرتفع سعره- مثل ARAMCO الشركة العربية الأمريكية للبترول التى يمتلك الأمريكيون ٧٥٪ من رأس المال ويمتلك سعوديون النسبة الباقية (٢٥٪) وهو الأمر الذى نتج عنه ربح مقداره دولار على البرميل فى عام ١٩٧٣

وحتى فى أكثر التحقيقات إتقانًا فى قضية ووترجيت مثل التى ترأسها النائب العام أرشيبالد كوكس (تم فصله بعد ذلك بقرار من الرئيس نيكسون)، كانت

المؤسسات الكبرى تنجو بسهولة من أيّة اتهامات. فعلى سبيل المثال: تم تغريم شركة الخطوط الأمريكية التى اعترفت بإعطاء مساهمات غير قانونية لحملة نيكسون الانتخابية ٥٠٠٠ دولار فقط! ودفعت شركه جودبير Goodyear نفس الغرامة. ودفعت مؤسسة ثرى إم ٣٠٠٠ دولار. ودفع أحد المسئولين فى شركة جودبير غرامة قدرها ١٠٠٠ دولار ودفع آخر فى ثرى إم ٥٠٠ دولار!

وقد كتبت النيويورك تايمز فى ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣:

إن مستر كوكس اتهمهم فقط بجنحة إعطاء مساهمات غير قانونية. تتضمن هذه الجنح تحت القانون مساهمات "غير مقصودة"! ذلك لأن محكمة الجنايات تعتبر عقوبة المساهمات المقصودة غرامة قدرها ١٠,٠٠٠ دولار أو سنتين سجنا أو كليهما ، ولكن للمساهمات غير المقصودة ١٠٠٠ دولار غرامة فقط أو سنة سجنا أو كليهما. وعندما سئل كيف تتم محاكمة الموظفين اللذين اعترفا بإعطاء المساهمات على اعتبار أنها كانت غير مقصودة، رد أحد موظفى كوكس: "هذا سؤال قانونى يحيرنى أنا أيضاً!!"

ومع تعيين فورد رئيسا خلفا لنيكسون نجد أن السياسة الأمريكية لم تتغير، فعلى سبيل المثال، سار فورد على نهج نيكسون فى إعطاء النظام فى سايجون (جنوب فيتنام) إعانات بأمل استقرار حكومة ثيو Thieu وقد زار رئيس لجنة الكونجرس جون كوكنس جنوب فيتنام فى أثناء ترك نيكسون لمنصبه وقدم التقرير التالى:

إن الجنود فى فيتنام الجنوبية يظهرون كل علامات الكفاءة والروح الدفاعية القوية. ... سيبدأ التنقيب عن البترول قريبا، والسياحة يمكن أن تنشط لو تم تأمين المناطق السياحية والأثرية لاسيما بعد تشييد فندق هايات فى فيتنام.... إن فيتنام الجنوبية تحتاج استثمارات أجنبية لتمويل مشاريع كهذه وغيرها. فى

فيتنام أيدى عاملة كثيرة وموهوبة ، والعاملون فى مجال الصناعة تكلفتهم أقل بكثير من نظرائهم فى هونج كونج وسنغافورة وكوريا.... وأشعر كذلك أنه يمكن تحقيق مزيد من الربح هناك. إن الجمع بين خدمة الرب وخدمة رأس المال الذى ثبتت جاذبيته فى الولايات المتحدة وغيرها فى الماضى. تستطيع فيتنام أن تكون "الانطلاقة" القادمة للرأسمالية الجديدة فى أسيا.

وفى ربيع عام ١٩٧٥، ثبت بالفعل أن كل ما قاله من انتقد السياسة الأمريكية فى فيتنام قد تحقق. لكن فورد استمر فى تفاؤله فقد كان آخر طابور السياسيين والصحفيين الذين وعدوا بالنصر. وقد قال وزير الدفاع روبرت مكنمارا فى ١٩ فبراير عام ١٩٦٣: "إنى لأرى النصر قريبا!" وقال أيضا الجنرال وليم ويستمورلاند فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٦٧: "لم أكن قط متحمساً فى خلال الأربع سنوات فى فيتنام كما أنا الآن!" وقال الصحفى جوزيف ألسوب **Joseph Alsop** فى الأول من نوفمبر عام ١٩٧٥: "لقد قبلت هانوى بالهزيمة الكاملة تقريباً!" وإذا أتينا إلى ما قاله فورد فى ١٦ أبريل عام ١٩٧٥: "إنى واثق تماما من أن الكونجرس لو قام بتدبير ٧٢٢ مليون دولار مساعدات عسكرية عندما طلبت ذلك أو بعده بقليل، لاستطاعت فيتنام الجنوبية أن تسيطر على الوضع العسكرى فى فيتنام اليوم." بعد ذلك بأسبوعيين وبالتحديد فى ٢٩ أبريل عام ١٩٧٥ دخل الفيتناميون الشماليون سايجون وانتهت الحرب.

كانت المؤسسة قد نفضت يدها بالفعل من المسألة الفيتنامية رغما عن فورد وأعوانه. وكان ما يقلقها هو مدى استعداد الشعب الأمريكى لدعم عمليات عسكرية أخرى خارج الحدود. لقد كانت هناك إشارات تثير القلق قبل الهزيمة فى فيتنام.

وفى مستهل عام ١٩٧٥، أبدى جون كالفر سيناتور ولاية أيوا استياءه من أن الأمريكان لن يقوموا بالحرب من أجل كوريا حيث قال: "إن فيتنام أخذت كثيراً من الإرادة الوطنية للشعب الأمريكى." قبل ذلك بقليل كان وزير الدفاع يتحدث فى مركز

جورج تاون للدراسات الدولية والاستراتيجية، فقال فى استياء: "إن العالم لم يعد يرى قوة الجيش الأمريكى ساحقة".

وفى مارس عام ١٩٧٥، قامت منظمة كاثوليكية بعمل مسح شامل لمعرفة رأى الأمريكيين فى عمليات الإجهاض. كان هذا ما تم قوله علناً ولكن سراً كانت المنظمة تجمع آراء الناس حول هذا السؤال: "هل القائمون على هذه الدولة من حكومة وسياسيين ورجال دين ليسوا صادقين فيما يقولون؟!" رد أكثر من ٨٣٪ على هذا السؤال بالإيجاب.

ومن أنقرة فى أوائل عام ١٩٧٥ كتب مراسل نيويورك تايمز سالزبيرجر المؤيد لسياسة الحرب الباردة: "إن التوهج الأمريكى قد زال منذ عهد ترومان" (عندما كانت المساعدات العسكرية تُعطى لليونان وتركيا). و أضاف قائلاً: "إن المنظر الكئيب لا يمكِّننا من القول بأن هناك أى سبيل لتحقيق نجاح محتمل فى اليونان فى الوقت الذى قامت فيه جماهير كثيرة بمهاجمة السفارة الأمريكية". واختتم كلامه قائلاً: "من الواضح أن هناك خطأ خطيراً فى الطريقة التى نقدمُ بها أنفسنا هذه الأيام." فالمشكلة من وجهة نظر سالزبيرجر ليست فى سلوك الولايات المتحدة ، ولكن فى الطريقة التى نقدم بها هذا السلوك إلى العالم.

وما هى إلا بضعة شهور بعد صدور هذه التقارير فى أبريل عام ١٩٧٥ حتى قُدمت الدعوة لوزير الخارجية كيسينجر لإلقاء خطبة فى حفلة تخرج جامعة ميتشيجان. وقد قوبلت الدعوة باحتجاج شديد وذلك رداً على دور كيسينجر فى حرب فيتنام. وتم تحضير برنامج آخر مخالف لبرنامج كيسينجر. ولذلك انسحب كيسينجر. لقد كانت أدنى أوقات الإدارة... قال كيسينجر: "على الولايات المتحدة أن تقوم ببعض الأفعال فى مكان ما بالعالم لتأكيد استمرارها كقوة عالمية."

فى الشهر التالى حدثت عملية ماياجويه.

كانت مـايـاجـويـه سـفينة شـحن أمـريكيـة أبحـرت من جنوب فـيتنام إلى تـايلاند فى منتصف مـايو من عام ١٩٧٥، بعد ثلاثة أسـابيع من انتصـار القوات الثورية فى فـيتنام. وعندما أصـبحت قـريبة من مـيناء فى كمبوديـا، حيث كان نظام ثورى قـد تولى الحكم لتوه. تم إيقاف السـفينة من قبل الكمبوديين وتم أخذهـا لميناء آخر قريب من جزيرة ، وتم إنزال طاقم السـفينة الذين وصفوا المعاملة التى تلقوهـا منـهم بالمحترمـة: "رحب بنا بمصافحة الأيدى أحد الرجال الذين يتحدثون الإنجليزية ورحب بوجودنا فى كمبوديا".

وقد كتبت الصحافة عن هذا الموضوع: "كابتن ميللر ورجاله أكدوا أنهم لم يتلقوا أيّة معاملة سيئة من خاطفيهم، بل على العكس كانت هناك مظاهر للمعاملة الحسنة مثل إطعـام الأمـريكان أولاً ثم قـيـام الثوار بأكل مـا يتبـقى منهم. وكـان إعطاؤهم مـخـداتهم لطاقم السفينة وما إلى ذلك من مظاهر المعاملة الحسنة. ولكن كان الكمبوديون يسـألون عن أشياء مثل جهاز المخابرات الأمريكية والتجسس."

وفوراً بعث الرئيس فورد رسالة للحكومة الكمبودية للإفراج عن السفينة وطاقمـها وبعـد مـرور ست وثلاثيـن سـاعـة من غيـر أى رد تم إرسـال نفس الرسـالة إلى البعـثـة الصينية فى واشنطن ولكنها عادت مرة أخرى فى اليوم التالى بعبارة "لم يتم استلامها" وعلى الفـور أمر الرئيس فورد ببدء العمليـات العسكرية ، وقـامت الطائرات الأمريكية بإلقـاء قنابل على السـفن الكمبودية حتى أنهم ألقوا قنابل على أحد المراكب التى كـانت تقل بحارة أمريكيين!

كـان قد تم احتجاز طاقم السفينة الأمريكية فى صبـاح يوم الاثنين، وفى مـسـاء الأربعـاء قـام الكمـبوديون بإطلاق سـراحـهم ـ ووضـعـوهـم فى مـركب صـيـد ـ باتجـاه الأسطول البـحـرى الأمــريكى. ولكن فى ظهـيـرة نفس اليـوم وعلى الرغم من علم الأمـريكيـين بتـرحـيل الطاقم من الجزيرة، أمر فـورد القوات البـحـرية بالهـجـوم على الجـزيـرة ، وبدءوا بالهـجـوم الساعـة ٧:١٥ مسـاء الأربعـاء. ولكن قبل ذلك بسـاعـة كـان البـحـارة الأمريكيون فى طريقـهم للقاعدة البحرية. وكـان خبـر الإفراج يذاع فى راديو

بانكوك فى السابعة مساءً. وقد تم رصد مكان البحارة بواسطة طائرة استطلاع أمريكية. ومع ذلك تم الهجوم!

والذى لم يُذكر فى الصحافة ولا فى أيّة تصريحات رسمية أن الولايات المتحدة استلمت رسالة من أحد الدبلوماسيين الصينيين توضح أن الصين تقوم بكل ما فى وسعها للضغط على كمبوديا لإطلاق سراح البحارة ، وأنه يتوقع أن يتم إطلاق سراحهم فى أقرب وقت. هذه الرسالة وصلت قبل أربع عشرة ساعة من الهجوم البحرى الذى قامت به الولايات المتحدة!

لم يحدث أى اعتداء على أى جندى أمريكى، وهجمت قوات المارينز على الجزيرة وقوبلت بمقاومة شديدة من جانب الكمبوديين ، ومن بين مائتى مهاجم أصيب ثلثهم أو لقى حتفه (وهذه تعتبر أكثر من النسبة التى أصيبت فى أثناء غزو أيوا جيما خلال الحرب العالمية الثانية). وتم تفجير أو تعطيل خمسة من بين إحدى عشرة مروحية. كذلك قتل ثلاثة وعشرون أمريكيا فى حادثة انفجار طائرة فى سماء تايلاند كانوا فى طريقهم للانضمام لصفوف المهاجمين. هذا الأمر لم تذعه الحكومة ، ليبلغ عدد من لقوا حتفهم واحداً وأربعين فرداً. جاء كل هذا بناء على أمر فورد بالقيام بعملية عسكرية ، والغريب فى الأمر أن عدد البحارة الذين كانوا فى السفينة المخطوفة كان تسعة وثلاثين. إذاً لماذا كان الاستعجال فى التفجير والهجوم والقصف؟! لماذا حدث بعد أن وصلت السفينة والبحارة سالمين؟! هل أمر فورد طائراته الحربية بالهجوم على كمبوديا وإلحاق أكبر عدد من الإصابات فى الكمبوديين؟ من يستطيع أن يبرر الجمع بين انعدام الضمير الأخلاقى وعدم الحكمة العسكرية؟ سيأتى الرد كالآتى: إنه كان من الضرورى إثباتٌ للعالم أن العملاق الأمريكى - الذى هزم من القزم الفيتنامى - ما يزال صاحب القوة والنفوذ.

وقد ورد فى صحيفة نيويورك تايمز فى ١٧ مايو ١٩٧٥ ما يلى: "إن المسئولين داخل الإدارة الأمريكية ومنهم وزير الخارجية هنرى كيسينجر ووزير الدفاع جيمس شليزنجر يرغبون بشدة فى إيجاد وسائل فعالة لتأكيد غاية الرئيس فورد وهى احتفاظه

بالزعامة على مستوى العالم. وقد جاءت الفرصة لتأكيد ذلك باختطاف السفينة." وجاء في رسالة صحفية من واشنطن في أثناء حادثة اختطاف السفينة: "إن خبراء الاستراتيجية والتخطيط اعتبروا أن حادث اختطاف السفينة يمكن أن يُعَد اختباراً لسطوة الولايات المتحدة في جنوب شرق أسيا ، والتي كانت تتطلع إليها الولايات المتحدة منذ انهيار الحكومة المتحالفة في جنوب فيتنام وكمبوديا."

وقد كتب جيمس ريستون في عموده اليومي: "الإدارة الأمريكية، في حقيقة الأمر، ممتنة للفرصة التي سنحت لها لتأكيد أن الرئيس مازال يستطيع أن يتصرف ويتخذ قرارات سريعة ، وقد قامت القوات البحرية بتأكيد ذلك في الوقت المناسب!" ولم يكن مثيراً للاستغراب أن وزير الدفاع قال عنها إنها "عملية عسكرية ناجحة" وأنهم قاموا بها لأغراض ضرورية لصالح المجتمع ، ولكن لماذا قال عنها جيمس ريستون - الذي يعتبر واحداً من أشد المنتقدين لنيكسون ووترجيت - إنها ناجحة ولكن بها بعض الميلودراما؟ ولماذا تحدثت جريدة نيويورك تايمز - والتي كانت من قبل ممن انتقدوا حرب فيتنام - عن "الكفاءة الرائعة" للعملية؟

وبدا واضحا أن المؤسسة - سواء كانت جمهورية أو ديمقراطية وكذلك الصحافة والتليفزيون - كانت تؤيد فكرة احتفاظ الولايات المتحدة بمكانتها في كل مكان في العالم.

كان الكونجرس في ذلك الوقت يتصرف، كما فعل في الفترة الأولى في حرب فيتنام، مثل قطيع من الأغنام! فبالرجوع إلى عام ١٩٧٣ وعندما كان الوضع العام مرهقاً ومقززاً نتيجة الحرب في فيتنام، أصدر الكونجرس قرارا يطالب فيه الرئيس أن يستشير الكونجرس قبل القيام بأيّة عملية عسكرية ، ولكن في قضية السفينة المخطوفة ماياجويه، تجاهل فورد هذا القانون وقام بعض مساعديه بالاتصال بنحو ثمانية عشر عضواً من أعضاء الكونجرس لإبلاغهم بأن ثمة عملية عسكرية سيتم القيام بها.

وقد اعترض على ما حدث السيناتور ماكجفرن - الذي كان خصماً لنيكسون في الانتخابات عام ١٩٧٦ ومن كبار المعارضين للحرب. كذلك اعترض السيناتور نيلسون

عن ولاية ويسكنسون. وطرح السيناتور ادوارد بروك بعض الأسئلة على الإدارة لمعرفة أسباب ما حدث. أما السيناتور إدوارد كينيدى فلم يتحدث مثل كثير ممن قاموا من قبل بالتأثير على الكونجرس لمنع القيام بعمليات عسكرية أكثر فى فيتنام.

أما كيسينجر فقد قال: "لقد أُرغمنا على ذلك." وعندما سأله أحد الصحفيين لماذا عرضت الإدارة الأمريكية حياة البحارة للخطر عندما قامت بإطلاق النيران على السفن من غير معرفة من بداخلها، كان رده: "هذه كانت مخاطرة ضرورية." وقال أيضا: "إن الحادثة توضح أن هناك حدوداً أبعد من أن تُدفع الولايات المتحدة إليها ، وأن الولايات المتحدة جاهزة للدفاع عن مصالحها ، وأنها تستطيع أن تحصل على دعم العامة وعلى دعم الكونجرس لمثل هذه الأفعال." ومن المؤكد أن رجال الكونجرس الجمهوريين والديمقراطيين ممن كانوا معترضين على حرب فيتنام أصبحوا الآن أكثر رغبة لتجميع كل الأشياء فى وحدة متكاملة لإثبات قوة الولايات المتحدة أمام العالم.

وقبل أسبوع من حادثة السفينة ماياجويه ، أى بعد أسبوعين من الهزيمة فى سايجون، وقّع ستة وخمسون عضواً فى الكونجرس بياناً جاء فيه: "لابد من العمل على منع أيّة دولة من القول بأن إرادة الولايات المتحدة فشلت فى الشرق الأقصى." وقد كان من بين رجال الكونجرس الذين وقّعوا على البيان أندرو يونج من ولاية جورجيا وهو من السود.

وهذا يعنى أن الكونجرس أراد أن يتبع نظاماً يعتمد على التماسك والترابط، ومن عناصر هذا النظام العملية العسكرية التى تمت بعد اختطاف السفينة ، التى تهدف لتأكيد السلطة والنفوذ فى خارج الدولة وداخلها أيضا. كذلك كانت هناك رغبة فى تهدئة عامة الشعب الذى كان يشعر فى ذلك الوقت بعدم وضوح الرؤية لأن النظام كان يخطىء ثم يصحح من نفسه بشكل مستمر.

وقد كان الحل الأمثل هو القيام بتحريات معلنة لضبط الخارجين عن القانون من غير المساس بالنظام، فمما لا شك فيه أن فضيحة ووترجيت قد أثرت سلباً على صورة أفراد مكتب التحقيق الفيدرالى والمخابرات الأمريكية الذين أخلوا بالقانون الذى حلفوا

على أن ينفذوه و، اشتركوا مع نيكسون فى جريمته من عمليات سرقة وتسجيلات غير مشروعة. وفى عام ١٩٧٥ بدأت لجان من مجلسى الشيوخ والنواب فى إجراء تحقيقات عن مكتب التحقيق الفيدرالى والمخابرات الأمريكية.

قام التحقيق الذى تم مع جهاز المخابرات على أساس أنه تعدى مهمته الطبيعية من جمع المعلومات الدقيقة ، وقام بعمليات سرية من كل الأنواع. فعلى سبيل المثال، وبالرجوع إلى عام ١٩٥٠ قام الجهاز بإعطاء عقارLSD لبعض الأفراد ـ من دون معرفتهم بذلك ـ لقياس تأثيره فيهم. وقام أحد العلماء الذين تناولوا العقار بالقفز من نافذة أحد الفنادق فى نيويورك ولقى حتفه. كما اشترك جهاز المخابرات فى بعض الخطط لاغتيال كاسترو Castro زعيم كوبا وبعض المسئولين الآخرين. وقام بجلب فيروس يصيب الخنازير من أفريقيا إلى كوبا مما أدى إلى إصابة أعداد هائلة من الخنازير ، وتم إعدام ما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ خنزير مصاب بالفيروس. وقد اعترف أحد رجال المخابرات لأحد الصحفيين بأنه جلب هذا الفيروس من قاعدة عسكرية للكوبيين المعارضين لكاسترو.

وقد اتضح أيضا من التحقيقات التى قامت بها لجنة سرية مؤلفة من ٤٠ عضواً ويرأسها هنرى كيسينجر أن المخابرات كانت تعمل على الإطاحة بحكومة شيلى التى كانت بقيادة سالفادور ألليندى ، وهو من الماركسيين وقد انتخب رئيسا فى واحدة من أندر الانتخابات النزيهة فى أمريكا اللاتينية. وقد لعبت شركة الاتصالات ITT الشهيرة دوراً أساسياً فى هذه المؤامرة لما تمتلكه من مصالح كبيرة فى كوبا. وعندما قام السفير الأمريكى فى كوبا ديفيد بوبر بالاقتراح على حكومة شيلى الجديدة (التى استطاعت بمساعدة الولايات المتحدة التخلص من ألليندى) أن تقلل من انتهاكاتها لحقوق الإنسان فى كوبا، تم توبيخه من كيسينجر الذى قال: " أبلغوا بوبر أن يكف عن إلقاء محاضرات فى العلوم السياسية!"

أما بالنسبة للتحقيقات الخاصة عن مكتب التحقيق الفيدرالى، فقد كشفت عن أنه قام لعدة سنوات بعمليات غير قانونية لتمزيق كل الجماعات المعارضة وتدميرها

والجماعات اليسارية. لقد بعث مكتب التحقيق الفيدرالى برسائل مزورة ، وتورط فى سرقات (اعترف المكتب بالقيام باثنتين وتسعين عملية ما بين عامى ١٩٦٠ و١٩٦٦) وقام بفتح أغلب الخطابات بطرق غير قانونية ، واتضح أيضاً تآمره فى عملية اغتيال فريدْ هامبتون المناضل الأمريكى الأسود وزعيم تنظيم "بلاك بانثر" (الفهد الأسود).

وقد تم الحصول على معلومات قيمة من خلال التحقيقات ، وقد كانت هذه المعلومات كافية وصحيحة ، ولكن مع تغطية إعلامية متواضعة وعدم عرضها تليفزيونيا إلا نادرا، ووصولها فقط إلى مجموعة قليلة من القراء لإعطاء تأثير بأن المجتمع يصلح من نفسه!

وقد أظهرت التحقيقات نفسها محدودية قبول الحكومة للتحقيق فى مثل هذه الأمور. وقام مجلس الشيوخ بتشكيل لجنة من الكنيسة وقامت هذه اللجنة بالتعاون مع الوكالات التى ستتم التحريات بشأنها ، وأرسلت ما تم الحصول عليه من معلومات عن المخابرات المركزية إلى المخابرات المركزية نفسها لترى إذا أرادت أن تحذفَ أيًا من هذه المعلومات والأدلة! إذ على الرغم من وجود معلومات غاية فى الأهمية فى التقرير، فإننا لم نتمكن من معرفة ما تم حذفه، فالتقرير النهائى يعتبر تسوية بين اجتهاد اللجنة وحذر المخابرات المركزية.

ولم تصل لجنة بايك التى تم تشكيلها فى مجلس النواب إلى أى اتفاق مع جهاز المخابرات المركزية أو مع مكتب التحقيق الفيدرالى. وعندما انتهت من تقريرها النهائى، تم التصويت من قبِل نفس المجلس الذى شكلها على إبقاء التقرير سرياً. ولكن عندما تم تسريب التقرير عن طريق أحد مراسلى قناة CBS وهو دانيل شور، لم يتم نشرها مطلقاً فى الصحف الرئيسية مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست ، وأوقفت القناة التليفزيونية مراسلها عن العمل ، وهذا يعتبر دليلاً آخر على مدى التعاون بين الأجهزة الإعلامية والحكومة لتأكيد نظرية "الأمن القومى."

وبالنسبة لتقرير لجنة الكنيسة عن محاولة المخابرات الأمريكية اغتيال فيدل كاسترو وبعض الشخصيات السياسية الأجنبية الأخرى، فقد كشف عن وجهة نظر طريفة ، وهى أن اللجنة نظرت لعمليه اغتيال رئيس دولة على أنها عملية انتهاك لا يغتفر

لاتفاق جينتلمان بين رجال السياسة ، وأنها أبغض من محاولات التدخل العسكرية لقتل أناس عاديين. وقد كتبت اللجنة فى مقدمة تقريرها عن محاولة الاغتيال:

عندما يقع الاختيار على العنف والإجبار، يكون احتمال الخسائر فى الأرواح قائماً. وهناك فرق بين القتل مع سبق الإصرار والترصد لزعيم أجنبى، وبين أشكال التدخل الأخرى فى شئون الأمم الأجنبية.

كما كشفت اللجنة أن عمليات CIA تهدف إلى التأثير فىِ عقول الأمريكيين كما يتضح من هذا الجزء من تقريرها:

تستخدم المخابرات المركزية حالياً المئات من الأكاديميين الأمريكيين مثل المديرين وأعضاء هيئات التدريس والطلاب الذين يقومون بالتدريس الذين، بجانب كونهم فى الطليعة، يقومون أحيانا بكتابة بعض الموضوعات والكتب لكى تستخدم كدعاية فى الخارج. وهؤلاء الأكاديميون موجودون فى أكثر من ١٠٠ جامعة أمريكية، وفى معظم هذه الجامعات لا يعلم أحد غيرهم عن تدخل المخابرات المركزية ، وعلى الأقل هناك واحد من مسئولى كل جامعة على علم باستخدام المخابرات المركزية للأكاديميين العاملين معه داخل الحرم الجامعى، وقد اعتبرت المخابرات المركزية هذه الاتصالات علاقة محلية حساسة وتحكمها معايير صارمة.

وفى عام ١٩٦١ كتب أحد مسئولى المخابرات المركزية أن "الكتاب هو أهم سلاح للدعاية الاستراتيجية." وقد اكتشفت لجنة الكنيسة أن المخابرات المركزية قامت بتجهيز أكثر من ألف كتاب وطبعه حتى عام ١٩٦٧ وعندما أدلى كيسينجر بشهادته أمام اللجنة عن أسباب إلقائه قنابل على لاوس قال: "أعتقد أنه لم تكن هناك سياسة صحيحة لقيام المخابرات المركزية بشن الحرب على لاوس، ولو استرجعنا الأحداث لوجدنا أن

هناك طرقاً أخرى عديدة كان يمكن اللجوء إليها." ولم يعترض أحد من أعضاء اللجنة على أن ما تم كان لابد أن يتم ولكن بطريقة أخرى كما قال كيسينجر.

واستمر النظام خلال العام ١٩٧٤ـ١٩٧٥ فى تبرئة الدولة من الأفعال المشينة التى حدثت ، وحاول استعادة حالتها الجيدة أو على الأقل وصولها إلى حالة مقبولة من الشعب وذلك من خلال استقالة نيكسون وترشيح فورد للرئاسة والكشف عن الأفعال الخاطئة التى قامت بها المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى. كانت هذه الإجراءات تهدف إلى كسب الثقة المفقودة فى النظام من قبل الشعب الأمريكى. ولكن على الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة، كانت هناك علامات كثيرة من الشك وأحيانا العداء لرؤساء الحكومة والجيش وأصحاب الشركات الكبرى.

وبعد انتهاء الحرب فى فيتنام بشهرين ، كشف استطلاع للرأى أن ٢٠٪ ممن قاموا بالتصويت ذكروا أن انهيار الحكومة فى سيجون كان بمثابة تهديد خطير لأمن الولايات المتحدة.

وفى يوم ١٤يوليه عام ١٩٧٥ الذى يوافق عيد العلم قام فورد بإلقاء خطبة فى فورت بيننج فى جورجيا، وقام الجيش باستعراض عسكرى يجسد مشاركته فى ثلاث عشرة حرباً، وقد عبّر فورد عن سعادته برؤية أعلام كثيرة، ولكن أحد الصحفيين الذين قاموا بتغطية الحدث كان له رأى آخر: "فى الحقيقة، كانت هناك قلة من الأعلام الأمريكية ترفرف قريبة من منصة الرئيس، مكتوب على واحد منها: كفى إبادة جماعية باسمنا." ولكن هذه الأعلام مُزقت فى الوقت المناسب عندما قام المشاهدون القريبون منهم بالتصفيق والاستحسان!

وفى اقتراع آخر تم فى نفس الشهر لجمع الأصوات لمعرفة مدى ثقة الشعب فى الحكومة ما بين عام ١٩٦٦ إلى ١٩٧٥، وجد أن الثقة فى الجيش فى هذه الفترة انخفضت من ٦٢٪ إلى ٢٩٪، وفى التجارة والأعمال من ٥٥٪ إلى ١٨٪ وفى كل من الرئيس والكونجرس من ٤٢٪ إلى ١٣٪ وبعد مدة قصيرة أجرى استطلاع آخر للرأى

أوضح أن ٦٥٪ من الأمريكيين يعارضون المساعدات العسكرية للخارج ؛ لأنهم يشعرون أنها تسمح للدكتاتورية بالهيمنة والتحكم. ويمكن أن نرجع عدم الارتياح العام إلى الحالة الاقتصادية السيئة التى كنت تمر بها فئات كثيرة من الشعب الأمريكى.

ومنذ عام ١٩٧٣ والتضخم والبطالة فى نمو سريع، ويتضح ذلك فى استفتاء هاريس الذى أظهر ارتفاع إحساس الأمريكيين بالغربة وعدم الراحة من ٢٩٪ فى عام ١٩٦٦ إلى أكثر من ٥٠٪. وبعد نجاح فورد زادت النسبة إلى ٥٥٪. وقد أشار الاستفتاء أيضا إلى أن أكثر ما يزعج الشعب الأمريكى هو زيادة معدلات التضخم.

وفى خريف عام ١٩٧٥ ومن خلال مقابلات قامت بها النيويورك تايمز مع ١٥٥٩ شخصا وأكثر من ٦٠ عائلة فى اثنتى عشرة مدينة، ظهر انخفاض ملحوظ فى معدلات التفاؤل بالمستقبل، كما نرى فى السطور التالية:

> **أدى التضخم وعدم قدرة الدولة على حل مشاكلها الاقتصادية والتنبؤ بأن أزمة الطاقة ستعنى انخفاضاً فى مستوى المعيشة إلى اهتزاز كبير فى ثقة الشعب الأمريكى وتوقعاته وطموحاته .... إن التشاؤم بخصوص المستقبل حاد وخطير بين من يقل دخلهم السنوى عن ٧٠٠٠ دولار. ولكنه مرتفع أيضا بين العائلات التى يتراوح دخلها السنوى بين ١٠,٠٠٠ و١٥,٠٠٠ دولار. وثمة قلق بأن العمل الجاد والجهد المخلص لتوفير بعض الأموال لن يمكنهم من شراء بيت أنيق فى ضواحى المدينة. ...**

وأوضح البحث أيضا "أن أصحاب الدخول الأكبر بدأ تفاؤلهم بالمستقبل يقل عن السنوات الماضية، مما يشير إلى أن عدم الرضا بدأ فى الانتقال من أصحاب الدخول القليلة إلى أصحاب الدخول المرتفعة." وبالتزامن مع ذلك وفى خريف عام ١٩٧٥، شهد بعض المحللون ممن قاموا بتحليل الرأى العام أمام لجنة من الكونجرس، كما جاء فى

جريدة النيويورك تايمز "أن الثقة فى الحكومة وفى مستقبل الاقتصاد الوطنى وصل إلى أقل مستوى له منذ أن بدأنا فى دراسة هذه الأشياء علمياً."

وقد طرحت الإحصاءات الحكومية بعض الأسباب لذلك. فقد أظهر تقرير لمكتب الإحصاء الرسمى للسكان أنه فى خلال عامى ١٩٧٤/١٩٧٥، ارتفع عدد الأمريكيين الفقراء (الذين يقل دخلهم السنوى عن ٥,٥٠٠ دولار) بنسبة ١٠٪ وأصبح حاليا ٢٥,٩ مليون شخص. وارتفعت نسبة البطالة التى كانت تبلغ ٥,٦٪ فى عام ١٩٧٤ إلى ٨,٣٪ فى عام ١٩٧٥، وارتفع عدد العاطلين من ٢ مليون فى عام ١٩٧٤ إلى ٤,٣ مليون فى عام ١٩٧٥ .

إن الإحصائيات التى قدمتها الحكومة حاولت أن تقلل من نسب الفقر الحقيقية ونسب معدلات البطالة أيضا. فعلى سبيل المثال، إذا كانت نسبة البطالة ١٦,٦٪ من تعداد السكان خلال ستة أشهر فى عام ١٩٧٥ ونسبة ٣٣,٢٪ خلال ثلاثة أشهر من نفس العام، تقوم الحكومة بإظهار أن النسبة هى ٨,٣٪ مما يعطى انطباعا حسناً!

ومع قرب الانتخابات الرئاسية فى عام ١٩٧٦، كان هناك قلق شديد داخل المؤسسة من ثقة الشعب فى النظام. ففى خريف عام ١٩٧٦ اجتماع مجلس رجال الأعمال فى هوت سبرينجس بفيرجينيا تحدث وليم سيمون وزير المالية فى عهدى نيكسون وفورد (كان قبل ذلك مصرفياً يبلغ دخله السنوى ٢ مليون دولار): إنه لمن الضرورى فى ظل اتجاه العالم نحو الاشتراكية والدكتاتورية، أن نقوم بشرح مزايا النظام الأمريكى الرأسمالى فى المدارس ووسائل الإعلام ، لأن المؤسسات التجارية الصغيرة بدأت فى تحقيق خسائر." كانت كلمته هذه تمثل ما يدور فى أذهان الصفوة من رجال الأعمال الأمريكيين:

وقد تجمعت أحداث فيتنام ووترجيت والاضطرابات الطلابية وأكبر ركود فى تاريخ البلاد والتحول فى المعايير الأخلاقية وبعض الصدمات الثقافية الأخرى بحيث خلقت

مناخاً جديداً من القلق والشك. وزاد كل ذلك من حالة الإحباط العام وفقدان الثقة فى كل مؤسسات المجتمع.

وقد ذكر سيمون أن الأمريكيين "تعلموا أن لا يثقوا فى عبارة ربح والدافع وراء الربح الذى من شأنه تحقيق الرخاء ، ويشعرون أن هذا النظام الذى فعل الكثير ليخفف المعاناة الإنسانية أكثر من أى نظام آخر قد أصبح غير جدير بالثقة وأنانياً وغير أخلاقى." وأضاف: "لابد من توضيح الجانب الإنسانى للرأسمالية."

وفى الوقت الذى كانت تستعد فيه الولايات المتحدة عام ١٩٧٦ للاحتفال بالذكرى المئوية الثانية لعيد الاستقلال، قام بعض المفكرين والزعماء السياسيين من اليابان والولايات المتحدة وأوروبا الغربية بالاجتماع فيما سموه اللجنة الثلاثية ، وقاموا بإصدار تقرير أسموه "قدرة الأنظمة الديمقراطية على الحكم" Governability of De-mocracies وقد كتب الجزء الخاص بالولايات المتحدة صامويل هانتجتون أستاذ العلوم السياسية فى جامعة هارفارد، والذى عمل أيضا مستشاراً للبيت الأبيض لفترة طويلة فى أثناء الحرب الفيتنامية.

قال هانتجتون فى الجزء الذى كتبه فى التقرير وعنوانه "المرض الديمقراطى": "شهدت الستينيات فى أمريكا تصاعداً كبيراً فى الديمقراطية." وقال أيضا إن الستينيات شهدت نمواً سريعاً من جانب المواطنين فى المشاركة "فى شكل مظاهرات واحتجاجات ومسيرات وانضمام لمنظمات تهتم بقضايا خاصة." وقال إن نسبة الوعى زادت لدى السود والهنود والصينيين والأقليات العرقية الأخرى والنساء. كل هؤلاء تحركوا وتجمعوا بطرق مختلفة وجديدة. وحدث نمو أيضاً فى اتحادات الياقات البيضاء. وكل ذلك يعنى تأكيد المساواة فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وأشار هانتجتون أيضا إلى العلامات التى تدل على تقلص سلطة الحكومة وكيف غيّر الطلب المتكرر بالمساواة فى الستينيات من شكل الميزانية الفيدرالية. ففى عام

١٩٦٠ كانت نسبة الإنفاق على الشئون الخارجية ٥٢,٧٪ من الميزانية ، ونسبة الإنفاق على النواحى الاجتماعية ٢٢,٣٪ وفى عام ١٩٧٤ أخذت الشئون الخارجية فقط ٣٣٪ والنواحى الاجتماعية ٣١٪ وهذا يعكس التغيير فى الجو العام. وفِى عام ١٩٦٠، كان ١٨٪ فقط من العامة يرون أن الحكومة تنفق مبالغ كثيرة على الدفاع. لكن فى عام ١٩٦٩ ارتفع ذلك إلى ٥٢٪.

لقد انزعج هانتجتون بما رأى وقال:

إن جوهر موجة الديمقراطية فى الستينيات كان يمثل تحدياً عاماً للنظم السائدة من السلطة العامة والخاصة. تجلى هذا التحدى فى الأسرة والعمل والجامعة والمؤسسات العامة الخاصة وفى الخدمة العسكرية. لقد أحس الناس أنهم لم يعودوا ملتزمين بطاعة من اعتبروهم فى الماضى أعلى منهم فى السن والمكانة والخبرة والموهبة الشخصية.

كل هذا، حسب ما قال هانتجتون، أوجد مشاكل لقدرة الديمقراطية على الحكم فى السبعينيات. كان الأشد خطورة فى كل هذا هو اضمحلال سلطة الرئيس.

إن الولايات المتحدة أيا كان رئيسها بعد الحرب العالمية الثانية، كانت تُحكم بواسطة الرئيس مع مساندة بعض الأفراد البارزين وتعاونهم وبعض الجماعات مثل الكونجرس والمكتب الفيدرالى، وبعض البنوك ورجال الإعلام ورجال الأعمال المهمّين الذين كانوا يمثلون المؤسسة بالنسبة للقطاع الخاص.

وكانت هذه أكثر العبارات صراحة لأحد مستشارى المؤسسة الحاكمة. وأضاف هانتجتون قائلاً إن الرئيس لكى يفوز بالانتخابات لابد أن يحصل على دعم تحالف كبير من أفراد الشعب. "لكن فى اليوم التالى لانتخابه" يقول هانتجتون "يصبح حجم الأغلبية التى تدعمه شيئاً غير أساسى إذا قورن بقدرته على حكم البلاد. ما هو مهم الآن هو قدرته على حشد دعم من زعماء المؤسسات المهمة فى الدولة والمجتمع والحكومة.... هذا

التحالف لابد أن يضم الأعضاء البارزين فى الكونجرس والسلطة التنفيذية والمؤسسة الكبيرة للقطاع الخاص." ثم أعطى أمثلة على ذلك:

قام ترومان بجلب عدد غير محدود من المستقلين وأصحاب البنوك الجمهوريين ومحامى وول ستريت إلى إدارته. وذهب إلى مصادر السلطة والنفوذ فى الدولة لكى يحصل على دعمهم فى حكمه للبلاد. لقد ورث أيزينهاور جزءاً من هذه التحالفات من ترومان ، بل كان هو نفسه جزءاً من صُنعها. أما كينيدى فقد حاول أن ينشئ هياكل مشابهة لهذه التحالفات.

الشىء الذى كان يقلق هانتجتون هو تضاؤل سلطة الحكومة. فالاعتراض على حرب فيتنام، على سبيل المثال، أدى إلى رفض الشباب الالتحاق بالجيش. و"السؤال الذى يطرح نفسه على نحو ضرورى الآن هو: هل إذا ظهر أى تهديد جديد لأمن البلاد فى المستقبل(وهو الشىء الحتمى الحدوث) هل تمتلك الحكومة القدرة على حشد كل ما تستطيع للتصدى لهذا التهديد؟"

وانتهى هانتجتون إلى أن المشكلة تكمن فى زيادة الديمقراطية "an excess of de-mocracy " واقترح وضع "بعض الحدود على الديمقراطية السياسية." كان هانتجتون يقوم بتبليغ كل ما توصل إليه إلى منظمة شديدة الأهمية لمستقبل الولايات المتحدة ، وهى اللجنة الثلاثية التى تأسست عام ١٩٧٣ بواسطة ديفيد روكفيللر وزبجنيو برجنيسكى ، وكان روكفيللر أحد مسئولى بنك تشيس مانهاتن فى ذلك الوقت بالإضافة إلى كونه من أقوى الرأسماليين فى الولايات المتحدة بل فى العالم أجمع. أما برجنيسكى فكان أستاذاً للعلاقات الدولية فى جامعة كولومبيا وكان أيضا مستشاراً لوزارة الخارجية.

كتب روبرت ماننج فى مجلة "فار أيستيرن أيكونوميك ريفيو" فى ٢٥ مارس عام ١٩٧٧:

ويمكننا معرفة حجم النمو فى الاقتصاد الدولى للشركات الأمريكية من خلال الوضع البنكى. ففى عام ١٩٦٠ نجد أن ثمانية بنوك أميركية فقط كان لها فروع أجنبية ، وفى عام ١٩٧٤ ارتفع العدد إلى مائة وتسعة وعشرين فرعاً. وكان إجمالى أصول هذه البنوك فى الفروع الأجنبية يقدر بحوالى ٣,٥ بليون دولار ، فى عام ١٩٦٠ ووصل إلى ١٥٥ بليون فى عام ١٩٧٤ .

وقد رأت اللجنة الثلاثية أنها تساعد فى خلق علاقات دولية ضرورية لظهور الاقتصاد الجديد متعدد الجنسيات. لقد أتى أعضاء هذه اللجنة من أكبر الدوائر السياسية والإعلامية فى أمريكا واليابان وأوروبا الغربية، فهم ينتمون لمؤسسات مثل بنك تشيس مانهاتن، وليمان بروزرس، وبنك أوف أمريكا، وبنك دى بارى، ولويدس أوف لندن، وبنك أوف طوكيو .. الخ. كما جاءوا من شركات البترول وشركات الصناعات الإلكترونية الكبرى. وجاء بعض الأعضاء من مجلة تايمز وواشنطن بوست وقناة **CBS** وچابان تايمز **Japan Times** وداى زايت **Die Zeit** وذا إيكونوميست اللندنية وأماكن أخرى متميزة.

لم يكن عام ١٩٧٦ عام الانتخابات الرئاسية فحسب، لكنه كان أيضا العام المرتقب للاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للاستقلال ، وكان عاماً مزدحماً بالاحتفالات والأحداث فى جميع أرجاء البلاد. وكانت المجهودات الكبرى التى وجهت للاحتفالات بمثابة طريقة لاستعادة الشعور بالوطنية الأمريكية واستحضار رموز التاريخ؛ لإحداث نوع من الاتحاد بين الشعب والحكومة ولإنهاء طابع الاحتجاجات الذى كان سائداً خلال السنوات الماضية.

بيد أنه لم يكن هناك الحماس اللازم لذلك. فعند الاحتفال بالمئوية الثانية للاستقلال فى بوسطن، ظهر جمع كبير من الناس جاءوا للاحتفال بالمئوية الثانية للشعب وليس من أجل الاحتفال الرسمى. كان احتفالهم احتفالاً مضاداً. فقد عُثر على عبوات فارغة ملقاة فى ميناء بوسطن مكتوب عليها "بترول الخليج" و"اكسون" وهو ما كان يرمز إلى معارضة أصحاب رأس المال والسلطة فى أمريكا.

الفصل الحادى والعشرون

كارتر ـ ريجان ـ بوش: اتفاق الحزبين

فى منتصف القرن العشرين، تناول المؤرخ ريتشارد هوفستاتر فى كتاب **التراث السياسى الأمريكى** The American Political Tradition زعماءنا الذين يمثلون أهمية قومية من جيفرسون وجاكسون إلى هربرت هوفر وتيودور وفرانكلين روزفلت، سواء كانوا ينتمون للحزب الديمقراطى أو الحزب الجمهورى وسواء كانوا من الليبراليين أو المحافظين. وانتهى هوفستاتر إلى أن "رؤية المتنافسين من الأحزاب الرئيسية كانت مقيدة برؤية اقتصادية ... ولقد اعتبر هؤلاء أن المزايا الاقتصادية للثقافة الرأسمالية من المواصفات الضرورية للإنسان ... وأن الثقافة كانت دائماً تنحو نحو الاتجاه القومى."

وبالنظر إلى نهاية القرن العشرين، وعلى وجه الخصوص إلى الربع الأخير منه، نستطيع أن نرى تلك "الرؤية المقيدة" التى تحدث عنها هوفستاتر، حيث نلاحظ التشجيع الرأسمالى للثروات الضخمة جنباً إلى جنب مع الفقر المدقع والقبول الشعبى للحرب والاستعداد لها. وبالرغم من تناوب السلطة بين الحزبين الديمقراطى والجمهورى، فإن كلا الحزبين لم يستطع أن يتخطى تلك الرؤية.

وبعد انتهاء حرب فيتنام الرهيبة، ظهرت فضيحة ووترجيت، وظهرت مشاكل اقتصادية خطيرة، وكان من الجلى أن هذه المشكلات لن تجد حلولاً دون إجراء تغييرات جذرية للهياكل الاقتصادية والاجتماعية للأمة. ومع ذلك، لم يطرح أى من مرشحى

الأحزاب الرئيسية هذه التغييرات على الإطلاق، كما تنبأ بذلك هوفستاتر فى كتابه المشار إليه.

ونتيجة لهذه الظروف أو الشعور بها بطريقة ما، لم يذهب الناخبون إلى صناديق الاقتراع ولم يشعر الناخبون الذين أدلوا بأصواتهم بأى حماس وهم يقومون بهذا. وبمرور الوقت أعلن الناخبون عن عزلتهم عن النظام السياسى وكانوا يرمزون إلى هذا بعدم مشاركتهم فى الانتخابات. ففى عام ١٩٦٣، شارك فى الانتخابات الرئاسية ٦٣٪ ممن لديهم الحق فى الإدلاء بأصواتهم، وتراجعت هذه النسبة إلى ٥٣٪ فى عام ١٩٧٦ . وفى استطلاع للرأى أجرته شبكة CBS وصحيفة نيويورك تايمز، أشار نصف المشاركين فيه إلى أن المسئولين لا يهتمون بمشكلاتهم، وكانت الإجابة الحرفية لأحد عمال السباكة الذين شاركوا فى الاستطلاع: "إن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لا يستطيع أن يجد حلولاً لمشاكلنا. إنها أكبر من قدراته."

وسادت المجتمع حالة من عدم التوافق، حيث انتشرت صور رجال السياسة على صفحات الصحف وشاشات التلفزيون وكأن تاريخ الولايات المتحدة يتجسد فى تصرفات الرؤساء وأعضاء الكونجرس وقضاة المحكمة الدستورية العليا والمسئولين الآخرين. وبالرغم من ذلك، فقد كان هناك شئ غير طبيعى وكأن هناك حاجزاً يمنع الشعب من الاقتناع بأن كل شئ على ما يرام، وبأن على الناس أن يضعوا آمالهم المستقبلية فى أيدى ساسة واشنطن ، الذين لم يهتموا سوى بنفوذهم السياسى بالرغم من كل الرطانة والخطابة والوعود التى كانوا يتفوهون بها.

وانعكست هذه الحالة من التباعد بين السياسيين والشعب على المجال الثقافى؛ فلم يهتم التلفزيون الحكومى، المنوط به تقديم أفضل الفقرات الإعلامية دون عائد اقتصادى، بالجمهور العادى، ولم يكن ضمن المشاركين فى المنتدى السياسى المعروف باسم MacNeil Lehrer Report شخصيات من عامة الناس، والذين اقتصر دورهم على عروض رجال الكونجرس وأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء الحكومة البيروقراطية والخبراء من شتى المجالات.

وكان من الواضح أن " الإذاعة التجارية " تهتم بالمجموعة الصغيرة التى تتلاءم مع السياسة الحكومية وتتجاهل المعارضة الرئيسية. وفى منتصف الثمانينيات، ومع تولى رونالد ريجان الرئاسة، توقف العمل بـ" ميثاق العدالة " للجنة الفيدرالية للاتصالات، والذى كان يقضى بوجود مساحة إعلامية لوجهات النظر المتباينة . وفى التسعينيات، جذب برنامج "توك شو "٢٠ مليوناً من المستمعين ، وكان يستضيف يومياً "الضيوف اليمينيين" ويتناول نقدهم مع تجاهل كامل لليساريين .

ونتيجة لتحرر المواطنين من وهم الأجواء السياسية وما كان يبدو وكأنه نقاشات سياسية بارعة، تحول اهتمامهم إلى برامج التسلية وبرامج النميمة التى تهتم بالحديث عن المشاهير ، وآلاف البرامج التى تتحدث عن أهمية الاعتماد على النفس!

وكان هناك قطاع من المواطنين الذين حاولوا التمسك بالمبادئ المثالية التى سادت فى الستينيات وأوائل السبعينيات، ليس فقط عن طريق ذكرها ولكن أيضاً عن طريق الحياة على أساسها. ففى الحقيقة كان هناك جزء من الشعب تجاهله الإعلام ورجال السياسة ، ومع ذلك فقد كان له دور نشط على صعيد تنظيم آلاف المجموعات المحلية التى انتشرت فى شتى أنحاء البلاد. قامت هذه المجموعات المنظمة بحملات تطالب بحماية البيئة وحقوق المرأة والاهتمام بأوضاع الرعاية الصحية المتردية (خاصة المخاوف المتزايدة من مرض الإيدز) وإسكان المشردين ومعارضة حجم الإنفاق العسكرى.

ولكن هذه الأنشطة لم تشبه مثيلاتها إبان الستينيات حيث كانت قوة معارضة الفصل العنصرى طاقة قومية غامرة. وقد تصاعدت هذه الأنشطة بضراوة ووقفت ضد السياسيين الأنانيين ، فى محاولة للوصول إلى الذين أوشكوا على أن يفقدوا الأمل فى سياسات التصويت أو قوة المعارضة. وكانت فترة رئاسة جيمى كارتر(١٩٧٧ - ١٩٨٠) محاولة من المؤسسة، التى تمثلت فى الحزب الديمقراطى، لجذب المواطنين الذين أحسوا بالضياع. وبالرغم من أن كارتر أبدى بعض إشارات التعاطف مع السود والفقراء ، بالإضافة إلى حديثه عن حقوق الإنسان، فقد ظل تحت تأثير الحدود

التاريخية لسياسة النظام الأمريكى القائم على حماية الثروات الاقتصادية الضخمة والنفوذ ، والاحتفاظ بآلة عسكرية ضخمة امتصت الثروة القومية، بالإضافة إلى التحالف مع آلاف الأنظمة الديكتاتورية اليمينية خارج الولايات المتحدة.

وكان يبدو أن كارتر كان وراء اختيار "اللجنة الثلاثية" The Trilateral Commission ذات النفوذ الضخم. ووفقاً لما نشرته مجلة "فار إيستيرن إيكونوميك ريفيو" فقد أشار عضوان من مؤسسى اللجنة الثلاثية وهما روكفيللر David Rockefeller وبرجينسكى Brzezinski، إلى أن كارتر كان الشخص المناسب لانتخابات عام ١٩٧٦ ؛ لأن "الحزب الجمهورى كان بالتأكيد سيخسر الانتخابات بعد الهزة التى تعرض لها جراء فضيحة ووترجيت."

وكانت المؤسسة ترى أن وظيفة كارتر هى العمل على التخلص من الإحساس المتزايد باليأس الذى كان يسيطر على الشعب الأمريكى من الحكومة والنظام الاقتصادى والإنفاق العسكرى الضخم. وفى أثناء الحملة الانتخابية، حاول كارتر التحدث إلى المواطن العادى الذى يشعر بالارتباك، وكان أكبر تأثير له على السود الذين مثّل تمردهم فى نهاية الستينيات تحدياً كبيراً للسلطة منذ اضطرابات العمال العاطلين فى الثلاثينيات.

وحظى كارتر بتأييد "شعبى"، بمعنى أنه قد جذب مختلف شرائح المجتمع الأمريكى الذين شعروا بأنهم محاصرون من ذوى النفوذ والثروات. وبالرغم من أن كارتر كان مليونيراً يعمل فى زراعة الفول السودانى، فقد قدم نفسه على أنه فلاح أمريكى بسيط. وبالرغم من أنه كان مسانداً للحرب الفيتنامية حتى نهايتها، فقد أظهر تعاطفاً مع من عارضوها، وجذب أنظار العديد من الثائرين فى الستينيات عندما وعد بتخفيض الميزانية العسكرية.

وخلال مؤتمر صحفى، وجّه كارتر انتقاداً للمحامين لاستغلال السلطة لصالح حماية الأغنياء، وعين باتريشيا هاريس Patricia Harris، وهى سوداء، وزيرة للإسكان والتنمية، كما عين أندرو يونج Andrew Young ، أحد دعاة حقوق الإنسان، مندوباً

للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة، وعهد برئاسة جهاز خدمات الشباب إلى شاب من مناهضى الحرب وهو سام براون.

ومع ذلك، فقد كان من أخطر قرارات كارتر هو الالتزام بتقرير اللجنة الثلاثية الذى وضعه صامويل هانتجتون Samuel Huntington أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، حيث يرى التقرير أن الرئيس يجب عليه ألا يهتم بالمجموعة التى ساعدته فى الفوز فى الانتخابات. "فعلى الرئيس، عقب توليه الرئاسة مباشرة، العمل على كسب تأييد زعماء المؤسسات الكبرى". وقد تولى برجينسكى Brzezinski ، المعروف بأنه أحد المثقفين التقليديين للحرب الباردة، منصب مستشار الرئيس للأمن القومى، وتولى هارولد براون Harold Brown حقيبة وزير الدفاع، وتقول عنه أوراق وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" إنه درس إمكانية القضاء على العقبات التى تعوق عمل القنابل خلال حرب فيتنام. وتولى جيمس شليزنجر Schlesinger ، الذى كان وزيراً للدفاع فى إدارة نيكسون، منصب وزير الطاقة، ووصفته صحافة واشنطن بأنه يظهر "نزعة تكاد تكون تبشيرية فى السعى لخفض ميزانية الدفاع." كما كان من أكبر مناصرى العمل بالطاقة النووية.

وكان لأعضاء الحكومة الآخرين صلات بمجتمع المال. فبعد فترة قصيرة من انتخاب كارتر، كتب أحد الكتاب الاقتصاديين: "إن تصرفات الرئيس كارتر وتعليقاته هو وأعضاء إدارته تعكس حتى الآن ارتباطاً بمجتمع المال." كما كتب الصحفى البارز توم ويكر: "من الواضح حتى الآن أن الرئيس كارتر يميل إلى كسب ثقة وول ستريت."

انتهج كارتر سياسات مركبة وعميقة مع الحكومات القمعية، فقد استخدم مندوب الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة أندرو يونج لإظهار النوايا الحسنة تجاه المنظمة الدولية والدول الإفريقية، كما حث جنوب إفريقيا على تغيير سياستها تجاه المواطنين السود. فقد كانت هناك حاجة استراتيجية لتسوية سلمية فى جنوب أفريقيا، حيث كانت أراضيها تستخدم لزرع أجهزة التعقب الرادارى، كما كانت تمثل أهمية بالنسبة للاستثمارات الاقتصادية الأمريكية، بالإضافة إلى أنها كانت أحد المصادر المهمة

للمواد الخام (خاصة الماس) التى كانت الولايات المتحدة فى حاجة إليها. لكل هذه الأسباب، رغبت الولايات المتحدة فى وجود حكومة قوية مستقرة فى جنوب إفريقيا، خشية أن يؤدى القمع المستمر للمواطنين السود إلى نشوب حرب أهلية.

واستخدمت الولايات المتحدة نفس الأسلوب مع دول أخرى، أى الجمع بين الحاجات الاستراتيجية وتطور حقوق الإنسان، وبما أن الدافع الأساسى للتغيير هو المنفعة، وليس الإنسانية، فقد كانت هناك حاجة لبعض التغييرات الطفيفة؛ مثل ما حدث فى شيلى من إطلاق سراح عدد قليل من السجناء السياسيين. وعندما تقدم عضو الكونجرس هيرمان باديللو Badillo باقتراح يطالب ممثلى الولايات المتحدة فى البنك الدولى والمنظمات الدولية الأخرى بمعارضة منح أيّة قروض للدول التى واظبت على انتهاك حقوق الإنسان الأساسية، سواء عن طريق التعذيب أو السجن بدون محاكمة، أرسل كارتر خطاباً شخصيا لأعضاء الكونجرس يحثهم فيه على عدم الموافقة على هذا التعديل، وفى النهاية، كسب الاقتراح تأييداً فى مجلس النواب ، لكنه واجه معارضة فى مجلس الشيوخ.

وفى عهد كارتر استمرت الولايات المتحدة فى مساندة الأنظمة التى دأبت على سجن وتعذيب المنشقين عليها ، والقيام بعمليات قتل جماعية فى الفليبين وإيران ونيكاراجوا وفى إندونيسيا، التى تعرض فيها سكان تيمور الشرقية للدمار وكانوا فى طريقهم للإبادة. وعلقت مجلة "نيو ريبابليك"، المناصرة للجانب الليبرالى فى المؤسسة، بالإيجاب على سياسات كارتر قائلة: "إن السياسة الخارجية الأمريكية فى السنوات الأربع القادمة ستستمر فى العمل بالسياسة التى اتبعتها إدارتا نيكسون وفورد ... وهذا لا يعد من السلبيات ... فلابد من وجود استمرارية لأن هذا جزء من التاريخ."

وقدم كارتر نفسه على أنه موالٍ للحركة التى عارضت الحرب فى فيتنام، لكن عندما أمر نيكسون بزرع الألغام فى ميناء هايفونج واستئنف ضرب فيتنام الشمالية بالقنابل فى ربيع عام ١٩٧٢، قال كارتر: "يجب أن نساند الرئيس سواء اتفقنا معه أو اختلفنا فى بعض القضايا." وبعد انتخابه، لم يوافق كارتر على مساعدة فيتنام من

أجل إعادة الأعمار ، بالرغم من أن الدمار الذى أصاب الأراضى الفيتنامية كان نتيجة للقصف الأمريكى. وعندما وُجّه له سؤال عن هذا خلال مؤتمر صحفى أجاب بأنه لا يوجد ما يُلزم الولايات المتحدة بالقيام بهذا ؛ لأن "الدمار كان متبادلاً" . ويُعد هذا التصريح مثيراً للدهشة إذا أخذنا فى الاعتبار أن نفوذ الولايات المتحدة كان يغطى نصف أرجاء العالم بأسطولها الضخم المكون من عدد ضخم من المدمرات ومليونين من الجنود، والذى تسبب فى مقتل أكثر من مليون شخص فى دولة صغيرة وأدى إلى دمار أراضيها.

وكان من بين أهداف المؤسسة أن ترى الأجيال القادمة الحرب ليس كما وصفتها أوراق البنتاجون بوصفها هجومًا مريعًا على السكان المدنيين من أجل أهداف عسكرية استراتيجية ومصالح اقتصادية ، ولكن بوصفها أخطاء وقعت نتيجة لسوء الحظ. ففى منتصف عام ١٩٧٨ كتب نعوم تشوميسكى، أحد أبرز المثقفين المعارضين للحرب آنذاك، عن الطريقة التى يعرض بها تاريخ الحرب فى وسائل الإعلام الكبرى قائلاً: "إنهم يشوهون التاريخ ويكتبون بدلاً منه قصصاً تريح العقول ... ويجعلون دروس الحرب معاييرَ محايدة للخطأ والجهل والتكلفة."

كان من الواضح أن إدارة بوش تحاول إنهاء حالة الضياع التى أصابت الشعب الأمريكى بعد انتهاء الحرب، وذلك باتباع سياسات خارجية مُرضية وأقل عدوانية. ومن هذا المنطلق، كان تأكيد الإدارة على أهمية "حقوق الإنسان" والضغط على جنوب أفريقيا وشيلى من أجل تعديل سياساتهما لتبنى النهج الليبرالى. ولكن بالنظر إلى هذه السياسات عن قرب، نجد أنها كانت بقصد نشر النفوذ والتأثير العسكرى والاقتصادى الأمريكى فى أرجاء المعمورة. والمثال على ذلك هو إعادة المفاوضات حول قناة بنما مع جمهورية بنما فى أمريكا الوسطى، إذ كانت القناة توفر ١,٥ بليون دولار سنوياً للشركات الأمريكية من تكاليف النقل، وكانت الولايات المتحدة تحصل من خلالها على ١٥٠ مليون دولار تدفع منهم ٢,٣ مليون دولار لحكومة بنما مقابل وجود ١٤ قاعدة عسكرية أمريكية فى المنطقة.

وفى عام ١٩٠٣ خططت الولايات المتحدة لانقلاب فى "كولومبيا"، وأقامت جمهورية بنما الصغيرة فى أمريكا الوسطى، واتفقت على معاهدة تتيح لها إقامة قواعد عسكرية وسيطرة وسيادة على قناة بنما إلى الأبد. وفى عام ١٩٧٧، ونتيجة للمسيرات المناهضة للولايات المتحدة، قررت إدارة كارتر إعادة المفاوضات حول هذه الاتفاقية. وكانت صحيفة نيويورك تايمز تبدى تعاطفاً مع هذه القناة، فكتبت تقول: "لقد سرقنا القناة وأخفينا الدليل الدامغ على ذلك."

ومع حلول عام ١٩٧٧، فقدت القناة أهميتها من الناحية العسكرية للولايات المتحدة، حيث لم تعد قادرة على تمرير ناقلات البترول الضخمة ولا حاملات الطائرات. ولذا أعادت إدارة كارتر المفاوضات حول معاهدة جديدة تقضى بالتخلص التدريجى من القواعد العسكرية الأمريكية (التى يمكن أن يعاد نشرها فى أى مكان فى المنطقة)، وقد لقى هذا الاتجاه معارضة من جانب المحافظين. ووفقاً للمعاهدة الجديدة يمكن نقل الملكية القانونية للقناة إلى بنما بعد فترة، لكن الاتفاقية تضمنت عبارات غامضة يمكن أن تستخدم كذريعة للتدخل العسكرى الأمريكى فى ظروف معينة.

وبغض النظر عن براعة كارتر فى السياسة الخارجية، فقد كانت هناك بعض الأسس الرئيسية التى شاعت فى أواخر الستينيات والسبعينيات، فقد كانت الشركات الأمريكية تمارس أنشطتها فى جميع أنحاء المعمورة بشكل لم يسبق له مثيل. ففى بداية السبعينيات، كان هناك ثلاثمائة شركة، من بينها سبعة بنوك ضخمة، حصلت على ٤٠٪ من صافى أرباحها من خارج الولايات المتحدة ، وكانت هذه الشركات تسمى الشركات "متعددة الجنسيات" رغم أن الحقيقة هى أن ٩٠٪ من موظفيها كانوا أمريكيين. وكانت هذه الشركات بوصفها تكتلات اقتصادية تمثل ثالث اقتصاد فى العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

وكان من الواضح من أرقام وزارة التجارة الأمريكية أن علاقة هذه الشركات العالمية بالدول الفقيرة هى علاقة المستغل لفترة طويلة، ففى الفترة بين عامى ١٩٥٠ و١٩٦٥ استثمرت الشركات الأمريكية فى أوروبا ٨,١ بليون دولار وحققت أرباحاً تقدر

بحوالى ٥,٥ بليون دولار. وفى أمريكا اللاتينية استثمرت ٣,٨ بليون دولار وحققت أرباحاً تقدر بحوالى ١١,٢ بليون دولار، بينما لم تستثمر فى أفريقيا سوى ٥,٢ بليون دولار وحققت أرباحاً بلغت ١٤,٣ بليون دولار.

وكان هذا يشبه الوضع الاستعمارى القديم؛ حيث أصبحت أماكن الثروات الطبيعية فريسة للدول القوية التى تستمد قوتها من هذه الثروات المنهوبة. واعتمدت الشركات الأمريكية على الدول الفقيرة لكى تحصل منها على احتياجاتها كاملة من الماس والقهوة والبلاتينيوم والزئبق والمطاط الطبيعى ومعدن الكوبالت، حيث حصلت على ٩٨٪ من المنجنيز و٩٠٪ من الكروم والألومنيوم من خارج إفريقيا، بينما حصلت على ٢٠٪ أو ٤٠٪ من وارداتها لاحتياجات معينة (البلاتينيوم - الزئبق - الكوبالت - الكروم - المنجنيز) من إفريقيا.

وكانت إحدى القواعد الأخرى التى اتبعها البيت الأبيض، سواء كان يسكنه ديمقراطيون أو جمهوريون، تدريب الضباط العسكريين الأجانب. فقد كان للجيش الأمريكى مدرسة فى منطقة القناة The Canal Zone تسمى "مدرسة الأمريكتين" تخرج فيها آلاف الزعماء العسكريين من أمريكا اللاتينية، ومنهم على سبيل المثال، ستة ضباط ممن اشتركوا فى الانقلاب العسكرى فى شيلى الذى أسقط حكومة ألليندى Allende الديمقراطية عام ١٩٧٣، وقد أشار قائد المدرسة للصحافة: "إننا نظل على اتصال بالضباط الذين تخرجوا فى هذه المدرسة." وحتى ذلك الوقت، كانت الولايات المتحدة معروفة بأنها سخية مع أغنيائها. فكثيراً ما قدمت المساعدات لضحايا الكوارث، ولكن الحقيقة هى أن هذه المساعدات اعتمدت على الولاء السياسى. فقد أصابت إفريقيا الوسطى حالة من الجفاف استمرت ستة أعوام نتج عنها وفاة مائة ألف إفريقى نتيجة للمجاعة. وأشار تقرير "هيئة كارنيجى للمِنح" إلى أن وكالة التنمية الدولية تجاهلت مد يد العون لبدو منطقة الساحل فى أفريقيا الوسطى، التى تغطى ست دول، وكان رد الوكالة على ذلك هو أن "هذه الدول لم تكن لها روابط تاريخية أو اقتصادية مع الولايات المتحدة."

وفى بداية عام ١٩٧٥، نشرت الصحافة تصريحاً من واشنطن يفيد بأن "وزير الخارجية هنرى كيسينجر بدأ فى ممارسة سياسة قطع المساعدات عن الدول التى عارضت الولايات المتحدة فى الاقتراعات التى تمت فى الأمم المتحدة، وأن هذه المساعدات قد تضمنت المساعدات الغذائية والإغاثة الإنسانية." وكانت معظم المساعدات ذات طابع عسكرى. ومع نهاية عام ١٩٧٥، كانت الولايات المتحدة قد صدّرت معدات عسكرية بنحو ٩,٥ بليون دولار. وبعد أن تعهدت إدارة كارتر بوقف بيع الأسلحة للأنظمة القمعية، استمرت، بعد فوزها فى الانتخابات، فى نفس حجم المبيعات.

وظل الجانب العسكرى يقتطع قدراً كبيراً من الميزانية القومية. فعندما كان كارتر يستعد للانتخابات صرح للجنة الانتخابية للحزب الديمقراطى قائلاً: "بدون أن نعرض الأمة للخطر أو نخل بالتزاماتنا تجاه حلفائنا يمكن أن نخفض حجم الإنفاق الدفاعى من ٥ إلى ٧ بليون دولار سنويا." لكن ما حدث هو أن أول اقتراح قدمه للميزانية لم يتضمن تخفيضاً بل زيادة فى حجم الإنفاق العسكرى بنحو ١٠ بليون دولار، بل إنه اقترح أن تنفق الولايات المتحدة ألف بليون (تريليون) دولار فى الخمس سنوات القادمة على القوات المسلحة. وكانت وزارة الزراعة قد أعلنت أنها ستوفر ٢٥ مليون دولار سنويا عن طريق وقف صرف وجبات اللبن لعدد ١٤ مليون تلميذ ممن هم فى حاجة لهذه الوجبات المجانية.

وإذا كانت مهمة كارتر هى استعادة الثقة فى النظام، فقد كان إيجاد حلول للمشاكل الاقتصادية هو أكبر دليل على الفشل. فقد استمرت أسعار الأغذية والسلع الضرورية فى الارتفاع أكثر من الزيادة فى الأجور. وظلت معدلات البطالة الرسمية تتراوح ما بين ٦٪ إلى ٨٪ بينما كانت معدلات البطالة غير الرسمية أعلى من ذلك. وتراوحت معدلات البطالة لمجموعات معينة من السكان ـ الشباب خاصة السود ـ بين ٢٠٪ و ٣٠٪.

وسرعان ما اتضح أن السود الذين مثلوا أكبر مجموعة مساندة لكارتر فى الانتخابات قد شعروا بالخيبة من سياساته؛ فقد عارض كارتر المساعدات الحكومية

التى تقدم للفقراء ممن هم فى حاجة لعمليات إجهاض. وعندما ألمح إليه البعض أن هذا لا يعد عدلاً لأن بعض النساء الثريات يمكنهن إجراء عمليات الإجهاض بسهولة، أجاب: "من المعروف أن هناك الكثير من الأشياء غير العادلة فى الحياة وهناك أشياء يستطيع الأغنياء تحملها فى حين لا يقدر الفقراء عليها."

لم تكن "النزعة الشعبية" لكارتر واضحة فى سياسات إدارته الخاصة بالبترول والغاز، فقد كان من "خطة الطاقة" التى اتبعها كارتر إلغاء تنظيم أسعار الغاز الطبيعى للمستهلك. وكانت شركة "إيكسون" أكبر منتج للغاز، وكانت عائلة روكفيللر تمتلك أكبر عدد من الأسهم الخاصة فى هذه الشركة.

وفى بداية إدارة كارتر، اكتشفت الإدارة الفيدرالية للطاقة أن تكاليف شركة "جالف أويل" للبترول قد تعدت ٧٩,١ مليون دولار من البترول الخام الذى تحصل عليه من الشركات الأجنبية. وبعد ذلك احتُسبت هذه التكاليف على المستهلكين. وفى صيف ١٩٧٨، أعلنت الإدارة عن التوصل إلى "تسوية " مع شركة "جالف أويل" وافقت بمقتضاها الشركة على أن تدفع ٤٢,٤ مليون دولار، وأخبرت الشركة المساهمين بأن "هذه الأموال لن يكون لها تأثير ؛ لأن الشركة كانت توفر خلال السنوات السابقة."

وصرح محامى وزارة الطاقة الذى قام بصياغة التسوية أن ما حدث قد جنب الطرفين إجراءات طويلة ومكلفة فى المحاكم. ولكن هل كانت القضية ستتكلف ٣٦,٩ مليون دولار أسقطت فى التسوية؟ هل كانت الحكومة ستسمح بإطلاق سراح لص بنوك دون قضاء فترة العقوبة مقابل الحصول على نصف الغنيمة؟ لقد كانت التسوية أروع مثال على ما صرح به كارتر من قبل، فى أثناء اجتماع مع المحامين خلال حملته الانتخابية، بأن القانون فى جانب الأثرياء.

وكان من الواضح أن واقع سوء توزيع الثروة فى أمريكا لن يتأثر بسياسات كارتر أكثر مما كان الحال عليه فى أثناء الإدارات السابقة ، سواء كانت من المحافظين أو من الليبراليين. ووفقاً لما صرح به أندرو زيمبليست **Andrew Zimblist** الكاتب الاقتصادى بصحيفة "لوموند ديبلوماتيك" الفرنسية عام ١٩٧٧، فإن دخل أعلى ١٠٪ من الشعب

الأمريكي يزيد بنسبة ٣٠٪ عن أقل ١٠٪، وأن أعلى ١٪ من الشعب كان يمتلك ٣٣٪ من ثروة الأمة، وأن ٥٪ من أغنى الأغنياء كانوا يمتلكون ٨٣٪ من الأسهم الشخصية في الشركات ، وكان نصيب أكبر ١٠٠ شركة في الضرائب ٢٦,٩٪ من الضرائب (بالرغم من أن الضرائب المتدرجة للدخل قد خدعت الناس وجعلتهم يعتقدون أن الأثرياء قد دفعوا ٥٠٪ على الأقل من إجمالي الضرائب). ودفعت شركات البترول البارزة ٥,٨ ٪ من إجمالي الضرائب (وفقاً لتقديرات هيئة الضرائب عام ١٩٧٤). وكان هناك في حقيقة الأمر ٢٤٤ شخصاً لم يدفعوا أية ضرائب رغم أن دخل الواحد منهم كان يزيد على مائتي ألف من الدولارات.

وفي عام ١٩٧٩، ومع استمرار كارتر في تقديم اقتراحات ضعيفة لمناصرة الفقراء واستمرار الكونجرس في رفضها بشدة، أشارت مديرة صندوق الدفاع عن الأطفال في واشنطن ماريان رايت أيدلمان **Marian Wright Edleman**، وهي سوداء، إلى بعض الحقائق من قبيل أن واحداً من كل سبعة أطفال أمريكيين (الذين يبلغ عددهم ١٠ ملايين) لم يتلق الرعاية الصحية الأساسية ، ولم ير واحد من كل ثلاثة أطفال أقل من ١٧ عاما (١٨ مليون) طبيباً للأسنان. وفي مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز، كتبت إيدلمان:

> **قامت لجنة ميزانية مجلس الشيوخ مؤخراً ... باقتطاع ٨٨ مليون دولار من ٢٨٨ مليون دولار من برنامج الإدارة الذي يعمل على حماية الأطفال وعلاج مشكلاتهم الصحية. وفي نفس الوقت، حصل مجلس الشيوخ من شركة "ليتون" على مبلغ ٧٢٥ مليون دولار على سبيل الكفالة ورأى أن يقدم للبحرية الأمريكية مالا يقل عن مدمرتين بناء على أوامر من شاه إيران.**

ووافق كارتر على إصلاحات "ضريبية" كانت في الأساس ذات فائدة للشركات الاقتصادية. فقد لاحظ رجل الاقتصاد روبرت ليكاتشمان **Robert Lekachman** حدوث زيادة حادة في أرباح الشركات (٤٤٪) خلال الربع الأخير من عام ١٩٧٨ مقارنة

بالربع الأخير من العام السابق، وكتب في مجلة "ذا نيشَن"The Nation يقول: "ربما يكون أكثر ما أثار الغضب من الرئيس في نوفمبر الماضي هو توقيعه على قانون يقضي بتخفيض ١٨ بليون دولار من الضرائب ، والتي تعود أرباحها إلى أفراد وشركات غنية." وفي عام ١٩٧٩، وفي الوقت الذي كانت تقتطع فيه أجور الفقراء، كان راتب رئيس شركة "موبيل أويل" يصل إلى أكثر من مليون دولار سنوياً. وفي العام نفسه، زادت أرباح شركة "إكسون" للبترول بنسبة ٦٥٪ (أكثر من ٤ بلايين دولار)، في حين توقفت ثلاثة آلاف محطة وقود عن العمل.

وحاول كارتر التمسك ببرامج للإصلاح الاجتماعي لكنه لم يستطع ذلك بسبب الميزانية العسكرية الضخمة، وربما كان ذلك بسبب التصدي للاتحاد السوفيتي. ولكن عندما قام الأخير بغزو أفغانستان في عام ١٩٧٩، لم يستطع كارتر سوى القيام ببعض الأعمال الرمزية مثل الدعوة إلى مقاطعة دورة الألعاب الأوليمبية في موسكو عام ١٩٨٠ .

ومن ناحية أخرى، كانت الآلة العسكرية الأمريكية تُستخدم من أجل مساندة الأنظمة القمعية التي تحارب المتمردين اليساريين. ففي عام ١٩٧٧، أصدرت إدارة كارتر تقريراً واضحاً للكونجرس يقول: "إن عددا من الدول التي تمتلك سجلاً مشيناً في مجال حقوق الإنسان تمثل أهمية من الناحية الأمنية وفي مجال السياسة الخارجية بالنسبة للولايات المتحدة."

ولذلك طلب كارتر في ربيع عام ١٩٨٠ من الكونجرس الموافقة على منح ٥,٧ مليون دولار لقادة الانقلاب في السلفادور لمواجهة تمرد للفلاحين. وفي عام ١٩٧٨ في الفلبين وبعد انتهاء انتخابات الجمعية القومية، قام الرئيس فرديناند ماركوس Ferdinand Marcos بسجن ٢١ من مرشحي المعارضة الذين خسروا في الانتخابات ، وتعرض العديد من السجناء للتعذيب وقُتل كثير من المدنيين. وبالرغم من هذا كله، حثّ كارتر الكونجرس على منح ماركوس ٣٠٠ مليون دولار في شكل مساعدات عسكرية لمدة خمس سنوات.

وفى نيكاراجوا، ساعدت الولايات المتحدة الدكتاتور زوموزا Zomoza على الاحتفاظ بمنصبه لعقود. فبسبب عدم فهم الضعف الأساسى لهذا النظام ومدى شعبية الثورة التى قامت ضده استمرت إدارة كارتر فى مساندة زوموزا حتى قبيل سقوط نظامه عام ١٩٧٩ . وفى إيران وفى عام ١٩٧٨، تجلى الشعور الكامن لسنوات طويلة تجاه الطابع الاستبدادى لنظام شاه إيران من خلال المظاهرات العديدة التى انتشرت فى جميع أرجاء إيران. وفى سبتمبر عام ١٩٧٨، قامت قوات الشاه بقتل مئات المتظاهرين، وفى اليوم التالى أكد كارتر على مساندته لشاه إيران، وكتب مراسل وكالة الصحافة الدولية المتحدة UPI من طهران يقول:

بالأمس فتحت قوات الشرطة الإيرانية النيران على المتظاهرين لليوم الثالث على التوالى، وأجرى الرئيس كارتر اتصالاً تليفونياً بالقصر الملكى يعرب فيه عن مساندته للشاه محمد رضا بهلوى الذى كان يواجه أسوأ أزمة خلال فترة حكمه التى استمرت ٣٧ عاماً. وقد غادر تسعة من أعضاء البرلمان خطاباً كان يقدمه رئيس الوزراء الإيرانى الجديد وهم يصرخون بأن يديه "ملطختان بالدماء" من جراء الحملة العنيفة التى شنها على المسلمين المحافظين وغيرهم من المعارضين.

وفى ١٣ ديسمبر ١٩٧٨، كتب نيكولاس جيج Nicholas Gage فى صحيفة نيويورك تايمز:

> **وفقاً لما صرحت به مصادر من سفارة الولايات المتحدة، حضر عدد كبير من المتخصصين من أجل مساعدة فريق السفارة للمساهمة فى مجهودات مساعدة شاه إيران للتخلص من التحدى المتزايد الذى يواجه حكمه ... وأضافت المصادر أن من بين القادمين الجدد عدداً من أفراد المخابرات الأمريكية، بالإضافة إلى بعض الدبلوماسيين والعسكريين.**

وفى بداية عام ١٩٧٩، ومع تفاقم الأزمة فى إيران، صرح المحلل الرئيسى للشئون الإيرانية فى جهاز المخابرات الأمريكية لمراسل صحيفة "نيويورك تايمز"

سيمور هيرش Seymour Hersh " أنه ورفاقه كانوا على علم بالتعذيب الذى تعرض له المنشقون الإيرانيون على يد جهاز "السافاك" الذى أنشأه الشاه فى أواخر الخمسينيات بمساعدة من جهاز المخابرات الأمريكية ، التى شارك رجالها فى تدريب المسئولين عن جهاز السافاك على وسائل التعذيب.

وكان ما يحدث فى إيران ثورة شعبية هائلة، وفى النهاية هرب الشاه. وبعد ذلك قبلت إدارة كارتر دخوله البلاد لتلقى العلاج، ووصلت المشاعر المناهضة للولايات المتحدة إلى ذروتها؛ ففى ٤ نوفمبر ١٩٧٨ استطاع بعض الطلاب الإيرانيين السيطرة على مبنى سفارة الولايات المتحدة فى طهران ، واحتجزوا اثنين وخمسين من موظفى السفارة كرهائن وطالبوا بعودة الشاه إلى إيران لكى يلقى عقابه.

واستمر احتجاز الرهائن ١٤ شهراً، وكانت القضية، التى تصدرت الأخبار فى الولايات المتحدة، قد أثارت مشاعر وطنية غامرة. وعندما طلب كارتر من هيئة التوطين والهجرة أن تبدأ فى إجراءات ترحيل الطلاب الإيرانيين الذين لا يملكون تأشيرات قانونية، وافقت صحيفة نيويورك تايمز على هذه الخطوة ولكن فى تحفظ. وانتابت السياسيين والصحفيين نوبة من الهوس الشديد، واستبعدت فتاة إيرانية من أصل بريطانى من الاشتراك فى برنامج حفل مدرسى كانت ستلقى فيه الخطاب الافتتاحى، وظهرت لافتة ضخمة تقول "اضربوا إيران" على السيارات فى كل أنحاء البلاد.

وكان من النادر أن تجد صحفياً جريئاً يكتب ما كتبه ألان ريتشمان Alan Rich-man فى صحيفة "بوسطن جلوب" بعد إطلاق سراح الرهائن الاثنين والخمسين وهم أحياء وبصحة جيدة. فقد قال إن هناك عدم اتزان فى ردود أفعال الأمريكيين تجاه هذه الحادثة وحوادث أخرى انتهكت فيها حقوق الإنسان. وقال: "لقد كان عددهم اثنين وخمسين وهذا يمكن استيعابه، ولكن حالهم لم يكن مثل حال خمسة عشر ألفاً من الأبرياء الذين اختفوا فى الأرجنتين ... إن الرهائن تحدثوا لغتنا ولكن كان هناك ٣٠٠ شخص قتلوا فى جواتيمالا لم ينطقوا بها!"

وعندما واجه كارتر رونالد ريجان في الانتخابات الرئاسية، كان الرهائن ما يزالون رهن الاحتجاز. وكانت تلك الحادثة، بالإضافة إلى الضائقة الاقتصادية التي شعر بها الكثيرون، أحد الأسباب الرئيسية في هزيمة كارتر. وكان فوز ريجان، الذي خسر بعد ثماني سنوات أمام جورج بوش، يعني تولي حلقة أخرى من المؤسسة المسئولية، وهي تفتقر إلى الليبرالية التي اتسم بها عهد كارتر، حتى وإن كانت محدودة. فالسياسات ستكون أكثر حماقة، وستنخفض مكاسب الفقراء، وتنخفض الضرائب لصالح الأغنياء، وستحدث زيادة في الميزانية العسكرية، وسيمتلئ نظام المحكمة الفيدرالية بالقضاة المحافظين، وستزداد محاولات القضاء على الحركات الثورية في منطقة الكاريبي.

وكان من شأن سنوات رئاسة ريجان وبوش (اثنا عشر عاماً) أن تحول النظام القضائي الفيدرالي إلى مؤسسة محافظة تماماً بعد ما كان بها قدر من الليبرالية. فمع قدوم خريف ١٩٩١، كان ريجان وبوش قد ملئا أكثر من نصف المحاكم الفيدرالية بالقضاة المحافظين وعيّنا من القضاة اليمينيين ما يكفي لتغيير المحكمة الدستورية العليا.

وكانت المحكمة الدستورية العليا في السبعينيات، وتحت زعامة القاضيين الليبراليين وليام برينان William Brennan وثيرجود مارشال Thurgood Marshall، قد قضت بعدم دستورية عقوبة الإعدام. وساند القاضيان حق النساء في اختيار الإجهاض ، كما قدما تفسيراً لقانون الحقوق المدنية يمنح النساء والسود اهتماما خاصاً لتعويضهم عن التفرقة العنصرية في الماضي.

وعين رونالد ريجان وليام رينكويست William Rehnquist رئيساً للقضاة في المحكمة الدستورية العليا، وكان نيكسون أول من عينه فيها. وخلال فترتي بوش وريجان، استطاعت المحكمة، تحت رئاسة رينكويست، أن تصدر عدداً من القرارات حيث أعادت عقوبة الإعدام ، وقللت من حقوق المحتجزين في سجون الشرطة ، ومنعت الأطباء الذين يعملون في عيادات حكومية لتحديد النسل من الإفصاح عن معلومات

الإجهاض للنساء. كما أعلنت المحكمة العليا أن الفقراء يجب أن يدفعوا ثمنا للتعليم العادى (حيث لم يكن التعليم قد أصبح "حقاً أساسياً " بعد).

وكان القاضيان برينان ومارشال آخر القضاة الليبراليين فى المحكمة العليا. وبالرغم من عدم رغبتهما فى التوقف عن الكفاح، فإنهما اضطرا للتقاعد نتيجة للمرض وكبر السن ، وكان آخر خطوة فى سبيل إضفاء الوجهة المحافظة على المحكمة العليا هو ترشيح بوش لقاض أسود محافظ يدعى كلارنس توماس Clarence Thomas ليحل محل مارشال. وبالرغم من الشهادة الدرامية لأحد رفاقه القدامى، وهى محامية سوداء تدعى أنيتا هيل ، التى قالت إن توماس حاول أن يتحرش بها جنسياً، فقد وافق عليه مجلس الشيوخ. وبذلك اتجهت المحكمة العليا بشدة نحو اليمين.

ونتيجة لوجود قضاة فيدراليين محافظين يؤيدون اتجاهات البيزنيس لمجلس العلاقات الوطنى، ضعفت الحركة العمالية التى كانت تعانى تدهوراً داخلياً كبيراً. ووجد العمال المضربون أنفسهم دون حماية قانونية. فقد كان من أُوْلَى القرارات التى اتخذتها إدارة ريجان الفصل الجماعى لكثيرمن عمال الملاحة الجوية المضربين. كان هذا تحذيراً للإضرابات المستقبلية ، وإشارة إلى ضعف الحركة العمالية التى كانت ذات تأثير ونفوذ خلال الثلاثينيات والأربعينيات.

لقد استفادت "أمريكا الاقتصادية" أكبر استفادة من فترة رئاسة ريجان. فخلال الستينيات والسبعينيات ظهرت حركة بيئية مهمة فى البلاد ، وهى حركة تشعر بالقلق من تسمم الهواء والبحار والأنهار ، ومن وفاة الآلاف كل عام نتيجة لظروف العمل القاسية. وففي نوفمبر عام ١٩٦٨ انفجر منجم فى منطقة ويست فرجينيا أدى إلى مقتل ٧٨ من عمال المناجم وخرجت على إثره آلاف المسيرات التى تندد بالحادث فى حى المناجم ، ونتيجة لذلك أصدر الكونجرس قانون حماية وأمن مناجم الفحم عام ١٩٦٨, وتحدث وزير العمل فى إدارة نيكسون عن "اتجاه قومى جديد نحو تحسين البيئة."

وفى عام ١٩٧٠، وقّع الرئيس نيكسون قانون السلامة والصحة المهنية OSHA نتيجة للمطالبة القوية من جانب الحركة العمالية ومجموعات المستهلكين، وقد وجدها

الرئيس نيكسون فرصة لكسب تأييد ناخبى الطبقة العاملة. ويمثل هذا التشريع المهم حقاً عالمياً فى وجود مكان عمل آمن وصحى ، ويخلق آلية ملزمة بذلك. ويشير إلى هذا هربرت ستاين Herbert Stein، رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين فى إدارة نيكسون، قائلاً فى أسف: "إن إدارة نيكسون لم تستطع إحكام السيطرة على التشريعات البيئية."

وعندما وصل الرئيس جيمى كارتر للسلطة، امتدح برنامج السلامة والصحة المهنية ولكنه كان يرغب فى إرضاء المجتمع التجارى. وعين كارتر إيولا بينجهام Eula Bingham رئيسة للبرنامج ، وقد حاربت من أجل تنفيذ هذا القانون وكان النجاح يصيبها فى بعض الأحيان، لكن الرئيس كارتر كان يشعر بقلق شديد من الصعوبات التى خلقها القانون لعالم رجال الأعمال نتيجة لمظاهر الاضطراب فى الاقتصاد الأمريكى ، ونتيجة لارتفاع أسعار البترول ومعدلات البطالة والتضخم. ولهذا، كان كارتر من دعاة القضاء على القيود المفروضة على الشركات وإعطائها مزيداً من الحرية حتى وإن كان هذا يسبب ضرراً للطبقة العاملة والمستهلكين. وأصبحت القوانين البيئية ضحية لهذا النوع من التحليل الذى يهتم بالتكلفة والفائدة ، والذى أصبحت فيه قوانين الأمن والصحة العامة أمراً ثانوياً.

وطغى الاهتمام بالاقتصاد الذى يعنى بأرباح الشركات على الاهتمام بمصلحة العمال والمستهلكين. فقد اقترح الرئيس ريجان استبدال التنفيذ الإجبارى لقوانين البيئة حتى تكون "تطوعية" ، وأن يترك النظر فيها لرجال الأعمال لكى يحددوا ما يجب عمله. كما قام بتعيين رجل أعمال رئيساً لبرنامج السلامة والصحة المهنية مع أنه كان يبغض أهداف هذا البرنامج وكان أول قراراته أمراً بتدمير مائة ألف نسخة من كتاب حكومى يوضح أخطار غبار القطن على صحة عمال النسيج!

وفى تقييمه للسياسة البيئية للرئيس كارتر وريجان، يقول عالم السياسة وليام جروفر William Grover فى كتابه **الرئيس سجيناً** The President as Prisoner منتقداً:

يبدو أن قانون السلامة والصحة المهنية قد ظل يدور فى حلقة من الرؤساء الليبراليين الذين يريدون الاحتفاظ ببعض البرامج الصحية والأمنية القانونية من ناحية، ويريدون نمواً اقتصادياً من أجل نجاحهم من ناحية أخرى. كما وقع البرنامج فى أيدى رؤساء محافظين ركزوا بشدة على إحداث المعادلة. ومثل هذه الحلقة ستظل تقلل من أهمية الحاجة إلى أماكن عمل صحية وآمنة ... والاهتمام بأن الالتزام ببرنامج السلامة والصحة المهنية سيكون فى نفس درجة أهمية رجال المال وأولياتهم !

وقدم الرئيس بوش نفسه على أنه "رئيس بيئى" وأشار بفخر إلى توقيعه على قانون "من أجل هواء نظيف" عام ١٩٩٠، لكن هذا القانون ضعف بعد سنين نتيجة لإصدار قانون جديد من هيئة حماية البيئة يسمح لرجال الصناعة بأن يطلقوا مواد ملوثة فى الجو بزيادة قدرها ٢٥٤ طن.

بالإضافة إلى ذلك، لم يتم تخصيص أموال كافية من أجل العمل على تنفيذ القانون. ووفقا لتقرير هيئة حماية البيئة، فقد تسببت مياه الشرب الملوثة فى انتشار ١٠٠.٠٠٠ وباء بين عامى ١٩٧١ و١٩٨٥، وفى السنة الأولى من فترة بوش تلقت الهيئة ٨٠٠.٠٠٠ شكوى من المياه الملوثة وتم فحص شكوى واحدة من كل مائة. وبين عامى ١٩٩٠ و١٩٩٢، ووفقاً لمجلس الدفاع عن المصادر القومية وهى جماعة بيئية أهلية، بلغت مخالفات قانون صحة مياه الشرب حوالى ٢٥٠.٠٠٠ مخالفة (وكان هذا القانون قد صدر خلال إدارة نيكسون). وبعد دخول بوش للبيت الأبيض بفترة قصيرة، أعد عالم حكومى شهادة من أجل تقديمها للجنة الكونجرس بشأن الآثار الخطيرة للاستخدام الصناعى للفحم ووقود الحفريات على درجة الاحتباس الحرارى الكوكبى وتآكل طبقة الأوزون المحيطة بالأرض. ولكن البيت الأبيض غير الشهادة رغماً عن العالم من أجل تقليل الأخطار(صحيفة بوسطن جلوب ٢٩ أكتوبر ١٩٩٠). ومرة أخرى يشعر مجتمع المال بالقلق من القوانين التى تهتم بصحة الشعب.

وقد اتضح مدى خطورة الكارثة البيئية على العالم، مما دفع البابا يوحنا الثانى إلى الشعور بالحاجة إلى توبيخ الطبقات الغنية فى الدول الغنية لتسببها فى مثل هذه المشكلة قائلاً: "إن الخلل البيئى اليومى يعلمنا أن حجم الطمع والأنانية، الفردية والجماعية، يعملان ضد نظام الكون".

وفى مؤتمر عالمى تناول أخطار الاحتباس الحرارى، اقترحت المجموعة الأوروبية واليابان مستويات معينة وأوقات محددة لإطلاق ثانى أكسيد الكربون، الذى كانت الولايات المتحدة أحد أسبابه الرئيسية. وفى صيف عام ١٩٩١، ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن إدارة بوش تخشى أن هذا قد يضر باقتصاد الدولة على المدى القصير من أجل فائدة بيئية غير مؤكدة على المدى البعيد. وكان الرأى العلمى واضحاً بشأن الفائدة بعيدة المدى ، لكن هذا لم يكن بقدر أهمية "الاقتصاد" الذى يعنى احتياجات الشركات!

وفى أواخر الثمانينيات بات من الواضح أن مصادر الطاقة المتجددة (الماء والرياح وأشعة الشمس) يمكن أن تنتج طاقة أكثر فائدة من الأجهزة النووية التى أصبحت عالية التكلفة والخطر، بالإضافة إلى صعوبة التخلص من مخلفاتها الإشعاعية بطريقة آمنة. ومع ذلك، قامت إدارتا بوش وريجان بتخفيضات عالية فى مجال الأبحاث المتعلقة بإمكانية الاستفادة من الطاقة المتجددة (فى عهد ريجان بلغت نسبة التخفيضات ٩٠٪).

وفى يونيو ١٩٩٢ اشتركت أكثر من ١٠٠ دولة فى المؤتمر البيئى " قمة الأرض " فى البرازيل. وأوضحت الإحصاءات أن جيوش العالم كانت مسئولة عن ثلثى نسبة الغازات التى تسببت فى تآكل طبقة الأوزون، ولكن عندما ظهر اقتراح بأن تناقش "قمة الأرض" تأثير الأنشطة العسكرية على التدهور البيئى اعترض وفد الولايات المتحدة ولم يقبل الاقتراح.

وكان من بين أهداف إدارتى بوش وريجان الأساسية الاحتفاظ بمؤسسة عسكرية ضخمة والحصول على معدلات أرباح لشركات البترول. فبعد دخول ريجان للبيت

الأبيض بفترة قصيرة، اشترك رؤساء إحدى وعشرين شركة بترول فى إعادة تزيين حجرات البيت الأبيض بمبلغ يقدر بحوالى ٢٧٠,٠٠٠ دولار. ووفقاً لما نشرته وكالة أسوشيتيد بريس:

> **جاءت هذه المنحة بعدما أطلق بوش عنان أسعار البترول بأربعة أسابيع، وهو قرار منح الشركات ٢ بليون دولار. وفى مدينة أوكلاهوما صرح جاك هودج Hodge صاحب شركة "أويل كور" بأن أكبر رجل فى هذه البلاد يجب أن يعيش فى أحد أفضل الأماكن فيها. لقد ساهم الرئيس ريجان فى صناعة الطاقة".**

وبينما كان ريجان يبنى ترسانة عسكرية (مخصصات بأكثر من تريلون دولار فى أول سنة من فترته الرئاسية الأولى)، قام بتخفيض فوائد الفقراء من أجل تمويل هذه الترسانة. ففى خلال عام ١٩٨٤، تم تخفيض ١٤٠ بليون دولار من البرامج الاجتماعية وزادت ميزانية الدفاع ١٨١ بليون دولار فى نفس الفترة، كما اقترح ريجان تخفيض الضرائب بنحو ١٩٠ بليون دولار(يذهب معظمها لصالح الأثرياء).

وبالرغم من التخفيضات الضريبية والزيادة فى المخصصات العسكرية، أصر ريجان على أنه سيحافظ على اتزان الميزانية ؛ لأن تخفيضات الضرائب سوف تحفز الاقتصاد على خلق مزيد من الدخل. ويقول عالم الاقتصاد واسيلى ليونتيف **Wassily Leontief**، الحائز على جائزة نوبل، فى جفاء: "ليس هناك احتمال بأن يحدث هذا. بل فى الحقيقة أنا أؤكد أن هذا لن يحدث". وتبين أرقام وزارة التجارة أن الفترات التى انخفضت خلالها ضرائب الشركات (١٩٧٣، ١٩٧٥ ـ ١٩٧٩، ١٩٨٢) لم تظهر أيّة مؤشرات على زيادة استثمار رأس المال، بل على العكس أظهرت تناقصاً حاداً. فقد حدث ارتفاع فى استثمار رأس المال (١٩٧٥ ـ ١٩٧٩) عندما كانت ضرائب الشركات مرتفعة إلى حد ما عما كانت عليه خلال السنوات الخمس السابقة.

وفى بداية إدارة ريجان انتشرت فكرة عدم الحاجة لمساعدة الحكومة وأن الشركات الخاصة يمكن أن تهتم بالفقراء. ورداً على هذا، كتبت إحدى الأمهات، فى صحيفة محلية، تقول:

إننى أستفيد من برامج مساعدة أطفال المحتاجين ، ولدى طفلان بالمدرسة ... لقد تخرجت فى الكلية بتفوق بالمركز الـ١٢٨ فى فرقة تتكون من أكثر من ١٠٠٠ طالب ، وحصلت على الماجستير فى اللغة الإنجليزية وعلم الاجتماع، ولدى خبرة فى رعاية الأطفال والعمل الاجتماعى ... لقد ذهبت إلى مكتب CETA للتوظيف ... لكن المكتب لم يجد وظيفة لى ... أذهب أسبوعياً إلى المكتبة للبحث فى إعلانات العمل وأحتفظ بنسخة من كل خطاب أرسلت به سيرتى الذاتية... لقد تقدمت لوظائف تدفع ٨٠٠٠ دولار سنوياً فقط. إننى أعمل الآن غير متفرغة فى مكتبة بأجر ٣,٥٠ دولار فى الساعة... يبدو أن هناك مكاتب توظيف لا تجد وظائف ، وحكومة لا تستطيع أن تسيطر... كما أن لدينا نظاماً اقتصادياً لا يستطيع أن يوفر وظائف للقادرين على العمل ... لقد اضطررت إلى بيع سريرى الأسبوع الماضى من أجل دفع تأمين سيارتى التى أستخدمها من أجل البحث عن وظيفة مع غياب وسائل المواصلات التى تصل إلى أماكن بعيدة .. وأنام فوق قطعة من المطاط الرغوى أعطاها لى شخص ما ... إذن هذا هو الحلم الأمريكى الذى جاء والدى إلى هنا من أجل تحقيقه! اعمل بجد، احصل على تعليم جيد، اتبع القوانين وستكون ثرياً! ... إننى لا أود أن أكون ثرية. لكنى أرغب فقط فى إطعام أبنائى وأن أعيش بقدر من الكرامة.

واشترك الديمقراطيون والجمهوريون فى إدانة برامج الرعاية الاجتماعية، ربما من أجل كسب التأييد السياسى للطبقة الوسطى التى اعتقدت أنها تدفع الضرائب من أجل مساعدة الأمهات المراهقات والذين يتكاسلون عن العمل. لم يعلم الكثير من الشعب، ولم يطلعهم رجال السياسة والإعلام، أن برامج الرعاية الاجتماعية لم تأخذ إلا قدراً ضئيلاً من الضرائب وأن الإنفاق العسكرى استولى على قسط كبير منها. ومع ذلك، فقد كان

السلوك الشعبى تجاه برامج الرعاية مختلفاً عن الحزبين الرئيسيين وبدا أن الهجوم المستمر للسياسيين على برامج الرعاية الاجتماعية فى الصحف والتلفزيون لم ينجح فى القضاء على الإحساس بالكرم الذى يشعر به معظم الأمريكيين.

وأجرت صحيفة نيويورك تايمز وشبكة CBS استطلاعاً للرأى فى بداية عام ١٩٩٢، أظهر أن الرأى العام تجاه برامج الرعاية الاجتماعية تغير حسب طريقة السؤال. فعندما تستخدم كلمة "الرعاية" فى السؤال، يرد ٤٤٪ ممن شملهم الاستطلاع بأن الكثير كان ينفق فى برامج الرعاية (فى حين أن ٥٠٪ قالوا إن الحجم الصحيح ينفق أو أن الكثير ينفق فى برامج الرعاية) ولكن عندما استخدمت عبارة "مساعدة الفقراء" فى السؤال فإن ١٣٪ فقط اعتقدوا أن الكثير كان ينفق فى حين أن ٦٤٪ كانوا يرون أن القليل كان ينفق.

ويشير هذا إلى أن كلا الحزبين حاول خلق حالة من عدم الرضا عن الأساليب المعيشية ، وذلك عن طريق الاستعمال السيئ لكلمة "الرعاية"، مما كان يتيح فيما بعد الادعاء بأنهم كانوا يتصرفون استجابة للرأى العام. وكانت للديمقراطيين والجمهوريين صلات قوية بالشركات الغنية. ففى عام ١٩٩٠، كتب كيفين فيليبس **Kevin Phillips** المحلل الجمهورى فى شئون السياسة القومية: "إن الحزب الديمقراطى يمثل المكانة الثانية من الناحية التاريخية فى تشجيع الرأسمالية." وأشار فيليبس إلى أن أكثر المستفيدين من السياسات الحكومية خلال الإدارات الجمهورية فى عهد ريجان وبوش هم الأثرياء جداً. وقال: "لقد كان أثرى الأثرياء هم الوحيدين الذين ارتفع مستواهم فى عهد ريجان ... لقد كانت الثمانينيات انتصاراً للطبقة الغنية فى الولايات المتحدة ... السيطرة السياسية للأثرياء ... تعظيم رأس المال ... السوق الحرة والأموال الحرة".

واستطاعت إدارة ريجان، بمساعدة الديمقراطيين فى الكونجرس، أن تقلل من الضرائب المفروضة على الأغنياء إلى ٥٠٪. وفى عام ١٩٨٦ تبنى تحالف للديمقراطيين والجمهوريين مشروع قانون "للإصلاح الضريبى" يقلل المعدل الأقصى إلى ٢٨٪. ولاحظ جيمس ستيل **James Steel** ودونالد بارتليت **Donald Barlett** فى كتابهما

أمـريكا: من حـقـاً يدفـع الضـرائب؟ America :Who Really Pays Taxes? أن المدرس والعامل والبليونير يدفعون جميعاً ٢٨٪. بذلك اقتربت فكرة الدخل "المتزايد" من النهاية، والتى كان الأغنياء بموجبها يدفعون الضرائب بمعدلات أعلى من أى شخص آخر.

ونتيجة لقوانين الضرائب خلال الفترة من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٠ ارتفعت القيمة الصافية لشركة فوربيس "Forbes 400" ثلاث مرات، وهى إحدى الشركات التى اختارتها مجلة فوربيس ، التى تُعرف بأنها أداة الرأسمالية، بوصفها أغنى شركة فى البلاد، وفقد الدخل القومى ٧٠ بليون سنوياً. ولذا استطاع ١٪ من أغنى أغنياء البلاد فى هذه الفترة الحصول على ترليون دولار.

يقول وليام جرايدر William Greider فى كتابه المهم **من سيحكى للناس؟ خيانة الديمقراطية الأمريكية Who Will Tell The People? The Betrayal Of The American Democracy** :

> **أقدم هذه الحقيقة المزعجة لهؤلاء الذين يلومون الجمهوريين على ما حدث ويعتقدون أن الضرائب العادلة ستعود إذا ما رجع الديمقراطيون إلى البيت الأبيض؛ تلك الحقيقة هى أن النقطة الفاصلة فى السياسات الضريبية حدثت عام ١٩٧٨ عندما كان الحزب الديمقراطى فى السلطة ويمارس سلطاته وقبل أن يأتى ريجان إلى واشنطن... لقد ساندت الأغلبية الديمقراطية هذا التحول فى هذا العبء الضريبى على طول الطريق.**

ولم تصبح ضريبة الدخل تصاعدية فقط خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، بل أصبحت ضريبة الضمان الاجتماعى ضريبة متناقصة. وبذلك تزايد حجم الاقتطاع من أجور الفقراء والطبقة الوسطى، ولكن عندما كانت الأجور تصل إلى ٤٢,٠٠٠ دولار لم يكن يحدث لها أى اقتطاع. وفى بداية السبعينيات كان على عائلات الطبقة الوسطى، التى تدر دخلاً يقدر بنحو ٣٧,٨٠٠ دولار سنوياً، أن تدفع ٧,٦٥٪ من

دخلها كضريبة ضمان اجتماعى، كما كان على الأسرة التى تكسب عشرة أضعاف ذلك (٣٧٨,٠٠٠ دولار) أن تدفع ١,٤٦ ٪ من دخلها كضريبة ضمان اجتماعى.

كان من شأن تزايد ضريبة الرواتب أن أصبح ثلاثة أرباع الذين يحصلون على رواتب يدفعون سنوياً ضرائب ضمان اجتماعى أكثر من ضرائب الدخل. ومما سبب إحراجا للحزب الديمقراطى، المعروف بمساندته للطبقة العاملة، أن الزيادة التى حدثت فى ضريبة الرواتب قد بدأ العمل بها خلال فترة إدارة جيمى كارتر.

ومن المعروف فى نظام الحزبين أنه عندما يتجاهل الحزبان الرأى العام، فإن الناخبين يفقدون قدرتهم على التغيير. وفى حالة الضرائب كان من الواضح أن المواطنين الأمريكيين قد أظهروا رغبة حقيقية فى أن تكون الضرائب تصاعدية. ويقول جرايدر William Greider إن بُعيد الحرب العالمية الثانية، وعندما وصلت ضرائب الأغنياء إلى ٩٠٪، أظهر استطلاع للرأى أجراه معهد جالوب Gallup أن ٨٥٪ من الشعب يعتقد أن قانون الضرائب الفيدرالى "عادل". أما فى عام ١٩٨٤، عندما بدأ العمل بجميع "الإصلاحات" الضريبية عن طريق الجمهوريين والديمقراطيين، فقد أظهر استطلاع للرأى أجرته هيئة الدخل القومى أن ٨٠٪ ممن شملهم الاستطلاع اتفقوا على أن النظام الحالى للضرائب يفيد الأغنياء ويعد ظلماً للرجل والمرأة العاملين.

ومع نهاية سنوات ريجان، ازدادت الفجوة بين الفقراء والأغنياء فى الولايات المتحدة بشكل كبير. ففى عام ١٩٨٠ كان مرتب موظفى الشركات يزيد أربعين ضعفاً عن مرتب العامل فى مصنع متوسط حتى وصل إلى ٩٠٪ فى نهاية عام ١٩٨٩، وفى الفترة بين عامى ١٩٧٧ و١٩٨٩ ارتفع مرتب أغنى الأغنياء الذين يمثلون١٪ من السكان بنسبة ٧٧٪ قبل اقتطاع الضرائب فى حين لم يحصل الفقراء الذين يمثلون أفقر خُمسين من عدد السكان على أيّة مكاسب.

ونتيجة للتغيرات التى حدثت لصالح الأغنياء فى الهيكل الضريبى، ازداد دخل أغنى الأغنياء، الذين يمثلون نسبة ١٪ من السكان، بنسبة ٨٧٪ بعد اقتطاع الضرائب خلال فترة الثمانينيات، وفى الفترة نفسها انخفض دخل الفقراء (أربعة أخماس

السكان) بعد الضرائب بنسبة ٥٪ (فى أكثر المستويات فقراً) أو لم يرتفع أكثر من ٨,٦٪.

وبينما كانت أوضاع الطبقات الدنيا تزداد سوءاً، كانت فئات السود والنساء والشباب وذوى الأصول اللاتينية تتكبد خسائر كبيرة. فقد حدث تحسن عام فى دخل الطبقات الدنيا خلال فترات ريجان وبوش، ولكن هذا سبب ضرراً كبيراً لعائلات السود بسبب نقص الموارد التى يستطيعون بها أن يبدأوا حياتهم ، وبسبب التفرقة العنصرية التى واجهتهم فى الحصول على وظائف. وأدت الانتصارات التى حققتها حركة الحقوق المدنية إلى إتاحة الفرصة للعديد من الأفرو- أمريكيين ، لكنها أيضاً تركت الكثيرين وراءها.

ومع نهاية الثمانينيات وقع ما لا يقل عن ثلث عائلات الأفرو- أمريكيين تحت خط الفقر الرسمى، وثبتت معدلات بطالتهم بزيادة ٢,٥ ٪ عن المواطنين البيض، وتراوح معدل بطالة الشباب منهم بين ٣٠٪ و٤٠٪، وظل متوسط أعمارهم أقل من البيض. وكان معدل وفيات الأطفال السود فى ديترويت وواشنطن وبالتيمور أعلى من جامايكا وكوستاريكا.

ونتيجة للفقر انتشر التفكك الأسرى والعنف العائلى وجرائم الشوارع والمخدرات. وفى العاصمة واشنطن وبالرغم من الكثافة السكانية العالية للسود فى المنطقة المحيطة بالمبانى الرخامية للحكومة، فإن ٤٢٪ من الشباب السود الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٣٥ عاماً كانوا إما خلف أسوار السجون أو تحت المراقبة أو أطلق سراحهم. وبدلاً من اعتبار معدل الجريمة بين السود صرخة من أجل القضاء على الفقر، استغله السياسيون للمطالبة ببناء مزيد من السجون.

وفى عام ١٩٥٤، أصدرت المحكمة الدستورية العليا قراراً بدأ بموجبه القضاء على الفصل العنصرى فى المدارس. إلا أن الفقر أبقى على الأطفال الزنوج فى تجمعات منفصلة (جيتو)، وظل العديد من المدارس فى البلاد تمارس الفصل بين الأطفال بناء

على الطبقة والجنس. وأكدت قرارات المحكمة العليا فى السبعينيات عدم الحاجة إلى المساواة فى تمويل أحياء المدارس الفقيرة وأحياء المدارس الغنية. كما أكدت عدم وجود حاجة إلى مرور حافلات المدارس بين الضواحى التى يسكنها الأغنياء والمدن الداخلية التى يسكنها الفقراء.

وكان من رأى المعجبين بأفكار السوق الحرة ومبدأ "دعه يعمل دعه يمر" أن الفقراء مسئولون عن فقرهم لأنهم لم يعملوا ولم ينتجوا، متجاهلين الحقيقة المتمثلة فى أن المرأة التى ترعى أبناءها بنفسها تعمل وبجهد كبير. ولماذا لم يسألوا: لماذا يعاقب الأطفال الذين ولدوا فى عائلة فقيرة - حتى الموت - ولم يكبروا لدرجة تمكنهم من العمل؟

ومما يدعو للسخرية أن الكاتب الديموقراطى كيفين فيليبس هو الذى كتب تحليلاً لسنوات ريجان يقول فيه: "لقد كان المنتجون يحصلون على أقل القليل من الثروة ... لم يكن هناك عدل فى توزيع المكافآت على شخصيات المجتمع الثقافية والاقتصادية والقانونية من المحامين حتى المستشارين الماليين".

وفى منتصف الثمانينيات بدأت تظهر فضيحة كبرى فى واشنطن؛ فلم يكن هناك تنظيم للمدخرات تحت رئاسة ريجان ، مما أدى إلى الاشتراك فى استثمارات غير مأمونة، سحبت أصول البنوك وجعلتها مدينة بالملايين للمودعين الذين كانت الحكومة تؤمن عليهم.

وبمرور الوقت ظلت هذه المشكلة طى الكتمان؛ فقد ظلت الحكومة تدفع الكثير للممولين من أجل إقالة البنوك من عثرتها حتى وصلت الأرقام إلى ٢٠٠ بليون دولار. وفى أثناء الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٨٨، مُنع المرشح الديمقراطى مايكل دوكاكيس Michael Dukakis من الإشارة إلى الإدارة الجمهورية التى تسببت فى هذا الوضع؛ لأن أعضاء الكونجرس الديمقراطيين كانوا متورطين لدرجة كبيرة فى خلق هذه المشكلة وإخفائها. ولذلك، لم يعلم بها الناخبون.

وقد وصف الرئيس أيزنهاور الاستنزاف الكبير لأموال وزارة الدفاع بأنه "سرقة" من الحاجات الإنسانية. لكن كلا الحزبين رضيا بهذا لأنهما كانا فى حالة تنافس أمام الناخبين ورغبا فى إظهار مدى "صلابتهم".

وفى أثناء رئاسته، اقترح كارتر زيادة الميزانية العسكرية بنحو ١٠ بلايين دولار وما كانت هذه إلا عملية تقنين لما وصفه أيزنهاور من قبل. وقد وافق الجمهوريون على جميع الميزانيات العسكرية التى اقترحت بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان تبرير إنفاق تريليونات الدولارات على بناء القوة النووية وغير النووية هو الخوف من أن الاتحاد السوفيتى يبنى قواته المسلحة من أجل غزو أوروبا الغربية. لكن سفير الولايات المتحدة فى الاتحاد السوفيتى وأحد منظرى الحرب الباردة جورج كينان George Kennan أشار إلى أن هذه المخاوف لم يكن لها أساس من الصحة. وفى عام ١٩٨٠، كتب هارى روزيتكى، الذى عمل فى المخابرات الأمريكية لخمسة وعشرين عاماً مديراً لوحدة التجسس المضاد للاتحاد السوفيتى، يقول: "فى خلال سنوات عملى فى الحكومة لم أر أيّة تقديرات استخباراتية تشير إلى أن الاتحاد السوفيتى قد يستفيد من غزو أوروبا الغربية أو مهاجمة الولايات المتحدة".

ومع ذلك، فقد كانت هناك حاجة لخلق هذه المخاوف فى عقول الشعب لتبرير الرغبة فى بناء هذه الأسلحة الكثيرة والمخيفة. فعلى سبيل المثال، بلغت تكلفة الغواصة "ترايدينت" Trident، التى كانت قادرة على إطلاق مئات الرؤوس النووية، ١,٥ بليون دولار ، ولم تكن هناك حاجة لها إلا فى حالة نشوب حرب نووية، وحتى فى هذه الحالة سوف تقوم الغواصة بإضافة مئات الرؤوس النووية للآلاف الموجودة بالفعل. ألم يكن مبلغ ١,٥ بليون دولار كافياً لتمويل برنامج يمتد لخمس سنوات من أجل حماية الأطفال فى العالم من الأمراض القاتلة وأن يحول دون وقوع خمسة ملايين حالة وفاة. (كتاب **الإنفاق العسكرى فى العالم** World Military Expedenture من تأليف روث سيفارد Ruth Sivard عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨).

وفى منتصف الثمانينيات صرح أحد المحللين فى مؤسسة راند Rand ، والذى أجرى بحثاً لوزارة الدفاع، أن هذا العدد من الأسلحة لم يكن ضروريا من وجهة النظر العسكرية، لكنة كان ذا فائدة فى الإيحاء "بصورة" داخل الولايات المتحدة وخارجها وقال:

> **إذا كان لديك رئيس قوى ووزير دفاع قوى فهما على أتم الاستعداد للذهاب إلى الكونجرس فى أى وقت ليهتفوا "سوف نبنى ما نحتاج إليه فقط حتى وإن قام الروس ببناء أضعافه." لكن هذا كان غير سليم من الناحية السياسية. لذلك فمن الأفضل للاستقرار الداخلى والتوقعات الدولية أن نظل فى مستوى جيد من المنافسة حتى وإن كان هناك شك فى الهدف الموضوعى للمنافسة.**

وفى عام ١٩٨٤، اعترف جهاز المخابرات الأمريكية أنه بالغ فى تقدير الإنفاق العسكرى السوفيتى. ويذكر أنه منذ عام ١٩٧٥ ظل هذا الجهاز يدعى أن الإنفاق العسكرى للاتحاد السوفيتى كان يزيد بنسبة ٤,٥٪ سنوياً، فى حين أن الرقم الحقيقى هو ٢٪. ونتيجة لتشويه المعلومات والخداع، تزايد الإنفاق العسكرى الأمريكى.

وكان برنامج حرب النجوم هو أحد البرامج العسكرية المفضلة لدى إدارة ريجان ، والتى أنفقت عليها الملايين. وكان هذا المشروع يهدف إلى بناء غطاء واقٍ لإسقاط قاذفات العدو النووية فى الجو، لكن أول ثلاث تجارب لهذا المشروع فشلت. وأُجريت التجربة الرابعة فى حين كان الإنفاق الحكومى على المحك وفشلت هى الأخرى، إلا أن كاسبير واينبيرجر، وزير الدفاع فى إدارة ريجان، وافق على تزييف الحقائق والتظاهر بأن التجربة قد نجحت.

ومع بداية تفكك الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٩، لم يعد هناك ما يسمى "الخطر السوفيتى" وانخفضت الميزانية العسكرية إلى حد ما. وبالرغم من هذا، ظلت الميزانية ضخمة بمساندة كل من الديمقراطيين والجمهوريين. وفى عام ١٩٩٢، اقترح

الديمقراطى "ليس آسبين Les Aspin رئيس لجنة مجلس النواب العسكرية تخفيض الميزانية العسكرية بنسبة ٢٠٪ لتصل إلى ٢٧٥ بليون دولار بدلاً من ٢٨١ بليون دولار نظراً للظروف الدولية.

وفى العام نفسه ومع مساندة الديمقراطيين والجمهوريين للتخفيضات الطفيفة فى الميزانية العسكرية، أظهر استطلاع للرأى أجراه نادى الصحافة الوطنية أن ٥٩٪ من الناخبين الأمريكيين يرغبون فى تخفيض الميزانية العسكرية بنسبة ٥٠٪ خلال السنوات الخمس التالية.

وكان من الواضح أن الحزبين كليهما لم ينجحا فى إقناع المواطنين بأهمية استمرار وجود ميزانية عسكرية ضخمة. ومع ذلك، فقد ظلا يتجاهلان الشعب الذى من المفترض أنهم يمثلونه. وفى صيف ١٩٩٢، اشترك الأعضاء الديمقراطيون والجمهوريون فى الكونجرس فى معارضة اقتطاع جزء من الميزانية العسكرية فى سبيل الاحتياجات الإنسانية، لكنهم وافقوا على إنفاق ١٢٠ بليون دولار "للدفاع" عن أوروبا وهم يعلمون أن أوروبا لم تكن معرضة للهجوم السوفيتى بعد ذلك، هذا إذا كانت معرضة له فى أى يوم!

واشترك الديمقراطيون والجمهوريون فى "سياسة خارجية ثنائية"، لكن الحكومة في أثناء إدارتى بوش وريجان أبدت عدوانية شديدة فى استخدام القوة العسكرية خارج الولايات المتحدة. وكان هذا يحدث إما على شكل غزو مباشر أو على شكل مساندة مباشرة أو غير مباشرة للأنظمة الديكتاتورية اليمينية التى كانت تتعاون مع الولايات المتحدة.

وبعد فترة قصيرة من دخول ريجان للبيت الأبيض، حدثت ثورة فى نيكاراجوا أسقطت فيها حركة الساندنيستا Sandinista (التى سميت باسم البطل الثورى فى عشرينيات القرن العشرين Augosto Sandino) عائلة سوموزا Somoza الفاسدة (التى ساندتها الولايات المتحدة لفترة طويلة) ، وكان أعضاء حركة الساندنيستا خليطاً من

الماركسيين والرهبان اليساريين والقوميين. وشرعت هذه الحركة فى إعطاء المزيد من الأراضى للفلاحين ونشر التعليم والرعاية الصحية فى أوساط الفقراء.

ورأت إدارة ريجان فى هذه الحركة خطراً شيوعياً ، بل إنها اعتبرتها تحديا للسيطرة الأمريكية على أمريكا اللاتينية، والتى امتدت لفترة طويلة. ولهذا، فقد بدأت الولايات المتحدة مساعيها من أجل إسقاط حركة الساندنيستا، وشنت حرباً سرية من خلال تنظيم قوة مضادة للثورة سميت "الكونترا" The Contras عن طريق المخابرات الأمريكية، وكانت هذه القوة تتكون من القادة السابقين للحرس الجمهورى لسوموزا ممن كان الشعب يكن لهم كراهية شديدة.

وكان من الواضح أن الشعب لا يساند هذه الحركة المضادة، ولهذا، فقد تمركز أفرادها فى بلد صغيرة فقيرة تقع تحت السيطرة الأمريكية هى هندوراس ، ومنها كانوا يعبرون الحدود مغيرين على المزارع والقرى، حيث قتلوا النساء والأطفال وارتكبوا العديد من الأعمال الوحشية. وشهد ضابط سابق فى هذه القوات يدعى إدجار شامورو أمام المحكمة الدولية قائلاً:

> **قيل لنا إن الطريقة الوحيدة لهزيمة حركة الساندنيستا هي استخدام أسلوب المخابرات الأمريكية فى محاربة الحركات الشيوعية فى الأماكن الأخرى ، وهو أسلوب يعتمد على القتل والاختطاف والتعذيب والسرقة ... لقد قتل عديد من المدنيين دون طرفة عين من القتلة ... وتعرض الكثيرون للإهانة والضرب والتعذيب والاغتصاب ...عندما وافقت على الانضمام ... كنت أتمنى أن يكون هذا تنظيماً من سكان نيكاراجوا، ولكن تبين أنه أحد أدوات حكومة الولايات المتحدة.**

وكانت هناك حاجة لسرية أعمال الحكومة الأمريكية فى نيكاراجوا . فقد أظهرت استطلاعات الرأى أن الشعب الأمريكى كان يعارض التدخل العسكرى. وفى عام ١٩٨٤ استخدمت المخابرات المركزية الأمريكية عملاء من أمريكا اللاتينية لإخفاء

تورطها فى نيكاراجوا ولزرع الألغام فى الموانئ لتفجير السفن. وعندما تسربت المعلومات الخاصة بهذا، صرح وزير الدفاع واينبيرجر إلى شبكة ABC الإخبارية قائلاً: "إن الولايات المتحدة لا تقوم بتلغيم الموانئ فى نيكاراجوا."

وفى خلال العام نفسه، ونتيجة لضغوط الرأى العام، أعلن الكونجرس أنه من غير الجائز قانوناً للولايات المتحدة أن تساند بطريقة "مباشرة أو غير مباشرة العمليات العسكرية أو غير العسكرية فى نيكاراجوا". ومع ذلك قررت إدارة بوش تجاهل القانون وبحثت عن سبل لتمويل قوات الكونترا بطريقة سرية. وعند البحث عن "طرف ثالث" ألح ريجان بنفسه على السعودية لتمويله بما لا يقل عن ٣٢ مليون دولار. واستغلت الإدارة الدكتاتور الموالى لأمريكا فى جواتيمالا من أجل إرسال الأسلحة سراً إلى قوات الكونترا فى نيكاراجوا، كما تمت الاستعانة بإسرائيل التى تعتمد على المساعدات الأمريكية ودائماً ما تحتاج للمساندة الأمريكية.

وفى عام ١٩٨٦ نشرت قصة فى إحدى المجلات اللبنانية أثارت الكثير من المشاعر. تقول القصة إن الولايات المتحدة باعت صفقة أسلحة لإيران (التى كانت تعد من الأعداء) فى مقابل وعد من إيران بإطلاق سراح الرهائن الذين احتجزهم متطرفون مسلمون ، وأن أرباح هذه الصفقة ذهبت إلى قوات الكونترا لشراء أسلحة. وعندما سئل الرئيس عن هذا فى مؤتمر صحفى فى نوفمبر عام ١٩٨٦ أجاب بعدة أكاذيب، حيث أشار إلى أن الحمولة كانت تتكون من عدد قليل ورمزى من القذائف المضادة للدبابات (كان العدد الحقيقى ٢٠٠٠) وأن الأسلحة لم يتم استبدالها بالرهائن ، وأخيراً أن هدف العملية هو تطوير الحوار مع الإيرانيين المعتدلين. والحقيقة أن الهدف كان مزدوجاً، تحرير الرهائن والحصول على ثقة الشعب بالإضافة إلى مساعدة قوات الكونترا.

وقبل ذلك بشهر واحد، تضاعفت الأكاذيب، فقد أسقط الثوار فى نيكاراجوا طائرة نقل كانت تنقل أسلحة لقوات الكونترا. فقد كذب مساعد وزير الخارجية إليوت ابرامز **Elliot Abrams** وكذب وزير الخارجية جورج شولتز **Shultz** عندما صرح: "إن الحكومة

الأمريكية ليس لديها أيّة علاقة بهذه القضية على الإطلاق." ثم ظهرت أدلة تفيد أن الطيار كان يعمل لدى المخابرات المركزية الأمريكية.

وأصبحت قضية إيران/الكونترا أوضح مثال على السياسة الدفاعية المزدوجة للمؤسسة الأمريكية. فخط الدفاع الأول هو إنكار الحقيقة ، وإذا ما انكشف هذا يكون خط الدفاع الثانى هو البحث والتقصى ولكن ليس كثيراً. ثم تقوم الصحافة بالنشر، لكن دون أن تصل إلى جوهر الحقيقة.

وعندما تكشفت القضية، لم تتعرض لجان التحقيق فى الكونجرس ولا الصحافة ولا محاكمة الجنرال أوليفر نورث، الذى شهد عملية مساعدة قوات الكونترا، للتساؤلات المهمة فى هذه القضية ، ومنها مثلاً: ما أهداف السياسة الخارجية الأمريكية؟ كيف سمح للرئيس وفريقه بمساعدة مجموعة إرهابية فى أمريكا اللاتينية لإسقاط حكومة لقيت ترحيباً شعبياً، بغض النظر عن أخطائها، باعتبارها بديلاً عظيماً عن الحكومات الوحشية التى ساندتها الحكومة الأمريكية طويلاً؟ ماذا تكشف الفضيحة عن مستوى الديمقراطية وحرية التعبير بل عن مجتمع مفتوح؟

وبالرغم من كثرة ما نشر عن فضيحة الكونترا، لم ينشر نقد قوى عن السرية التى تعاملت بها الحكومة مع القضية ، أو الاعتداء على الديمقراطية باتخاذ بعض الأفراد لإجراءات سرية دون مراعاة للرأى العام . لقد حرص الإعلام، فى بلد تفخر بمستواها التعليمى والإعلامى، على إطلاع الشعب الأمريكى على الحقائق المصطنعة فقط. وكشف سيناتور جورجيا سام نان Sam Nunn، العضو الديمقراطى البارز، عن حدود نقد الحزب الديمقراطى لهذه القضية. ففى أثناء التحقيقات صرح قائلاً: "يجب علينا جميعاً مساعدة الرئيس لاستعادة مصداقيته فى السياسة الخارجية".

ولم ينتقد هذه القضية سوى عدد قليل من الأعضاء الديمقراطيين مما جعل جيمس كيو. ويلسون James Q. Wilson، الأستاذ بجامعة هارفارد وعضو المجلس الاستشارى للمخابرات الخارجية لريجان، يشعر بالشفقة تجاههم. نظر ويلسون بحنين إلى الماضى وهو يتذكر إجماع الحزبين "الذى يشبه نظام الحزب الواحد فى دولة

شمولية". لقد كان ويلسون يشعر بقلق كبير من "الافتقار إلى العزيمة للتصرف كقوة عظمى."

وكان من الواضح أن الرئيس ريجان ونائبه بوش تورطا فيما أصبح يعرف باسم قضية إيران/الكونترا. لكن مرءوسيهم حرصوا على إبعادهم عن هذه القضية باستخدام الأسلوب الحكومى المعروف باسم "الإنكار المقبول" **Plausible denial** والذى يستطيع من خلاله المسئولون رفيعو المستوى إنكار الاشتراك فى أى من القضايا وهم تحت حماية مرءوسيهم. فبالرغم من أن هنرى جونزاليز **Gonzalez**، نائب تكساس فى الكونجرس، قدم طلباً لتوجيه الاتهام لريجان، فقد رفضه الكونجرس سريعاً.

ولم يتم توجيه اتهام إلى ريجان أو بوش. وبدلاً من ذلك، وضعت لجنة الكونجرس المتهمين الصغار فى منصة الشهود وتم توجيه الاتهام إلى العديد منهم. وحاول روبرت ماكفارلين، مستشار الأمن القومى لريجان، الانتحار. وقدم الجنرال السابق أوليفر نورث للمحاكمة بتهمة الكذب على الكونجرس ، ووجده الكونجرس مذنباً لكن لم يحكم عليه بالسَجن. وتقاعد ريجان فى هدوء وأصبح بوش الرئيس التالى للولايات المتحدة.

ومن سخرية القدر أن يصبح أحد المواطنين المغمورين من مدينة "أودين" بولاية انديانا أحد العناصر فى قضية إيران/الكونترا. فقد كان بيل بريدن شابا يعيش فى أحد الأكواخ البدائية فى الغابة مع زوجته وولديه اللذين كان يعلمهما فى المنزل. كان راعياً سابقاً بإحدى الكنائس وكانت بلدته الأصلية "أودين " البلد الأم للأدميرال جون بويندكستير **John Poindexter** مستشار الأمن القومى لريجان بعد ماكفارلين، وكان بويندكستير قد تورط بدرجة كبيرة فى قضية إيران/الكونترا. وذات يوم لاحظ بريدن أن المدينة قد أطلقت اسم بويندكستير على أحد شوارعها كعلامة على الفخر بأحد أبنائها. وكان بريدن أحد دعاة حل النزاعات بالطرق السلمية، وكان دائم الانتقاد للسياسة الخارجية الأمريكية، ناقماً على ما وصفه باحتفاء الحكومة بالسلوك غير الأخلاقى، ولذلك قام بسرقة اللوحة التى تحمل اسم بويندكستير، وأعلن أنه سيسلم اللوحة مقابل "فدية" تقدر بـ ٣٠ مليون دولار. وهذا هو نفس المبلغ الذى دفعته إيران

وذهب لقوات الكونترا فى نيكاراجوا. وأُلقى القبض عليه وقدم للمحاكمة، وقضى بعض الأيام فى السجن. وبذلك أصبح بريدن الشخص الوحيد الذى سجن فى قضية إيران/ الكونترا. وكانت هذه القضية واحدة من الأمثلة العديدة التى انتهكت فيها الحكومة قوانينها من أجل الوصول لأحد أهدافها فى السياسة الخارجية.

وفى عام ١٩٧٣ وقبل نهاية حرب فيتنام، حاول الكونجرس تقليص سلطة الرئيس التى استخدمها الرئيس دون رحمة فى الهند الصينية، ولهذا مرر قانون صلاحيات الحرب الذى ينص على أنه: "يجب على الرئيس، كلما أمكن ذلك، أن يستشير الكونجرس قبل السماح بتدخل القوات المسلحة الأمريكية فى أيّة أعمال حربية أو مواقف أظهرت ظروفها قرب وقوع أعمال حربية فيها."

وسرعان ما انتهك الرئيس جيرالد فورد هذا القانون عندما أمر بغزو جزيرة كمبوديا وقصف مدينة كمبوديا انتقاماً لاحتجاز أحد التجار الأمريكيين بشكل مؤقت على متن السفينة ماياجويه Mayaguez؛ فلم يقم الرئيس باستشارة الكونجرس قبل إصدار أوامر الهجوم. وفى خريف عام ١٩٨٢، أرسل الرئيس ريجان قوات المارينز الأمريكية إلى لبنان التى كانت الأوضاع فيها خطيرة بسبب احتدام الحرب الأهلية اللبنانية، متجاهلاً بذلك متطلبات قانون صلاحيات الحرب. وفى العام التالى، لقى ٢٠٠ شخص منهم مصرعهم عندما ألقى إرهابى قنبلة على ثكناتهم.

وبعد ذلك بوقت قصير، فى أكتوبر من عام ١٩٨٣، أرسل ريجان القوات الأمريكية لغزو جزيرة جريينادا Grenada فى البحر الكاريبى (وكان المراقبون يرون فى هذا محاولة لصرف الأنظار عن كارثة لبنان). ومرة أخرى يتم إخبار الكونجرس دون استشارته. وكانت الإجابات التى تلقاها الشعب الأمريكى عن هذه الحرب (التى سميت بعملية "الغضب العاجل" Urgent Fury (بأن الانقلاب الذى وقع فى جزيرة جريينادا قد عرض المواطنين الأمريكيين (طلاب كلية الطب فى الجزيرة) للخطر، وأن الولايات المتحدة تلقت طلباً عاجلاً من منظمة دول الكاريبى الشرقية للتدخل.

وفى ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٨٣ نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالاً بارزاً، على غير العادة، لمراسلها برنارد جويرتزمان Bernard Gwertzman فند فيه الأسباب التى استندت إليها الإدارة الأمريكية للقيام بهذا الغزو جاء فيه:

> **إن الطلب الرسمى الذى تلقته الولايات المتحدة والدول الصديقة الأخرى لتقديم المساعدات العسكرية من منظمة دول البحر الكاريبى الشرقية السبت الماضى كان بناء على طلب من الولايات المتحدة، التى رغبت فى أن تظهر الدليل على أنها تلقت طلباً وفقاً لشروط معاهدة هذه المنظمة، فقد كُتبت صيغة الطلب الرسمى فى واشنطن وأرسلت إلى زعماء الكاريبى عن طريق مبعوثين أمريكيين خاصين.**

وعندما شاهدت كوبا وجرينادا السفن الأمريكية تتجه نحو جرينادا سارعا بإرسال رسائل عاجلة تعد بعدم تعرض الطلبة الأمريكيين للخطر ؛ وذلك لمنع عملية الغزو. ولا يوجد أى دليل على أن الإدارة بذلت أى جهد حقيقى من أجل إخلاء الطلاب الأمريكيين بالطرق السلمية. وأشار المسئولون إلى عدم وجود رغبة فى التعاون مع السلطات فى جزيرة جرينادا، وأصر الرئيس على قوله: "لقد وصلنا فى الوقت المناسب تماماً." إن أحد النقاط المهمة فى القضية هى: هل بالفعل تعرض الطلاب الأمريكيون للخطر بما يستدعى الغزو؟ لم يقدم أى مسئول دليلاً على سوء معاملة الطلاب أو أنهم أرادوا المغادرة ولم يستطيعوا ذلك.

وكانت العلاقة بين التدخل الأمريكى العسكرى والترويج للمشروع الرأسمالى واضحة بشدة فى البحر الكاريبى. فبالنسبة لجرينادا، ظهر مقال فى صحيفة "وول ستريت جورنال" Wall Street Journal بعد الغزو بثمانى سنوات (٢٩ أكتوبر ١٩٩١) تحدث عن "غزو البنوك" وأشار إلى أن سان جورجيس St. George's عاصمة جزيرة جرينادا كان لديها ١١٨ مصرفاً أجنبياً فى حين أن عدد سكانها كان يبلغ ٧٥٠٠ شخص ، مما يعنى أن كل ٦٤ فرد كان لهم مصرف خاص بهم . "لقد أصبحت سان

جورجيس بمثابة كازابلانكا الكاريبى وملجأ متنامياً لغسيل الأموال والتهرب الضريبى والأنواع المختلفة لعمليات النصب."

وبعد دراسة مختلف التدخلات الأمريكية العسكرية، توصل عالم السياسة ستيفن شالوم Stephen Shalom فى كتابه **أعذار الإمبراطورية Imperial Alibis** إلى أن الذين لقوا حتفهم فى المدن التى قامت الولايات المتحدة بغزوها "لمْ يموتوا من أجل حماية المواطنين الأمريكيين الذين كانوا فى أمان بدون تدخل من الحكومة الأمريكية، بل من أجل أن تُثبت واشنطن أنها تسيطر على الكاريبى وأنها مستعدة للدخول فى حرب شعواء لفرض سيطرتها." وأردف:

> **كانت هناك بالفعل بعض الحالات التى تعرض فيها المواطنون الأمريكيون للخطر مثل مقتل أربع راهبات على يد فرق الموت التى تدعمها الحكومة فى السلفادور عام ١٩٨٠ ومع ذلك، لم يحدث تدخل أمريكى أو إسقاط لجنود المارينز أو غارات وقائية. فبدلاً من ذلك، ساندت الحكومة الأمريكية النظام الذى أرسل فرقة الموت بالمساعدات العسكرية والاقتصادية والتدريب العسكرى وتبادل المعلومات الاستخباراتية والمساندة الدبلوماسية.**

وكان الدور التاريخى للولايات المتحدة فى السلفادور، حيث يمتلك ٢٪ من السكان ٦٥٪ من الأراضى، يتمثل فى ضمان استمرار الحكومات التى تدعم المصالح الاقتصادية الأمريكية بغض النظر عن سوء أحوال غالبية السكان. ولذا كان من الواجب معارضة الانتفاضات الشعبية التى تهدد هذه المصالح الاقتصادية. وعندما هددت الانتفاضة الشعبية فى السلفادور عام ١٩٣٢ الحكومة العسكرية، أرسلت الولايات المتحدة مدمرتين وطراد، فى حين كانت الحكومة تزهق أرواح ثلاثين ألفا من المواطنين.

ولم تقم إدارة كارتر بأى عمل قد يغير من هذا التاريخ. فقد رغبت هذه الإدارة إصلاحاً فى أمريكا اللاتينية، شريطة ألا يمثل هذا تهديداً لمصالح الشركات الأمريكية.

ففى عام ١٩٨٠ أخبر ريتشارد كوبر Richard Cooper ، خبير الشئون الاقتصادية بوزارة الخارجية، الكونجرس أن هناك رغبة فى توزيع الثروة بشكل متساوٍ، ثم أضاف قائلاً "مع ذلك فنحن نخاطر بالاستمرار الهادئ لنظامنا الاقتصادى ... إن التغيرات الكبيرة فى النظام قد يكون لها عواقب مهمة على رفاهيتنا."

وفى فبراير ١٩٨٠ أرسل أوسكار روميرو Oscar Romero، كبير أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، فى السلفادور خطاباً شخصياً للرئيس كارتر يحثه على وقف المساعدات العسكرية للسلفادور. وكان الحرس الوطنى والبوليس قد أطلقا النار على تجمع للمعارضين أمام الكاتدرائية الميتروبليتانية مما أدى إلى مقتل أربعة عشر شخصاً. ومع ذلك استمرت إدارة ريجان فى إرسال المساعدات ، وفى الشهر التالى اغتيل كبير الأساقفة!

كانت الأدلة المتراكمة تشى بأن الاغتيال قد حدث بناء على أوامر من روبيرتو دوبويسون Roberto D'Aubuisson أحد زعماء الجناح اليمينى، الذى كان تحت حماية نيكولاس كارانزا Nicholas Carranza سكرتير وزير الدفاع الذى بلغ مرتبه فى ذلك الوقت من المخابرات الأمريكية ٩٠,٠٠٠ دولار سنوياً. وأعلن إليوت ابرامز، الذى كان يشغل منصب مساعد وزير الخارجية لحقوق الإنسان (!)، أن دوبويسون "غير متورط فى جريمة القتل".

وعندما أصبح ريجان رئيساً، زادت المساعدات العسكرية الأمريكية لحكومة السلفادور على نحو كبير. فقد بلغت المساعدات فى الفترة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٧٩ حوالى ١٧ مليون دولار. وفى أول سنة لريجان فى البيت الأبيض، وصلت المساعدات إلى ٨٢ مليون دولار.

ونتيجة للإحراج الكبير الذى تعرض له جراء عمليات القتل فى السلفادور، طالب الكونجرس الرئيس بأن يشهد أن هناك تقدماً فى حقوق الإنسان فى السلفادور قبل أن يرسل أى مساعدات. بيد أن ريجان لم يأخذ هذا القول على محمل الجد. ففى ٢٨ يناير عام ١٩٨٢ وردت تقارير تفيد بوقوع مذبحة للفلاحين فى العديد من المدن على يد

القوات الحكومية، وفى اليوم التالى لتلك المذبحة أعلن ريجان أن حكومة السلفادور تحرز تقدماً فى حقوق الإنسان! وبعد تلك الشهادة بثلاثة أيام، اقتحم الجنود منازل الفقراء فى سان سلفادور وأخرجوا عشرين شخصاً من بيوتهم وقتلوهم. وفى نهاية عام ١٩٨٣، عندما مرر الكونجرس قانوناً يقضى باستمرار العمل بتلك الشهادة، عارض ريجان نفسه هذا القانون.

وكانت الصحافة فى عهد ريجان على وجه الخصوص خائفة ومتزلفة كما يشير مارك هيرتسجارد Mark Hertsgaard فى كتابه **التزلف** On Bended Knee . وعندما استمر ريموند بونر Rymond Bonner مراسل صحيفة نيويورك تايمز فى السلفادور فى إرسال تقارير عن الأعمال الوحشية فى السلفادور وعن دور الولايات المتحدة هناك، أقصته الجريدة عن مهمته. وفى عام ١٩٨١ أرسل بونر أنباء تفيد بحدوث مذبحة فى مدينة إل موزوت EL Mozote على يد كتيبة من الجنود قام بتدريبهم مبعوثون من الولايات المتحدة، فما كان من إدارة ريجان إلا أن سخرت من هذه القصة. ومع ذلك، عثر فريق من علماء الأنثروبولوجيا، فى عام ١٩٩٢، على جماجم بشرية فى موقع الحادث كان معظمها لأطفال، وفى العام التالى أكدت لجنة الأمم المتحدة وقوع مذبحة فى تلك المدينة.

ولم تشعر إدارة ريجان بالقلق من الحكومات العسكرية التى كانت تحكم فى أمريكا اللاتينية (جواتيمالا- السلفادور- شيلى) مادامت هذه الحكومات "صديقة" للولايات المتحدة، لكنها كانت تشعر بالانزعاج عندما تبدى إحدى الديكتاتوريات عداءها مثلما حدث مع معمر القذافى فى ليبيا. ففى عام ١٩٨٦ هاجم انتحاريون مجهولون ملهى فى برلين الغربية ولقى أحد العاملين الأمريكيين مصرعه، وعندئذ قرر البيت الأبيض الانتقام على الفور. كانت هناك أراء تقول بأن القذافى مسئول عن الكثير من الأعمال الإرهابية خلال السنوات السابقة، لكن لم يكن هناك دليل حقيقى يشير إلى ضلوعه فى هذه القضية.

وأصر ريجان على إضافة نقطة فى صالحه. فقد أُرسلت الطائرات فوق العاصمة الليبية طرابلس بأوامر محددة بمهاجمة منزل القذافى. وسقطت القنابل على مدينة

مزدحمة وقدر الدبلوماسيون فى طرابلس أن نحو مائة شخص لقوا مصرعهم. ولم يصب القذافى، فى حين لقيت ابنته بالتبنى مصرعها.

ويحلل البروفيسور ستيفن شالوم هذه الحادثة فى كتابه **أعذار الإمبراطورية** Imperial Alibis قائلاً: "إذا كان الإرهاب يعنى العنف السياسى الموجه ضد أهداف غير مسلحة، فإن خير مثال على ذلك هو ، بالتأكيد ، الغارة الأمريكية على ليبيا."

وفى بداية رئاسة جورج بوش حدثت أكثر التطورات الكبرى على الساحة الدولية منذ الحرب العالمية الثانية. فقد اندلعت مظاهرات ضخمة فى الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية التى كانت تحت سيطرة الاتحاد السوفيتى لمدة طويلة، ووافقت ألمانيا الشرقية على الاتحاد مع ألمانيا الغربية وسقط حائط برلين الذى كان يفصل برلين الشرقية عن برلين الغربية وكان يمثل رمزاً للسيطرة الصارمة لألمانيا الشرقية على المواطنين. وشاهد المواطنون من البلدين سقوط الحائط وهم فى فرح غامر.

وفى تشيكوسلوفاكيا ظهرت حكومة جديدة مناهضة للشيوعية يرأسها كاتب مسرحى كان أحد المنشقين المسجونين السابقين هو فاتسلاف هافيل Vaclav Havel . كما ظهرت زعامات جديدة فى بولندا وبلغاريا والمجر تعِد بالحرية والديمقراطية. ومما يثير الدهشة فى كل هذا أن كل ما حدث كان بدون حروب أهلية. وجاء بوصفه استجابة للمطالب الشعبية.

وفى الولايات المتحدة ادعى الحزب الجمهورى أن السياسات الصارمة لريجان ، والزيادة فى الإنفاق العسكرى من بين الأسباب التى أدت إلى سقوط الاتحاد السوفيتى. إلا أنّ التغيير كان قد بدأ قبل ذلك، فى أعقاب موت ستالين فى عام ١٩٥٣، خاصة تحت زعامة نيكيتا خرشوف Khtushchev حيث بدأ حواراً مفتوحاً.

وقال جورج كينان، سفير الولايات المتحدة السابق فى الاتحاد السوفيتى، إن السياسات الصارمة المستمرة للولايات المتحدة كانت عقبة فى طريق التحرير، وأردف: "إن التأثير العام الذى حدث فى أثناء الحرب الباردة أدى إلى تأخير التغيير الذى حدث

فى الاتحاد السوفيتى فى نهاية الثمانينيات بدلاً من الإسراع به". وفى حين احتفت الصحافة والسياسيون فى الولايات المتحدة بسقوط الاتحاد السوفيتى، أشار كينان إلى أن السياسات الأمريكية لم تؤخر فقط سقوط الاتحاد السوفيتى، لكنها كلفت الشعب الأمريكى الكثير أيضاً:

لقد ظللنا ننفق الأموال لمدة أربعين عاماً على المعدات العسكرية الضخمة ، والتى لا تمثل أدنى أهمية. لقد أنفقنا على إنتاج الأسلحة النووية حتى أصبحت هذه الترسانة ـ وما تزال ـ تمثل خطراً على بيئة هذا الكوكب...

ولم تستعد القيادة السياسية للولايات المتحدة للسقوط المفاجئ للاتحاد السوفيتى. فقد كانت هناك تدخلات عسكرية فى كوريا وفيتنام تسببت فى فقد العديد من الأرواح، بالإضافة إلى التدخل فى كوريا والجمهورية الدومينيكية. وكانت هناك مساعدات عسكرية أمريكية ضخمة فى كل أنحاء العالم ـ فى أوروبا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وآسيا ـ تحت ذريعة التصدى للتهديد الشيوعى النابع من الاتحاد السوفيتى. ودفع المواطنون الأمريكيون تريليونات الدولارات فى شكل ضرائب للحفاظ على الترسانة النووية وغير النووية والقواعد العسكرية فى جميع أرجاء العالم، وكان المبرر الرئيسى لذلك هو "التهديد السوفيتى".

وأتاح السقوط فرصة لكى تعيد الولايات المتحدة تشكيل سياستها الخارجية ، وأن تتخلى عن مئات البلايين من الدولارات من الميزانية وتنفقها على برامج صحية وبناءة. إلا إن هذا لم يحدث. لقد اقترن الفرح الغامر بأننا "انتصرنا فى الحرب الباردة" بسؤال مخيف هو: "ماذا سنفعل للحفاظ على مؤسستنا العسكرية؟"

وقد أصبح أكثر وضوحاً الآن، بالرغم من الشك فى ذلك، أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة كانت قائمة فحسب على وجود الاتحاد السوفيتى، وكان دافعها هو خوفها من اندلاع ثورات فى مختلف بقاع العالم. ولهذا، فدائماً ما يصر المحلل الاجتماعى نعوم تشومسكى على قوله: "إن الحاجة إلى الأمان دائماً ما كانت تستخدم

بطريقة غير أمينة، فقد استُغلت قضية الحرب الباردة بوصفها أداة لتبرير قمع الدعوات القومية المستقلة، سواء فى أوروبا أو اليابان أو دول العالم الثالث." (كتاب: **الأنظمة العالمية القديمة والحديثة World Orders Old and New**).

وكان مبعث القلق من "القوميات المستقلة" هو التخوف من تعرض المصالح الاقتصادية الأمريكية الكبرى للخطر. فقد كانت الثورات فى نيكاراجوا وكوبا وشيلى والسلفادور تعنى تعرض العديد من الشركات الأمريكية للخطر مثل شركات "يونايتد فروت" و"أناكوندا كوبر" و"شركة الهاتف والبرق الدولية" وغيرها. وبذلك كانت التدخلات الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، والتى قدمت للشعب على أنها للمصلحة القومية، تتم لأسباب خاصة طُلب من الشعب الأمريكى أن يضحى بأبنائه فى سبيلها وأن يدفع دولارات الضرائب من أجلها.

كما كان على المخابرات الأمريكية أن تثبت أهميتها. ففى ٤ فبراير ١٩٩٢، كتبت صحيفة نيويورك تايمز تقول: "فى عالم لا يوجد فيه عدو يجب على المخابرات الأمريكية وهيئاتها وأقمارها الصناعية التى تكلفت بلايين الدولارات وتلالاً من الوثائق أن تظل فى عقول الأمريكيين بشكل ما." وقد ظلت الميزانية العسكرية ضخمة، إذ كانت ميزانية الحرب الباردة ٣٠٠ بليون دولار، ثم خُفضت بنسبة ٧٪ لتصل إلى ٢٨٠ بليونا.

وعندما تولى الرئيس بوش الرئاسة عام ١٩٨٩، شعر بالحرج من المسلك المنحرف لديكتاتور بنما الجنرال مانويل نورييجا، حيث كان نظامه فاسداً، متسلطاً ووحشياً. ولكن كان الرئيس ريجان ونائبه بوش قد تجاهلا ذلك لما يمثله نورييجا من فائدة للولايات المتحدة؛ لتعاونه مع المخابرات الأمريكية بطرق عديدة. فقد جعل بنما قاعدة للعمليات العسكرية ضد حكومة الساندنيستا فى نيكاراجوا ، ومكاناً للقاء الكولونيل أوليفر نورث بقوات الكونترا فى نيكاراجوا لمناقشة الأهداف المزمع القيام بها. وكان بوش يحمى نورييجا في أثناء عمله مديراً لجهاز المخابرات فى الفترة من عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ .

ومع بداية عام ١٩٨٧ انتهت فائدة نورييجا بالنسبة للولايات المتحدة وأصبحت أنشطته فى تجارة المخدرات مكشوفة ، وصار هدفاً مناسباً لأيّة إدارة ترغب فى إثبات

نفوذها فى الكاريبى، ولا سيما مع عدم قدرتها على القضاء على نظام كاسترو أو حركة الساندنيستا أو الحركة الثورية فى السلفادور.

وفى ديسمبر من عام ١٩٨٩ قامت الولايات المتحدة بغزو بنما بقوات يصل حجمها إلى ٢٦,٠٠٠ فردٍ بزعم أنها أرادت تقديم نورييجا للمحاكمة بتهمة الاتجار فى المخدرات (تم توجيه التهمة له فى فلوريدا) وكذلك من أجل حماية المواطنين الأمريكيين (كان الجنود فى بنما قد هددوا عسكرياً أمريكياً وزوجته).

وكان هذا نصراً سريعاً: فقد تم القبض على نورييجا وقُدم للمحاكمة فى فلوريدا (حيث وجدته هيئة المحلفين مذنباً وزُج به فى السجن). ومع ذلك ففى خلال الغزو تم قصف المركز التجارى "بنما سيتى" ولقى المئات بل الآلاف من المدنيين مصرعهم وشُرد نحو ٤٠٠٠ شخص. ويقول مارك هيرتسجارد: "إذا كانت أرقام البنتاجون صحيحة بشأن إصابة مئات المدنيين ، فإن هذا يعنى أن الولايات المتحدة قد قتلت فى بنما نفس العدد الذى قتلته الحكومة الصينية فى هجومها المشين على الطلاب المتظاهرين فى الميدان السماوى فى بكين قبل ذلك بستة أشهر".

ونُصِّب رئيس جديد موالٍ للولايات المتحدة فى بنما، بيد أن معدلات الفقر والبطالة ظلت ثابتة دون تغيير. وفى عام ١٩٩٢ ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن الغزو وإسقاط نورييجا "لم يؤثرا فى القضاء على تدفق تجارة المخدرات غير المشروعة فى بنما."

وبالرغم من ذلك، فقد نجحت الولايات المتحدة فى تحقيق أحد أهدافها وهو فرض سيطرة قوية على المنطقة. وكتبت مجلة "تايم": "يتناول رئيس بنما وكبار مساعديه الإفطار مرة كل أسبوع مع السفير الأمريكى دين هينتون Dean Hinton وهو اجتماع يعتقد الكثيرون فى بنما أن العديد من القرارات المهمة تتخذ فيه."

وأعلن الديمقراطيون الليبراليون (جون كيرى John Kerry وتيد كينيدى Ted Kennedy من ولاية ماساتشوسيتس وآخرون) دعمهم للعمل العسكرى، وبذلك أكد الديمقراطيون دورهم بوصفهم مناصرين للتدخل العسكرى، وهم يشعرون بالقلق من أن

يبدو الأمر وكأن هناك اتفاقاً بين الحزبين فى مبادئ السياسة الخارجية. وبدا الديموقراطيون وكأنهم يرغبون فى الظهور بمظهر صارم مثل الجمهوريين. إلا أن عملية بنما لم تكن فى المستوى الذى يسمح بتحقيق ما رغبت فيه إدارتا بوش وريجان بشدة؛ وهو التغلب على الغضب الشعبى من عمليات التدخل العسكرى الخارجى منذ حرب فيتنام.

وبعد ذلك بعامين منحت حرب الخليج الإدارة الأمريكية الفرصة لتحقيق هذا الهدف. فقد استطاع العراق بزعامة الديكتاتور صدام حسين أن يستولى على جارته الكويت الدولة الصغيرة الغنية بالبترول فى أغسطس ١٩٩٠ وكان جورج بوش فى حاجة لشىء ما فى هذا الوقت لترويج شعبيته بين الناخبين الأمريكيين. وكانت صحيفة "واشنطن بوست" قد نشرت فى ١٦ أكتوبر من عام ١٩٩٠ عنواناً فى الصفحة الرئيسية يقول: "الاستطلاعات تظهر تراجع ثقة الرأى العام ... تراجع شعبية بوش". وذكرت الصحيفة نفسها فى ٢٨ أكتوبر أن بعض المراقبين فى حزب الرئيس "يشعرون أنه سيضطر لخوض حرب من أجل منع تراجع شعبيته داخل الوطن".

وفى خريف عام ١٩٩٠ قام العراق بغزو الكويت. وفى ٣٠ أكتوبر اتُخذ قرار شن الحرب ضد العراق فى سرية. وردت الأمم المتحدة على ذلك بفرض عقوبات على العراق، وأكد أكثر من شاهد أمام لجان الكونجرس أن العقوبات سوف يكون لها تأثير ويجب أن تستمر. وأكدت شهادة سرية لجهاز المخابرات الأمريكية أمام مجلس الشيوخ أن مستوى صادرات العراق ووارداته قد تراجع بنسبة ٩٠٪ نتيجة العقوبات".

وبعدما أحرز الديموقراطيون تقدماً فى انتخابات الكونجرس فى نوفمبر، ضاعف بوش القوة العسكرية الأمريكية فى الخليج لتصل إلى ٥٠٠،٠٠٠ جندى، فيما بدا وكأنه قوة هجومية بدلاً من كونها قوة دفاعية. ووفقاً لما كتبته إليزابيث درو **Elizabeth Drew** فى صحيفة نيويورك تايمز، كان جون سونونو **John Sununu**، أحد مساعدى بوش، يقول: "إن حربا قصيرة ناجحة سوف تكون نصراً كبيراً للرئيس يضمن إعادة انتخابه".

وكتب المؤرخ جون واينر Jon Weiner، فى تحليله للسياق الداخلى لقرار الحرب بعد ذلك بوقت قصير، قائلاً: "إن بوش تغاضى عن العقوبات واختار الحرب لأن السياق الزمنى والسياسى كان محدداً بقرب الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٩٢".

وكانت هذه الظروف، بالإضافة إلى رغبة الولايات المتحدة القديمة فى أن يكون لها دور بارز فى السيطرة على مصادر البترول فى الشرق الأوسط، هى الأسباب الرئيسية فى اتخاذ قرار الحرب. ولم يمض وقت طويل حتى اجتمعت الدول الثلاث عشرة المصدرة للبترول فى جنيف، وكتب المراسل الاقتصادى لصحيفة نيويورك تايمز فى نفس السياق قائلاً: "بفضل هذا الانتصار العسكرى الذى أحرزته، قد يكون للولايات المتحدة تأثير أكبر من أيّة دولة صناعية أخرى فى قرارات منظمة الدول المصدرة للبترول".

ولم يطلع الشعب الأمريكى على هذه الدوافع، فقد كان شائعاً أن الولايات المتحدة ترغب فى تحرير الكويت من الاحتلال العراقى، واتخذت جميع وسائل الإعلام هذا السبب ذريعةً للحرب متجاهلة أن دولاً أخرى تعرضت للغزو دون أن تظهر الولايات المتحدة مثل هذا الاهتمام (غزو إندونيسيا لتيمور الشرقية - غزو العراق لإيران - غزو إسرائيل للبنان - غزو جنوب أفريقيا لموزمبيق) ناهيك عن الدول التى غزتها الولايات المتحدة بنفسها مثل جرينادا وبنما.

ويبدو أن التبرير الأكبر للحرب كان أن العراق فى طريقه لبناء القنبلة النووية، لكن الأدلة على ذلك كانت ضعيفة. وكانت تقارير مصادر المخابرات الغربية، قبل الحرب ضد الكويت، تشير إلى أن العراق يحتاج من ثلاث إلى عشر سنوات حتى يستطيع بناء السلاح النووى. وحتى إن كان العراق قادراً على إنتاج القنبلة خلال سنتين، وهذا أكثر الاحتمالات تشاؤما، فلم تكن لديه القدرة على إرسالها إلى أى مكان. وبالإضافة إلى ذلك، كانت إسرائيل تمتلك بالفعل أسلحة نووية من ناحية، وكانت الولايات المتحدة تمتلك ٣٠.٠٠٠ من هذه القنابل. إلا إن إدارة بوش كانت تحاول أن تخلق هوساً داخلياً من القنبلة العراقية التى لم تكن موجودة من الأساس.

وقد بدا بوش مصراً على شن الحرب، رغم توفر فرص عديدة للتفاوض حول انسحاب العراق من الكويت بعد الغزو مباشرة، ومن بينها الاقتراح العراقى فى ٢٩ أكتوبر الذى نشره نات رويس Knut Royce مراسل "نيوزداى" Newsday . ومع ذلك لم تكن هناك أيّة استجابة من الولايات المتحدة. وعندما ذهب وزير الخارجية جيمس بيكر لمقابلة وزير الخارجية العراقى طارق عزيز، كانت تعليمات بوش هى: "لا مفاوضات".

وبالرغم من محاولات واشنطن، التى استمرت شهوراً، لتأكيد الخطر الذى يمثله صدام حسين فقد أظهرت استطلاعات الرأى أن أقل من نصف الشعب يفضل الحل العسكرى. وفى يناير ١٩٩١ ونتيجة لحاجة بوش للمساندة، طالب الكونجرس بمنحه حق شن الحرب. ولم يكن هناك إعلان بالحرب كما يقرر الدستور، فقد بدا وكأن هذا الشرط قد مات منذ أحداث كوريا وفيتنام. ولم يتدخل "المفسرون المتشددون" فى المحكمة الدستورية العليا الذين طالما تباهوا بأنهم ينفذون الدستور حرفياً.

وكان النقاش فى الكونجرس ساخناً (حيث قاطع المتظاهرون خطاباً فى مجلس الشيوخ وهم يهتفون "لا للحرب من أجل البترول" وقام الحراس بإبعاد المتظاهرين). ويبدو أن بوش كان واثقاً من نتائج التصويت ، أو أنه كان على استعداد لشن الحرب دون موافقة من الكونجرس، كما حدث من قبل من تجاهل للدستور فى حالات كوريا وفيتنام وجرينادا وبنما.

وفى منتصف يناير ١٩٩١، وبعد رفض صدام حسين الانصياع للإنذار، بمغادرة الكويت، شنت الولايات المتحدة حربها ضد العراق ، وسُميت هذه العملية باسم "عاصفة الصحراء". وقد صورت الحكومة والأجهزة الإعلامية العراق كقوة عسكرية ضاربة، وهى صورة لا سند لها فى الواقع، حيث كانت السيطرة لسلاح الجو الأمريكى الذى يستطيع أن يضرب حيثما يشاء. ولم يمتلك المسئولون الأمريكيون السيطرة الجوية فقط، بل أغرقوا الشعب الأمريكى بالصور التليفزيونية عن "القنابل الذكية" والتصريحات التى تؤكد دقة توجيه قنابل الليزر تجاه الأهداف العسكرية، وقامت الشبكات الكبرى بتقديم هذه الادعاءات دون سؤال أو انتقاد.

وربما ساهمت هذه الثقة فى "القنابل الذكية"، والتى انتشرت بين المدنيين، فى تغيير الرأي العام من الانقسام حول الحرب إلى مساندة الحرب بنسبة ٨٥٪. وكان العنصر الأهم من كسب الرأى العام هو أنه مع تدخل القوات العسكرية الأمريكية، تحول انتقاد الحرب ومعارضتها إلى خيانة للقوات الموجودة فى ساحات القتال. وكانت الأشرطة الصفراء المنتشرة فى جميع أرجاء البلاد تستخدم كرمز لمساندة القوات الموجودة فى العراق.

والحقيقة هى أن الشعب تعرض للخداع بشأن مدى دقة إصابة "القنابل الذكية" فى المدن العراقية. فبعد لقاءاته مع ضباط سابقين فى الاستخبارات والقوات الجوية، ذكر مراسل جريدة بوسطن جلوب أن ٤٠٪ من قنابل الليزر التى أسقطت خلال عملية "عاصفة الصحراء" ربما تكون قد أخطأت أهدافها. ويقدر جون ليمان **John Lehman** ، وزير البحرية فى إدارة ريجان، وقوع آلاف الضحايا بين المدنيين إذ لم تكن وزارة الدفاع تمتلك أرقاماً حولها ، بل إن مسئولاً كبيراً فى البنتاجون صرح لصحيفة بوسطن جلوب قائلاً: "الحقيقة أننا لم نهتم بهذا السؤال".

ووصف مراسل وكالة رويترز فى العراق الدمار الذى لحق بفندق مكون من ٧٣ غرفة، ونُقل عن شاهد مصرى قوله: "لقد قصفوا الفندق وهو ملىء بالعائلات وعاودوا الهجوم مرة أخرى". وذكرت وكالة رويترز أن قنابل الليزر استخدمت أولاً فى الغارات الجوية على العراق ، لكن بعد ذلك بأسابيع قليلة بدأ استخدام قنابل **B - 52** وهى قنابل تقليدية لا تملك القدرة على تحديد أهدافها.

وقد مُنع الصحفيون الأمريكيون من الاقتراب من مواقع العمليات الحربية وتعرض المراسلون للرقابة. ولم تكن الحكومة الأمريكية لتسمح بحدوث تأثير سلبى للصحافة، مثلما حدث فى حرب فيتنام نتيجة لتقارير الصحافة عن الخسائر المدنية وتأثيرها في الرأى العام.

وكتب مراسل "واشنطن بوست" فى ٢٢ يناير ١٩٩١ يشكو من الرقابة على المعلومات قائلاً:

لقد تضمن القصف العديد من قاذفات B - 52 ، التى تطير على مستوى عال ومجهزة بذخيرة ضخمة غير موجهة ... لم يسمح البنتاجون بإجراء مقابلات مع طيارى هذه القاذفات أو عرض أشرطة فيديو تعرض عملياتها ، كما رفض الإجابة على أسئلة بشأن هذه الطائرات التى تعد الأكثر خطراً والأقل دقة فى ترسانة طائرات قوات التحالف والولايات المتحدة فى منطقة الخليج العربى ، والتى تقدر بحوالى ٢٠٠٠ طائرة.

وفى منتصف فبراير أسقطت الطائرات الأمريكية قنابل على مخبأ للطائرات فى الساعة الرابعة صباحاً مما أدى إلى مقتل ٤٠٠ أو ٥٠٠ شخص. وقال مراسل وكالة أسوشيتد بريس، وأحد القلائل الذين سُمح لهم بدخول الموقع: "كانت معظم الجثث متفحمة ومشوهة بشكل يفوق العقل ، وكان من الواضح أن من بينهم أطفالاً." وزعم البنتاجون أن هذا كان هدفاً عسكرياً، إلا أنّ مراسل أسوشيتد بريس قال: "لم يكن هناك دليل على أى وجود عسكرى بين الركام." وأجمع الصحفيون الذين زاروا الموقع على هذا. وبعد الحرب قدم رؤساء خمسة مكاتب إخبارية فى واشنطن بياناً مشتركاً يشكون فيه من أن البنتاجون مارس رقابة كاملة على الصحافة الأمريكية وعلى الأخبار خلال حرب الخليج.

وفي أثناء الحرب كانت تصرفات المعلقين الرئيسيين فى التلفزيون توحى بأنهم يعملون لصالح حكومة الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، عرض فيلم عن إسقاط قنبلة ليزر فوق سوق وأدت إلى مقتل مدنيين (أسقطتها طائرة بريطانية إشارةً للمساندة البريطانية للحرب الأمريكية). وعلق مراسل شبكة CBS فى السعودية دان راثر Dan Rather على هذا القصف قائلاً: "نحن متأكدون أن صدام حسين سوف يستغل هذه الخسائر فى دعايته".

وعندما حاولت الحكومة السوفيتية التفاوض على إنهاء الحرب وانسحاب العراق من الكويت قبل بداية الهجوم البرى، سألت ليسلى ستال Lesley Stahl كبيرة

مراسلى شبكة CBS صحفياً آخر: "أليس هذا هو سيناريو الكابوس؟ ألا يحاول السوفيت وقفنا؟"

وكانت المرحلة الأخيرة من الحرب، والتى استغرقت الأسابيع الستة الأخيرة، هى الهجوم البرى الذى لم يواجه بأيّة مقاومة تذكر مثلما حدث فى الهجوم الجوى. ومع التأكد من النصر والهروب الجماعى للجيش العراقى، واصلت الطائرات الأمريكية قصفها للجنود المنسحبين الذين تزاحموا فى الطريق الرئيسى لمدينة الكويت. ويصف أحد الصحفيين هذا المشهد قائلاً: "إنه جحيم مشتعل ... لقد تناثرت جثث الجنود الهاربين على الرمال شرقاً وغرباً".

وسببت العواقب البشرية للحرب صدمة بعد نهايتها عندما اتضح أن قصف العراق قد أسفر عن مجاعات وأوبئة وموت عشرات الآلاف من الأطفال. وقام وفد من الأمم المتحدة بزيارة للعراق بعد الحرب ، وأشار إلى أن "الصراع السابق قد تسبب... فى تقويض البنية الأساسية... ووسائل المعيشة الحديثة..."

وفى مايو، أوضح تقرير لفريق طبى تابع لجامعة هارفارد أن معدل وفيات الأطفال قد ارتفع بشدة ، وأن عدد الأطفال القتلى قد بلغ ٥٥,٠٠٠ حالة خلال الأربعة شهور الأولى من العام (استمرت الحرب فى الفترة من ١٥ يناير إلى ٢٨ فبراير) مقارنة بنفس الفترة من العام السابق.

وصرح مدير إحدى مستشفيات الأطفال فى بغداد إلى مراسل صحيفة نيويورك تايمز بأن أول ليلة للقصف شهدت انقطاعاً للتيار الكهربى. وقال: "انتزعت الأمهات أطفالهن من الحضانات وقمن بنزع الأنابيب من أذرعهم. وقامت أخريات برفع أطفالهن من فوق أجهزة التنفس الصناعى وهرعن إلى بدروم المستشفى حيث لا وجود لأيّة تدفئة. لقد مات أربعون طفلا من المبتسرين في أثناء أول اثنتى عشرة ساعة للقصف."

وصور مسئولو الولايات المتحدة صدام حسين خلال الحرب وكأنه هتلر آخر، فى حين انتهت الحرب دون الاقتراب من بغداد وتركت صدام حسين فى سلطته. ويبدو أن

الولايات المتحدة قد أرادت إضعافه فقط وليس القضاء عليه حتى تقيم توازناً مع إيران. فقبل حرب الخليج بسنوات كانت الولايات المتحدة تفضل إحدى الدولتين على الأخرى بوصفه جزءاً من استراتيجية "توازن القوى".

ولذلك، لم تساند الولايات المتحدة المنشقين العراقيين الذين رغبوا فى إسقاط صدام حسين فى أعقاب الحرب. فقد ذكر مراسل نيويورك تايمز فى واشنطن فى ٢٦ مارس عام ١٩٩١ أنه: "وفقاً لما صرح به المسئولون اليوم، فقد قرر الرئيس بوش أن يطلق يد صدام فى القضاء على حركات التمرد فى بلاده دون التدخل الأمريكى بدلاً من المخاطرة بتقسيم العراق." وبذلك تركت الأقلية الكردية التى تمردت على صدام حسين دون مساندة، بالإضافة إلى ذلك تركت عناصر مضادة لصدام حسين بين الأغلبية العراقية دون مساندة.

وفى ٣ مايو عام ١٩٩١ ذكرت صحيفة واشنطن بوست أن: "كثيراً من المنشقين العسكريين العراقيين كانوا على وشك الانضمام إلى التمرد الكردى فى مارس ، لكن هذا لم يحدث لأن الضباط أدركوا أن الولايات المتحدة لن تساند التمرد".

وبعد شهر من نهاية الحرب فى العراق، قدم برجينسكى **Brzezinski** (مستشار الأمن القومى فى إدارة ريجان) تحليلاً بارداً لهذه الحرب قائلاً: "لا يستطيع أحد أن ينكر الفوائد الرائعة للحرب... أولاً: القضاء على عدوان سافر.... ثانياً: من الآن سيخشى الجميع القوة العسكرية للولايات المتحدة.... ثالثاً: أصبح الشرق الأوسط ومنطقة الخليج العربى من مناطق النفوذ المهمة للولايات المتحدة الأمريكية."

ومع ذلك، فقد كان برجينسكى قلقاً من بعض "العواقب السلبية للحرب". وكان أحدها "أن شدة الهجوم الجوى على العراق يثير شعوراً بالقلق من أن الأمريكيين لا يقيمون وزنا لحياة العرب ... وهذا يطرح السؤال الأخلاقى: ما هو الحجم المناسب للرد على العدوان؟" لقد تأكدت نقطة "عدم الاهتمام بحياة العرب" فى أن الحرب قد أثارت موجة من المشاعر المضادة للعرب فى الولايات المتحدة، حيث تعرض الأمريكيون العرب للإهانة والضرب وتلقوا تهديدات بالقتل. وظهرت ملصقات على السيارات كتب

عليها "لا أتوقف بسيارتى لمساعدة أى عراقى" ، وتعرض رجل أعمال أمريكى من أصل عربى للضرب فى توليدو بأوهايو.

ويمكن اعتبار تقييم برجينسكى للحرب نموذجاً لوجهة نظر الحزب الديمقراطى ، والتى توافقت مع وجهة نظر بوش بدرجة كبيرة، فقد شعر الحزب الديموقراطى بسعادة بنتائج الحرب. فبالرغم من أنه أظهر استياءه من الخسائر المدنية، فإنه لم يظهر معارضة قوية.

وكان الرئيس جورج بوش يشعر بالرضا، ومع نهاية الحرب أعلن فى خطاب بالإذاعة أن "شبح فيتنام قد دفن للأبد تحت رمال الجزيرة العربية".

ووافقت صحافة المؤسسة على هذا، وخصصت المجلتان الشهيرتان "تايم" و"نيوزويك" طبعات خاصة عن الحرب وقدمتا التحية لمن قاموا بها. وجاء فى تحليلات المجلتين أن الخسائر الأمريكية فى الأرواح لم تزد عن مئات قليلة، ولم تهتم المجلتان بضحايا الحرب العراقيين. ونشرت نيويورك تايمز فى مقالها الافتتاحى فى ٣٠ مارس عام ١٩٩١ قائلة: "إن الانتصار الأمريكى فى الخليج العربى قد قدم شهادة خاصة للجيش الأمريكى الذى استغل قوة نيرانه وقدرته على التحرك للتخلص من ذكريات الصعوبات الجسيمة التى قابلته فى فيتنام".

غير أن شاعراً أمريكيا أسود من بيركلى بولاية كاليفورنيا هو جوون جوردان June Jordan كان له رأى آخر، حيث قال : "إن ما حدث ليس إلا فرقعة لن تدوم طويلاً."

الفصل الثانى والعشرون

المقاومة المسكوت عنها

فى أوائل التسعينيات ومن خلال مراجعته لكتاب يتحدث عن التأثير الخطير للعناصر غير الوطنية من المفكرين الأمريكيين، حذر أحد كتاب مجلة "نيو ريبابليك" قراءه من وجود ما أسماه "ثقافة مناوئة دائمة" فى الولايات المتحدة. وتعتبر هذه ملاحظة دقيقة. فعلى الرغم من الاتفاق السياسى للحزبين الديمقراطى والجمهورى فى واشنطن على وضع قيود على قانون الإصلاح الأمريكى (مؤكدين أن رأس المال فى مكانه الصحيح ، وأن هناك محافظة على القوة العسكرية ، وأن السلطة والثروة ما تزال فى يد البعض القليل)، فإن الملايين بل عشرات الملايين من الأمريكيين كانوا يرفضون جهراً الموافقة على ذلك الاتفاق. وما يقوم به هؤلاء الرافضون من أفعال لا يُذاع فى وسائل الإعلام المختلفة. كان هؤلاء هم أصحاب "الثقافة المناوئة."

وإذا كانت استجابة الحزب الديمقراطى لهؤلاء الأمريكيين أقوى من الحزب الجمهورى (فالحزب الديمقراطى يعتمد على أصواتهم)، فإنها كانت استجابة محدودة بسبب ارتباطها بالمصالح المادية ، مع وجود قيود على الإصلاحات الداخلية لاهتمام الدولة ببناء القوة العسكرية. حتى أن حرب الرئيس ليندون جونسون على الفقر فى الستينيات كانت ضحية الحرب فى فيتنام، ولم يستطيع الرئيس كارتر أن يتخطى ذلك بسبب إصراره على الإنفاق الهائل على القوات المسلحة ـ الجزء الأكبر منها لعمل مخزون كبير من الأسلحة النووية.

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه القيود واضحة فى عهد الرئيس كارتر، ظهر اتجاه مضاد للتسليح النووى بدأ فى النمو وإن كان ضئيلاً. لكنه كان ملموساً. وتعتبر مجموعة صغيرة من نشطاء السلام المسيحيين - ممن عارضوا الحرب على فيتنام - رواداً لهذا الاتجاه (من بين أعضائهم فيليب بيريجان أحد القساوسة السابقين وزوجته الراهبة إليزابيث ماكاليستر). وقد تم القبض على أعضاء هذه الجماعة أكثر من مرة ؛ لقيامهم بأعمال احتجاج ضد الحرب النووية أمام البنتاجون والبيت الأبيض وأماكن غير مصرح بالدخول فيها.

وفى عام ١٩٨٠، قام بعض المفوضين من نشطاء السلام من كل مكان فى المدينة بسلسلة من المظاهرات بالقرب من البنتاجون، ومن خلال هذه الأحداث تم القبض على أكثر من ألف شخص لقيامهم بأعمال تمرد سلمية.

وفى سبتمبر من العام نفسه، قام كل من فيليب بيريجان وأخوه دانيل (شاعر وقس من الجزويت) ومولى راش (أم لستة أطفال) وآن مونتجومرى (راهبة وواعظة فى مانهاتن) وأربعة من أصدقائهم بالتوجه إلى مصانع جنرال إلكتريك التى تنتج رؤوس الصواريخ النووية فى بنسلفانيا حاملين العصى ، وقاموا بتحطيم اثنين منها ملطخين دماءهم على بعض الأجزاء من الصواريخ والتصميمات. وانتهى الأمر بالقبض عليهم وحُكم عليهم بسنوات فى السجن. وقد أشار هؤلاء إلى الحصة الهائلة من أموال دافعى الضرائب ، التى تذهب لمؤسسات تقوم بإنتاج الأسلحة: "إن شركة جنرال إلكتريك تقوم باستنزاف حوالى ثلاثة ملايين دولار فى اليوم من الخزانة العامة. وهذا يعتبر سرقة لأموال الفقراء!"

وفى خلال السنوات العشر التالية، ظهرت حركة مناهضة لانتشار الأسلحة النووية من بعض الرجال والنساء المستعدين لدخول السجن ؛ لحث من بيدهم الأمر على التوقف والتفكير فى حياة ملايين الأمريكيين الخائفين من فكرة المحرقة النووية، والساخطين على مليارات الدولارات التى تنفق على التسليح ، فى الوقت الذى لا يجد فيه الناس متطلبات حياتهم اليومية. الجدير بالذكر أن المحلفين المعتدلين فى بنسلفانيا،

الذين قاموا بالحكم فى قضية المتظاهرين ضد شركة جنرال إلكتريك، أظهروا تعاطفا ملحوظا معهم. وقد قال أحد المحلفين ويدعى مايكل دى روزا فى لقاء صحفى: "لا أعتقد أنه كان فى نيتهم ارتكاب أيّة جريمة، لقد ذهبوا للاحتجاج فقط." وقالت محلفة أخرى تدعى مارى آن: "إننا بوصفنا محلفين فيما بيننا لا نريد أن نحاكمهم، ولكن كان هذا مفروضا علينا ؛ لأن قرار القاضى كان يؤكد التمسك بالقانون." وأضافت قائلة: "هؤلاء الناس ليسوا مجرمين، إنهم أناس يريدون مصلحة الدولة، وإن كان رأى القاضى أن القوى النووية ليست موضوع القضية الأساسى."

وقد أثارت الميزانية العسكرية الهائلة للرئيس ريجان الحركة الوطنية ضد استخدام الأسلحة النووية وإنتاجها، ففى الانتخابات الرئاسية عام ١٩٨٠ التى صار بها ريجان رئيساً للولايات المتحدة وفى استطلاعات الرأى التى تمت فى ثلاث مناطق فى غرب ولاية ماساتشوستس، سُمح للناخبين بإبداء رأيهم إذا كانوا يرغبون فى الوقف الثنائى لتجارب الأسلحة النووية وإنتاجها واستخدامها بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا، ورغبتهم فى أن يخصص الكونجرس هذه الأموال الطائلة للاستخدامات المدنية، وقامت جماعتان للسلام بتبنى ذلك خلال فترة الحملة الانتخابية ووافقت المناطق الثلاثة على الاقتراح (٩٤,٠٠٠ مقابل ٦٥,٠٠٠) حتى من قاموا بالتصويت لريجان. وتم توزيع استبيانات رأى أخرى فى سان فرانسيسكو وأوكلاند وديترويت وبيركلى ما بين عامى ١٩٧٨-١٩٨١ وكلها حازت الموافقة.

وكانت النساء فى طليعة الحركة الجديدة المناهضة للأسلحة النووية فقد قامت راندول فورسبيرج، إحدى الشابات المتخصصات فى الأسلحة النووية، بتنظيم مجلس لتجميد استخدام الأسلحة النووية. واستطاعت ببرنامجها البسيط الذى يعتمد على توقف كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة عن استخدام الأسلحة النووية، أن تحوز اهتمام الجميع فى أرجاء البلاد. وبعد انتخاب الرئيس ريجان، اجتمعت أكثر من ألفى امرأة فى واشنطن واتخذن طريقهن للبنتاجون وقمن بالوقوف حول المبنى فى دائرة كبيرة ممسكات بأيدى بعضهن البعض أو بأوشحة ملونة للاحتجاج على الأسلحة

النووية الأمر الذى أدى إلى القبض على حوالى مائة وأربعين منهن لقيامهن بإعاقة مدخل البنتاجون.

وقام عدد من الأطباء بتنظيم اجتماعات فى أماكن عديدة لتعليم المواطنين الإسعافات الطبية اللازمة إذا ما قامت حرب نووية. وأصبحت هيلين كالديكوت **Helen Caldicott** رئيسة الجماعة بعد ذلك من الزعماء الوطنيين والمؤثرين فى هذه الحركة.

وفى واحدة من الاجتماعات العلمية قام هوارد هايت عميد مدرسة هارفارد للصحة العامة بتوزيع رسم فوتوغرافى للآثار المترتبة على إلقاء قنبلة نووية على بوسطن، حيث بين الرسم أن مليونى شخص على الأقل يمكن أن يلقوا حتفهم إذا تم ذلك وسوف يعيش الناجون عاجزين عن الحركة أو فاقدين البصر أو مصابين بحروق. إن حربا نووية يمكن أن تخلف ٢٥ مليون حالة حروق خطيرة وكل المؤسسات العلاجية تستطيع علاج ٢٠٠ حالة فقط!

وخلال اجتماع وطنى فى كنيسة كاثوليكية فى بداية عهد الرئيس ريجان، اعترضت الأغلبية على أى استخدام للأسلحة النووية . وفى نوفمبر عام ١٩٨١ كانت هناك اجتماعات لأكثر من ١٥١ كلية فى أنحاء البلاد حول موضوع الأسلحة النووية. وفى إحدى الانتخابات المحلية فى بوسطن فى الشهر نفسه، تم تقديم اقتراح لزيادة الإنفاق الفيدرالى على البرامج الاجتماعية (من خلال تقليل حصة أموال الضرائب التى توجه للإنفاق على الأسلحة النووية والتدخلات الخارجية) وقد حاز ذلك الاقتراح موافقة الاثنين وعشرين دائرة فى بوسطن بما فيها أحياء البيض والسود. وقامت فى عام ١٩٨٢ أكبر مظاهرة فى تاريخ البلاد فى ميدان السنترال بارك فى نيويورك، حيث اجتمع حوالى مليون شخص لتأكيد رغبتهم فى التوصل لنهاية سباق التسليح.

وقام العلماء العاملون فى الأبحاث الخاصة بالقنبلة النووية بإضافة أصواتهم إلى الأغلبية ، وأصبح جورج كيستياكوفسكى (أستاذ الكيمياء بجامعة هارفارد ، والذى أصبح مستشاراً علمياً للرئيس أيزنهاور فيما بعد) المتحدث الرسمى لحركة نزع الأسلحة النووية ، وكانت آخر كتاباته قبل موته بمرض السرطان وهو فى الثانية

والثمانين من العمر فى مجلة "نشرة العلماء النوويين" فى ديسمبر عام ١٩٨٢:
"لم يتبق وقت طويل على انفجار العالم، لابد من أن تتحدوا فيما بينكم، فانتهزوا فرصة وجود حركة مكثفة للسلام لم تكن موجودة من قبل" .

وفى ربيع عام ١٩٨٣، تمت الموافقة على تجميد الحرب النووية فى ٣٦٨ مدينة وإقليم بعد ٤٤٤ اجتماعا محليا و١٧ هيئة تشريعية، وقد أظهر استطلاع هاريس أن ٧٩٪ من الأمريكيين يرغبون فى تجميد التسليح النووى مع الاتحاد السوفيتى، حتى بين المسيحيين البروتستانت - وهم مجموعة من ٤٠ مليون شخص يفترض أنهم محافظون ويرغبون فى ترشيح الرئيس ريجان - وأظهر استطلاع لمعهد جالوب رغبة ٦٠٪ من الأمريكيين فى وقف التسليح النووى.

وبعد عام من مظاهرات سنترال بارك الكبيرة، ازداد عدد الجماعات المناهضة ووصل إلى ثلاثة آلاف جماعة ، وانعكس رفض الشارع للتسليح النووى فى الثقافة العامة، فى الكتب والمجلات والمسرحيات والأفلام. وقد كتبت جوناثان شيل كتابا ضد سباق التسليح النووى أسمته **قدر الأرض** Fate of the Earth وأصبح كتابها من أكثر الكتب رواجاً.

وقام أحد المخرجين فى كندا بإخراج فيلم تسجيلى عن سباق التسليح ، ولكن الرئيس ريجان لم يوافق على عرضه فى الولايات المتحدة ، وقامت محكمة فيدرالية بعد ذلك بالموافقة على عرض الفيلم. وفى أقل من ثلاث سنوات، حدث تغير كبير فى وجهة النظر العامة، حيث بدأ الحس الوطنى فى التأجج بعد أزمة الرهائن فى إيران وغزو الاتحاد السوفيتى لأفغانستان، وقد وجد مركز أبحاث الرأى العام التابع لجامعة شيكاجو أن ١٢٪ فقط يجدون أن ما يتم إنفاقه على التسليح يعتبر كثيرا، ولكن عندما قام باستطلاع الرأى مرة أخرى عام ١٩٨٢ ارتفع العدد إلى ٣٢٪ وفى ١٩٨٣ ارتفع الرقم ليصل إلى ٤٨٪.

وتم التعبير عن رفض التسليح النووى من خلال رفض الخدمة العسكرية، فعندما قام الرئيس جيمى كارتر بالتحرك بعد غزو الاتحاد السوفيتى لأفغانستان، طلب من

الشباب الموافقة على الالتحاق بالخدمة العسكرية، ورفض ذلك أكثر من ٨٠٠ ألف من الشباب (١٠٪)، وأرسلت إحدى الأمهات خطابا إلى جريدة نيويورك تايمز تقول فيه:

قبل ستة وثلاثين عاماً، وقفت أمام محرقة جثث الموتى. إن أقبح قوة فى العالم وعدت نفسها بإزاحتى من دائرة الحياة. مع كثير من البنادق وكثير من الكراهية، أحست هذه القوة أنها مساوية لقوة الحياة. ولكنى استطعت أن أحيا فى وجه البنادق ومع كل ابتسامة من ابنى يظهرون أكثر ضعفًا. لن أقوم بتقديم دماء ابنى لتكون وقودا لبنادق الجيل الجديد. إننى بذلك أزيح ابنى ونفسى من دائرة الموت. (إيزابيلا لايتنر)

وقد حذر ألكسندر هيج المساعد السابق للرئيس نيكسون فى مقابلة نشرت فى جريدة فرنسية وهى جريدة "بولوتيك انترناسيونال": "إن هناك احتمالا كبيرا لعودة الظروف التى أجبرت الرئيس نيكسون على وقف طلب الالتحاق بالخدمة العسكرية." وأضاف قائلاً: "إن هناك جين فوندا على كل عتبة باب." وكتب أحد الشباب الذين رفضوا الخدمة العسكرية خطابا إلى الرئيس كارتر قائلاً:

سيادة الرئيس:

فى ٢٣ يوليو ١٩٨٠ كنت على وشك التقدم إلى مكتب البريد لتسجيل اسمى فى نظام الخدمة المختارة، ولكنى حاليا أود إخبارك أننى لن أسجل اسمى فى ٢٣ يوليو ولا فى أى وقت لاحق... لقد جربنا القوة العسكرية وقد خذلت الإنسانية بكل طريقة ممكنة.

وقد تردد الرئيس ريجان فى الدعوة مرة أخرى للخدمة العسكرية، كما شرح وزير الدفاع كاسبر واينبيرجر: "إن الرئيس ريجان يعتقد أن استكمال طلبات الخدمة العسكرية سوف يؤدى إلى مشاكل عامة مثلما حدث فى الستينيات والسبعينيات." كذلك

أكد وليام بيتشر أحد رجال البنتاجون فى نوفمبر عام ١٩٨١ أن الرئيس ريجان "مهتم أو بمعنى آخر منزعج من زيادة الأصوات الغاضبة والمتشككة فى أوروبا ومؤخراً فى جامعات الولايات المتحدة من خطة الولايات المتحدة النووية."

ومن أجل التأثير في هؤلاء الرافضين وتخويفهم، تمت محاكمة من يقوم برفض طلب الالتحاق بالخدمة العسكرية. فقد كان بينجامين ساسواى واحدا ممن واجهوا عقوبة السجن عندما شهد بأن تدخل الولايات المتحدة العسكرى فى السلفادور يعتبر سببا قويا لرفض طلب الالتحاق بالخدمة العسكرية.

وكتب وليام إيه. راشر، وهو أحد الكتاب اليمينيين، فى جريدة "ناشيونال ريفيو" ساخطاً على رفض البعض الخدمة العسكرية مثل بينيامين ساسواى مؤكداً أن من ميراث الستينيات ظهور جيل من المدرسين يقوم بتعليم مناهضة الحرب:

> **أكاد أكون متأكدا من أن مدرساً أو أكثر قاموا بتعليم بينجامين ساسواى أن ينظر للمجتمع الأمريكى على أنه زائف ومادى ومُستغل وحجر عثرة فى طريق تقدم البشرية. إن جيل المحتجين على حرب فيتنام بلغوا حاليا العقد الثالث من العمر، ويتخفى الأكاديميون منهم داخل الكليات والجامعات والمدارس. إننى أشعر بالحسرة على عدم مقدرة قوانيننا التشريعية على الوصول لهؤلاء الناس ومعاقبة المخططين لهذا النوع من التدمير والهدم.**

وفى أثناء تدريبات حفلة التخرج فى ربيع عام ١٩٨١ فى جامعة سيراكوس، وعندما مُنح هيج Haig درجة الدكتوراه الفخرية فى الخدمة العامة، قام مائتا طالب بإعطاء ظهورهم للمنصة تعبيراً عن احتجاجهم. وكتبت الصحافة عن هذه الواقعة ما يلى: "فى خلال الخمس عشرة دقيقة التى مُنح فيها السيد هيج الدكتوراه ـ كان الطلاب فى كل لحظة صمت يقومون بترديد عبارات معادية للحرب مثل: "نعم للمتطلبات البشرية ولا للجشع العسكرى"، و"اخرجوا من السلفادور"، و"بنادق واشنطن تقتل

الراهبات الأمريكيات." وكان الشعار الأخير مرجعه أن بعض الجنود السلفادوريين فى عام ١٩٨٠ قاموا بقتل أربع راهبات أمريكيات ببنادق أمريكية! كان آلاف المدنيين فى السلفادور يموتون كل عام فى جماعات تحت رعاية حكومة مسلحة من الولايات المتحدة، مما جعل الشعب الأمريكي يشعر بما يحدث فى ذلك البلد الصغير.

وقد بدا واضحاً أن السياسة الخارجية الأمريكية لا تعير انتباهاً للديمقراطية، ولا تأخذ رأى العامة فى الحسبان. وفى استطلاع للرأى قامت به شبكة سى. بى. إس التليفزيونية فى ربيع عام ١٩٨٢ أظهر أن ١٦٪ فقط من العينة وافقت على برنامج ريجان لإرسال مساعدات اقتصادية وعسكرية للسلفادور. وفى عام ١٩٨٣ تم الإعلان عن أن أحد الأطباء الأمريكيين ويدعى تشارلز كليمنت يعمل مع المنشقين فى السلفادور، وكان يعمل طيارا فى القوات الجوية الأمريكية فى جنوب شرق أسيا. وبعد اكتشافه أن حكومته تقوم بالكذب والتضليل، رفض القيام بأيّة رحلات جوية أخرى، وجاء رد القوات الجوية على ذلك بأن أرسلته إلى مستشفى للطب النفسى ، وبعد ذلك قامت بطرده من الخدمة بدعوى أنه مريض نفسياً ، وذهب بعد ذلك للدراسة فى كلية طبية ثم تطوع مع رجال العصابات فى السلفادور.

وكثر الحديث فى وسائل الإعلام الأمريكية فى مطلع الثمانينات عن الحذر السياسى للجيل الجديد من طلاب الجامعات فى ما يتعلق بمستقبلهم المهنى ، وفى حفلة تخرج جامعة هارفارد فى عام ١٩٨٣، قام الكاتب المكسيكى كارلوس فوينتس بانتقاد التدخل الأمريكى فى أمريكا اللاتينية قائلاً: "بوصفنا أصدقاء مخلصين للولايات المتحدة، لا نسمح لكم بالتدخل فى شئون أمريكا اللاتينية كما يفعل الاتحاد السوفيتى فى وسط أوروبا وآسيا." وقد تمت مقاطعته أكثر من عشرين مرة من كثرة التصفيق والاستحسان. وعند انتهائه من الحديث قام الجميع بتحيته وقوفاً. وأضاف قائلاً: "من خلال معايشتى مع طلاب جامعة بوسطن لم أجد الأنانية وعدم الاهتمام والحذر السياسى الذى تتم الإشارة إليه فى وسائل الإعلام ، وأستطيع أن أنقل إليكم التعليقات التى وصلتنى من الطلبة:

أحد الطلبة: "هل تعتقد أن شيئاً طيباً فى العالم قد حدث بفعل أيّة حكومة من الحكومات؟ أنا أعمل فى روكسبيرى (منطقة يقطنها السود) وأعلم أن الحكومة لا تعمل لصالح من يعيشون فى روكسبيرى ولا لصالح أى أحد فى أى مكان ولكنها تعمل فقط لصالح من يملك المال!"

امرأة شابة: "أنا بوصفى امرأة بيضاء من طبقة متوسطة لم أشعر بالتمييز ضدى مطلقاً ، ولكنى أقول: "لو أراد أى شخص تغيير مكان فصلى أو مكان حمامى أو أى شىء آخر، فسوف أقوم بضربه بشدة ... إن البشر لا يريدون مَنْ يحدد حقوقهم على ورق، ذلك أنهم لو تمت معاملتهم معاملة سيئة من الحكومة أو من السلطة فسوف يعملون على دفع الظلم عن أنفسهم ... إذا نظرتم إلى الحقوق والواجبات، فستجدون أن الحكومة والسلطة والشركات والمؤسسات هى التى تحتاج إلى قوانين وواجبات وحقوق لتعزلهم عن الاحتكاك المباشر بالشعب."

فى الريف، وبعيدا عن الجامعات، كان هناك رفض لسياسات الحكومة لم تكن معروفة ومعلنة، وقد جاء تقرير من أريزونا فى الأيام الأولى لولاية الرئيس ريجان يوضح أن "المتظاهرين خاصة من متوسطى الأعمار يتظاهرون ضد التدخل الأمريكى فى السلفادور، وأكثر من ألف متظاهر فى تكسون قاموا بمسيرة فى ذكرى اغتيال أوسكار روميرو رئيس الأساقفة الذى اعترض على القتل الجماعى فى السلفادور. وقام أكثر من ٦٠ ألف أمريكى بالتوقيع على وثيقة لاتخاذ خطوات من أى نوع من ضمنها التمرد، إذا قام ريجان بغزو نيكارجوا. وعندما قام الرئيس بتشكيل قوات محاصِرة للدولة الصغيرة لمحاولة الضغط على الحكومة لإخراجها من السلطة، جابت المظاهرات جميع أرجاء البلاد، ففى بوسطن وحدها تم القبض على ٥٥٠ شخصا من المتظاهرين.

وفى خلال رئاسة ريجان، كانت هناك مئات الأفعال التى حدثت فى البلاد ضد سياساته فى جنوب إفريقيا، فقد كان يدافع عن القلة البيضاء التى تحكم جنوب أفريقيا خوفاً من أن يحل محلها المجلس المحلى الثورى الأفريقى ، والذى يمثل الأغلبية السوداء. وكتب شيستر كروكر سكرتير الولاية للشئون الأفريقية فى مذكراته: "إن الرئيس ريجان لم يكن يشعر بالأوضاع التى يعيش فيها السود تحت حكم القلة البيضاء"، وقد كان تأثير الرأى العام قوياً، الأمر الذى أدى إلى قيام الكونجرس بفرض عقوبات اقتصادية على حكومة جنوب أفريقيا فى عام ١٩٨٦ متجاهلا فيتو الرئيس ريجان. وقد قام الرئيس ريجان بتقليل ميزانية الخدمات الاجتماعية ، مما يعنى أن بعض المتطلبات الضرورية لن يتم الاهتمام بها ، وقد ظهرت كثير من ردود الفعل الغاضبة.

وفى ربيع عام ١٩٨١ وصيفه ، خرج سكان شرق بوسطن إلى الشوارع لمدة ٥٥ يوماً، وقاموا بإغلاق الطرق الرئيسية والأنفاق فى ساعات الاختناقات المرورية للاحتجاج على تخفيض الميزانيات الخاصة بالمطافئ والشرطة والمدرسين ، وقال أحد ضباط الشرطة ويدعى جون دويل: "يبدو أن هؤلاء المحتجين أخذوا دروساً من المحتجين أيام الستينيات والسبعينيات".

وكتبت صحيفة بوسطن جلوب: "إن المتظاهرين فى شرق بوسطن كانوا فى معظمهم متوسطى الأعمار ، ومن الطبقة المتوسطة والعاملة الذين قالوا إنهم لم يشاركوا فى أيّة مظاهرات من قبل". وقد قامت حكومة ريجان باستقطاع جزء كبير من الودائع الفيدرالية المخصصة للفنون، متعللة بأن الفنون يمكن أن تُمول من خلال مؤسسات خاصة، ففى نيويورك قاموا بهدم مسرحين تاريخيين ليحل محلهما فندق شديد الفخامة يتكون من خمسين طابقاً، مما دفع مائتى شخص للاحتجاج رافضين إخلاء المكان بأمر البوليس، وتم القبض على بعض من الرموز المسرحية ، من ضمنهم المخرج جوزيف باب والممثلات تامى جرايمز وإيستيل بارسونز وكليست هوم والممثلين ريتشارد جير ومايكل موريارتى.

وقد كان تخفيض الميزانية حافزاً للقيام بإضرابات فى كل أنحاء الدولة، حتى من قبل أشخاص غير معتادين على الإضرابات وفى خريف ١٩٨٢ ، وكتبت وكالة الصحافة الدولية المتحدة:

> **دفع الإحساس بالقهر، بسبب الطرد من الوظائف وتخفيض المرتبات وعدم الإحساس بالأمان الوظيفى، مدرسين من كل مكان إلى القيام بإضراب ، وقد تم تنظيم إضراب الأسبوع الماضى فى سبع ولايات من رود أيلاند حتى واشنطن مما أدى إلى تغيب أكثر من ٣٠٠ ألف تلميذ.**

وبعد عدة دراسات لسلسلة من الأحداث الجديدة فى الأسبوع الأول من يناير عام ١٩٨٣، كتب ديفيد نايهان فى صحيفة بوسطن جلوب: "فى واشنطن ثمة شىء يتشكل وينذر بالشر لمن يتجاهلونه. إن الناس انتقلوا من مرحلة الخوف إلى مرحلة الغضب، وينفسون عن إحباطهم بطرق يتم من خلالها اختبار نسيج النظام المدنى". وقام بإعطاء بعض الأمثلة:

– فى ليتل واشنطن ببنسلفانيا عام ١٩٨٣ عندما قام مدرس علوم كمبيوتر يبلغ من العمر ٥٠ عاماً بحثّ المدرسين على القيام بإضراب، قبض عليه وتم إيداعه السجن. وعلى إثر ذلك قام ٢٠٠٠ شخص بمظاهرة أمام السجن لإظهار تأييدهم له ، وقالت عنها "بوست جازيت" فى بيتسبيرج: "إنها من أكبر الحشود فى مقاطعة واشنطن منذ ثورة الويسكى عام ,١٧٩٤"

– عندما لم يستطيع أصحاب المنازل ـ العاطلون أو المفلسون ـ فى بيتسبيرج دفع المرهونات وتم تحديد موعد لبيع منازلهم من خلال مزاد، قام أصحاب المنازل بوضع أوتاد لإعاقة مدخل المزاد كنوع من الاحتجاج، واستطاع رئيس الشرطة يوجين كون إيقافهم.

– عند بيع مزرعة قمح تبلغ ٣٢٠ فدانا فى سبرينج فيلد بكولورادو لم يتمكن أصحابها من دفع المستحقات، قام ٢٠٠ فلاح بمحاولة إعاقة عملية البيع وتم تفريقهم باستخدام الغازات المسيلة للدموع والهراوات.

وعندما وصل ريجان إلى بيتسبيرج في أبريل عام ١٩٨٣ لإلقاء خطبة، قام ٣٠٠٠ شخص معظمهم من عمال الحديد العاطلين بمظاهرات ضده واقفين تحت الأمطار أمام الفندق. وكذلك قامت مظاهرات مماثلة في ديترويت وفلينت وشيكاجو وكليفلاند ولوس أنجيليس وواشنطن... وأكثر من عشرين مدينة أخرى.

في ذلك الوقت، قام السكان السود في ولاية ميامي بأعمال شغب ضد وحشية رجال الشرطة وقسوتهم، وهم في الوقت نفسه يحتجون على ظروف معيشتهم السيئة؛ فقد وصلت معدلات البطالة بين الأمريكيين السود إلى حوالي ٥٠٪ وكانت استجابة حكومة ريجان الوحيدة للفقر هي بناء معتقلات جديدة، فقد كان يعلم أن الزنوج لم يصوتوا له، فقام بمحاولة فاشلة لحذف جزء مهم من قانون حق التصويت لعام ١٩٦٥ الذي يحمي حقوق السود في الإدلاء بأصواتهم في الولايات الجنوبية.

وكانت سياسات ريجان تربط بوضوح بين موضوعين رئيسيين ، هما وقف التسليح وبرامج الرعاية الاجتماعية. إنها البنادق في مواجهة الأطفال! وقد تم التعبير عن ذلك من خلال كلمة ماريان رايت رئيسة صندوق الدفاع عن الأطفال في حفلة تخرج أكاديمية ميلتون في ماساتشوستس في صيف عام ١٩٨٣:

> **إنكم تتخرجون اليوم في عالم يتأرجح على حافة الإفلاس الأخلاقي والاقتصادي. منذ عام ١٩٨٠ حاول الرئيس والكونجرس من ورائه تحويل كل شفرة من شفرات محراثنا الوطني إلى خنجر! إنهم ينقلون الأخبار السعيدة إلى الأغنياء على حساب الفقراء. وللأسف فإن الأطفال هم الضحية الرئيسية! إن سياساتنا الوطنية والدولية تقتل أطفالنا يومياً... إن الحكومات في كل بلاد العالم ـ تحت قيادة حكومتنا ـ تنفق أكثر من ٦٠٠ مليار دولار على التسليح سنوياً، في الوقت الذي يعيش فيه نحو مليار شخص تحت خط الفقر وحوالي ٦٠٠ مليون بدون**

وظائف! أين الالتزام الإنسانى والإرادة السياسية فى إيجاد حصة قليلة من الأموال اللازمة لحماية الأطفال؟

وقامت رايت بحثّ مستمعيها قائلة: "قوموا باختيار جزء بسيط من المشكلة الذى تشعرون أنكم قادرون على حله ، مع محاولة رؤية كيف يمكن لهذا الجزء البسيط أن يساعد على فهم لغز التغيير الاجتماعى على النطاق الأوسع." وعبرت كلماتها هذه عن اتجاه بدأ ينمو ، وهذا الاتجاه يقلق ريجان وإدارته. فعلى إثر هذا القلق، قامت الإدارة بسحب بعض الاستقطاعات المقترحة وقام الكونجرس بالتخلص من بعضها، وعندما اقترحت الإدارة فى سنتها الثانية ٩ مليارات دولار على سبيل الإعانات للأطفال والأسر الفقيرة، وافق الكونجرس على مليار واحد فقط. وكتب مراسل جريدة نيويورك تايمز فى واشنطن: "إن المخاوف السياسية من نزاهة برامج الرئيس ريجان أجبرت الإدارة على تقليص برامج الإعانات المقدمة للفقراء."

وقد قابلت الصحافة إعادة انتخاب المرشحين الجمهوريين مثل ريجان عام ١٩٨٠ و١٩٨٤ وجورج بوش عام ١٩٨٨ بعبارات مثل "أغلبية ساحقة" و"انتصار غامر". وذلك يتجاهل أربع حقائق رئيسية ، وهى أن حوالى نصف السكان ممن لهم حق الانتخاب لم يصوتوا، وأن من قاموا بالإدلاء بأصواتهم لم يجدوا غير حزبين فقط يحتكران السلطة والإعلام، وأن كثيرا من الأصوات تمت بدون حماس، وأخيرا فإن هناك علاقة ضعيفة بين التصويت لمرشح معين والترشيح لسياسة معينة.

وفى عام ١٩٨٠ حصل ريجان على ٥١,٦٪ من الأصوات بينما حصل جيمى كارتر على ٤١,٧٪ وجون أندرسون على ٦,٧٪ من الأصوات، والذين قاموا بالاقتراع كانوا ٥٤٪ فقط ممن تسمح أعمارهم بالتصويت، مما يعنى أن من قاموا بالتصويت لريجان كانوا ٢٧٪ فقط من الأصوات.

وفى دراسة نُشرت فى صحيفة نيويورك تايمز جاء أن ١١٪ فقط ممن صوتوا لريجان فعلوا ذلك لأنه "محافظ حقيقى" والبعض صوت له "لأنه حان وقت التغيير." وفى انتخابات الجولة الثانية أمام نائب الرئيس والتر موندال، فاز ريجان بنسبة ٥٩٪

من الأصوات مع عدم إدلاء نصف جمهور الناخبين، ما يعنى حصوله على ٢٩٪ فقط من الأصوات. وفى انتخابات سنة ١٩٨٨ التى كان فيها نائب الرئيس جورج بوش ضد مايكل دوكاكيس، فاز الرئيس بوش بنسبة ٥٤٪، ما يعنى ٢٧٪ فقط من أصوات الناخبين.

إن الذى دفع وسائل الإعلام للحديث عن "الأغلبية الساحقة" وبالتالى خداع قرائهم وتثبيط همة من لا يفهمون الإحصاءات ، هو ترتيبات الانتخابات الغريبة ، التى تسمح لنسبة قليلة من الأصوات بأن تصبح الغالبية العظمى من الأصوات الانتخابية. فهل يستطيع أحد من خلال هذه الأرقام توضيح هل "الشعب الأمريكى" يريد حقاً ريجان أم بوش؟. ونستطيع القول إن كثيرا من الناخبين يفضلون المرشح الجمهورى عن المرشح الديمقراطى، وأن الغالبية لا تريد هذا ولا ذاك. وبرغم ذلك وفى ضوء هذه الأغلبية المتواضعة، يمكن أن يدعى الرئيس بوش أو الرئيس ريجان أن الشعب قد قال كلمته! وفى الحقيقة عندما كان الناخبون يطرحون موضوعات فى الاستفتاءات توضح وجهات نظرهم، كانوا على يقين من أن لا الحزب الديمقراطى ولا الجمهورى سيهتم بما يقولون.

ويمكن القول إن الحزبين خلال الثمانينيات وأوائل التسعينيات وضعا حدوداً صارمة على برامج الرعاية الاجتماعية للفقراء ، على أساس أن هذه البرامج تتطلب ضرائب أكثر وأن الشعب لا يريد أن يدفع هذه الضرائب الإضافية! وهذا صحيح من الناحية الافتراضية، فالأمريكيون لا يرغبون فى دفع ضرائب إضافية ، ولكن لو تم الاستفسار منهم عما إذا كانوا يرغبون فى دفع ضرائب إضافية على أساس أن هذه الضرائب ستستخدم فى أغراض الصحة والتعليم، فسيكون جوابهم: نعم. فعلى سبيل المثال، أظهر استفتاء أُجرى عام ١٩٩٠ فى بوسطن أن ٥٤٪ من الأمريكيين على استعداد لدفع ضرائب على شرط أن توجه هذه الضرائب لحماية البيئة. ومع الربط بين موضوع الضرائب والطبقة الاجتماعية بدلاً من جعلها فكرة عامة، كانت ردود الأفعال واضحة، ففى اقتراع تم من خلال شبكة NBC الإخبارية فى ديسمبر عام ١٩٩٠، ظهر

أن ٨٤٪ من الموافقين يفضلون زيادة فى الضرائب ولكن على شرط أن يقوم بدفعها الأغنياء. وعلى الرغم من أن ٥١٪ كانوا يريدون زيادة الضرائب المفروضة على مكاسب رأس المال، لم يوافق أى من الحزبين على ذلك.

وأظهر استفتاء آخر قامت به مدرسة هارفارد للصحة العامة ومعهد هاريس فى عام ١٩٨٩ أن أغلب الشعب الأمريكى (٦١٪) يرغبون فى نظام صحى على الطريقة الكندية، ويتلخص هذا النظام فى قيام الحكومة وحدها بتمويل الأطباء والمستشفيات وشركات التأمين الصحى وتقوم بتغطية الرعاية الصحية للجميع. لكن أحداً من الحزبين الجمهورى والديمقراطى لم يظهر أية نية للموافقة على هذا النظام ، على الرغم من تأكيد الحزبين على رغبتهما فى تغيير نظام التأمين الصحى.

وكشف استفتاء آخر أجرته شركة "جوردون بلاك" فى عام ١٩٩٢ عن أن ٥٩٪ من المصوتين يرغبون فى تقليل الإنفاق العسكرى بنسبة ٥٠٪ فى خلال خمس سنوات، وبالطبع لم يوافق أى من الحزبين على ذلك. أما بالنسبة لكيفية شعور العامة بالمساعدات التى تقدمها الحكومة للفقراء، فكان يعتمد على كيفية طرح السؤال. فالحزبان الجمهورى والديمقراطى ووسائل الإعلام يتحدثون كثيراً عن ضرورة وجود برنامج من أجل "رفع مستوى المعيشة" ، وهو الأمر الذى لم يحدث حتى أصبحت عبارة "رفع مستوى المعيشة" تثير الغضب والاعتراض.

فعندما سُئل الناس من خلال استفتاء لمحطة CBS عام ١٩٩٢: "هل توافق على تخصيص ضرائب أكثر لرفع مستوى المعيشة؟" لم يوافق سوى ٢٣٪ ولكن عند سؤال نفس الأشخاص ولكن بطريقة أخرى: "هل توافقون على أن تعطى الحكومة دعماً أكثر للفقراء؟" وافق ٦٤٪. وهذه فكرة متكررة، ففى أثناء حكم ريجان عام ١٩٨٧، تم طرح سؤال: "هل لابد أن توفر الحكومة الطعام والمأوى للمحتاجين؟" فوافق ٦٢٪.

ومما لا شك فيه أن هناك شيئاً ناقصاً فى النظام السياسى، بافتراض أنه نظام ديمقراطى ويتجاهل رغبات الناخبين مرة بعد مرة. وسيستمر تجاهل هذه الرغبات طالما ظل هناك حزبان فقط محكومين بالمصلحة الرأسمالية. إن جمهور الناخبين

ملزمون بالاختيار بين كارتر وريجان، أو بين ريجان وموندول، أو بين بوش ودوكاكيس الأمر الذى يجعلهم يائسين أو يتخذون قرارا بعــدم التصــويت ؛ لأن أياً من الحزبين لا يستطيع أن يحل المشاكل الاقتصادية التى تُعَد جذورها أكبر من أيّة فترة رئاسة.

هذه العلل الاقتصادية ناتجة عن حقيقة لم يتم الحديث عنها وهى أن الولايات المتحدة تُعَد مجتمعا طبقيا، فنجد أن ١٪ من الشعب يملك ٣٣٪ من الثروة مع وجود حوالى من ٣٠ إلى ٤٠ مليون شخص يعيشون تحت خط الفقر. فالبرامج الاجتماعية التى ظهرت فى الستينيات من رعاية صحية وكوبونات طعام..الخ لم تفعل شيئا غير المحافظة على النظام التاريخى الأمريكى المعتمد على التوزيع غير المتكافئ للثروة.

وعلى الرغم من أن الديمقراطيين يؤكدون بذل جهد أكبر لمساعدة الفقراء أكثر من الجمهوريين، فإنهم لا يستطيعون فعلياً (أو لا يبدون رغبة حقيقية) فى تغيير النظام الاقتصادى الذى يهتم بالربح الرأسمالى أكثر من الاهتمام بالاحتياجات الإنسانية.

لم يكن هناك أى اتجاه وطنى مؤثر يقوم بالثورة على الأوضاع الحالية، ولم يكن هناك أى حزب اشتراكى أو مرشح اشتراكى ديمقراطى مثل الأحزاب الموجودة فى أوروبا الغربية وكندا ونيوزيلندا، ولكن كانت هناك أصوات تنادى بالتغيير وبعض الأفعال الداخلية فى كل جزء من البلاد ؛ لجذب الانتباه للمأساة والمطالبة بعلاج بعض مظاهر الظلم. ومثال على ذلك، صرح المركز الأهلى للنفايات الخطيرة - الذى تم تكوينه فى عهد الرئيس ريجان من مجموعة من سيدات البيوت مع الناشطة لويز جيبس فى واشنطن دى سى - بقيامه بتقديم مساعدات لأكثر من ٨٠٠٠ منظمة أهلية. رفعت واحدة من هذه المنظمات فى أوريجون قضايا عديدة ناجحة لإجبار وكالة حماية البيئة على اتخاذ إجراءات لتحسين مياه الشرب فى خزان "بول رن" قرب بورتلاند.

وشهدت سيبروك بولاية نيو هامبشاير سنوات من الاحتجاج ضد مصنع للطاقة النووية الذى اعتبره الأهالى خطرا كبيرا على حياتهم وحياة أسرهم، وبين عامى ١٩٧٧ و١٩٨٩، تم القبض على أكثر من ٣٥٠٠ شخص، ولم يتم إغلاق المصنع بناء على رغبة هؤلاء المحتجين ولكن تم إغلاقه بعد أزمة مالية تعرض لها.

وقد ازدادت حدة الخوف من أيّة حوادث نووية بعد الكارثة التى حدثت فى جزيرة ثرى مايل فى بنسلفانيا عام ١٩٧٩ ، والرعب والخوف بعد حادثة المفاعل النووى تشيرنوبل فى الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٨٦ كان لذلك تأثير كبير على الأنشطة النووية التى كانت فى ازدهار. فبحلول عام ١٩٩٤ قامت سلطات مدينة "تينيسى فالى" بوقف إنشاء ثلاثة مصانع نووية ، وهى الخطوة التى قالت عنها جريدة نيويورك تايمز إنها "ترمز لنهاية الجيل الحالى من المفاعلات النووية فى الولايات المتحدة". وفى مينيسوتا قام الآلاف بالتظاهر عاما بعد عام ضد مؤسسة "هانى ويل" للتعاقدات العسكرية ، وتم القبض على أكثر من ١٨٠٠ شخص ما بين عامى ١٩٨٢ و ١٩٨٨ وعند محاكمتهم، وجد هؤلاء الأشخاص تعاطفاً كبيراً من قبل القضاة وتمت تبرئتهم ، على أساس تفهم المحلفين بأن هؤلاء الناس حتى وإن قاموا بمخالفة القانون فإنهم فعلوا ذلك بدافع من النوايا الحسنة.

وفى عام ١٩٨٤ قام بعض سكان ولاية فيرمونت بإغلاق مدخل مكتب السناتور الأمريكى احتجاجا على تصويته بإعطاء مساعدات عسكرية للمنشقين فى نيكارجوا، فتم القبض عليهم، ولكن عند محاكمتهم تم التعامل معهم بتعاطف وقام القاضى بتبرئتهم.

وفى خلال محاكمة أخرى تخص مجموعة من الأشخاص (من بينهم أبى هوفمان وإيمى كارتر ابنة الرئيس السابق جيمى كارتر) بتهمة عرقلة موظفى المخابرات الأمريكية فى جامعة ماساتشوستس من القيام بعملهم، تم استدعاء شاهد هو أحد وكلاء المخابرات الأمريكية السابقين الذى أدلى أمام اللجنة بأن المخابرات تورطت فى أنشطة غير رسمية واغتيالات فى أنحاء العالم، وأيضاً تمت تبرئتهم.

وفيما بعد قالت إحدى المحلفات (تعمل فى مستشفى): "لم أكن على علم بأنشطة المخابرات... لقد صدمت... وأحسست بالفخر بهؤلاء الطلبة." وقالت أخرى: "لقد كان

شيئا تربويا حقاً." وقد وصف المحامى الإقليمى ذلك بقوله: "لو كانت هناك رسالة، فهى أن هيئة المحلفين يتم اختيارها من بين الشعب ... لأن الشعب لا يوافق على أفعال المخابرات الأمريكية".

وفى الجنوب حيث لا توجد أيّة حركة كبيرة بالقياس بالحركة التى نشطت فى الستينيات للمطالبة بالحقوق المدنية، قامت أكثر من مائة مجموعة محلية بتنظيم الفقراء من سكان أصليين وسود. وفى كارولاينا الشمالية قامت ليندا ستاوت ، وهى ابنة أحد عمال المناجم الذى كان قد مات بسبب تعرضه للسموم الصناعية، بتنظيم شبكة متعددة الأجناس تتكون من ٥٠٠ من عمال النسيج والمزارعين والخادمات من أصحاب الدخول القليلة والملونات فى مشروع سمّى "مشروع سفوح الجبال للسلام".

واستمرت آن برادن - المدافعة المخضرمة عن قضايا العمال والمشكلات العرقية فى الجنوب - فى تنظيم و قيادة اللجنة التنظيمية الجنوبية للعدالة الاجتماعية والاقتصادية ، والتى قامت بمساعدة كثير من الأنشطة على المستوى المحلى ، مثل مساعدة مجموعة تتكون من ٣٠٠ شخص من الأمريكيين من أصول سوداء فى جورجيا قاموا بالتظاهر ضد وجود مصنع للكيماويات يعتبر مصدرا للأمراض. وكذلك قدمت المساعدة لبعض السكان الأصليين (الهنود الحمر) فى شركة شيروكى عند اعتراضهم على وجود نفايات ملوثة تدفن فى باطن الأرض.

وفى الستينيات، قام الفلاحون المكسيكيون، الذين استقروا فى كاليفورنيا والولايات الجنوبية الغربية، بالاحتجاج على النظام الإقطاعى فى العمل، وقاموا بالإضراب - مقاطعة العنب المحلى - تحت قيادة سيزار شافيز وعلى إثر ذلك بدأ المزارعون بعمل تنظيمات فى كل أرجاء البلاد. وفى السبعينيات والثمانينيات، كانت صراعاتهم تنصب على قضايا الفقر والتمييز العنصرى، فقد كانت سنوات حكم ريجان قاسية عليهم، فهى التى أدت إلى ارتفاع أعداد الفقراء فى كل مكان فى البلاد. وحسب التقارير، فإنه بحلول عام ١٩٨٤ أصبح عدد الأطفال الفقراء الذين ينحدرون من أصول لاتينية حوالى ٤٢٪ . وكان ٢٠٪ من السكان يعيشون تحت خط الفقر. وقام معظم

عمال النحاس المكسيكيين فى أريزونا بالإضراب ضد شركة "فليبس دودج" بعد أن قامت هذه الشركة بتخفيض الأجور والبدلات والتأمينات فى عام ١٩٨٣، وتمت مهاجمتهم من قبل رجال الحرس الوطنى بالغازات المسيلة للدموع وطائرات الهيلوكبتر، وتم احتجازهم لمدة ثلاث سنوات إلى أن تم الدفاع عنهم بعد التوفيق بين السلطة الحكومية والسلطة الرأسمالية!

ولكن كانت هناك انتصارات أيضا. ففى عام ١٩٨٥، قام ١٧٠٠ من عمال التعليب معظمهم من النساء المكسيكيات فى واتسونفيل بكاليفورنيا بإضراب ، واستطاعوا أن يحصلوا على بعض المزايا الصحية. وفى عام ١٩٩٠ قام بعض العمال، الذين تم تسريحهم من شركة ليفى شتراوس فى سان أنطونيو ؛ لأن الشركة ستنقل مقرها إلى كوستاريكا، بتنظيم إضراب عن الطعام وحصلوا فى آخر الأمر على بعض المزايا. وفى لوس أنجيليس قام بعض عمال النظافة اللاتينو (المنحدرون من أصول مكسيكية) بإضراب عام ١٩٩٠ ، وبالرغم من هجوم الشرطة المتكرر عليهم، فإنهم استطاعوا الحصول على اعتراف بجماعتهم وحصلوا على زيادة فى المرتبات ومزايا علاجية.

وقد حاول اللاتينو فى خلال الثمانينيات وأوائل التسعينيات تنظيم أنفسهم للمطالبة بظروف عمل أفضل ، وللتمثيل فى الحكومة المحلية ، والحصول على حقوق الإيجارات وحق تُعلم لغتين فى المدرسة - وظل ذلك بعيداً عن وسائل الإعلام - واستطاعوا تكوين محطة راديو ثنائية اللغة . وبحلول عام ١٩٩١ تم إنشاء ١٤ محطة لاتينية فى المدينة منها ١٢ ثنائية اللغة. وفى نيو مكسيكو، حارب اللاتينو للحصول على حقوقهم فى الأرض والمياه ضد أصحاب الأراضى الذين حاولوا طردهم من أراضيهم التى يعيشون فيها منذ سنوات طويلة. وفى عام ١٩٨٨ حدثت المواجهة وقام الأهالى بتنظيم احتلال مسلح وأقاموا سواتر ترابية لحمايتهم من أى هجوم وحصلوا على دعم من بعض الجماعات فى الجنوب الغربى وفى النهاية حكمت المحكمة لصالحهم.

وعندما ارتفع عدد المصابين بالسرطان بين الفلاحين فى كاليفورنيا، قام سيزار شافيز ، وهو المسئول عن اتحاد المزارعين ، بالصوم لمدة خمسة وثلاثين يوماً فى عام

١٩٨٨ لجذب انتباه المسئولين حول هذا الموضوع. وتكونت اتحادات لعمال المزارع فى تكساس وأريزونا وبعض الولايات الأخرى. وكان استيراد العمالة من المكسيك قد انتشر بسبب أجورهم الرخيصة. وبحلول عام ١٩٩١، استوطن حوالى ٨٠ ألفاً من اللاتينو فى كارولاينا الشمالية و٣٠ ألفاً فى شمال جورجيا، وقد جذبت لجنة تنظيم المزارعين (والتى فازت بعد إضراب صعب فى أوهايو لحل مشكلة حقول الطماطم فى عام ١٩٧٩ والذى يعتبر أهم إضراب زراعى فى الوسط الغربى) الآلاف من المزارعين من كل مكان .

ومع استمرار النمو فى عدد السكان اللاتينو، ارتفعت أعدادهم حتى وصلت إلى عدد ما يمثله السود فى المجتمع الأمريكى وهو ١٢٪ من السكان ، وأصبح لهم تأثير فى الثقافة الأمريكية. فكثير من الموسيقى والفنون والدراما أصبحت أكثر وعيا بالسياسة وأكثر انتقاداً للثقافة السائدة. وتم تكوين ورشة عمل فنية فى عام ١٩٨٤ بواسطة بعض الفنانين والكتاب من سان دياجو وتيجانا ، وقد انصبت أعمالهم بقوة على موضوعات تتعلق بالظلم والصراع العرقى. وفى شمال كاليفورنيا تم بناء كثير من المسارح الخاصة باللاتينو وتم تحويل كثير من بيوت الشباب والمدارس والكنائس إلى مسارح. وقد كان اللاتينو على دراية بالدور الإمبريالى الذى تقوم به الولايات المتحدة فى المكسيك وجزر الكاريبى ، وأصبح كثير منهم من الناقدين العسكريين لسياسة الولايات المتحدة فى نيكارجوا والسلفادور وكوبا.

وفى خلال مسيرة كبيرة فى عام ١٩٧٠ فى لوس أنجيليس ضد الحرب الفيتنامية، تم الاعتداء عليهم من جانب الشرطة وخلف ذلك ثلاثة قتلى منهم. وفى أثناء تجهيز إدارة بوش للحرب على العراق فى عام ١٩٩٠ قامت مسيرات احتجاج كثيرة وجابت شوارع لوس أنجيليس فى نفس الطريق الذى سلكوه منذ عشرين عاما عندما كانوا يحتجون على الحرب الفيتنامية. تقول إليزابيث مارتينيز **Elizabeth Martinez** فى كتابها عن تاريخ اللاتينو أو الشايكانو (الأمريكيين من أصول مكسيكية) وعنوانه **٥٠٠ عام من تاريخ الشايكانو فى صور** **500 Years of Chicano History in Pictures** :

قبل وفى أثناء حرب الرئيس بوش فى الخليج الفارسى، (١٩٩١) ، كانت هناك مخاوف واعتراضات لدى كثير من الناس، بل عارضها الكثيرون. لقد تعلمنا بعض الدروس عن حروب بدأت بالحديث عن الديمقراطية وثبت بعد ذلك أنها قامت لصالح الأغنياء وأصحاب النفوذ. وقد قام اللاتينو خاصة بالاعتراض على القتل الجماعى أسرع مما فعلوا فى أثناء الحرب الأمريكية على فيتنام.

وفى عام ١٩٩٢ تكونت جماعة لجمع التبرعات المالية تسمى "ريزيست" (قاوم) وقامت بتقديم تبرعات لحوالى ١٦٨ منظمة فى البلاد ، وخاصة لجماعات السلام والمنظمات المهتمة بشئون المساجين والجماعات البيئية والصحية. وظهر جيل جديد من المحامين الذين تعلموا فى الستينيات، وعلى الرغم من أنهم يعتبرون أقلية إلا أنهم على وعى اجتماعى وقانونى كبير، فتجدهم فى المحاكم يدافعون عن الفقراء والمحتاجين ويقومون برفع دعاوى قضائية على الشركات القوية.

أما بالنسبة للحركات النسائية التى قامت لتنادى بالمساواة بين الرجال والنساء، فقد شهدت تراجعا فى الثمانينيات، وأدى قرار المجلس الأعلى للدفاع عن حق المرأة فى الإجهاض فى عام ١٩٧٣ إلى ظهور حركة مضادة تنادى بالحق فى الحياة ، والتى وجدت كثيرا من المؤيدين فى واشنطن. وأدى ذلك إلى اتخاذ قرار من قبل الكونجرس ينص على تقليل المساعدات المالية والمزايا العلاجية التى تعطى لأيّة سيدة فقيرة ترغب فى الإجهاض.

ولكن المنظمات النسائية بقيت قوية ، وفى عام ١٩٨٩ تمت إقامة رالى واشنطن تحت اسم "حق الاختيار" . وفى سنتى ١٩٩٤ و١٩٩٥ تم الهجوم على عيادات الإجهاض وتم قتل مجموعة من المؤيدين له وأصبح الخلاف أكثر حدة وشراسة. وأصبحت المطالبة بحقوق الشواذ الأمريكيين أكثر وضوحاً فى السبعينيات مع التغيرات

التى حدثت فى الأفكار المتعلقة بالجنس والحرية. وأصبحت تحركات الشواذ من الرجال أكثر وجودا فى الدولة ، مع كثير من المسيرات والاحتجاجات والحملات الدعائية لإلغاء التشريع الرافض للشواذ. ونتيجة لذلك ظهر أدب جديد حول التاريخ المخفى لحياة الشواذ فى أمريكا وأوروبا.

وفى عام ١٩٩٤ فى بار ستون وول فى مانهاتن، كان هناك احتفال بذكرى ينظر إليها الشواذ بوصفها نقطة تحول. فقبل خمسة وعشرين عاما، كان هناك اشتباك بين الشواذ من الرجال والبوليس فى هذا البار فى جرينيتش فيليج، وفى مطلع التسعينيات قام الشواذ جنسيا من الرجال والنساء بالاجتماع علانية وبثقة أكثر للمطالبة بعدم التمييز ضدهم ، ولجذب الانتباه أكثر إلى مرض الإيدز الذى اعتبروه لا يأخذ إلا اهتماما قليلا من الحكومة. وفى روشيستر فى نيويورك حققت حملة دعائية نجاحا كبيرا بحصولها على قرار لم يسبق له مثيل، يتعلق باستثناء بعض الملتحقين بالجيش من مدرسة بالمقاطعة بسبب تمييز وزارة الدفاع ضد بعض الجنود الشواذ. وقد كانت حركات العمال فى الثمانينيات والتسعينيات تعتبر ضعيفة ؛ بسبب انخفاض الإنتاج وخروج المصانع إلى بلدان أخرى وأيضا بسبب عداء إدارة الرئيس ريجان ومؤيديه للمجلس الوطنى لعلاقات العمل.

وظهر من جديد العمال العاديون فى النقابات الراكدة والقديمة وبدءوا فى التمرد والثورة . وفى عام ١٩٩١ تم الاقتراع لسحب القيادة من أحد مسئولى النقابات الفاسدين وأصبحت القيادة الجديدة مصدر قوة فى واشنطن ، وعملت من أجل تحالف سياسى مستقل خارج الحزبين الرئيسيين، ولكن هذه الحركات ككل كانت فى تناقص وتصارع من أجل البقاء. وفى مواجهة القوى المسيطرة والهيمنة الحكومية، كانت هناك روح مقاومة مازالت مشتعلة حتى أوائل التسعينيات حتى ولو كانت لا تتمتع بنصيب كبير من الشجاعة والتحدى. وفى الساحل الغربى، تم القبض على أحد الناشطين ويدعى كيث ماكينرى مع المئات وهم يوزعون طعاما مجانيا على الفقراء، بدعوى عدم الحصول على تصريح بذلك! وقد كانوا ضمن برنامج يدعى "الطعام لا القنابل" وتم انتشار هذه الجماعات فى مجتمعات كثيرة داخل البلاد.

وفى عام ١٩٩٢، قامت جماعة فى نيويورك مهتمة بتغيير الأفكار التقليدية الراسخة عن التاريخ الأمريكى بالحصول على الموافقة من مجلس مدينة نيويورك لوضع ثلاثين لوحة معدنية منقوشة على عواميد إنارة الشوارع فى المدينة. كانت إحدى هذه اللوحات للتعريف بمحافظ البنك الشهير "مورجان" أمام المقر الرئيسى لمجموعة مورجان ؛ وذلك اعترافا برفضه لفكرة الالتحاق بالخدمة العسكرية فى وقت الحرب الأهلية. وفى الحقيقة أن مورجان رفض طلب الالتحاق لمكاسب شخصية وتربَّح من الصفقات التى تمت مع الحكومة فى أثناء الحرب. لوحة أخرى وضعت بالقرب من سوق للصرافة تجسد شخصا يحاول الانتحار وكُتب عليها: "مزية أن تكون هناك سوق حرة!"

وقد أدت خيبة الأمل فى الحكومة فى أثناء الحرب الفيتنامية وفضيحة ووترجيت وفضح أفعال جهاز المخابرات ومكتب التحقيق الفيدرالى إلى استقالات كثيرة من الحكومة وإتاحة الفرصة للانتقادات من الموظفين السابقين.

وقدم كثير من مسئولى المخابرات الأمريكية استقالتهم وقاموا بتأليف بعض الكتب حول أنشطة المخابرات. بعد تقديم استقالته، قام جون ستوكويل، الذى كان يرأس أعمال المخابرات فى أنجولا، بتأليف كتاب لفضح الأنشطة المخابراتية ، وقام بإلقاء محاضرات فى أنحاء البلاد حول خبرته مع المخابرات الأمريكية. كذلك قام ديفيد مايكل أحد المؤرخين والخبراء مع جهاز المخابرات الأمريكية بالشهادة لصالح بعض الأشخاص الذين قاموا باحتجاجات ضد سياسة الحكومة فى أمريكا الوسطى. وتم فصل أحد الموظفين بمكتب التحقيق الفيدرالى ويدعى جاك رايان (وقد عمل فى مكتب التحقيقات الفيدرالى لأكثر من ٢١ عاماً) عندما رفض التحقيق مع بعض جماعات السلام، وتم حرمانه من معاشه واضطر لبعض الوقت للعيش فى مأوى للمشردين!

وقد تم استحضار أحداث الحرب الفيتنامية التى انتهت فى عام ١٩٧٥ إلى الأذهان فى الثمانينيات والتسعينيات من خلال بعض الشخصيات التى دخلت فى صراعات فى هذه الأوقات، فقد تغيرت طريقة تفكير الكثيرين. فعلى سبيل المثال، ظهر

جون وول ، الذى قام بالحكم على الدكتور بينجامين سبوك وأربعة من أعوانه فى بوسطن بالإعدام بتهمة التآمر لرفض طلب الالتحاق بالخدمة العسكرية، فى إحدى الحفلات فى عام ١٩٩٤ وهو يمجدهم قائلاً: "إن المحاكمة غيرت كثيراً من مفاهيمى ومعتقداتى."

ومن أهم ما قيل هو عبارة تشارلز هاتو وهو أحد الجنود الذين اشتركوا فى مذبحة "ماى لاى" الوحشية، عندما قام بعض الجنود الأمريكيين بإطلاق الرصاص على المئات من الأطفال والنساء فى قرية "ماى لاى" الفيتنامية. قال هاتو فى إحدى اللقاءات لأحد الصحفيين:

> **كنت أبلغ من العمر تسعة عشر عاماً وكنت دائماً أطيع أوامر الكبار... لكن حالياً سأقول لأولادى ... لو أرادت الحكومة أن تخدموا فى الجيش، لابد أن تطيعوا ضمائركم لا أن تطيعوا الأوامر العليا! كنت أود أن يقول لى أحدهم هذا قبل أن أذهب لأحارب فى فيتنام. حالياً أعتقد أنه لابد من عدم تكرار كلمة حرب مرة أخرى ؛ لأنها تؤدى إلى فوضى كبيرة فى عقل أى إنسان.**

كان جزء من تراث الحرب الفيتنامية يتمثل فى شعور الغالبية العظمى من الأمريكيين بأنها كانت مأساة حقيقية وحرباً ما كان يجب أن تندلع. لقد أزعجت هذه الحرب إدارتى ريجان وبوش اللتين كانتا تتطلعان إلى امتداد النفوذ الأمريكى إلى جميع أنحاء العالم.

وفى عام ١٩٨٥ عندما كان جورج بوش نائباً للرئيس، حذر وزير الدفاع السابق جيمس شليزنجر لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ قائلاً: "إن فيتنام أدت إلى وجود اختلاف كبير فى أفكار العامة ومعتقداتهم كما أدت إلى انهيار فى الإجماع السياسى حول السياسة الخارجية للبلاد ...." وعندما أصبح بوش رئيساً للولايات المتحدة، كان عازماً على تخطى ما أسماه "الأعراض المزمنة لحرب فيتنام" التى تتمثل

فى مقاومة الشعب الأمريكى لحرب كان لابد منها من وجه نظر الإدارة! وعلى إثر ذلك أعلن الحرب الجوية على العراق عام ١٩٩١ فى منتصف شهر يناير مستخدما قوات هائلة من أجل إنهاء الحرب سريعاً قبل حدوث أيّة تحركات مناهضة للحرب قبل أن تتم.

كانت هناك علامات دالة على وجود حركات مناهضة للحرب قبيل الاستعدادات العسكرية. فقد قامت مسيرات تضم مئات الطلبة جابت وسط المدينة فى ميسولا ومونتانا مرددين: "اللعنة! ... لا نريد أن نحارب." وكذلك الحال فى شريفبورت بلويزيانا ، على الرغم من صدور الجريدة الرسمية وفى عنوانها الرئيسى: "الاستفتاء العام يوافق على اتخاذ موقف عسكرى." وقصة هذا الاستفتاء تتلخص فى أن ٤٢٪ فقط كانوا يرجحون الموقف العسكرى ، و٤١٪ كان رأيهم: "لننتظر ونرى."

وفى نوفمبر عام ١٩٩٠، قامت مسيرة من المحاربين القدماء فى بوسطن انضمت إليها مجموعة تسمى "محاربون من السلام". وكانت هناك لافتات كتب عليها: "لا لفيتنام جديدة ... نريد أولادنا" ولافتات أخرى تقول: "الدم والبترول لا يمتزجان." . وكتبت جريدة بوسطن جلوب: "إن المحتجين قوبلوا بتصفيق حاد، وفى أماكن أخرى انضم إليهم بعض المتفرجين." . وقد كتبت الجريدة أيضا ما قالته واحدة من المتفرجين عن المسيرة: "إن المسيرات التى تفتخر بالعمليات العسكرية تجلب لى المتاعب ؛ لأن العمليات العسكرية مقترنة بالحرب والحرب هى مصدر متاعبى" . كان معظم المحاربين القدماء فى فيتنام يدعمون العمليات العسكرية ، ولكن كانت هناك قلة رافضة. وفى إحدى استطلاعات الرأى ظهر أن ٥٣٪ من المحاربين القدماء أظهروا رغبتهم فى المشاركة فى حرب الخليج و٣٧٪ رفضوا .

وقد قام أحد أبرز المحاربين القدماء فى فيتنام، وهو رون كوفيك الذى قام بتأليف كتاب **وُلِد فى الرابع من يوليو** Born on the Fourth of July، بإلقاء كلمة فى التليفزيون - مدتها ٣٠ ثانية فى الوقت الذى كان يتحرك فيه الرئيس بوش تجاه الحرب، تمت إذاعتها فى ٢٠٠ محطة فى ١٢٠ مدينة. قال: "يجب أن تنهضوا لتقولوا كلمتكم ضد الحرب. كم أمريكيًا آخر سيحضر إلى بلده مرة أخرى على كرسى متحرك... مثلى ... كم أمريكيًا يلزمنا كى نعى الدرس؟"

وفى شهر نوفمبر عام ١٩٩٠ ، أى بعد بضعة شهور من أزمة الكويت، قام طلاب الكليات فى سان بول فى مينيسوتا بالتظاهر ضد الحرب وعلقت الصحف المحلية على ذلك كما يلى:

> **كانت مظاهرات حاشدة ضد الحرب، اشتركت فيها الأمهات مع صغارهن فى عزياتهم، وأساتذة الجامعات والمدرسون حاملين لافتات، وحمل دعاة السلام لافتات تشير إلى السلام ، وقام المئات من التلاميذ بالغناء حاملين الطبول ومنشدين "هاى هاى هوْ هوْ لن نحارب من أجل أموكو" (أموكو هى شركة بترول عملاقة).**

وقبل عشرة أيام من إلقاء القنابل ومن خلال اجتماع فى بولدر بكولورادو وفى حضور ٨٠٠ شخص، كان السؤال: "هل تؤيدون خطة الرئيس بوش للحرب؟" رفع أربعة أشخاص فقط أيديهم. وقبل الحرب بأربعة أيام قام ٤٠٠٠ شخص فى "سانتا فى" بنيو مكسيكو بإغلاق طريق سريع من أربعة فروع لمدة ساعة كاملة مطالبين بعدم قيام الحرب، وشهد سكان المدينة بأن المظاهرات كانت أقوى وعلى نطاق أوسع بكثير من مظاهرات الحرب فى فيتنام.

وعشية الحرب، خرج أكثر من ٦٠٠٠ شخص فى ميتشيجان مطالبين بوقف الحرب . وفى سان فرانسيسكو فى الليلة التى بدأت فيها الحرب تجمع أكثر من ٥٠٠٠ شخص لشجب الحرب وقاموا بعمل طوق بشرى حول المبنى الفيدرالى ، وقام رجال البوليس بكسر الطوق بضرب المتظاهرين على أيديهم بالهراوات. ولكن مجلس مدينة سان فرانسيسكو قام بإعلان قرار أن المدينة تعتبر ملاذا لمن هم ، لسبب أخلاقى أو دينى أو عرقى ، لا يستطيعون الاشتراك فى الحرب. وفى الليلة التى سبقت أمر الرئيس بوش ببدء إلقاء القنابل، قالت طفلة تبلغ من العمر سبع سنوات لأمها إنها ترغب فى كتابة خطاب للرئيس بوش ، فقالت لها أمها إن الوقت تأخر وعليها أن تكتب الخطاب فى اليوم التالى ، ولكن الطفلة أصرت، مع أنها كانت ما تزال فى بداية تعلمها الكتابة، فقامت بإملاء أمها ما يلى:

سيدى الرئيس:

> **لا تعجبنى الطريقة التى تتصرف بها. لو تراجعت عن قرارك فلن تكون هناك حرب ولن يكون هناك صلوات للسلام. لو ذهبت أنت للحرب فمؤكد أنك لا تريد أن تتألم أو تصاب بأذى. ما أريد أن أقوله لك: أنا لا أريد أن يحدث أى قتال. (المخلصة: سيرينا كابات)**

وعلى الرغم من الأصوات المنادية بوقف الحرب، أظهرت استطلاعات الرأى تأييداً لما يقوم به الرئيس بوش بعد قصف العراق بالقنابل، وعلى المدى القريب بقى هذا التأييد مدة الحرب التى استمرت ستة أسابيع، لكن هل كان ذلك انعكاساً حقيقياً لشعور المواطنين بالحرب على المدى الطويل؟

كان الانقسام فى التصويت قبل بدء الحرب يعنى أن العامة كانوا يعتقدون أنه يمكن أن يكون لأصواتهم أى تأثير، وما إن بدأت الحرب (ومن المؤكد أن لا تراجع سيحدث فى هذا القرار) وفى جو ملىء بالتوهج الوطنى، قام رئيس كنيسة المسيح المتحدة بالحديث عن ما أسماه "قرع الطبول الثابت لرسائل الحرب". ولم يكن من المدهش أن الغالبية العظمى أعلنت عن تأييدها للحرب. وبرغم ذلك، ومع ضيق الوقت المتاح لتنظيم الصفوف بين المعترضين، ومع قيام الحرب سريعاً، كانت هناك اعتراضات، وإن كانت من الأقلية ولكنها تعتبر مؤثرة وقادرة على الاستمرار والنمو، فبالمقارنة مع الحرب الفيتنامية نجد أن الحركات المناهضة لحرب الخليج توسعت بسرعة وقوة فائقة.

وفى الأسبوع الأول من الحرب وعلى الرغم من وضوح أن الغالبية العظمى تؤيد الرئيس بوش، قام عشرات الآلاف بالاحتجاج فى كل مدينة وبلدة، وتم القبض على أكثر من ١٠٠ شخص فى أوهايو عندما حدث صدام بينهم وبين مجموعة أخرى من مؤيدى الحرب. وفى مدينة بورت لاند بولاية مين قام ٥٠٠ بمسيرة مرتدين لفافات بيضاء على

أيديهم أو حاملين صلبانا من الورق الأبيض مكتوب عليها باللون الأحمر: "لماذا؟". وفى جامعة جورجيا قام ٧٠ طالباً برفض الحرب حاملين لافتات مطالبة بالسلام، وفى بيرلمان بجورجيا، قامت سينثيا ماكينون بإلقاء كلمة تهاجم فيها الحرب على العراق مطالبة الأعضاء بالخروج من القاعة تعبيراً عن الاحتجاج ـ ولكن ما تم للعضو جوليان بوند من طرد من نفس المجلس لانتقاد الحرب فى فيتنام ـ أوجد نوعا من التغيير فى الأفكار.

وما زلنا نسرد الاحتجاجات على حرب الخليج (١٩٩١). ففى مدرسة فى نيوتن بماساتشوستس، قامت مسيرة تضم ٣٥٠ طالبا لتقديم وثيقة اعتراض لعمدة المدينة تعبر عن رفضهم للحرب. فالكثيرون كانوا يرغبون فى التوفيق بين مشاعرهم تجاه الحرب وبين إحساسهم بالشفقة على الجنود الذين أُرسلوا إلى الشرق الأوسط. وقال رئيس اتحاد الطلبة: "لا نعتقد أن سفك الدماء هو الطريق الصحيح. إننا ندعم القوات العسكرية وفخورون بها ولكن لا نريد الحرب."

وفى أدا بأوكلاهوما، بينما كانت جامعة "إيست سنترال أوكلاهوما" تتبنى وحدتين للدفاع الوطنى، جلست شابتان على بوابة الدخول الخرسانية حاملتين لافتة كتب عليها: "علموا السلام...لا الحرب!". وقالت إحدى الطالبات وتدعى باتريشيا بيجز: "أعتقد أن وجودنا هناك خطأ كبير... إن القضية ليست قضية عدالة وحرية. إنها من أجل الاقتصاد. إن شركات البترول العملاقة لها علاقة وثيقة بما يحدث هناك... إننا نخاطر بأرواح أولادنا من أجل المال!" وبعد أربعة أيام من الهجوم الجوى الأمريكى، قامت مسيرة حاشدة من ٧٥ ألف شخص فى واشنطن فى سباق للوصول إلى البيت الأبيض للاحتجاج على الحرب.

وفى جنوب كاليفورنيا، قامت مسيرة أخرى من ٦٠٠٠ شخص بإنشاد "السلام الآن". وفى أركانساس تصدت الشرطة لمجموعة من المتظاهرين كانوا يحملون هيكلا على شكل نعش مع لافتة كتب عليها "أعيدوهم أحياء". وقد كتب أحد العسكريين المقعدين الذين شاركوا فى حرب فيتنام ، وهو أستاذ فى التاريخ والعلوم السياسية بجامعة يورك فى بنسلفانيا يدعى فيليب أفيللو ـ فى صحيفة محلية: "نعم! نريد مساعدة

الرجال والنساء المسلحين. فلنساعدهم بإرجاعهم لوطنهم وليس بالتغاضى عن هذه السياسة البربرية ".

وفى سولت ليك سيتى، قام مئات المتظاهرين من بينهم أطفال بمسيرات جابت أنحاء المدينة مرديين شعارات معادية للحرب. وفى فيرمونت وبعد ترشيح الاشتراكى بيرنى ساندرز فى الكونجرس، قام نحو ألفى متظاهر بقطع خطبة المحافظ. وفى مدينة برلنجتون وهى أكبر مدن فيرمونت، قام نحو ٣٠٠ متظاهر بالخروج إلى وسط المدينة مطالبين أصحاب المحال التجارية بإغلاقها كمظهر من مظاهر الاحتجاج. وفى ٢٦ يناير أى بعد تسعة أيام من بدء الحرب، خرج أكثر من ١٥٠.٠٠٠ شخص فى مسيرات فى شوارع واشنطن دى سى للاستماع إلى من يخطبون فى الناس ، ومن بينهم الممثلة الشهيرة سوزان ساراندون والممثل الشهير تيم روبينز. وقامت إحدى السيدات من أوكلاند بكاليفورنيا برفع علم أمريكى مثنى الأطراف، كان قد أعطى لها بعد وفاة زوجها فى فيتنام، قائلة: "لقد تعلمت بصعوبة أن لا مجد فى علم مثنى الأطراف كهذا!"

كانت نقابات العمال قد دعمت الحرب الفيتنامية، ولكن عندما بدأت الحرب فى الخليج، قامت أكبر إحدى عشر نقابة واتحاد بعمل مؤتمرات لشجب الحرب وإدانتها .

لم يكن رفض مجتمع السود لما تقوم به الولايات المتحدة فى العراق يقل عن أى من المناهضين، ففى استطلاع للرأى قامت به شبكة ABC الإخبارية فى مطلع شهر فبراير عام ١٩٩١، وجدت أن تأييد الحرب كانت نسبته ٨٤٪ بين البيض ، و٤٨٪ فقط بين الأفروأمريكيين. وبعد دخول الحرب شهرها الأول، والعراق تُدمر بإلقاء مكثف للقنابل، تسربت أنباء حول إمكانية خروج صدام حسين من الكويت إذا أوقفت الولايات المتحدة إلقاء القنابل على العراق، ورفض بوش الفكرة. وفى اجتماع لعدد من الزعماء السود قاموا بانتقاد بوش واصفين الحرب بأنها: "حرب لا أخلاقية وهجوم مضلل... وتملص وقح من مسئولياتنا الداخلية."

وفى سيلما بألاباما، التى كانت مسرحاً لعمليات دموية من قبل رجال الشرطة ضد مسيرات مطالبة بالحقوق المدنية قبل ستة وعشرين عاماً، وفى اجتماع حاشد طالب المجتمعون بإحضار الجنود أحياء إلى الوطن للدفاع عن العدالة داخل البلاد. وتعبيراً عن الغضب الشديد من إرسال الجنود إلى حرب الخليج، كتب والد أحد جنود المارينز - البالغ من العمر واحدا وعشرين عاماً - خطابا إلى الرئيس بوش وتم نشره فى صحيفة نيويورك تايمز:

أين كنت سيدى الرئيس عندما كان صدام حسين يقتل أبناء العراق بالغازات السامة؟ لماذا انتظرت حتى تلك اللحظة، هل كان هذا أيضاً بيزينس مع الرئيس صدام حسين الرجل الذى تشبهه حالياً بهتلر؟ هل "طريقة عيش الأمريكيين" تعتمد حالياً على تعريض حياة ابنى للخطر للمحافظة على حصة الولايات المتحدة فى استهلاك من ٢٥ إلى ٣٠٪ من البترول العالمى؟... إننى أنوى أن أساعد ابنى ورفاقه ، ولكن باعتراضى على أية عملية عسكرية أمريكية فى الخليج.

وكانت هناك نماذج كثيرة لأفعال توصف بالشجاعة من مواطنين عاديين يتحدثون فى الناس على الرغم من التهديدات. فعلى سبيل المثال، قامت بيج مولين من براونزفيل بولاية تكساس (وكانت قد فقدت ابنها فى حرب فيتنام نتيجة "نيران صديقة") بتجميع بعض الأمهات للتظاهر فى واشنطن ، على الرغم من التهديدات التى تلقتها بأن بيتها سيتعرض للحرق لو استمرت فيما تفعله.

وكان من بين المتظاهرين الممثلة مارجوت كيدير (بطلة أفلام سوبرمان). وعلى الرغم من الخوف على مستقبلها الفنى، فقد قامت بالتصريح برفضها للحرب. ورفض أحد لاعبى كرة السلة بفريق جامعة سيتون هول فى نيو جيرسى، أن يرتدى علم أمريكا على زيه الرياضى، مما تسبب فى طرده من الفريق ومن الجامعة، فقرر العودة مرة أخرى إلى بلده الأصلى إيطاليا.

أما أكثر الاحتجاجات تراجيدية فهو ما قام به أحد المحاربين القدماء فى حرب فيتنام فى لوس أنجلوس، حين قام بإشعال النار فى نفسه ليلقى حتفه احتجاجاً على الحرب. وحادثة أخرى لا تقل عن هذه حدثت فى أمهرست بماساتشوستس عندما حمل أحد الشباب لافتة سلام كرتونية وقام بسكب مادة مشتعلة على نفسه وأشعل عودين من الكبريت ومات محترقاً فى الساحة العامة للمدينة. وبعد ساعتين اجتمع الطلبة من الجامعات القريبة وقاموا بإضاءة الشموع مكان الحادثة ، ووضعوا لافتات كُتب عليها: "أوقفوا هذه الحرب المجنونة" . لم يكن هناك وقت كما كان فى أثناء الحرب الفيتنامية لقيام حركة مناهضة للحرب داخل القوات العسكرية ، ولكن كان هناك كثير من الرجال والسيدات الذين خالفوا أوامر رؤسائهم ورفضوا الاشتراك فى الحرب.

ومن الحوادث الغريبة، التى صاحبت إرسال القوات الأمريكية إلى السعودية فى أغسطس عام ١٩٩٠، قيام أحد أفراد المارينز ويدعى جيف باترسون البالغ من العمر٢١ عاماً والمتمركز فى هاواى بالجلوس على الطريق السريع فى مجال الطيران رافضاً التوجه إلى السعودية ومطالباً بخروجه من قوات المارينز:

لقد تأكدت من أنه لا يوجد أى مبرر سليم لقيام حرب... وبدأت أتساءل ماذا قمت به منذ اللحظة التى بدأت اقرأ فيها التاريخ... لقد قرأت عن تدعيم الولايات المتحدة للنظام الدموى فى جواتيمالا ونظام إيران تحت حكم الشاه، والسلفادور... إننى أعترض على أى استخدام للقوة العسكرية ضد أى شعب فى أى مكان أو زمان.

وقامت أربع عشرة مجموعة من جنود الاحتياط فى معسكر ليجون فى كارولاينا الشمالية بتقديم طلب اعتراض، بالرغم من المحاكمة العسكرية التى يمكن أن يتعرضوا لها ؛ لأن هذا يعتبر فرارا من الجندية، وأصدر العريف إريك لارسن مذكرة يقول فيها:

أعلن أننى معترض على أداء الخدمة العسكرية بدافع الضمير، ها هى حقيبة الأجهزة ، وهاهو القناع الواقى من

الفازات. لم أعد فى حاجة إليهما. من الآن لست أنتمى إلى المارينز. إننى أشعر بالخجل لقيامى بالدفاع عن أسلوب حياة لا تتوفر فيه المتطلبات اليومية مثل وجود مكان للنوم والحصول على وجبة ساخنة كل يوم وبعض الرعاية الصحية حتى فى عاصمة بلادنا.

وموقف آخر لامرأة تم استدعاؤها فى ديسمبر عام ١٩٩٠، أى قبل شهر من بدء الحرب للقيام بالخدمة العامة ، وهى طبيبة فى جيش الاحتياط وأم لثلاثة أطفال تدعى يولاندا هويت ـ فون، كان ردها: "إننى أرفض المشاركة فى جريمة أعتبرها لا أخلاقية ولا إنسانية وغير دستورية كهذه الحرب فى الشرق الأوسط". فنالت محاكمة عسكرية بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية وحُكم عليها بسنتين ونصف سجناً.

ورفضت جندية أخرى تدعى ستيفانى أتكينسون من إلينوى استدعاءها للخدمة قائلة إنها تعتقد أن الحرب فى الخليج أسبابها اقتصادية. وفى البداية تم تحديد إقامتها فى منزلها، وبعد ذلك تم تسريحها من الخدمة لما أسموه "أسباباً تتعلق بالشرف".

ومرة أخرى رفض أحد الأطباء العسكريين فى قاعدة عسكرية فى ماساتشوستس، ويدعى هارلو بولارد، الأوامر الموجهة إليه بالذهاب إلى المملكة العربية السعودية قائلاً: "أنا أفضل الذهاب إلى السجن على أن أشترك فى هذه الحرب." وأضاف: "لا أعتقد أن هناك أى سبب لهذه الحرب. فهى حرب لمجرد الحرب."

كما أعلن أكثر من ألف من جنود الاحتياط أنفسهم معترضين على أداء الخدمة العسكرية بدافع الضمير. أحد جنود الاحتياط ويدعى روب كالابرو قال: "قال لى والدى إنه يشعر بالخجل منى ، وصرخ فى وجهى قائلا: عار عليك! وأنا اعتقد أن قتل المدنيين عمل لا أخلاقى وأعتقد أننى أستطيع أن أخدم بلدى أكثر لو كنت ذا ضمير حى أكثر من أن أعايش كذبة."

وقد ظهرت شبكة أخبار جديدة فى أثناء حرب الخليج لتبث للناس الأخبار التى لا تذاع فى وسائل الإعلام الكبرى، فعلى الرغم من وجود كثير من الصحف البديلة فى

مدن كثيرة ، وأكثر من مائة محطة إذاعية ، ولكن كل هذه الوسائل لا تستطيع إلا تغطية جانب ضئيل جدا من أحداث الحرب فى الخليج.

وقد قام أحد مذيعى الراديو البارعين ويدعى ديفيد بارسميان بإذاعة خطبة ألقاها نعوم تشوميسكى فى جامعة هارفارد ، وهو أحد المنتقدين المتشددين للحرب. وأرسل بعد ذلك شريط التسجيل إلى الشبكة الإخبارية التابع لها ، والتى كانت متحمسة تماماً لنقل وجهة نظر مختلفة عن وجهات النظر التقليدية المدعمة للحرب. وقام بعد ذلك شخصان بنسخ الشريط ووضعا نص الخطبة فى كتيب من أجل تسهيل طباعته وقاما بتوزيعه على المكتبات فى كل أنحاء المدينة.

ومن المؤكد أنه بعد "الانتصار" فى أيّة حرب، لابد أن تظهر بعض الانطباعات الواقعية، فبعد أن انطفأت حماسة الحرب وبعد خضوع المواطنين لضريبة الحرب، بدأ التساؤل عن الذى تم جنيه من وراء هذه الحرب. كانت حمى الحرب فى أعلى ارتفاع لها فى فبراير عام ١٩٩١ ، فى هذا الشهر عندما تم استطلاع آراء المواطنين مع تذكيرهم بالتكاليف الباهظة للحرب؛ قال ١٧٪ فقط إن الحرب لم تكن لتستحق ما تم لها. بعد ذلك بأربعة شهور ارتفعت النسبة إلى ٣٠٪. وبعد عدة شهور بدأ الانهيار الحاد فى تأييد الرئيس بوش عندما بدأ الاقتصاد فى الانهيار، وفى عام ١٩٩٢ عندما تبخرت روح الحرب، وجد الرئيس بوش نفسه منهزما فى الانتخابات.

بعد تفكك الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٨٩، كان هناك حديث فى الولايات المتحدة حول مفهوم "ضريبة السلام" وهى تعنى وجود فرصة لتحويل بلايين الدولارات من الميزانية العسكرية إلى إنفاقها على الضروريات الإنسانية. ولكن الحكومة استطاعت التملص من ذلك بدعوى حرب الخليج. وقد قال عضو من إدارة الرئيس بوش "نحن ندين لصدام حسين بمعروف، فقد أنقذنا من ضريبة السلام" (نقلاً عن جريدة نيويورك تايمز فى ٢ مارس ١٩٩١).

ولكن فكرة ضريبة السلام لم تخمد ؛ لأن الشعب الأمريكى فى احتياج إليها. وقد حذرت المؤرخة مارلين يونج بعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة قائلة:

> **الولايات المتحدة تستطيع أن تدمر الطرق فى العراق، ولكنها لا تبنى الطرق الخاصة بمواطنيها، ويمكنها أن تخلق الظروف التى تجلب الوباء فى العراق، ولكنها لا توفر الرعاية الصحية لملايين من الأمريكيين، ويمكنها أن تحبط نظام العراق فى التعامل مع الأقلية الكردية، ولكنها لا تتعامل مع المشكلة العرقية فى الداخل، وتتسبب فى وجود مشردين فى الخارج ولا تستطيع حل مشاكل المشردين فى الداخل، وتحتفظ بأدوية مجانية للجنود بوصفها جزءًا من برنامج الحرب فى الوقت الذى ترفض فيه تمويل علاج الملايين فى الداخل... من المؤكد أننا سنخسر الحرب بعد أن كسبناها.**

فى عام ١٩٩٢، بدأت حدود الانتصار العسكرى تتضح خلال الاحتفال بذكرى وصول كولومبس لنصف الكرة الأرضية الغربى. فقبل خمسمائة سنة قام كريستوفر كولومبس ورفاقه بغزو السكان الأصليين من الهنود الحمر وطردهم، هذا ما اتبعته حكومة الولايات المتحدة لأربعة قرون وهو الإبادة لقبائل الهنود الحمر فى أى مكان فى القارة. ولكن الآن تغير الوضع كثيراً. فلقد أصبح الهنود (سكان أمريكا الأصليون Native Americans) قوة مؤثرة منذ الستينيات والسبعينيات . وفى عام ١٩٩٢ قاموا بالتعاون مع أمريكيين آخرين بالتظاهر ضد الاحتفالات التى تقام بمناسبة "اكتشاف" كولومبس لأمريكا. وتعتبر هذه أول مرة تحدث فيها مظاهرات ضد تكريم كولومبس الذى قام بخطف السكان الأصليين الذين استقبلوه بالهدايا والود والترحاب واستعبادهم وقتلهم. بدأت تجهيزات الاحتفال بيوم كولومبس لدى كل من طرفى الخلاف: الترتيبات الرسمية وترتيبات جماعات الهنود الحمر. كانت الترتيبات الرسمية للاحتفال قد بدأت قبل ذلك بمدة طويلة. وقد أدى ذلك إلى إثارة غضب الهنود الحمر (السكان الأصليين). ففى صيف عام ١٩٩٠ قام ٣٥٠ من الهنود الحمر وممثلون من

كل منطقة بالاجتماع فى كويتو فى الإكوادور فى الاجتماع الأول على مستوى القارات للمواطنين الأصليين فى الأمريكتين ؛ لحشد الناس ضد الاحتفال بذكرى كولومبس.

وفى الصيف التالى فى ديفيز بكاليفورنيا، اجتمع أكثر من مائة أمريكى أصلى لمتابعة ما جاء فى مؤتمر كيوتو. وعلى إثره، أعلنوا يوم ١٢ أكتوبر عام ١٩٩٢ يوماً عالمياً للتضامن مع السكان الأصليين ، وقرروا إبلاغ ملك أسبانيا أن الماكيتات الخاصة بسفن كولومبس "بينتا" و"نينا" و"سانتا ماريا" لن يسمح لها السكان الأصليون فى الجزء الغربى بالدخول إلا إذا تم تقديم اعتذار رسمى عن الغزو الذى تم قبل ٥٠٠ سنة. وبدأت الحركة فى النمو، وأصبحت من أكبر الحركات فى الولايات المتحدة، وقام المجلس القومى للكنائس بمطالبة المسيحيين بعدم الاحتفال بيوم كولومبس قائلا: "ما يمثل الحرية والأمل للبعض يعتبر اضطهاداً وإبادة جماعية واحتقاراً للبعض الأخر."

وقام "المجلس القومى للمنح فى مجال الإنسانيات" بتمويل معرض متجول سُمى "اللقاء الأول" يهدف إلى تصوير انتصار كولومبس بطريقة رومانتيكية، وعند افتتاح المعرض فى متحف فلوريدا للتاريخ الوطنى، قامت إحدى الخريجات الجدد فى جامعة فلوريدا بتسلق إحدى اللوحات التى تمثل سفينة من سفن كولومبس ومعها ورقة كتبت عليها: "معرض تعليم العنصرية". وقالت: "إنها ليست قضية الهنود الحمر فقط. إنها قضية تتعلق بالإنسانية." وقد تم القبض عليها وحوكمت بتهمة التعدى على الممتلكات العامة وقامت مظاهرات لمدة ستة عشر يوماً ضد المعرض.

ونشرت صحيفة "إنديجيناس ثوتس" **Indigenous Thoughts** (وتعنى: أفكار السكان الأصليين) - التى صدرت لأول مرة عام ١٩٩١ للربط بين كل النشاطات التى تتم ضد الاحتفال بذكرى كولومبس - مقالات لبعض الأمريكيين الأصليين عن الصراعات الحالية فوق أرض تمت سرقتها من خلال المعاهدات. وفى كوربس كريستى بولاية تكساس، تم الاتصال بين االشايكانو (الأمريكيين ذوى الأصول المكسيكية) والهنود الحمر للاحتجاج على احتفالات المدينة بذكرى غزو كولومبس. وقامت امرأة تدعى أنجيلينا ميننديز بالتحدث إلى بعض الشايكانو قائلة: "إن أمة الشايكانو

بالتضامن مع إخوانهم وأخواتهم الهنود الحمر ، يقومون بالاعتراض على فظاعة الحكومة الأمريكية بالاحتفال بذكرى وصول الأسبان وخاصة كريستوفر كولومبس إلى شواطئ هذه البلاد".

وقد فجّر الجدال الذى تم حول كولومبس بعض الأنشطة الثقافية والتعليمية على نحو غير عادى. فعلى سبيل المثال قامت أستاذة بجامعة كاليفورنيا فى سان دياجو تدعى ديبورا سمول بعمل معرض يضم ٢٠٠ لوحة من الخشب أسمته "١٤٩٢"، وقامت بوضع بعض العبارات المنقولة من مذكرات كولومبس مع بعض القطع المتبقية من القرن السادس عشر، وقامت بالنقش عليها لتصوير الرعب الذى صاحب وصول كولومبس. وقد علقت إحدى الناقدات على المعرض قائلة: "إن المعرض يعيد لأذهاننا، بشكل مفعم بالحياة، كيف أن الحضارة الغربية قدمت إلى العالم الجديد بطريقة لا يمكن أن تبعث على الإعجاب."

وعندما قام الرئيس بوش بالهجوم على العراق عام ١٩٩١، مدعياً أنه يريد إنهاء الاحتلال العراقى للكويت، قامت مجموعة من الهنود الحمر فى أوريجون بتوزيع خطاب تهكمى جاء فيه:

> **سيدى الرئيس بوش: برجاء إرسال مساعداتك لتحرير دولتنا الصغيرة من الاحتلال، فإن قوة أجنبية تحتل وطننا لسرقة ثرواتنا الفنية... إنهم يشنون حرباً بيولوجية ، ويقتلون الآلاف من الشيوخ والأطفال والنساء، ويقومون بسحق أراضينا ، ويخلعون زعماءنا وحكوماتنا ويضعون حكومتهم وأنظمتهم التى تتحكم فينا بأشكال مختلفة. (المخلص: أحد الهنود الأمريكيين)**

وقد نشرت دورية "ريثينكنج سكولز" **Rethinking Schools** التى تعبر عن آراء المدرسين المهتمين بالقضايا الاجتماعية على مستوى البلاد كتاباً من ١٠٠ صفحة عنوانه: **إعادة النظر فى كولومبس Rethinking Columbus** وهو عبارة عن مجموعة مقالات لبعض الأمريكيين الأصليين وآخرين. تضمن الكتاب نقدا لكتب الأطفال التى

تتحدث عن كولومبس ، وجدولا للمصادر التي يستطيع الناس الاعتماد عليها من أجل معلومات حقيقية عن كولومبس. كما تضمن قراءات حول الأنشطة المناهضة للاحتفال بذكرى كولومبس. وفى غضون شهور، تم بيع أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نسخة من هذا الكتاب.

وفى بورتلاند بولاية أوريجون قام أحد المدرسين - وهو بيل بيجلو **Bigelow** الذى كان يساعد فى تحرير دورية **Rethinking Schools** - بأخذ إجازة لمدة عام من وظيفته للقيام برحلة فى المدينة عام ١٩٩٢، وقام بإعطاء حلقات دراسية حرة لمدرسين آخرين ليستطيعوا بعد ذلك أن يقصوا الحقائق التى لم تُذكر فى الكتب التقليدية أو فى الكتب المدرسية عن كولومبس. وقام أحد طلابه بالكتابة إلى دار النشر "ألين وبيكون" منتقدا الكتاب الذى نشرته تحت عنوان: **الروح الأمريكية The American Spirit**. كتب الطالب:

> **سوف أختار جزئية بسيطة عن كولومبس لجعل الموضوع أسهل. أقر أنكم لم تكذبوا! ولكنكم قلتم: "برغم أن كولومبس ورفاقه وجدوا اهتماما كبيرا لدى سكان الكاريبى ، فإنهم لم يستطيعوا التعايش سلمياً معهم" كما لو أن كولومبس لم يفعل أى خطأ. والسبب وراء عدم استطاعته التعايش بسلام معهم أنه قام بقتل واستعباد الآلاف منهم ؛ لأنهم لم يحضروا له ما يكفيه من الذهب!**

وكتب طالب آخر: "يبدو لى أن الناشرين أرادوا فقط أن يكتبوا قصة تمجيد لكى نشعر أكثر بالانتماء والوطنية تجاه بلادنا... فهم يريدون أن ننظر إلى وطننا بوصفه قويًا وعظيمًا ولا يخطئ أبداً..." وكتبت طالبة أخرى تدعى ريبيكا: "فى حقيقة الأمر، يعتقد من قام بتأليف هذا الكتاب أنه لا يوجد أى أذى فى معرفة من اكتشف أمريكا ... ولكن الفكرة أننى كنت أكذب طول حياتى بشأن هذا الموضوع، ومن يدرى هل هناك أيّة أكاذيب أخرى... إن ذلك يجعلنى غاضبة حقاً."

وفى الساحل الغربى تم تشكيل جماعة تدعى "الأمريكيون ـ الإيطاليون فى مواجهة كريستوفر كولومبس" وكان من بين ما قالت هذه الجماعة: "عندما يتوحد الأمريكيون ـ الإيطاليون مع السكان الأصليين، فإننا بذلك نكون أقرب وأقرب لتغيير محتمل فى العالم" . وفى لوس أنجيليس، ذهبت إحدى الطالبات وتدعى بليك ليندسى إلى مجلس المدينة للاحتجاج على الاحتفال بكريستوفر كولومبس. وقد تحدثت عن القتل الجماعى لهنود "أراواك"، ولكنها لم تتلق أيّة استجابة رسمية. وعندما حكت قصتها فى برنامج تليفزيونى على الهواء، تلقت فى أثناء الحديث مكالمة هاتفية من سيدة قالت إنها من هايتى وقالت: "إن الفتاة على حق. لم يعد هناك هنود حمر على قيد الحياة. وقد قمنا خلال انتفاضتنا الأخيرة فى هاييتى بتحطيم تمثال كولومبس. دعونا نقيم تماثيل لسكان البلاد الأصليين".

وقد كانت هناك عدة أنشطة مناهضة للاحتفال بكولومبس فى كل أرجاء البلاد ، ولكن لم يأت ذكر لها فى وسائل الإعلام. ففى مينيسوتا وحدها تم عمل حصر بالأنشطة التى تمت خلال عام ١٩٩٢ ؛ فوجدوا كثيرا من الاجتماعات والأفلام والعروض الفنية والحلقات الدراسية الحرة. وفى "لنكولن سينتر" فى مدينة نيويورك فى ١٢ أكتوبر، قدم ليونارد ليرمان عرضا مسرحيا عنوانه: **العالم الجديد: أوبرا حول ما فعله كولومبس بالهنود الحمر** **New World: An Opera About What Columbus Did to the Indians** وفى بلتيمور كان هناك أيضاً عرض مسرحى يستخدم الوسائط المتعددة عن كولومبس. وفى بوسطن فى جولة محلية ثم فى جولة قومية فى عدة ولايات، قدمت الفرقة المسرحية **Underground Railway Theatre** عرضا مسرحيا عنوانه: حماقات كريستوفر كولومبس **The Christopher Columbus Follies** .

تسببت كثرة عدد المحتجين ، وتأليف الكثير من الكتب الجديدة عن تاريخ الهنود الحمر ، والمناقشات التى تمت فى كل مكان فى البلاد فى حدوث تحول غير عادى فى مجال التعليم. فلأجيال عديدة كانت نفس القصة العاطفية التى تبعث على الإعجاب تقال لتلاميذ المدارس عن كولومبس، ولكن الآن بدأ آلاف المدرسين فى سرد الحكاية

بطريقة مختلفة. وقد أوجد هذا نوعًا من الغضب بين المدافعين عن التاريخ التقليدى الذين سخروا من ما أسموه "التصحيح السياسى" و"التعدد الثقافى" وقد أظهروا استياءهم من المعالجة الانتقادية للتوسع الغربى والإمبريالية التى اعتبروها هجوما على الحضارة الغربية. وقال وليم بينيت وزير التعليم فى إدارة ريجان : " إن الحضارة الغربية هى "ثقافتنا المشتركة ... بأفكارها وطموحاتها السامية).

وفى كتابه **إغلاق العقل الأمريكى** **The Closing of the American Mind** يعبر الفيلسوف ألان بلوم عن فزعه مما قامت به الحركات الاشتراكية فى الستينيات من تغييرات فى البيئة التعليمية للجامعات الأمريكية، فالحضارة الغربية بالنسبة له تعتبر أعلى مراحل التقدم الإنسانى، والولايات المحتدة هى خير ممثل لها. يقول: "الولايات المتحدة تحكى قصة واحدة هى الارتقاء الذى لا يمكن مقاومته أو تحطيمه. فمن مستوطنيها الأوائل ومبادئها السياسية، ليس ثم أى جدال حول أن الحرية والمساواة هما أساس العدل بالنسبة لنا."

وفى السبعينيات والثمانينيات نظم المعوقون أنفسهم وشكلوا حركة قوية دفعت الكونجرس إلى إصدار "قانون الأمريكيين المعوقين" الذى أكد حقهم فى التمتع بالخدمات التى كانت إعاقتهم تحول بينهم وبينها.

وأما بالنسبة لحركات الحقوق المدنية، فقد كان للسود رأى آخر فى مسألة تمثيل الولايات المتحدة لمبادئ الحرية والمساواة. وكذلك كان رأى الحركات النسائية. أما فى عام ١٩٩٢ فكان الأمريكيون الأصليون يتحدثون عن جرائم الحضارة الغربية ضد أسلافهم. وكانوا يحاولون استدعاء الروح الجماعية للهنود الحمر الذين قهرهم كولومبس، ويحكون تاريخ ملايين البشر الذين كانوا فى هذا المكان قبل وصول كولومبس، ويؤكدون كذب مؤرخ هارفارد بيرى ميللر عندما تَحَدَّث عن "انتقال الثقافة الأوروبية إلى اليباب الخاوى فى أمريكا."

ومع دخول الولايات المتحدة عقد التسعينيات، ظل النظام السياسى، سواء كان ديمقراطيا أو جمهوريا، فى أيدى من يملكون الثروة. فالبلاد منقسمة ـ بالرغم من أن

الزعمـاء السياسيين لا يذكرون ذلك - إلى طبقـتين من الثراء الفاحش والفقـر المدقع تفصل بينهما طبقة متوسطة معرضة للخطر، ولا تشعر بالأمان. ولكن كان هناك، دون أدنى شك، ما أطلق عليه صحفى مشهور "ثقافة مناوئة دائمة". ورغم أنها ثقافة مسكوت عنها، فإنها ترفض التخلى عن إيمانها بإمكانية قيام مجتمع أكثر مساواة وأكثر إنسانية. فإذا كان هناك أمل فى مستقبل للولايات المتحدة، فإنه يكمن فى هذا الرفض.

الفصل الثالث والعشرون

سنوات كلينتون

بدأت رئاسة بيل كلينتون، ذلك الخريج الفصيح من مدرسة القانون بجامعة ييل والحاكم السابق لولاية أركنساس، بأمل فى أن يأتى ذلك الشاب الواعد للبلاد بما وعد به: التغيير. لكن رئاسته انتهت دون أن يترك بصمة تاريخية ليصبح واحداً من زعماء الأمة العظام. فقد أحاطت حياته الشخصية فى آخر سنوات رئاسته فضائح مثيرة. والأهم من ذلك أنه لم يترك ميراثاً من الإبداع الجرىء فى مجال السياسة الداخلية ، ولم يتزحزح عن تعاليم السياسة الخارجية القومية فى شكلها التقليدى. وفى الداخل استسلم أكثر من مرة للحذر والمحافظة، وقام بتوقيع تشريعات ربما أسعدت الجمهوريين وأصحاب البيزنس الكبار أكثر مما أسعدت الديمقراطيين الذين كانوا ما زالوا يتذكرون البرامج الجريئة للرئيس فرانكلين روزفلت. وفى الخارج، كانت هناك استعراضات عسكرية غير ذات جدوى ، وتتنافى تماماً مع ما كان الرئيس أيزنهاور قد حذّر منه وهو إقامة "مجمع عسكرى صناعى."

ولا نستطيع القول بأن فوز كلينتون فى عامى ١٩٩٢ و ١٩٩٦ كان كبيراً. ففى عام ١٩٩٢ ، مع تخلف ٤٥٪ من الأمريكيين عن التصويت، حصل كلينتون على ٤٣٪ فقط من الأصوات وحصل بوش الأب على ٣٨٪ في حين حصل المرشح الثالث روس بيروت Perot وعلى ١٩٪. وفى عام ١٩٩٦ ، ومع غياب نصف الناخبين حصل كلينتون على ٤٧٪ من الأصوات فى مواجهة الجمهورى الباهت روبرت دول Dole .كان هناك غياب واضح لحماس الناخبين، فقد جاء بأحد الملصقات الساخرة: "لو أراد الله لنا أن نقوم بالتصويت فى الانتخابات، لأمدنا بمرشحين."

وفى الاحتفال بتدشين فترة رئاسته الثانية، تحدث كلينتون عن وقوف الأمة على أعتاب "قرن جديد وألفية جديدة." قال: "نحتاج إلى حكومة جديدة من أجل قرن جديد." لكن أداء كلينتون لم يكن متوائماً مع بلاغته. فقد تصادف أن توافق يوم هذا الاحتفال مع احتفال الشعب الأمريكى بميلاد مارتن لوثر كينج ، وقد أشار كلينتون إلى اسم كينج أكثر من مرة فى خطابه. غير أن الرجلين كانا يمثلان فلسفتين اجتماعيتين مختلفتين اختلافاً كبيراً.

عند اغتياله فى عام ١٩٦٨، كان مارتن لوثر كينج قد وصل إلى اقتناع بأن نظامنا الاقتصادى كان ظالماً ويحتاج إلى تغيير جذرى ، وتحدث عن "شرور الرأسمالية" وطالب "بإعادة توزيع جذرية للقوتين الاقتصادية والسياسية."

ونظراً للأموال الطائلة التى قدمتها الشركات الكبرى للحزب الديمقراطى وبمعدل غير مسبوق، فقد أعلن كلينتون ثقته الكاملة فى "نظام السوق" و "المؤسسات الخاصة". ففي أثناء الحملة الانتخابية عام ١٩٩٢ أعلن الرئيس التنفيذى لشركة مارتن ماريتيا (التى وقعت عقوداً ضخمة مع الحكومة للإنتاج العسكرى): "أعتقد أن الديمقراطيين يتحركون باتجاه البيزنس ، وأن البيزنس يتحرك باتجاه الديمقراطيين."

وكان رد فعل مارتن لوثر كينج تجاه تنامى القوة العسكرية الأمريكية هو نفس رد فعله بالنسبة للحرب فى فيتنام. فقد قال: "على هذا الجنون أن يتوقف ... إن شرور العنصرية والاستغلال الاقتصادى والعسكرة يرتبط بعضها ببعض."

كان كلينتون راغباً فى استحضار "حلم" كينج (*) بالمساواة العرقية وليس حلمه بمجتمع يرفض العنف. فرغم أن الاتحاد السوفيتى لم يعد يمثل تهديداً، فقد أصر كلينتون أن تُبقى الولايات المتحدة على قواتها العسكرية منتشرة فى أرجاء العالم ، وأن

(*) الإشارة هنا إلى الخطبة الشهيرة "لدي حلم" I Have a Dream للقس الأمريكي الشهير مارتن لوثر كينج (١٩٢٩-١٩٦٨) التي عبر فيها عن حلمه بمجتمع أمريكي لا يعرف العنف ويسوده العدل الاجتماعي ويعيش فيه السود مع البيض دون كراهية أو تمييز عنصري. (المترجم)

تكون لديها القدرة على خوض "حربين إقليميتين فى آن واحد" ، وأن تظل على ميزانيتها العسكرية عند معدلات فترة الحرب الباردة. وعلى الرغم من بلاغته الرفيعة، فقد أظهر كلينتون، خلال فترتى رئاسته للبلاد، أنه ـ مثل السياسيين الآخرين ـ كان معنياً بالفوز فى الانتخابات وليس بالقيام بتغيير اجتماعى. ولكى يحصل على أكبر عدد من أصوات الناخبين، قرر كلينتون التحرك بالحزب الديمقراطى تجاه الوسط، وهذا يعنى القيام بما يكفى فقط من أجل السود والنساء والطبقة العاملة كى يضمن دعمهم له في حين يحاول، فى الوقت نفسه، أن يحوز أصوات غلاة المحافظين ببرنامج يضمن الحسم مع الجريمة ، والإجراءات الحازمة فى سبيل الرفاهية والحفاظ على القوة العسكرية للبلاد.

وقد قام كلينتون باتباع هذه الخطة فى أثناء رئاسته، فقد أجرى عدة تعيينات وزارية تشى بتأييده لبرامج العمل والرعاية الاجتماعية ، وقام بتعيين أمريكىّ أسود معروف عنه دعمه للقضايا العمالية رئيساً للمجلس الوطنى لعلاقات العمل. لكن وزراء التجارة والمالية كانوا من بين أثرياء المحامين وأصحاب الشركات الكبرى، وكان فريق سياسة كلينتون الخارجية (كوزير الدفاع ورئيس المخابرات ومستشار الأمن القومى) من بين اللاعبين القدامى فى فريق الحرب الباردة.

وقام كلينتون بتعيين الملونين فى مناصب حكومية أكثر مما فعل سابقوه من الديمقراطيين. لكنه لم يكن يتردد فى التخلص من أى منهم إذا ما تجاوز الخطوط الحمراء. كان واضحاً أن كلينتون كان مسروراً من وزير التجارة رونالد براون (الذى قتل فى حادث طائرة) محامى الشركات الكبرى الشهير. لكنه كان مستاءً من لانى جينير Lani Guinier باحثة القانون السوداء التى كان كلينتون يفكر فى تعيينها فى قسم الحقوق المدنية بوزارة العدل. لكنه عدل عن فكرته عندما اعترض المحافظون على أفكارها بشأن قضايا المساواة العرقية والتمثيل الانتخابى. وعندما خرجت السوداء جويسلين إلدرز، الجراح العام للبلاد، باقتراح يقول بإدخال الاستمناء فى التعليم الجنسى، طلب منها كلينتون أن تتقدم باستقالتها (وهذه مفارقة مرة، إذا ما نظرنا إلى مغامرات كلينتون الجنسية فى البيت الأبيض!).

وكشف كلينتون عن نفس الجبن فى تعيينه اثنين من القضاة فى المحكمة الدستورية العليا هما روث بادير جينزبيرج وستيفن براير بعد أن تأكد بشكل حاسم أنهما سيكونان معتدلين بما يكفى أن يؤيدهما الجمهوريون والديمقراطيون. ولم يكن راغباً فى تجشم عناء تعيين ليبرالى قويّ يخلف ثيرجود مارشال أو وليم برينان. فما كان من جينزبيرج وبراير إلا أن دافعا عن دستورية عقوبة الإعدام.

وفى اختياره لقضاة المحاكم الفيدرالية الدنيا، لم يختلف كلينتون فى عزوفه عن تعيين قضاة ليبراليين عن الجمهورى جيرالد فورد فى السبعينيات. وقد أشارت صحيفة نيويورك تايمز إلى أنه بينما كان ريجان وبوش [الأب] راغبين فى بذل كل جهد فى سبيل تعيين قضاة يعكسون فلسفتهما، "فقد كان كلينتون، على النقيض، على استعداد دائماً أن يصرف النظر عن تعيين أى مرشحين فى السلك القضائى إذا رأى أن هناك رائحة اختلاف حولهم." وكان كلينتون تواقاً دائماً إلى أن يُظهر أنه كان "حاسماً" حول الأمور التى تتعلق "بالقانون والنظام." ففى أثناء خوضه انتخابات ١٩٩٢ للرئاسة، وكان ما يزال حاكماً لولاية أركانساس، طار إلى أركانساس لكى يشرف على تنفيذ حكم الإعدام فى رجل متخلف عقلياً. وبعد شهور من تسلمه مقاليد السلطة فى البيت الأبيض، وافق هو والنائب العام جانيت رينو على قيام مكتب التحقيق الفيدرالى بالهجوم على جماعة دينية مسلحة يتخفى أعضاؤها فى مجمع سكنى فى واكو بولاية تكساس. وبدلاً من الانتظار لإجراء مفاوضات مع أعضاء هذه الجماعة للخروج بحل، هاجم أفراد مكتب التحقيق الفيدرالى المبنى الذى يضم أعضاء الجماعة بالأسلحة والدبابات والغاز ما نتج عنه حريق التهم المجمع وأدى إلى قتل ٨٦ شخصا على الأقل من الرجال والنساء والأطفال.

وكان ديفيد ثيبودو أحد الناجين القلائل من مأساة واكو، وقد قام بوضع كتاب عنوانه **مكان يُدعى واكو** A Place Called Waco ضَمَّنَه وصفاً دقيقاً لما قامت به الحكومة في ذلك الهجوم. يقول:

رغم أن أكـثـر من ثلاثين من النســاء والأطفـال كـانوا متزاحمين فى الغرفة الخرسانية فى بدروم المبنى السكنى، فقد اخـترقت الدبابة سـقف البـدروم مما أسـفـر عن سـقـوط الكتل الخرسانية على مَنْ كانوا بالداخل. وقد أدى هذا إلى سحق ستة من النساء والأطفال على الفور. واخـتنق البـاقـون من التـراب وأبخرة الغاز لأن الدبابة كانت قد سربت جرعات كبيرة من غاز سى إس السام داخل المكان الذى ليس به نوافذ للتهوية. وقد عُثر على الجثة المتفحمة لطفلة فى السـادسـة (هى ابنة ديفيد كوريش زعيم الطائفة الدينية) وكـان عمودها الفقرى مـثنياً إلى الخلف حتى التصقت رأس الطفلة بقدميها. وانكمشت عضلاتها نتيجة حرارة النار وغاز السيانيد القاتل المتجمع فى جسدها...

وقدم كل من كلينتون ورينو اعتذارات واهية لقرارهما المتهور بشن هجوم عسكرى على جماعة من الرجال والنسـاء والأطفال. فـفي وقت مـا، تحدثت رينو عن التحـرش بالأطفال، مما جعل كلامها لا يثبت على قدمين. وحتى إذا كان كلامـها حقيـقـياً، فإنه لا يبرر أبداً حدوث تلك المذبحة.

وكما يحدث فى كل الحالات التى تعترف فيها الحكومة بارتكاب جرائم قتل، قُدم الناجون من المذبحة إلى المحاكمة أمام قاضٍ يرفض طلباً لهيئة المحلفين بألا يفرض عقوبات غليظة ويحكم بالسجن لمدة تقترب من أربعين عـاماً. وقـد قـال البـروفيـسور جيمس فـايف Fyfe ، الذى يدرس القانون الجنائى بجـامـعة تيمـبل: "لا يـحقق مكتب التـحقيق الفيدرالى مع مكتب التـحقيق الفيـدرالى. ووزارة العدل لا تحـقق مع وزارة العدل." وعلق رينوس أفرام أحد المحكوم عليهم بالسجن بقوله: "من المفترض أن هناك قوانين تحكم هذه الأمة وليست المشاعر الشخصية. عندما تتجاهل القانون، فإنك تبذر بذور الإرهاب."

كانت هذه العبارة بمثابة نبوءة. فبعد سنوات من مأساة واكو، اتضح أن تيموثى ماكفاى (الذى كان مسئولاً عن تفجير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما مما تسبب فى مقتل ١٦٨ شخصاً) كان قد زار مسرح مأساة واكو مرتين. وفيما بعد، جاء فى شهادة خطية لأحد أفراد مكتب التحقيق الفيدرالى أن ماكفاى كان "مهتاجاً على نحو شديد" نتيجة هجوم الحكومة على واكو.

وقد تعامل "قانون الجريمة" لعام ١٩٩٦، الذى تحمس له الجمهوريون والديمقراطيون تحمساً كبيراً وكذلك كلينتون، مع مشكلة الجريمة عن طريق التأكيد على العقاب وليس على الوقاية. واعتمد الرئيس مبلغاً قدره ثمانية مليارات من الدولارات لبناء المزيد من السجون. وكان كل ذلك من أجل إقناع الناخبين بأن الساسة كانوا "حازمين فيما يخص مسألة الجريمة." وقد كتب تود كلى ، الباحث فى علم الجريمة، فى صحيفة نيويورك تايمز تحت عنوان "الحزم على هذا النحو غباء" عن قانون الجريمة الجديد قائلاً : إن تغليظ الأحكام أضاف مليوناً جديداً من الناس إلى عدد السجناء، الأمر الذى جعل من الولايات المتحدة صاحبة أعلى معدل فى عدد السجناء ، فيها على مستوى العالم، فى الوقت الذى لم تتوقف أو تقل فيه جرائم العنف. وتساءل كلير: "لماذا لا تؤثر العقوبات المغلظة فى معدل الجريمة إلا بقدر قليل؟ إن السبب الأهم فى رأيه أن "البوليس والسجون لا يكاد يكون لهم تأثير على مصادر السلوك الإجرامى." وأشار كلير إلى هذه المصادر بقوله: "إن ٧٠٪ من السجناء فى ولاية نيويورك يأتون من ثمانى مناطق سكنية مجاورة لمدينة نيويورك. ومعروف عن هذه المناطق معاناتها الشديدة نتيجة الفقر والاستبعاد والتهميش واليأس. وكل هذه الأشياء تغذى الجريمة."

كان ثمة شيء مشترك بين من يملكون السلطة السياسية ـ سواء تعلق الأمر بكلينتون أو بسابقيه من الجمهوريين. فقد كان ما يشغلهم جميعاً هو السعى من أجل الحفاظ على السلطة عن طريق تحويل غضب نحو جماعات لا موارد لها ولا تستطيع الدفاع عن نفسها. وكان ينطبق على هؤلاء ما قاله الناقد الاجتماعى مينكين H. L. Mencken فى عشرينيات القرن العشرين: "إن هدف السياسة العملية هو الإبقاء على

الناس فى حالة قلق وفزع عن طريق تهديدهم بسلسلة لا تنتهى من القصص المختلقة التى لا أساس لها من الحقيقة."

كانت "حكاية المجرمين أو السجناء" من بين تلك القصص. كذلك كانت الحال مع المهاجرين والمستفيدين من برامج الرعاية الاجتماعية ، وبعض الحكومات ـ كالعراق وكوريا الشمالية وكوبا. فعن طريق صرف انتباه الشعب الأمريكى إلى هذه القصص ، وعن طريق التهويل والمبالغة فى خطرها، تستطيع الحكومة الأمريكية التغطية على إخفاقات النظام. وكان المهاجرون يمثلون موضوعاً للهجوم من وقت لآخر ؛ لأنه من السهل تجاهل مصالحهم لأنهم لا يملكون الحق فى التصويت فى الانتخابات. وكان من السهل على الساسة أن يلعبوا على وتر كراهية الغرباء التى كانت تظهر من وقت لآخر على مدار التاريخ الأمريكى ، وأشهر مثال على ذلك ، العداء الذى أظهره الأمريكيون ضد الأيرلنديين فى منتصف القرن التاسع عشر ، والعنف الذى لم يتوقف ضد الصينيين الذين كانوا قد جُلبوا للعمل فى مد شبكات السكك الحديدية ، والعداء تجاه المهاجرين من شرق أوروبا ، والتى أدت إلى وضع قيود صارمة على قوانين الهجرة فى عشرينيات القرن الماضى. وقد خففت من هذه القيود روح الإصلاح التى تميزت بها الستينيات من القرن الماضى. غير أن الديمقراطيين والجمهوريين كليهما لعبوا، فى تسعينيات القرن الماضى، على وتر المخاوف الاقتصادية للعمال الأمريكيين. فقد كان العمال فى الشركات الكبرى يفقدون وظائفهم عن طريق تسريح الشركات لهم من باب التوفير. وكانت الشركات تسعى لنقل مصانعها إلى أماكن تتوفر فيها عمالة رخيصة مما يحقق لها أرباحاً كبيرة. وكان اللوم أحياناً يوجَّه إلى الأعداد الكبيرة من المهاجرين غير الشرعيين الذين كانوا يتدفقون إلى البلاد عبر الحدود الجنوبية مع المكسيك؛ وذلك لاتهامهم بأخذ وظائف المواطنين الأمريكيين ولأنهم يستفيدون من المزايا الحكومية الأمر الذى يضع مزيداً من الضرائب على كاهل المواطنين الأمريكيين.

واتفق الحزبان الرئيسيان الديمقراطى والجمهورى على تمرير تشريع، صدَّق عليه كلينتون، يقضى بإلغاء مزايا برامج الرعاية الاجتماعية (كوبونات الطعام

والمساعدات المالية لكبار السن والمعوقين) ليس فقط من المهاجرين غير الشرعيين ولكن من المهاجرين الشرعيين أيضاً. ففى أوائل عام ١٩٩٧، كان يتم إرسال خطابات إلى ما يقرب من مليون مهاجر شرعى (نسبة كبيرة منهم فقراء ومعوقون) تحذرهم من أن مزايا برامج الرعاية الاجتماعية سيتم وقفها فى خلال شهور إذا لم يحصلوا على الجنسية الأمريكية. وكانت المشكلة أن نصف مليون تقريباً من هؤلاء المهاجرين الشرعيين لا يستطيعون اجتياز الاختبارات اللازمة للحصول على الجنسية الأمريكية، فهم لا يستطيعون القراءة والكتابة باللغة الإنجليزية ، ومنهم المرضى والمعاقون ومنهم مَنْ كبر على سن التعلم.

وقد أتى معظم هؤلاء المهاجرين من المكسيك فراراً من الفقر ، وكذلك جاء مئات الآلاف منهم من أمريكا الوسطى هاربين من فرق الموت فى جواتيمالا والسلفادور. وواجه هؤلاء فى التسعينيات مشكلة التهديد بالترحيل فى الوقت الذى كانت الحكومة الأمريكية تمد الحكومات القمعية لهؤلاء بالمساعدات العسكرية. واجه هؤلاء التهديد بالترحيل لأنهم لم يحصلوا على لقب "لاجئين سياسيين."، وإذا منحتهم الحكومة الأمريكية هذا اللقب، فإن هذا يعنى أنها تكذب بشأن زعمها بأن هذه الحكومات القمعية كانت تُحسِّن من سجلها لحقوق الإنسان ومن ثم فإنها تستحق الاستمرار فى تلقى المعونات العسكرية الأمريكية.

ونشرت صحيفة "لوس أنجيليس تايمز": "سيخسر المهاجرون الشرعيون مزية الحصول على العلاج ، علاوة على خسارة المكاسب النقدية التى كانوا يحصلون عليها من برامج الرعاية الاجتماعية... ويتوقع خبراء الصحة عودة ظهور مرض السل والأمراض الجنسية المعدية... ." وكان هدف الاستقطاعات من برامج الرعاية الاجتماعية هو توفير ٥٠ ملياراً من الدولارات على مدى خمس سنوات (وهو مبلغ يقل عن تكلفة جيل جديد من الطائرات المقاتلة . وحتى صحيفة نيويورك تايمز، التى كانت تؤيد كلينتون فى أثناء حملاته الانتخابية، قالت إن مواد القانون الجديد "لا علاقة لها بخلق فرص عمل ولكنها تهدف إلى خلق توازن فى الميزانية عن طريق استقطاع

ميزانيات برامج الفقراء." كانت هناك مشكلة كبرى، فقد كان القانون يعمل على دفع الفقراء إلى البحث عن وظائف. لكن لم تكن هناك فرص عمل كافية لمن يخسرون مزايا برامج الرعاية الاجتماعية. لقد كانت حكومة كلينتون ترفض دائماً إنشاء برامج حكومية تعمل على توفير فرص عمل للناس. وفى أثناء حملته الانتخابية لفترة رئاسة ثانية فى عام ١٩٩٦، قال كلينتون: "انتهى عصر الحكومة الكبيرة." وكان يبحث عن أصوات انتخابية معتمداً على أن الأمريكيين أيدوا الموقف الجمهورى القائل بأن الحكومة تنفق أكثر من اللازم من الأموال.

لم يُجِدْ أى من الحزبين قراءة الرأى العام وكانت الصحافة مسئولة عن ذلك إلى حد كبير. فقد كان كلينتون والجمهوريون، فى اتحادهما ضد "الحكومة الكبيرة"، يهدفان إلى تخفيض الخدمات الاجتماعية. أما تجليات الحكومة الكبيرة ـ كالعقود الكبيرة مع المصانع العسكرية والدعم الكبير الذى تتلقاه هذه المصانع ـ فقد كانت هناك دائماً وعلى مستويات كبيرة. كانت "الحكومة الكبيرة" قد بدأت، فى حقيقة الأمر، مع الآباء المؤسسين الذين عملوا على إقامة حكومة مركزية تعمل على حماية مصالح حاملى السندات ومالكى العبيد والمضاربين على الأراضى وأصحاب المصانع. واستمرت الحكومة الأمريكية، على مدار المائتى سنة التالية، فى خدمة مصالح الأثرياء والأقوياء، فكانت تقدم ملايين الأفدنة من الأراضى مجاناً لشركات السكك الحديدية ، وتقوم بفرض تعريفة عالية من أجل حماية أصحاب المصانع ، وتمنح الشركات الكبيرة للنفط تخفيضات عالية فى الضرائب فى حين تستخدم قواتها المسلحة فى قمع الإضرابات وحركات التمرد.

لم يشتك القادة السياسيون وأصحاب الشركات الكبرى من "الحكومة الكبيرة" إلا فى القرن العشرين ، خاصة فى الثلاثينيات والستينيات ، عندما اضطرت الحكومة، بسبب حركات الاحتجاج والمظاهرات، أن تمرر بعض القوانين الاجتماعية من أجل الفقراء ، وذلك بعد أن زاد القلق من أن هذه الحركات قد تؤدى إلى خلخلة النظام السياسى للبلاد.

وقام الرئيس كلينتون بإعادة تعيين ألان جرينسبان رئيساً لنظام الاحتياطى الفيدرالى ، وهو النظام المنوط به تنظيم معدلات الفائدة. وكان همّ جرينسبان الأكبر هو تجنب حدوث "التضخم الاقتصادى" الذى كان يخشى منه حاملو السندات ؛ لأنه يقلل من أرباحهم. وقد كان نظام جرينسبان يرى أن الأجور المرتفعة تؤدى إلى التضخم وكان يقلقه أن الأجور سوف ترتفع إذا ما انتهت مشكلة البطالة. وصار ولع إدارة كلينتون يتمثل فى تخفيض العجز السنوى فى الميزانية. ولكن لأن كلينتون لم يُرد رفع الضرائب على الأثرياء أو تخفيض الميزانية العسكرية، فكان البديل الوحيد أمامه هو التضحية بالفقراء والأطفال وكبار السن - أى إنفاق القليل على الرعاية الصحية وكوبونات الطعام والتعليم والأمهات العائلات لأطفال بمفردهن (single mothers) .

وظهر مثالان على ذلك فى أثناء رئاسة كلينتون الثانية فى ربيع عام ١٩٩٧ ؛ فقد جاء فى صحيفة نيويورك تايمز (٨ مايو ١٩٩٧): "كانت خطة كلينتون الرئيسية باقتراحه تخصيص خمسة مليارات من الدولارات لإصلاح المدارس المتهالكة فى البلاد من بين الموضوعات التى تم قتلها بهدوء فى اتفاق الأسبوع الماضى من أجل تحقيق التوازن فى الميزانية الفيدرالية." وجاء فى صحيفة بوسطن جلوب (٢٢ مايو ١٩٩٧): "بعد تدخل البيت الأبيض، رفض مجلس الشيوخ أمس... اقتراحاً يقضى بمد التأمين الصحى كى يغطى ١٠,٥ مليون من أطفال الأمة غير المؤمّن عليهم... وعدل سبعة من صناع القوانين عن رأيهم... بعد تدخل مسئولين من البيت الأبيض ، وقالوا إن مثل هذا التعديل من شأنه أن يضع اتفاق الميزانية موضع الخطر." ولم ينل العمل على خلق توازن فى الميزانية من الإنفاق العسكرى. وبعد إعادة انتخابه مباشرة، قال كلينتون: "أود تأكيد استمرارنا الجوهرى فى السياسة الخارجية الأمريكية."

وأثناء رئاسة كلينتون، استمرت الحكومة الأمريكية فى إنفاق ٢٥٠ مليار دولار سنوياً على الأقل للحفاظ على الآلة العسكرية. وكان كلينتون يقبل بزعم الجمهوريين أنّ على الأمة أن تكون مستعدة لخوض "حربين إقليميتين" فى وقت واحد. كان هذا فى الوقت الذى انهار فيه الاتحاد السوفيتى - وقد قال ديك تشينى وزير دفاع بوش: "لقد

أصبحت التهديدات بعيدة إلى حد أن المرء لا يستطيع أن يميزها". وقال الجنرال كولين باول Powell كلاماً مشابهاً (نشرته مجلة Defense News فى ٨ أبريل من عام ١٩٩١): "لم يعد هناك أشرار نخشاهم. لم يبق سوى كاسترو وكيم إل سونج."

كان كلينتون قد واجه اتهاماً، فى أثناء حملته الانتخابية، بأنه تفادى الخدمة العسكرية فى أثناء الحرب فى فيتنام مثله مثل شباب آخرين كثيرين كانوا يعارضون هذه الحرب. وبعد دخوله البيت الأبيض، بدا كلينتون مصمماً على مسح صورته كهارب من تأدية الخدمة العسكرية ، وكان يغتنم أيّة فرصة لكى يصور نفسه مؤيداً صميمًا للمؤسسة العسكرية.

وفى خريف عام ١٩٩٣ أعلن ليس آسبن وزير الدفاع نتائج مسح شامل للميزانية العسكرية تتوقع إنفاق ما يزيد على ألف مليار دولار فى السنوات الخمس التالية. ونادى هذا المسح بعدم إجراء تخفيض فى أنظمة الأسلحة الرئيسية. وقد قال باحث محافظ يعمل فى مركز وودرو ويلسون الدولى هو أنطونى كوردسمان: "ليس هناك أى تحرك جذرى يدل على الاختلاف عن نظام بوش أو حتى عن الاستراتيجية الأمريكية المبكرة." وبعد عامين من توليه مقاليد السلطة ، وفى مواجهته زيادة الجمهوريين فى انتخابات الكونجرس عام ١٩٩٤، اقترح كلينتون مزيداً من الأموال للإنفاق العسكرى أكثر من تلك التى اقترحها المسح الشامل الذى أشرنا إليه قبل قليل. وكتب مراسل لصحيفة نيويورك تايمز من واشنطن (فى الأول من ديسمبر ١٩٩٤): "فى محاولة لتهدئة النقد الجمهورى بأن المؤسسة العسكرية تعانى قلة التمويل، أقام كلينتون حفلاً اليوم كى يعلن أنه بصدد السعى فى زيادة الإنفاق العسكرى بما مقداره ٢٥ مليار دولار على مدار السنوات الست التالية."

وكانت العراق وكوريا الشمالية المثالين اللذين يُشار إليهما دائماً عند الحديث عن قدرة الولايات المتحدة على خوض حربين إقليميتين فى وقت واحد. غير أن الحرب ضد العراق فى عام ١٩٩١ جاءت بعد قيام الولايات المتحدة بتسليح العراق فى أثناء الثمانينيات. وكان من المنطقى أن تشعر كوريا الشمالية بالاستفزاز نتيجة المساعدات

الأمريكية العسكرية السخية لكوريا الجنوبية ووجود قواتها الدائم هناك. ورغم زيادة تسليح كوريا الشمالية، فقد كانت مقدرتها العسكرية أصغر بكثير من نظيرتها الجنوبية. وعلى الرغم من هذه الحقائق، استمرت الولايات المتحدة، فى عهد كلينتون، فى إمداد كثير من دول العالم بالأسلحة. فبمجرد دخوله البيت الأبيض، وافق كلينتون على بيع طائرات F-16 لتايوان. وقد قالت صحيفة "ذا بالتيمور صن" (٣٠ مايو ١٩٩٤):

> **لأول مرة، ستقوم الولايات المتحدة فى العام القادم بإنتاج طائرات مقاتلة للقوات الجوية الأجنبية وليس للبنتاجون، وهو ما يدل على أن الولايات المتحدة حلت محل الاتحاد السوفيتى الذى كان يمثل أكبر المصادر للإمداد بالأسلحة على مستوى العالم. وفى ظل تشجيع إدارة كلينتون، شهدت صناعة السلاح أفضل أعوامها العام الماضى حيث صدُرت أسلحة إلى الخارج بما يبلغ ٣٢ مليار دولار وهو ما يزيد مرتين على ما بيع عام ١٩٩٢ (١٥ مليار).**

وقد كان كلينتون تواقاً إلى أن يظهر فى صورة القوى. ولم يكن قد مر عليه ستة شهور فى الرئاسة الأمريكية، عندما أرسل سلاح الطيران لقصف بغداد، بزعم أن ذلك جاء رداً على مؤامرة عراقية باغتيال الرئيس السابق جورج بوش فى أثناء زيارته للكويت. ولم تكن هناك أدلة قوية على مثل تلك المؤامرة ، ولكن كلينتون لم ينتظر نتائج محاكمة المتهمين فى الكويت. وقامت الطائرات الأمريكية بغارة على بغداد وقالت الحكومة الأمريكية إن الغارة استهدفت مبنى المخابرات العراقية ، ولكن الغارة أسفرت عن مقتل ستة أشخاص على الأقل من بينهم فنانة عراقية متميزة(*) وزوجها. وقالت

(*) الإشارة إلى الفنانة التشكيلية العراقية ليلى العطار التي استشهدت جراء ذلك القصف. كانت مديرة لمتحف الفن العراقي، وكان آخر أعمالها التشكيلية عبارة عن صورة ضخمة للرئيس الأمريكي بوش الأب تم وضعها على مدخل فندق الرشيد الشهير ببغداد بحيث تدوسها أقدام الداخلين إلى الفندق والخارجين منه. (المترجم)

صحيفة "بوسطن جلوب": "منذ الغارة، والرئيس كلينتون ومسئولون آخرون يتباهون بتقويض قدرة المخابرات العراقية وبأنهم أرسلوا رسالة قوية لتأديب صدام حسين." واتضح بعد ذلك أنه لم يكن هناك خسائر لحقت بمرافق المخابرات العراقية ، وعلقت نيويورك تايمز: "لقد ذكّرنا التصريح العاصف للرئيس كلينتون بتصريحات الرئيس بوش والجنرال نورمان شوارسكوف التى اتضح فيما بعد أنها كانت كاذبة ".

وتحالف الديمقراطيون والجمهوريون خلف عملية القصف، وأشارت صحيفة "بوسطن جلوب" إلى استخدام الولايات المتحدة للمادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة بوصفها تبريراً شرعيًا لعملية القصف ، وقالت إن إشارة الرئيس كلينتون لميثاق الأمم المتحدة يعكس الرغبة الأمريكية فى احترام القانون الدولى. ولكن المادة المشار إليها فى ميثاق الأمم المتحدة تسمح بعمل عسكرى أُحادى فى حالة الدفاع ضد هجوم مسلح فقط وإذا لم يستطع مجلس الأمن الاجتماع. ولم يتوفر أى من هذه الشروط فى حالة قصف بغداد.

وقد قال الصحفى مولى إيفينز إن قصف بغداد بهدف "إرسال رسالة قوية" هو شىء من قبيل الإرهاب. وقال: "إن الشىء الجنونى فى الإرهابيين أنهم لا يميزون فى أعمالهم بين ما هو بهدف الثأر أو لفت الانتباه ... وما ينطبق على الأفراد ينطبق أيضاً على الأمم." إن قصف بغداد كان علامة دالة على أن كلينتون كان يتعامل مع جميع الأزمات التى واجهته فى سياسته الخارجية فى أثناء فترتى رئاسته، بطرق تقليدية تتضمن دائماً عملاً عسكرياً.

وفى الصومال وفى يونيو من عام ١٩٩٣، حيث حرب أهلية مستعرة وشعب يموت جوعاً، تدخلت الولايات المتحدة على نحو متأخر وردىء. وكتب الصحفى سكوت بيترسون: "ارتكبت القوات الأمريكية والأجنبية الأخرى أفعالاً همجية مفزعة متخفية وراء علم الأمم المتحدة." وأخطأت إدارة كلينتون فى التدخل فى أزمة داخلية بين جنرالات حرب وقررت أن تعمل على اصطياد أبرزهم وهو الجنرال محمد عيديد فى عملية عسكرية انتهت بمقتل ١٩ أمريكياً وحوالى ٢٠٠٠ من الصوماليين فى أكتوبر عام ١٩٩٣ .

وقد تركز اهتمام الرأى العام الأمريكى، كالعادة، على الموتى من الأمريكيين (الذين تم تمجيدهم فى فيلم "Black Hawk Down " أى سقوط الصقر الأسود. وكانت حياة من قتلوا من الصوماليين لا تمثل أهمية بالنسبة للرأى العام الأمريكى. قال بيترسون: "أعلن الضباط الأمريكيون وضباط الأمم المتحدة فى وضوح أنه لم يهمهم عدد القتلى من الصوماليين ولذلك لم يحصوا عددهم."

وحقيقة الأمر أن مقتل الأمريكيين التسعة عشر على أيدى الصوماليين جاء بعد شهور من قرار الولايات المتحدة بشن هجوم عسكرى على منزل كان يجتمع فيه شيوخ القبائل. وكانت عملية وحشية، فقد بدأت بهجوم مروحيات الكوبرا ثم بعد دقائق، على حسب ما يكتب بيترسون، "تدفقت قوات المشاة الأمريكية وقامت بالقضاء على من نجوا من القصف الجوى - وهى التهمة التى ينفيها القادة الأمريكيون." وقال الجنرال الأمريكى توماس مونتجمرى إن الهجوم كان "شرعياً" لأن "جميعهم كانوا أشراراً bad guys " . أما الأدميرال جوناثان هاو الذى يمثل قوات الأمم المتحدة (كانت الولايات المتحدة قد أصرت على أن يكون قائد قوات الأمم المتحدة أمريكياً) فقد دافع عن الهجوم قائلاً : إن المنزل الذى تعرض للهجوم كان يُؤْوِى "خلية إرهابية رئيسية" وأنكر أن يكون هناك مدنيون بين القتلى ، رغم أنه كان واضحاً أن القتلى كانوا من شيوخ القبائل. وعلق بيترسون بقوله: "رغم أن لنا عيوناً نرى بها وشهدنا الجريمة، فقد دافع القادة العسكريون عما لا يمكن الدفاع عنه وتعلقوا فى عناد بالوهم بأن مزيداً من الحرب بإمكانه أن يأتى بالسلام. لقد اعتقدوا أن الصوماليين سوف ينسون ما حدث وينسون دماء آبائهم وإخوانهم المسفوكة... ." بيد أن الصوماليين لم ينسوا ما حدث إذ قام جمع من عامة الناس بقتل ١٩ أمريكياً.

وقد أدت السياسة الكارثية فى الصومال إلى كارثة أخرى فى العام التالى فى رواندا حيث تجاهلت الولايات المتحدة المجاعة والحرب القبلية الدائرة هناك وكانت هناك قوة تابعة للأمم المتحدة كان من الممكن أن تنقذ حياة عشرات الآلاف لولا إصرار الولايات المتحدة على تخفيض هذه القوة إلى حدها الأدنى. وكان نتيجة ذلك حدوث

إبادة جماعية راح ضحيتها مليون رواندى على الأقل. وقد كتب ريتشار هيبس مستشار مؤسسة فورد لشئون أفريقيا فى صحيفة نيويورك تايمز: "لقد قادت إدارة كلينتون معارضة الجهود الدولية."

وعندما تدخلت إدارة كلينتون، بعد وقت قصير، فى البوسنة، علق الصحفى سكوت بيترسون (الذى كان قد انتقل فى ذلك الوقت إلى البلقان) على الفرق فى الاستجابة لعمليات الإبادة بين كل من أفريقيا وأوروبا . قال: "... كأن قراراً ما قد اتُخذ فى مكان ما بأن أفريقيا والأفارقة لا يستحقون العدالة " .

كانت سياسة كلينتون تنتهج النهج التقليدى للحزبين الديمقراطى والجمهورى الذى يؤكد الإبقاء على علاقات ودودة مع أيّة حكومات طالما كانت فى السلطة وتساعد الإدارة الأمريكية فى صفقات تجارية عالية الربح مهما كان سجل هذه الحكومات فيما يتعلق بحقوق الإنسان. ومن ثم، استمرت المساعدات الأمريكية لإندونيسيا على الرغم من أن سجل هذا البلد حافل بالقتل الجماعى ؛ حيث قتلت الحكومة الإندونيسية مائتى ألف من سكان تيمور الشرقية فى أثناء احتلالها لها مع العلم أن سكان هذه الجزيرة لا يزيدون على سبعمائة ألف نسمة.

وقد تحالف الديمقراطيون والجمهوريون عندما رفض مجلس الشيوخ اقتراحاً يقضى بحظر بيع الأسلحة القاتلة لنظام سوهارتو فى إندونيسيا . وكتبت صحيفة "بوسطن جلوب" فى ١١ يوليو عام ١٩٩٤:

> **إن كلام أعضاء مجلس الشيوخ المؤيدين لنظام سوهارتو والمدافعين عن الشركات الكبرى للمنتجات العسكرية وشركات النفط والتعدين وصفقات البيزنس مع جاكارتا ؛ جعل الأمريكيين يظهرون فى صورة شعب مستعد لأن يغض الطرف عن الإبادة فى سبيل المال. وزعم وارين كريستوفر وزير الخارجية الأمريكية الزعم المألوف بأن احترام إندونيسيا لمسألة حقوق الإنسان فى تزايد. وكانت هذه هى الحجة التى كانت تشهرها إدارة كلينتون**

فى سبيل عقد المزيد والمزيد من الصفقات مع سوهارتو وجنرالاته.

وفى عام ١٩٩٦، مُنح هوزيه راموس - هورتا من تيمور الشرقية جائزة نوبل للسلام. وقبل قليل من منحه الجائزة قال فى أثناء حديث له فى إحدى كنائس بروكلين:

فى صيف عام ١٩٧٧ كنت هنا فى نيويورك عندما تلقيت رسالة تقول بأن أختى ماريا، البالغة من العمر واحداً وعشرين عاماً، قد قُتلت فى قصف جوى. وكانت الطائرة المستخدمة فى القصف ماركة Bronco وهى أمريكية الصنع... بعد عدة شهور جاءنى أن أخى جاى Guy (١٧ عاماً) قُتل مع آخرين فى قريته بطائرة Bell أمريكية الصنع أيضاً. وفى العام نفسه ألقى القبض على أخ آخر لى هو نونو Nuno وقُتل وآخرون بطائرة من طراز M-16 الأمريكية الصنع!

وتركيا أيضاً استخدمت المروحيات الأمريكية الصنع من طراز Sikorski للقضاء على قرى المتمردين الأكراد فيما سماه الكاتب جون تريمان (فى كتابه: **غنائم الحرب: التكلفة البشرية لتجارة الأسلحة:** **Spoils of War: The Human Cost of the Arms Trade** ( ) "حملة إرهاب ضد الشعب الكردى." وفى أوائل عام ١٩٩٧ كانت الولايات المتحدة تبيع أسلحة أكثر من كل دول العالم مجتمعة. كتب لورانس كورب أحد المسئولين بوزارة الدفاع فى عهد ريجان (لكنه أصبح من أكبر منتقدى تجارة السلاح): "لقد صار الأمر لعبة لكسب الأموال، بحيث أصبح سلسلة عبثية نصدر فيها الأسلحة لا لشىء سوى أن نقوم بصنع أسلحة أكثر تقدماً وتعقيداً لمواجهة الأسلحة الموجودة فى كل بقعة من العالم."

وفى العام الأخير لإدارة كلينتون، عندما طالبت المقاومة الجماعية فى تيمور الشرقية بإجراء استفتاء لاستقلالها عن إندونيسيا، توقفت المساعدات العسكرية الأمريكية وانهار نظام سوهارتو. وفى نهاية المطاف، نالت تيمور الشرقية استقلالها.

لكن القوة العسكرية لم تتوقف عن التحكم فى السياسة الأمريكية ، وكثيراً ما وقفت الولايات المتحدة وحدها فى رفضها خفض أسلحتها. ورغم أن مائة دولة وقعت اتفاقية تقضى بالقضاء على الألغام الأرضية التى كانت تقتل عشرات الآلاف كل عام، رفضت الولايات المتحدة الموافقة على هذه الاتفاقية. وكذلك رفضت الاستجابة لحملة الصليب الأحمر لحثّ الحكومات على التوقف عن استخدام القنابل العنقودية التى تقتل دون تمييز واستخدمتها الولايات المتحدة فى فيتنام وفى حرب الخليج.

وفى مؤتمر للأمم المتحدة عُقد فى روما عام ١٩٩٩، عارضت الولايات المتحدة فكرة إنشاء محكمة دولية دائمة لمحاكمة مجرمى الحرب. كان هناك تخوف لدى الإدارة الأمريكية من أن يُقدم المسئولون الأمريكيون المسئولون عن مقتل الآلاف من البشر للمحاكمة عما اقترفوه من جرائم الحرب. وكان من الواضح أن مسألة حقوق الإنسان تأتى عند الحكومة الأمريكية فى المرتبة الثانية فى سياستها الخارجية بعد صفقات البيزنس.

وعندما أصدرت منظمة "مراقبة حقوق الإنسان" الدولية **Human Rights Watch** تقريرها السنوى عام ١٩٩٦، لخصّت صحيفة نيويورك تايمز (٥ ديسمبر ١٩٩٥) ما توصلت إليه المنظمة من حقائق: "انتقدت المنظمة بشدة كثيراً من الدول القوية خاصة الولايات المتحدة متهمة إياها بالتقاعس عن الضغط على حكومات الصين وإندونيسيا والمكسيك ونيجيريا والسعودية من أجل تحسين سجلهم فى مجال حقوق الإنسان وذلك خشية خسران الأسواق المربحة."

وتجلت السياسة العبثية للإدارة الأمريكية فى عهد كلينتون فى موقفها من دولتين هما الصين وكوبا. وتعتبر الدولتان نفسيهما دولتين "شيوعيتين." وكانت الصين قد قامت بمذبحتها الشهيرة للطلاب المحتجين فى الميدان السماوى فى عام ١٩٩١ وسجنت الآلاف منهم. لكن الولايات المتحدة استمرت فى وضع الصين موضع "الدولة الأولى الأولى بالرعاية" وكان ذلك فى سبيل المصالح الاقتصادية للحكومة الأمريكية.

أما كوبا فكانت قد قامت بسجن معارضى النظام ولكن ليس لها سجل دموى فى القمع مثل الصين أو حكومات أخرى فى العالم كانت تتلقى معونات أمريكية. لكن إدارة كلينتون استمرت فى موقفها من كوبا حيث استمرت فى فرض العقوبات الاقتصادية عليها مما كان يؤدى إلى حرمان الشعب الكوبى من الطعام والأدوية.

وفى علاقتها مع روسيا، وضعت إدارة كلينتون مسألة "الاستقرار" قبل الأخلاق فى أولوياتها. كان هذا هو حافز الإدارة الأمريكية فيما يخص علاقة الولايات المتحدة بروسيا. فقد كانت الإدارة الأمريكية تصر على دعمها الكبير لنظام بوريس يلتسين، حتى بعد أن قامت روسيا بعملية غزو وحشية لمنطقة الشيشان التى كانت تريد الاستقلال. ووقف كل من كلينتون ويلتسين، بمناسبة وفاة الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون، يعبران عن إعجابهما بالرجل الذى استمر فى الحرب على فيتنام وحنث بالقسم الذى أقسمه عند توليه البيت الأبيض وبرّأه نائبه(*) من جرائم الحرب التى كان من الممكن تقديمه للمحاكمة بسببها. لقد رأى يلتسين أن نيكسون كان "واحداً من أعظم السياسيين فى العالم." وقال كلينتون : إن نيكسون، على مدار حياته السياسية "ظل مدافعاً شجاعاً عن الحرية والديمقراطية فى العالم."

وقد جاءت سياسة كلينتون الاقتصادية الخارجية متوائمة مع تاريخ البلاد - أى ظل هناك ذلك الاهتمام من قِبل الحزبين الديمقراطى والجمهورى بمصالح الشركات العملاقة على حساب الناس والطبقة العاملة، سواء هنا أو فى الخارج. وكانت الإدارة الأمريكية، كالعادة، تنظر إلى المساعدات المقدمة إلى الدول الأجنبية بوصفها وسيلة سياسية واقتصادية للهيمنة أكثر منها فعلاً إنسانياً. ففى نوفمبر عام ١٩٩٣ صرح أحد مراسلى وكالة أسوشيتيد بريس بأن الإدارة الأمريكية ألغت المساعدات الاقتصادية لثلاث وثلاثين دولة. وصرّح برايان آتوود رئيس الوكالة الدولية للتنمية: "لم نعد نحتاج إلى برامج تنموية هدفها النفوذ والسيطرة". وقالت منظمة "الخبز من أجل العالم : إن

(*) المقصود هو جيرالد فورد الذي تولى الرئاسة بعد استقالة نيكسون الشهيرة. (المترجم)

إلغاء المساعدات الاقتصادية أو تخفيضها من شأنه أن يضر بالدول الفقيرة ، وقالت فى مرارة : إن الجوع والفقر والتدهور البيئى ليسوا على أولويات إدارة الرئيس كلينتون.

انتهج كل من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، اللذين تسيطر عليهما الولايات المتحدة، طريقة متشددة فى التعامل مع دول العالم الثالث التى قتلتها الديون. فقد أصرت المؤسستان الدوليتان على أن تخصص هذه الدول الفقيرة جزءاً كبيراً من مواردها الضعيفة لسداد ديونها للدول الغنية ، وذلك على حساب الخدمات الاجتماعية لشعوب هذه الدول البائسة. كان التركيز فى السياسة الاقتصادية الخارجية على "اقتصاد السوق" و "الخصخصة"، وهو ما أجبر دول الاتحاد السوفيتى السابق على أن تدافع عن نفسها وسط اقتصاد يفترض أنه "حر" وذلك دون الخدمات الاجتماعية التى كانت تتمتع بها شعوب تلك الدول تحت النظام القمعى السابق. وتحولت رأسمالية السوق غير المنظمة إلى كارثة على شعوب الاتحاد السوفيتى السابق التى رأت ثروات كبيرة تتكدس فى أيدى الأقلية الثرية ، فى الوقت الذى تعانى فيه الجماهير من الحرمان.

وصار شعار "التجارة الحرة" صفة مهمة لدى إدارة كلينتون. وفى ظل دعم الديمقراطيين والجمهوريين فى الكونجرس، وقعت الإدارة "اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة NAFTA " مع المكسيك. وقد ساعد ذلك على إزالة معوقات كبيرة أمام رؤوس الأموال والبضائع للتحرك بسهولة عبر الحدود الأمريكية المكسيكية. وكانت هناك أصوات معارضة لهذه الاتفاقية. ففى الوقت الذى قال مؤيدوها إنها ستفيد الاقتصاد الأمريكى عن طريق فتح سوق مكسيكى أكبر أمام المنتجات الأمريكية، رأى المعارضون لها، لاسيما النقابات التجارية، أنّها ستتسبب فى خسارة كثير من الأمريكيين لوظائفهم إذا ما انتقلت الشركات الأمريكية إلى المكسيك حيث العمالة متوفرة ورخيصة. والحقيقة أنه من الصعب تصديق زعم الولايات المتحدة بأنها تدعم "التجارة الحرة"، فقد تدخلت الحكومة الأمريكية فى شرح الاتفاقية على هواها إذا رأت أنها لا تخدم "المصلحة القومية" وهى العبارة المهذبة لمصالح الشركات الكبرى. ولذلك لم تدخر الحكومة الأمريكية وسعاً لكى تمنع زارعى الطماطم فى المكسيك من دخول الأسواق الأمريكية.

وفى خرق فاضح لمبادئ اتفاقية التجارة الحرة، لم تكن الولايات المتحدة تسمح بشحن الغذاء والأدوية إلى العراق وكوبا. وفى عام ١٩٩٦ ومن خلال برنامج "سيكستى مينيتس" الشهير سأل المذيع مندوبة الولايات المتحدة بالأمم المتحدة مادلين أولبرايت عما إذا كان الأمر يستحق كل هذا. أما الأمر فهو أن "نصف مليون طفل عراقى ماتوا نتيجة العقوبات على العراق... أى أكثر من عدد الأطفال الذين ماتوا فى هيروشيما." ردت أولبرايت: "أعتقد أن الاختيار صعب، لكن الأمر يستحق!"

لم تعترف الحكومة الأمريكية بأن سياستها الخارجية التأديبية وقواعدها العسكرية المنتشرة فى بلاد العالم قد تثير الغضب فى تلك البلاد ، وأن هذا الغضب قد يتحول إلى العنف. فعندما تعرضت السفارتان الأمريكيتان فى كينيا وتنزانيا لأعمال تفجيرية، ردت إدارة كلينتون بقصف كل من أفغانستان والسودان. وكان الزعم أن الهدف المقصود فى أفغانستان هو قاعدة للنشاط الإرهابى رغم أنه لم يكن هناك دليل على ذلك. أما فى السودان، فقد أصرت الحكومة الأمريكية على أنها قصفت مصنعاً للأسلحة الكيماوية ، ولكن اتضح أن هذا كان مصنعاً للأدوية يعتمد عليه نصف سكان البلاد تقريباً. وبالطبع يمكن تقدير الخسائر البشرية لتوقف هذا المصنع نتيجة القصف.

فى ذلك العام نفسه، واجه كلينتون أكبر أزمة فى فترتى رئاسته. فقد علمت الأمة أن متدربة شابة (مونيكا لوينسكى) كانت تقوم بزيارات سرية إلى البيت الأبيض للقيام بمغامرات جنسية مع الرئيس. وصار الأمر قصة مثيرة تتصدر الصفحات الأولى من الصحف والمجلات وتتصدر النشرات الإخبارية. وقد تشكل مجلس مستقل للتحقيق فيما حدث حيث قام أعضاء المجلس بالحصول من مونيكا لوينسكى على شهادة شديدة التفصيل عن علاقتها الجنسية بكلينتون. وكانت صديقة لمونيكا قد فضحت الأمر عن طريق تسجيل مكالماتها التليفونية. وقد كذب كلينتون بشأن علاقته الجنسية تلك وصوت مجلس النواب لصالح التحقيق مع الرئيس ؛ لأنه كذب بإنكاره علاقته الجنسية مع هذه الفتاة ولأنه أعاق العدالة بمحاولة إخفائه معلومات عن هذه العلاقة. وكانت هذه هى المرة الثانية فى التاريخ الأمريكى يتعرض فيها رئيس البلاد للتحقيق (كانت الأولى مع

الرئيس أندرو جاكسون بعد الحرب الأهلية) وهنا، كما حدث فى الحالة السابقة ، لم يؤد التحقيق إلى إنهاء رئاسة كلينتون لأن مجلس الشيوخ لم يصوت بذلك!

وما كشفت عنه تلك الحادثة هو أن مسألة تتعلق بالسلوك الشخصى تستطيع أن تصرف الرأى العام عن قضايا أخرى أكثر خطورة لأنها تتعلق بمسألة الحياة أو الموت. إن مجلس النواب يطلب التحقيق مع الرئيس فى سلوكه الجنسى ، لكن هذا المجلس نفسه لا يطالب بالتحقيق معه لقيامه بتخفيض برامج الرعاية الاجتماعية بما يعرض حياة الأطفال الأمريكيين للخطر ، أو لأنه خرق القانون الدولى بقيامه بقصف بلاد أخرى (العراق وأفغانستان والسودان) ، أو لأنه تسبب فى وفاة مئات الألوف من الأطفال فى العراق نتيجة العقوبات الاقتصادية.

وفى عام ١٩٩٩، أى فى آخر أعوام كلينتون فى الرئاسة، ظهرت أزمة فى البلقان كشفت عن أن حكومة الولايات المتحدة تميل إلى استخدام القوة وليس الدبلوماسية فى حل المشاكل الدولية. فقد كانت الأزمة بسبب تفكك يوغسلافيا قبل عشر سنوات وبسبب الصراعات بين العناصر المختلفة التى كانت يوماً ما تشكل كيانا اسمه "جمهورية يوغوسلافيا" . كانت البوسنة والهرسك أحد أجزاء يوغسلافيا السابقة حيث يقوم الكروات بذبح الصربيين والصربيون يذبحون الكروات والمسلمين. وبعد هجوم صربى فظيع على مدينة سريبرينيشيا، قامت الولايات المتحدة بقصف بعض المواقع الصربية ثم بدأت مفاوضات فى أوسلو (١٩٩٥) أوقفت التقاتل وقسمت البوسنة والهرسك إلى كيانين للكروات والصربيين.

لكن اتفاق أوسلو فشل فى حل مشكلة جزء آخر من يوغوسلافيا السابقة هو إقليم كوسوفو الذى كان (بأغلبيته الألبانية وأقليته الصربية) يطالب بالاستقلال عن صربيا. هنا قام الرئيس الصربى ميلوسيفيتش بشن هجوم وحشى على الإقليم مما أدى إلى مقتل ألفين وأجبر مئات الألوف على الفرار حيث صاروا لاجئين.

والتقى تجمع دولى فى رامولیه بفرنسا كان من المفترض أنه يحاول حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية. لكنه قدم شروطاً يعرف أن يوغسلافيا لن توافق عليها. وكانت الشروط أن يسيطر حلف شمال الأطلنطى NATO على كل كوسوفو

وأن تقوم قواته باحتلال بقية يوغوسلافيا. وفى ٢٣ مارس عام ١٩٩٩، ورد "التجمع الوطنى الصربى" باقتراح مضاد يرفض احتلال الناتو ويطالب بإقامة مفاوضات "للوصول إلى اتفاق سياسى يقضى بحصول إقليم كوسوفو على حكم ذاتى واسع المدى... ."

تم تجاهل الاقتراح الصربى بل ، لم يُنشر فى الصحف الكبرى بالولايات المتحدة ، وفى اليوم التالى، قامت قوات الناتو (معظمها من القوات الأمريكية) ببدء قصف يوغوسلافيا. وزعمت الحكومة الأمريكية أن القصف كان من أجل وقف عمليات "التطهير العرقى" فى كوسوفو ، أى إجبار الألبانيين على الخروج من الإقليم عن طريق التخويف أو القتل. وبعد أسبوعين من القصف، نشرت صحيفة نيويورك تايمز فى ٥ إبريل عام ١٩٩٩ أن "أكثر من ٣٥٠.٠٠٠ تركوا كوسوفو ، منذ ٢٤ مارس." بعد شهرين، وكان القصف ما يزال دائراً، ارتفع العدد إلى ٨٠٠.٠٠٠ كان من الواضح أن الهدف من قصف يوغوسلافيا، ولاسيما العاصمة بلجراد، هو الإطاحة بالرئيس ميلوسيفيتش. وقد أدى القصف إلى مقتل عدد كبير غير معروف من المدنيين.

وعندما تم الوصول إلى توقيع اتفاق سلام فى ٣ يونيو من عام ١٩٩٩، لم يكن إلا توفيقاً بين اتفاق راموليه (فرنسا) الذى كانت قد رفضته يوغوسلافيا وبين الاقتراح الذى قدمه التجمع القومى الصربى الذى لم تحاول إدارة كلينتون أخذه بجدية. وفى كتابه **النزعة الإنسانية العسكرية الجديدة The New Military Humanism** يرصد نعوم **تشومسكى** التفاصيل الكاملة لما حدث فى ذلك الربيع وخلص إلى ما يلى: "إن النتيجة التى تم التوصل إليها فى ٣ يونيو تعنى أنه كان من الممكن انتهاج المبادرات الدبلوماسية فى ٢٣ مارس، الأمر الذى كان يجنبنا المأساة الفظيعة التى وقعت... ." لكن كان من الواضح أن إدارة كلينتون، شأنها شأن الإدارات السابقة (ترومان فى كوريا وجونسون فى فيتنام وبوش فى حرب الخليج)، اختارت الحلول العسكرية وفضلتها على الطرق الدبلوماسية المتاحة.

ما لبث البرنامج الاقتصادى، الذى أعلن كلينتون أنه برنامج خلق فرص العمل، أن غَيّر من مساره لكى يعمل على خفض العجز فى الميزانية الذى وصل فى عهدى ريجان وبوش إلى أربعة آلاف مليار دولار. وكان معنى ذلك عدم وجود برنامج جرىء عن الصحة العامة والتعليم ورعاية الأطفال والإسكان والبيئة والفنون أو برامج توفير فرص للعمل. كان ذلك فى وقت يعانى ربع أطفال البلاد من الفقر ويعيش فيه المشردون فى شوارع المدن الكبرى ، ولا تستطيع النساء الاهتمام كما ينبغى بعملهن بسبب أن الدولة لا توفر دور رعاية لأطفال الأمهات العاملات. كان ذلك أيضاً فى وقت يشهد فيه هواء البلاد وماء الشرب فيها تلوثاً كبيراً.

من المعروف أن الولايات المتحدة هى أغنى بلد فى العالم ويسكنها ٥٪ فقط من سكان العالم. ولكن هذه النسبة الصغيرة تستهلك ٣٠٪ مما ينتجه العالم. ويستفيد من هذا أغنى الأغنياء (١٪ من سكان أمريكا) الذين شهدوا ثرواتهم تتضاعف منذ أواخر السبعينيات. ونتيجة للتغيرات التى لحقت بنظام الضرائب، زادت ثروة أغنى الأغنياء (١٪ من السكان) بما يزيد على ألف مليار دولار، وأصبحت هذه النسبة الصغيرة جداً من السكان تمتلك ٤٠٪ من ثروة البلاد.

ووفقاً لمجلة البيزنس الشهيرة "فوربيس"، كانت أغنى ٤٠٠ أسرة فى البلاد تمتلك ٩٢ مليار دولار فى عام ١٩٨٢ وبعد ثلاثة عشر عاما، قفز هذا الرقم إلى ٤٨٠ مليار دولار. كان هذا فى الوقت الذى هبطت فيه أجور العمال بنسبة ١٥٪. وعندما يقول قائل إن الاقتصاد الأمريكى يتمتع بصحة طيبة، فلابد أنه ينظر إلى الأثرياء من السكان. لأنه حتى منتصف التسعينيات كان هناك ٥٠ مليون مواطن أمريكى يعيشون دون تأمين صحى ، وأطفال رضع يموتون بسبب المرض وسوء التغذية بمعدل أكبر مما هو موجود فى أيّة دولة صناعية أخرى. فى الوقت ذاته، كانت هناك الميزانيات الضخمة للمؤسسة العسكرية. أما الذين يؤدون خدمات إنسانية حيوية، كالعاملين فى مجالات الصحة والتعليم، فكانوا يكافحون من أجل العيش بالكاد. لقد كانت حكومة الولايات المتحدة تترك شعبها تحت رحمة "السوق الحرة" متناسية العواقب الوخيمة لمثل هذه

السياسة فى عشرينيات القرن الماضى. إن "السوق" لا تبالى بالبيئة ولا تهتم بالفنون كما أنها تركت كثيراً من الأمريكيين دون توفير احتياجاتهم الأساسية ولاسيما السكن. ففى عهد ريجان، انخفض عدد الوحدات السكنية المدعومة من ٤٠٠.٠٠٠ إلى ٤٠.٠٠٠ وحدة. أما فى عهد كلينتون، فقد أُلغى هذا البرنامج كلية!

وعلى الرغم من وعد كلينتون، فى خطابه الافتتاحى لفترة رئاسته الثانية، بإقامة "حكومة جديدة"، فإن إدارته لم تقدم برنامجاً جريئاً. فعلى سبيل المثال، رغم أن استطلاعات الرأى فى الثمانينيات والتسعينيات كانت تشير إلى أن الأمريكيين يؤيدون برنامجاً للرعاية الصحية المجانية تحت إشراف الخزانة العامة، فإن كلينتون لم يؤيد هذا، بل وضع زوجته هيلارى على رأس لجنة قدمت تقريراً فى أكثر من ألف صفحة لم يقدم حلاً لهذه المشكلة التى تتلخص فى الآتى: كيف يحصل كل أمريكى على رعاية صحية بعيداً عن تدخلات شركات التأمين الصحى التى لا يهمها سوى الربح.

كان هناك مصدران يمكن من خلال أيهما أن تستطيع الإدارة الأمريكية - لو أرادت - أن تقوم ببرنامج ضخم بهدف إعادة هيكلة اجتماعية فى البلاد. المصدر الأول يتمثل فى تخفيض الميزانية العسكرية. كان رندول فورسبيرج، خبير الإنفاق العسكرى، قد اقترح فى أثناء الحملة الانتخابية لرئاسة البيت الأبيض عام ١٩٩٢ أن "ميزانية عسكرية مقدارها ٦٠ مليار دولار كفيلة، فى خلال عدة سنوات، أن تنزع الطابع العسكرى عن السياسة الخارجية الأمريكية..." غير أن الميزانية العسكرية استمرت فى التزايد حتى وصلت بنهاية عهد كلينتون إلى ٣٠٠ مليار دولار سنوياً.

إن التخفيض الجذرى للميزانية العسكرية يتطلب إدانة الحرب والتخلى عنها وسحب كافة القواعد العسكرية من مختلف بلاد العالم، كما يتطلب أيضاً القبول بمبدأ إدانة الحروب المنصوص عليه فى ميثاق الأمم المتحدة. إنه يتطلب العمل على تلبية الرغبة البشرية فى العيش فى سلام. إن قبول الرأى العام بمثل هذا التغير يقوم على حجة بسيطة لكنها قوية من الناحية الأخلاقية. إن ضحايا الحرب فى عصرنا هم غالباً من المدنيين، أى أن الأطفال هم الذين يدفعون الثمن. نعم إن الحروب الحديثة تبدو

وكأنها ضد الأطفال. فلو أننا ـ نحن الأمريكيين ـ نظرنا إلى أطفال البلاد الأخرى على أن لهم حقاً فى الحياة كأطفالنا تماماً، فإن علينا أن نستخدم كل براعتنا فى سبيل الوصول إلى حلول غير عسكرية لمشاكل العالم.

أما المصدر الثانى لتغطية تكاليف إصلاح اجتماعى ، فهو ثروة الأقلية الصغيرة جداً (١٪ من الشعب) التى تمتلك ٤٠٪ من ثروة البلاد كلها. فمن المعروف أن هذه النسبة قد حققت مزيداً من الثروة فى الثمانينيات والتسعينيات ـ نتيجة تخفيضات الضرائب ـ تقدر بحوالى ألف مليار دولار. إن شيئاً مثل "ضريبة الثروة" ـ وهى شىء لم يصبح بعد سياسة قومية ـ بإمكانه استعادة هذه الزيادة بواقع مائة مليار دولار سنوياً على مدار عشر سنوات مثلاً. مع العلم بأن شيئاً كهذا لو حدث، فسيظل أصحاب هذه النسبة أغنى الأغنياء كما هم.

هذان المصدران ـ تخفيض الميزانية العسكرية وضريبة الثروة ـ كفيلان بأن يوفرا ميزانيات ضخمة من أجل توفير تأمين صحى كامل كما هو الحال فى كندا دون المرور على شركات التأمين الصحى المتربحة. إنهما كفيلان بتغطية برنامج يوفر فرص عمل كاملة، وبتطبيق قانون التوظيف لعام ١٩٤٦ الذى ألزم الحكومة الوطنية بخلق "فرص عمل مفيدة" لكل إنسان قادر على العمل وراغب فيه. وبدلاً من أن نوقع عقود الأسلحة، بإمكاننا أن نقدم هذه العقود للشركات غير الهادفة للربح ؛ لكى تقوم بتوظيف مَنْ يقومون ببناء البيوت وإنشاء وسائل المواصلات وتنقية الأنهار والبحيرات وتجميل المدن بحيث تصبح فى شكل طيب يحبب العيش فيها.

أما البديل لذلك فهو الاستمرار فيما نحن فيه، أى أن نترك المدن تشيخ وتزداد قبحاً ، ونجبر الريفيين على مواجهة الديون والإفلاس ، وألا نقدم فرص عمل للشباب بحيث يكون هناك جيش كبير من العاطلين اليائسين الذين يتحولون إلى الجريمة والمخدرات ويصبحون خطراً كبيرا على باقى السكان. دائماً ما تكون استجابة الحكومة لهذه العلامات من الغضب واليأس والتغريب متوقعة تماماً. والتاريخ شاهد على ذلك. وتتمثل هذه الاستجابة فى بناء المزيد من السجون والزج بالناس فيها وإعدام المزيد

منهم. وبهذا انتهت فترتا رئاسة كلينتون وهناك مليونا سجين وراء القضبان ، وهو عدد يفوق أى عدد للسجناء فى العالم ربما باستثناء الصين.

وعندما أعلنت الولايات المتحدة بوضوح عن نيتها فى قصف العراق تحت زعم أن العراق لم يكن يسمح بالتفتيش على ما أسماه المسئولون "أسلحة الدمار الشامل"، تحدثت مادلين أولبرايت وآخرون فى اجتماع بمدينة كولومبس بولاية أوهايو من أجل حشد مزيد من الرأى العام لعملية القصف. لكن شاباً، رغم منع الأسئلة، استطاع أن يقف ويفسد السيناريو المرسوم عندما سأل أولبرايت عن موقف الولايات المتحدة من الدول الحليفة لها ، والتى تمتلك بالفعل أسلحة دمار شامل. وكان واضحاً أن أولبريت قد أُخذت لدهشتها من السؤال وتلعثمت فى الإجابة عنه. وكان التليفزيون القومى يقوم ببث هذا اللقاء. وكان التلعثم والحرج على الهواء. وتأجلت خطة القصف. لكنها عادت بعد فترة قصيرة وسط تكتم إعلامى غريب.

وعندما قررت جامعة كاليفورنيا فى بيركلى منح مادلين أُلبرايت درجة الدكتوراه الفخرية عام ٢٠٠٠، كانت هناك احتجاجات كبيرة من الطلاب ، وكانت هناك لافتة مرفوعة كُتب عليها "مادلين أُلبريت مجرمة حرب." وما لبث أن تم إخراج المحتجين واللافتة المرفوعة من قاعة التكريم. وتصادف أن الطالبة التى وقع عليها الاختيار لتسلم ميدالية الشرف للجامعة وأن تلقى كلمة الطلاب كانت شابة فلسطينية تدعى فادية رفيدى. وكان برنامج التكريم قد وضعها فى آخر الحفل بحيث تستطيع مادلين أُولبرايت أن تلقى كلمتها وتنصرف دون مشاكل، لكن الطالبة أصرت أن تناقش دفاع أُلبريت عن العقوبات المفروضة على العراق. قالت إنه لم يكن من المسموح نقل الإمدادات الطبية إلى العراق مما تسبب فى وفاة مئات الآلاف من الأطفال العراقيين. وبعد إقرارها بأن صدام حسين كان ديكتاتورياً وحشياً، وقالت:

> **لكنه عندما كان يستخدم الغازات السامة لقتل الأكراد، كان يحصل عليها من الولايات المتحدة التى تصنعها فى روشيستر بنيويورك. وعندما خاض حرباً طويلة ضد إيران، كانت**

المساعدات الضخمة تأتيه من جهاز المخابرات الأمريكية ، وهى الحرب التى مات فيها أكثر من مليون فرد. فلما انقضت حاجة الأمريكيين منه، بدأوا فى فرض العقوبات الاقتصادية على شعبه، يجب أن توجه العقوبات إلى الحكومات وليس إلى الشعوب.

وفى عام ١٩٩٨ قام ٧٠٠٠ فرد من مختلف أنحاء البلاد بالسفر إلى فورت بيننج بولاية جورجيا حيث تقع المدرسة العسكرية التى شارك المتخرجون منها، بعد تدريبات محددة وبعضهم من بلاد أخرى، فى فظائع كبيرة فى بلاد أمريكا اللاتينية وغيرها. لقد سافروا إلى هناك للاحتجاج على وجود هذه المدرسة. وألقى البوليس القبض على بعضهم وقدموا للمحاكمة حيث حكمت على بعضهم بمدد متفاوتة فى السجن . ومن المفارقات أن القاضى الفيدرالى الذى أصدر أحكام السجن (روبرت إليوت) هو نفس القاضى الذى برأ ساحة الضابط وليم كالى Calley الذى أشرف على مذبحة ماى لاى الشهيرة فى فيتنام!

تأثرت الثقافة الأمريكية كثيراً بالحركات السياسية والاجتماعية فى الستينيات على نحو يصعب التقليل من شأنه. لقد أصبح هناك وعى جديد وعنيد لا تخطئه عين. تجلى هذا الوعى الجديد، من وقت لآخر، فى السينما والتلفزيون وفى الموسيقى. كان هذا الوعى الجديد يقول إن النساء تستحق حقوقاً مساوية لحقوق الرجال ، وأن العلاقات الجنسية شئ يخص الأفراد أنفسهم ، وأن الفجوة المتزايدة بين الأغنياء والفقراء تجعل من "الديمقراطية" كلمة كاذبة. ورغم هذا الوعى كانت العنصرية لا تزال متغلغلة فى المجتمع الأمريكى والدليل هو استمرار البوليس فى وحشيته ضد الملونين ومعدلات الوفيات العالية بين أطفال الملونين وارتفاع معدلات الجريمة والسجن. لكن لا شك أن البلاد صارت أكثر تنوعاً ، وانتشر الزواج بين الأجناس المختلفة حتى بات من المتوقع أن يكون عدد الملونين من الأمريكيين مساوياً لعدد البيض بحلول العام ٢٠٥٠ .

وفى عام ١٩٩٥ سافر مليون شخص من مختلف أرجاء البلاد إلى واشنطن دى سى فيما عُرف بمسيرة المليون شخص لكى يخبروا قادة الأمة أنهم عازمون على أن

يكونوا قوة تعمل على التغيير. لم يكن لهذه المسيرة برنامج محدد، لكنها كانت تعبيراً عن الاتحاد والتضامن. وفى صيف ١٩٩٨ اجتمع ألفان من الأفرو- أمريكيين فى شيكاغو لتأسيس "المؤتمر الراديكالى الأسود." وفى العام التالى، توقف أعضاء اتحاد "ويست كوست لونج شورمان" عن العمل لمدة ثمانى ساعات احتجاجاً على الحكم بإعدام موميا أبو جمال. كان أبو جمال صحفياً محترماً تعرض للمحاكمة وصدر ضده الحكم بالإعدام فى ظروف تنبىء عن أن لونه وراديكاليته، فضلاً عن نقده الدائم لبوليس فيلادلفيا، كانت من أسباب الحكم عليه بالإعدام.

وربما كانت المحاولة الكبرى لكشف حقيقة هيمنة الشركات والمؤسسات الاقتصادية العملاقة على حياة البشر أمام الأمريكيين والعالم قد تمثلت فى التجمع العظيم للمتظاهرين فى سياتل بولاية واشنطن فى أواخر عام ١٩٩٩ ، كان قد تم اختيار سياتل مكانًا لانعقاد اجتماع أعضاء منظمة التجارة العالمية وممثلى أغنى المؤسسات والشركات فى العالم وأقواها لوضع خطط تضمن بقاء الثروة والسلطة فى أيديهم ، ولضمان انتشار الرأسمالية عبر الحدود القومية فى كل أرجاء العالم. تجمع عشرات الآلاف من البشر فى سياتل من أجل الاحتجاج على خطط منظمة التجارة العالمية لتوقيع اتفاقيات "التجارة الحرة"، حيث رأى المتظاهرون أن ذلك يعنى حرية الشركات الكبرى فى أن تجوب الكرة الأرضية بحثاً عن الأيدى العاملة الرخيصة وعن مناطق ليس بها قوانين رادعة فيما يتعلق بتلويث سياساتها الصناعية للبيئة.

وقد كانت القضايا الدائرة حول "التجارة الحرة" شديدة التعقيد، لكن فكرة بسيطة وحّدت كل الذين جاءوا إلى سياتل لمعارضة منظمة التجارة العالمية. كان مؤدى هذه الفكرة أنه يجب ألا تتم التضحية بالصحة وبحرية البشر العاديين فى كل أنحاء العالم لصالح الشركات الكبرى وأرباحها. وكانت آلاف المنظمات من تسعين دولة، تمثل النقابات العمالية والجماعات البيئية والجماعات الدينية والمزارعين والعمال والجماعات النسوية، قد وقّعت على بيان يطالب الحكومات بوقف توسع منظمة التجارة العالمية. وكانت فى سياتل مجموعة من التحالفات الواضحة ؛ حيث اتحد عمال الصُلب مع

البيئيين وعمال الورش الميكانيكية مع الناشطين فى مجال حقوق الحيوانات. وانضم المزارعون إلى مسيرة عمالية ضخمة تضم ٤٠,٠٠٠ من العمال فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٩٩ .

وركزت الصحافة على القلة من المتظاهرين الذين حطموا النوافذ، لكن غالبية المتظاهرين فى سياتل كانوا مسالمين، وكان هؤلاء مَنْ هاجمهم البوليس بالغاز المسيل للدموع وألقى القبض على مئات منهم. ورغم الزج بمئات المتظاهرين فى السجون، استمرت المظاهرات وتصدرت أخبارها النشرات الإخبارية فى كل أرجاء العالم. وكان من الواضح أن المتظاهرين سببوا إزعاجاً شديداً للاجتماع الرسمى لأعضاء منظمة التجارة العالمية ، وظهر انقسام كبير بين الدول الصناعية ودول العالم الثالث. وجاء وصف جون نيكولس فى "ذا بروجريسف" كما يلى:

> **فى حين تميزت الجلسات الرسمية لمنظمة التجارة العالمية بانقسامات عميقة بين وفود دول الشمال ودول الجنوب، كان هناك اتحاد غير مسبوق بين الشمال والجنوب على مستوى الشارع. فقد جاء المزارعون من أرجاء العالم المختلفة إلى سياتل معاً... . وبعد تنظيم أحداث تناولت تأثير العولمة فى النساء فى العالم الثالث، سارت أفواج النساء من أفريقيا وأمريكا اللاتينية والهند وأوروبا والولايات المتحدة معاً متشابكات الأذرع فى شوارع وسط المدينة فى سياتل.**

وقد تأثر اجتماع القمة لمنظمة التجارة العالمية بهذه المظاهرات تأثراً كبيراً، وانهارت المحادثات نتيجة لذلك. وكان هذا دليلاً واضحاً على قدرة المواطنين المنظمين على تحدى أكبر وأقوى الشركات والهيئات الاقتصادية العملاقة فى العالم. وقال مايك برانان : إن التضامن الذى نحلم به جميعاً كان يملأ الهواء فى سياتل وتمثل فى هتاف الناس وغنائهم ووقوفهم فى وجه رجال البوليس ومنظمة التجارة العالمية، حيث ملك الناس الشوارع فى ذلك الوقت، وكان ذلك درساً لنا كما هو لأمريكا .

وتصادف قيام مظاهرات سياتل مع حركة متنامية فى البلاد ضد الأحوال المزرية لعمال دول العالم الثالث من رجال ونساء وأطفال يعملون فى الشركات الأمريكية. وبعد شهر من مظاهرات سياتل، كتبت صحيفة نيويورك تايمز:

> **أدى ضغط الطلاب الجامعيين والمناهضين للأحوال المزرية للعمال ببعض المصانع التى تتعامل مع الشركات العملاقة مثل "نايكى" و "جاب" أن تخفض من معدلات عمالة الأطفال ، وأن تستخدم موادً كيماوية أقل خطورة ، وأن تطلب عمالاً أقل للعمل لمدة ٨٠ ساعة أسبوعياً ـ هذا حسب ما قالت به جماعات تراقب أداء هذه المصانع. كانت مشكلة الأحوال فى هذه المصانع تتصدر احتجاجات الشهر الماضى فى سياتل التى طالبت بأن تعاقب الاتفاقات التجارية الدول التى تسمح بانتهاكات الحدود الدنيا لحقوق العمال. إن كثيرين من المديرين التنفيذيين للشركات يعترفون بأن جهود الحركة المناهضة للأحوال المزرية للعمال بدأت تؤتى ثمارها.**

وقد كانت سياتل الحلقة الأولى من سلسلة من التجمعات الدولية للنقابات والطلاب والمحافظين على البيئة تناهض الهيمنة المتزايدة على الاقتصاد العالمى من قبل الشركات الاقتصادية العملاقة. وفى العام التالى لمظاهرات سياتل، أخذ المتظاهرون يلاحقون أى اجتماع لمنظمة التجارة العالمية: فى واشنطن دى سى وفيلادلفيا ودافوس وسويسرا ولوس أنجيليس وبراغ.

ولم يستطع البنك الدولى وصندوق النقد الدولى أن يتجاهلا هذه الحركة الاحتجاجية، حيث بدأت الهيئتان تعلنان عن اهتمامهما بقضايا البيئة وأحوال العاملين فيهما. ولم يكن واضحاً إذا ما كانت الهيئتان الكبيرتان جادتين فى ذلك ولم يكن واضحاً إذا ما كان كلامهما سيؤدى إلى تغييرات حقيقية. لكن الشىء الذى لا شك فيه

أنه لم يعد من الممكن تجاهل غضب المحتجين وسخطهم ، والناقدين لمنظمة التجارة العالمية والهيئات الاقتصادية العِملاقة.

والسؤال الآن: هل من الممكن أن تتلاقى خيوط الاحتجاج والمقاومة، فى السياسة والعمل والثقافة معاً فى هذا القرن الجديد وهذه الألفية الجديدة، بحيث يتحقق وعد إعلان الاستقلال فيما يتعلق بالحقوق المتساوية فى الحياة والحرية ونشدان السعادة؟ لا أحد يملك التنبُّؤ بالإجابة. كل ما بإمكان المرء أن يفعله هو أن يتصرف بناء على احتمال حدوث ذلك وهو على علم بأن اللافعل كفيل بأن يجعل أى تنبُّؤ شيئاً لا يبعث على التفاؤل.

ولو فُرض أن يكون للديمقراطية أى معنى، ولو كان لها أن تتجاوز حدود الرأسمالية والقومية، فإن هذا، إذا اتخذنا التاريخ مرشداً ودليلاً، لن يأتى من فوق. لكنه سوف يأتى من خلال حركات المواطنين وتعليمهم وتنظيمهم وتحريضهم على الإضراب والمقاطعة والتظاهر بما يهدد استقرار أولئك الذين يملكون السلطة.

الفصل الرابع والعشرون

الثورة القادمة لحراس النظام

عنوان هذا الفصل ليس تنبُّؤًا من جانبى. إنه أمل سأشرح تفاصيله بعد قليل. إن العنوان الفرعى لهذا الكتاب ليس واضحاً تماماً، فعبارة "تاريخ شعبى" تعِد بما لا يستطيع شخص واحد أن يقوم به. كما أنّ هذا النوع من التاريخ يعتبر الأصعب فى الإمساك به. ورغم كل الحدود والقيود، فأنا أسميه كذلك: إنه تاريخ لا يحترم الحكومات، لكنه يجل كثيراً الحركات التى قام بها الشعب فى سبيل المقاومة.

ومثل هذا النوع من التاريخ متحيز بطبيعته، لأنه يتكئ على اتجاه محدد. لكن هذا لا يزعجنى لأن الجبل المصنوع من كتب التاريخ الذى نقف تحته يتكئ بكل ثقله على الاتجاه الآخر ، ويجل الحكومات والقادة السياسيين إجلالا كبيراً بنفس القدر الذى لا يحترم به حركات الشعب ومقاومته. ومن ثم فإننا فى حاجة إلى قوة مضادة تستطيع أن تتجنب الوقوع فى براثن الإذعان والتسليم.

لقد تركزت كل تواريخ هذه البلاد حول الآباء المؤسسين. والرؤساء يعولون على قدرة المواطن العادى على اتخاذ الفعل. مثل هذه التواريخ تكرس لفكرة أن علينا، فى أوقات الشدة والأزمات، أن نتطلع إلى شخص ما يأتى لإنقاذنا: تمثل هذا الشخص فى الآباء المؤسسين فى أثناء فترة الثورة ، وفى لنكولن فى أزمة العبودية ، وفى روزفلت إبان الأزمة الاقتصادية ، وفى كارتر إبان أزمة فيتنام وفضيحة ووترجيت. كما تقول كتب هذه التواريخ إنه باستثناء هذه الأزمات، يكون كل شئ على ما يرام وأنه يكفينا أن نعود بعد كل أزمة إلى هذه الحالة الطبيعية. وتعلمنا تلك الكتب أن أسمى أفعال

المواطنة هو الاختيار من بين المنقذين المخَلّصين ، وذلك عن طريق الذهاب إلى صندوق الانتخابات كل أربع سنوات للمفاضلة بين اثنين من الذكور البيض الأنجلو-سكسونيين الأثرياء ، يتمتع كل منهما بشخصية مسالمة ويحمل آراء تقليدية.

ولم تقتصر فكرة المنقذ على مجال السياسة فقط، بل ترسخت فى بناء الثقافة كله. وقد تعلمنا أن ننظر إلى النجوم والقادة والخبراء فى كل مجال متنازلين عن قوتنا ومقللين من قدرتنا ومتناسين أنفسنا. غير أن الأمريكيين، من وقت لآخر، يرفضون هذه الفكرة ويثورون ضدها.

لقد تم احتواء كل حركات التمرد التى قامت حتى الآن، فالنظام الأمريكى من أكثر النظم فى تاريخ العالم القادرة على التحكم، فهى دولة غنية بمواردها الطبيعية ومهاراتها وقوتها العاملة ، وتستطيع أن توزع ثروة قليلة على مواطنيها بحيث ترضى غالبيتهم ويقتصر السخط على أقلية مزعجة. إنها دولة غاية فى القوة والاتساع ومُرضية لكثير من مواطنيها وتستطيع أن تتحمل منح الحرية فى السخط والغضب للقلة غير الراضية.

وليس هناك نظام كهذا النظام يستطيع أن يفرض سيطرته على البلاد ويوفر كل هذه الفرص للعمل وهذه المرونة فى التنقل من وظيفة لأخرى ويوفر المكافآت للمرضى عنهم وجوائز اليانصيب! إنه نظام يستطيع أن يتحكم فى زمام الأمور من خلال نظام التصويت وظروف العمل والكنيسة والأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام. ويستطيع كذلك أن يمتص المعارضة عن طريق بعض الإصلاحات الخادعة وأن يعزل الأشخاص بعضهم عن بعض ثم يقوم بخلق شعور وطنى قوى.

والجدير بالذكر أن نسبة واحد بالمائة فقط من الشعب يملك ثلث الثروة، وباقى الثروة موزع على التسعة والتسعين بالمائة الباقية بطريقة تجعلهم فى صراع دائم ، مثل الصراع بين أصحاب الأملاك الصغيرة ضد من لا يملكون، والسود ضد البيض، والسكان الأصليين ضد الوافدين، والمثقفين والمهاريين ضد الأميين. هذه الجماعات

تبغض بعضها البعض وتحارب بعضها البعض بعنف وقسوة لإخفاء وضعهم المخزى باعتبارهم يحصلون على فتات الدولة شديدة الثراء.

وفى ظل هذه المعركة المرة اليائسة للحصول على الموارد النادرة التى تتحكم فيها الصفوة الغنية، فإن لى الحرية أن أجمع نسبة التسعة والتسعين بالمائة هذه تحت مسمى "الشعب". والتاريخ الذى أحاول شرحه يعبر عن مصالحهم المشتركة والمهملة. وهذه محاولة منى للتركيز على أشكال المشاركة التى تتم بينهم لإعلان العداء العميق مع مصالح الواحد بالمائة المتميزين، وهو العداء الذى حاولت حكومات الولايات المتحدة والصفوة الغنية المتحالفة معها - من الآباء المؤسسين إلى الآن - منع حدوثه.

كان ماديسون يخشى الشقاق بين الأغلبية ، وكان يأمل أن يستطيع الدستور الجديد التحكم فى ذلك ، وقام هو ورفاقه بوضع عبارات فى مقدمة الدستور من قبيل: "نحن الشعب...." متظاهراً بأن الحكومة الجديدة تقف بجانب الجميع. وكان يأمل أن تُقبل هذه الخرافة بوصفها حقيقة وأن تضمن تحقيق "الهدوء الداخلى". ولكن التوتر ظل قائماً لأجيال متعاقبة بمساعدة كل الرموز اللفظية والمادية المتضامنة مثل العَلَم والوطنية والديمقراطية والدفاع الوطنى والمصالح الوطنية والأمن الوطنى. فالشعارات حُفرت فى أرض ثقافة الشعب الأمريكى مثل دائرة من العربات المغطاة فى السهول الغربية وفى داخل الدائرة هناك الأمريكى الذى يتمتع بالامتيازات التى تجعله يستطيع أن يطلق النار على الأعداء فى الخارج. والهنود الحمر والسود والأجانب غير مسموح لهم بالتواجد داخل تلك الدائرة، ومديرو الحافلة يراقبون من بعيد ومن مكان آمن. وعند انتهاء المعركة وامتلاء الساحة بالقتلى من كلا الجانبين يقومون هم بالاستيلاء على الأرض والترتيب لحملة أخرى فى منطقة جديدة! غير أن هذا النظام لم يعمل بكفاءة كاملة، فالثورة من جهة والدستور من جهة أخرى بمحاولاتهما استعادة الهدوء من خلال احتواء الغضب الطبقى منذ الحقبة الاستعمارية - فى حين يستعبدُ البيضُ السودَ ويبيدون أو يشردون الهنود الحمر - لم تمنح النظام الفرصة للنجاح الكامل.

وبعد انتهاء الحرب الأهلية، ظهرت تحالفات كثيرة بين الصفوة من الشمال والجنوب. ولكن كان هذا فى ظل وجود صراعات طبقية فى الجنوب بين البيض والسود ، وخلافات أخرى فى الشمال بين العمال الأصليين والمهاجرين وكذلك المزارعين المشتتين فى أرجاء البلاد. وفى الوقت الذى اتحد فيه النظام الرأسمالى مع الحكومة، ظهرت حركات تمرد كثيرة من خلال العمال ، وحركات رفض كثيرة من بين المزارعين.

ومع بداية القرن العشرين، كانت هناك مساع كثيرة لتهدئة السود والهنود واستخدام الانتخابات والحرب لامتصاص ثورات البيض وتهدئتها . ولكن هذا كله لم يكن كافيا لمنع الانتشار السريع للحركات الاشتراكية وحركات النضال العمالية قبل الحرب العالمية الأولى، ولم تستطع الحرب أو الازدهار الجزئى فى العشرينيات ، ولا التدمير الكبير للحركات الاشتراكية منع ظهور حركات ثورية جديدة وعودة ظهور الحركات العمالية فى الثلاثينيات بسبب الأزمة الاقتصادية.

وأوجدت الحرب العالمية الثانية نوعاً جديداً من الوحدة ، تبعتها محاولة ناجحة - فى ظل أجواء الحرب الباردة - من تهدئة الإحساس القوى بالثورة على مدى سنوات الحرب. ولكن على عكس المتوقع، ظهرت مع مطلع الستينيات، مجموعة من الناس يشعرون بالاضطهاد وبأنهم خارج دائرة الضوء مثل السود والنساء والسجناء والأمريكيون الأصليون. وكانت هذه كلها حركات مناهضة جديدة تهدد بالانتشار بصورة كبيرة فى مجتمع يشعر بخيبة الأمل من الحرب الفيتنامية وفضيحة ووترجيت.

وكانت استقالة نيكسون وترتيبات الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للاستقلال وانتخاب الرئيس كارتر تهدف جميعها إلى استعادة النظام لحالته الأولى. ولكن استعادة النظام للحالة القديمة لم يكن حلاً بسبب الشعور بعدم الوضوح ، والعزلة التى اشتدت فى عهد ريجان وبوش. وانتخاب الرئيس بيل كلينتون فى عام ١٩٩٢ حمل معه وعدا غامضا بالتغيير أقل بكثير من التوقعات.

ومع كل هذا القلق والانزعاج المستمر، كان من الأهمية بمكان أن تقوم الدولة بالجمع بين السياسيين والمسئولين لمحاولة الحفاظ على الوحدة الوطنية التاريخية من

خلال تمثيل الحكومة لكل الشعب وتأكيد أن العدو الحقيقى خارج البلاد وليس داخلها، أى أن الكوارث الاقتصادية والحرب عبارة عن أخطاء تعيسة أو حوادث تراجيدية وإصلاحها يمكن أن يتم بين الأفراد الذين تسببوا فيها. ومن المهم أيضا تأكيد أن هذه الوحدة المصطنعة بين أصحاب الامتيازات الكبيرة وأصحاب الامتيازات الضئيلة تعتبر الوحدة الوحيدة الموجودة ، وأن نسبة التسعة والتسعين بالمائة الباقية تظل منقسمة بطريقة لا نهائية ومنقلبة على بعضها البعض من أجل التنفيس عن غضبها!

يا لها من مهارة أن تفرض الضرائب على الطبقة المتوسطة من أجل التخفيف عن الطبقة الفقيرة! يا لها من مهارة أن تقوم ببعض الإصلاحات الخادعة بحيث لا تؤثر على ثروات الأغنياء. يا لها من مهارة أن يتم تدبير المليارات من الدولارات لصناعة حاملات الطائرات ولا يتم تدبير ما يكفى لتوفير الألبان الضرورية للأطفال! ويا لها من مهارة كبيرة أن تتم تلبية متطلبات السود والنساء بالمساواة بإعطائهم نسبة ضئيلة من المزايا ، ووضعهم فى منافسة مع كل فرد آخر للحصول على فرص عمل تعتبر شحيحة بسبب النظام غير العاقل. ويا لها من مهارة كبيرة أن يتم تحويل الأغلبية التى تشعر بالخوف والغضب لتصب غضبها على المنحرفين (الذين هم نتاج غياب العدالة الاقتصادية) ولا تتم محاولة حل المشكلة، ويتحول الانتباه عن السرقات الكبيرة للموارد القومية التى تتم فى ظل القانون بواسطة أشخاص فى مراكز قيادية .

ولكن مع كل هذا التحكم والإغراءات والامتيازات والخديعة والتضليل على مدى تاريخ البلاد، لم تستطع الدولة أن تحمى نفسها من الثورات، ففى كل مرة تشعر أنها حققت النجاح، تأتى الثورة من الأشخاص الذين تعتقد أنها استطاعت أن تغويهم وتخضعهم. فمثلا بالنسبة للسود بعد أن تملقهم القضاء بقراراته وكذلك الكونجرس، لم يعتبروا ذلك كافياً وقاموا بثورات كثيرة. والنساء كذلك بعد أن تم التودد لهن ثم إهمالهن، قمْن بالثورة. نفس الشىء ينطبق على الأمريكيين الأصليين (الهنود الحمر)، فبعد الاعتقاد بأنهم اختفوا، ظهروا مرة أخرى من جديد متحدين كل شىء. وبالنسبة للشباب، فعلى الرغم من الوعود بفرص عمل، تم التخلى عنهم. ولا ننسى أيضا أن

الطبقة العاملة التى اعتقدوا أنهم قاموا بتهدئتها بقوانين العمل الجديدة وتنظيم القوانين والتحكم فيهم من خلال اتحادات العمال، قامت بالإضرابات من جديد. حتى موظفى الحكومة الذين أخذوا على أنفسهم عهدا بعدم إفشاء الأسرار ،بدأوا فى إفشائها ، وكذلك رجال الكنيسة بدأوا فى التحول من الولاء والطاعة إلى التظاهر والاحتجاج.

ونحن نسترجع هذه الأحداث لنذكر بما تريد الدولة أن تمحوه من الذاكرة ، ونقصد به الطاقة الهائلة المكبوتة داخل المعدمين الذين يستطيعون الاعتراض على الأوضاع السيئة ويطالبون بالتغيير. ويهدف الكشف عن هذا التاريخ إلى إظهار الحافز الداخلى الموجود لدى كل البشر ، والذى يرغبون من خلاله فى تأكيد آدميتهم. وهذا يعنى كذلك أنه فى أشد أوقات التشاؤم، فإن هناك دائما سبيلا للمفاجآت.

ولكن تقدير الوعى الجماهيرى بأكثر مما يستحق ، والمبالغة فى إظهار الثورات ونجاحاتها يمكن أن يكون مضللا. فإن الحقيقة الثابتة فى العالم كله وليس فى الولايات المتحدة فقط هو أن زمام الأمور ما زال فى أيدى المسئولين الكبار ، وأن الحركات الشعبية على الرغم من قدرتها على الظهور مرات لا نهائية فإنها إما أن تُهزم أو تمتص أو تنحرف عن مسارها كما حدث مع الحركات الاشتراكية التى خانت الاشتراكية ، أو الحركات الوطنية التى انقلبت إلى دكتاتوريات جديدة.

لكن المؤكد أن جميع المؤرخين قاموا بالتقليل من شأن الثورات وبتضخيم أدوار رجال الدولة ، وبالتالى توليد الإحساس بالعجز بين المواطنين. وإذا نظرنا بتمعن إلى حركات المقاومة أو الثورات فسنجد أن الضمير الوطنى أو الإحساس بالظلم يختلف بين هؤلاء الناس ويتم أيضا التعبير عنه بطرق مختلفة. ففى ظل نظام يقوم على التهديد والقبضة القوية، نجد أن الناس لا يظهرون كل ما يعرفون وما يشعرون به إلا إذا استطاعوا بحاستهم العملية أن يظهروها دون خوف من القضاء عليهم.

إن التاريخ الذى يسرد حركات المقاومة الشعبية يقترح تعريفات جديدة لمفهوم القوة، فالمفاهيم التقليدية ترى أن من يمتلك القوة هو من يمتلك القوة العسكرية والثروة والتحكم فى الأيديولوجيا والتأثير على الثقافة ، وبالقياس على هذه المعايير فإن معظم الثورات الشهيرة لا تستطيع أن تستمر لأنها لا تملك كل هذا المقومات.

وعلى كل حال، فإن أى انتصار غير متوقع ـ حتى المؤقت منه ـ لأيّة حركة مقاومة أظهر ضعف هذه الحركات على الاستمرار. ففى ظل مجتمع متقدم لا تستطيع الدولة أن تستمر من غير ولاء الملايين وطاعتهم الذين تقدم لهم بعض المكافآت الصغيرة للمحافظة على استمرارية النظام ، مثل رجال الشرطة والجيش والفنيين وعمال الإنتاج والمحامين والأطباء وعمال النقل ورجال الإطفاء وعمال النظافة. هؤلاء من يطلق عليهم "الموظفون" وهم يُعَدّون إلى حد ما مميزين ، واستطاعت الدولة أن تؤثر فيهم بطريقة غير مباشرة ليبقوا على ولائهم. هؤلاء من نريد أن نطلق عليهم "حراس النظام" لأنهم يمثلون الحاجز بين الطبقة الفقيرة والطبقة العليا. ولو توقف هؤلاء الناس عن ولائهم وطاعتهم للدولة، فإن ذلك سيؤدى إلى سقوطها.

وهذا سيحدث، فى اعتقادى، عندما يشعر هؤلاء ـ من يحصلون على مزايا بسيطة لا توفر لهم القدر الكافى من الراحة ـ بأنهم مثل الحراس الذين يعملون فى السجون. سيحدث عندما يشعرون أن الدولة، على الرغم من منحهم هذه المزايا، تستطيع أن تتخلص منهم وتقتلهم لو تطلّب الأمر ذلك لتبقى مجريات الأمور فى يدها .

و لكن حتماً ستظهر حقائق جديدة بوضوح تؤدى إلى توقف هؤلاء عن الولاء لهذا النظام، هذه الحقائق تتمثل فى ظهور تكنولوجيا جديدة أو ظروف اقتصادية أو قيام حرب، ففى ظل عصر القنبلة الذرية سيكون من الصعب على حراس النظام ـ طبقة المثقفين وملاك المنازل ودافعى الضرائب والعمال المهرة والمتخصصين ـ أن يبقوا بمعزل عن المخاطر النفسية والبدنية التى يتعرض لها الفقراء والمجرمون والسود والأعداء فى الخارج.

إن عولمة النظام الاقتصادى وحركات اللاجئين والهجرة غير الشرعية جعلت من الصعب على الناس فى المجتمعات الصناعية المتقدمة أن يبقوا بمنأى عن الظروف القاسية من فقر ومرض يتعرض له سكان الدول الفقيرة فى العالم.

أصبحنا جميعاً رهائن للظروف الجديدة من تكنولوجيا واقتصاديات متقلبة وحروب غير مسيطر عليها وتسمم فى الماء والهواء على مستوى الكرة الأرضية. فالأسلحة النووية والإشعاعات غير المرئية والفوضى الاقتصادية لا تفرق بين مساجين وحراس ، والمسئولون لن يتحروا الدقة فى التمييز بين هؤلاء. فمن المواقف التى لا تنسى موقف الحكومة الأمريكية عندما علمت أن هناك مساجين أمريكيين فى نجازاكى وقد اتخذت قرارها بإلقاء القنبلة النووية بقولها: "إن الأهداف قد تم تحديدها من قبل ولن يتم تغييرها".

وهذا يزكى الشعور بعدم الراحة وعدم الأمان بين حراس النظام، فنحن نعلم أن الفقراء لا يشتركون فى التصويت فى الانتخابات ، وأنهم منعزلون عن النظام السياسى بسبب شعورهم بعدم الاهتمام ويقينهم بأنهم لن يستطيعوا أن يغيروا فيه شيئاً. هذه العزلة بدأت فى الانتشار بين الطبقات الأعلى من الفقيرة، أى بين العمال البيض ممن يُعَدّون لا فقراء ولا أغنياء ، ولكنهم يشعرون بالغضب النابع من عدم الإحساس بالأمان الاقتصادى ويشعرون بعدم الرضا عن وظائفهم ويشعرون بالقلق من جيرانهم وبالعداء للحكومة. فهم يربطون بين بعض العناصر من الحرب ضد العنصرية مع بعض العناصر من الوعى الطبقى والشعور بالاحتقار للطبقة الدنيا وعدم الثقة فى الطبقة العليا، وهذا يجعل من السهل السيطرة عليهم من أى اتجاه يمينى أو يسارى.

وفى العشرينيات كان هناك شقاق مماثل بين الطبقة المتوسطة وكان له اتجاهات عديدة لأن جماعة كو كلوكس كلان العنصرية استقطبت ملايين الأعضاء فى ذلك الوقت. وفى الثلاثينيات عمل الجناح اليسارى على تحريك هؤلاء الناس وهذه المشاعر إلى نقابات تجارية ونقابات للفلاحين وحركات اشتراكية مما عكس أن السنوات التالية تحمل تعبئة لمشاعر هذه الطبقة المتوسطة غير الراضية.

وكان عدم الشعور بالرضا حقيقة مؤكدة، فاستطلاعات الرأى فى أوائل السبعينيات أظهرت أن من ٧٠٪ إلى ٨٠٪ من الأمريكيين لا يثقون فى الحكومة أو الجيش أو المشروعات الاستثمارية. وهذا يعنى أن عدم الثقة تعدى حدود السود والفقراء والثوريين ، وأنه انتشر بين العمال المدربين وأصحاب الياقات البيضاء والمهاريين. وتُعَدّ هذه المرة الأولى فى تاريخ البلاد التى يحدث فيها إجماع بين الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة، أى المساجين والحراس، بوصفهم مُضَلَّلين من قِبل النظام.

كانت هناك مظاهر أخرى لذلك، مثل ازدياد معدل إدمان الكحوليات وزيادة معدلات الطلاق (من بين كل ثلاث زيجات تنتهى واحدة منها بالطلاق وارتفع المعدل بعد ذلك إلى اثنتين) كذلك معدلات العنف والجريمة والانهيار العصبى والأمراض النفسية والعقلية.

يتطلع ملايين الأشخاص إلى حلول لهذه المشكلات الخطيرة، يائسين من إحساسهم بالعجز والوحدة والإحباط ، وعزلتهم عن بقية الناس وعزلتهم عن العالم وعن عملهم وعن أنفسهم. فراحوا يعتنقون ديانات جديدة وينضمون إلى جماعات تتبنى فكرة : "الحل يأتى من الداخل" فى كل المجالات. وكأن الأمة كلها تواجه نقطة حرجة فى منتصف عمرها تتطلب مراجعة النفس من خلال الشك والاختبار الذاتى.

يأتى هذا كله فى وقت تشعر فيه الطبقة المتوسطة أنها غير مؤمَّنة مادياً، فالنظام، بطريقة ينقصها التعقل، مدفوع برغبة جامحة إلى تحقيق الربح فقط ، ويقوم ببناء ناطحات سحاب لشركات التأمين فى الوقت الذى تحتضر فيه المدن ، وينفق الملايين على أسلحة الدمار الشامل ولا شىء لبناء ملاعب للأطفال، ويدفع مرتبات باهظة لبعض الرجال الذين يقومون بأشياء خطيرة أو غير نافعة ، فى الوقت الذى يعطى فيه القليل للممثلين والموسيقيين والكتاب، فالرأسمالية لم تقدم شيئاً للطبقة الفقيرة وحاليا تواجه الفشل مع الطبقة المتوسطة.

إن تهديد البطالة الذى يعتبر شبحاً فى بيوت الفقراء امتد ليصل إلى بيوت أصحاب الياقات البيضاء، فالحصول على شهادة جامعية أصبح لا يمثل ضمانا

للحصول على وظيفة ، والنظام الذى لا يوفر فرص عمل للشباب يصبح فى مأزق حقيقى، إذا حدث ذلك مع شباب العائلات الفقيرة فإن المشكلة تكون تحت السيطرة، فهناك السجون! ولكن حدوث ذلك لأبناء الطبقة المتوسطة سيؤدى حتماً إلى مشاكل، فالفقراء معتادون على قلة الأموال والتعرض للضغوط ، ولكن فى السنوات الحالية دخلت الطبقة المتوسطة فى الدائرة فأصبحت تشعر بارتفاع الأسعار والضرائب.

وفى السبعينيات والثمانينيات وأوائل التسعينيات كان هناك خوف كبير ومزعج بسبب ازدياد معدلات الجريمة ، وستعرف سبب هذا الازدياد لو تجولت فى مدينة كبيرة حيث تجد التضاد بين الثراء والفقر وترى ثقافة الامتلاك والدعاية المسعورة. فهناك منافسة اقتصادية عاتية بين العنف والسرقة المشروعين من قبل المؤسسات والدولة والسرقة غير المشروعة من قبل الفقراء! وأغلب الجرائم جرائم سرقة، وأغلب المساجين من السود والفقراء الذين لم ينالوا قسطا كبيرا من التعليم ونصفهم كان عاطلاً عن العمل فى الشهر الذى سبق القبض عليه .

وأشهر الجرائم هى جرائم الشباب الفقير الذى يمثل إرهابا داخل المدن الكبيرة ؛ حيث يقوم الشباب المدمن اليائس بعمليات الهجوم والسرقة للطبقات المتوسطة وأحيانا بسرقة جيرانهم الفقراء، ففى مجتمع يتباين فيه نصيب كل فرد من الثروة والتعليم، يكون من الطبيعى وجود مشاعر الحقد والغضب الطبقى.

التساؤل الملح الآن هو: هل بناء سجون جديدة، كما زينت الدولة للطبقة الوسطى وجعلتها تقتنع بذلك، ما زال الحل الوحيد للقضاء على الجرائم بعد ازدياد معدلاتها؟ فالمحصلة النهائية من بناء السجون هو سلسلة جديدة من الجرائم والعقوبات. والحل الوحيد للوصول إلى الأمان والقضاء على الجرائم هو توفير فرص عمل للجميع . وهذا يتطلب تعديل الأولويات الوطنية وتغييراً شاملاً للنظام.

وفى العقود الحالية، أصبح هناك خوف جديد يتمثل فى مرض السرطان الذى بدأ فى التزايد، والأبحاث والتحاليل الطبية غير قادرة على التوصل لسببه. وما تم التوصل إليه أن كثيرا من الوفيات مؤخرا تحدث نتيجة للبيئة المسممة من جراء

الأبحاث العسكرية والجشع الصناعي. فماء الشرب والهواء وجزيئات التراب في المباني تُعَدّ ملوثة في مجتمع يتطلع إلى الربح والنمو ويهمل الأمن والسلامة للبشر. وظهر كذلك مرض جديد خطير هو الإيدز الذي انتشر بسرعة كبيرة بين الشواذ ومدمني المخدرات.

وقد شهدت أوائل التسعينيات سقوط الاشتراكية الكاذبة بسقوط الاتحاد السوفيتي، وشهدت كذلك عدم قدرة النظام الأمريكي على السيطرة على النظام وذلك بهروب رؤوس الأموال والتكنولوجيا من الولايات المتحدة. وأصبح من المستحيل السيطرة على الجرائم وعلى مرض السرطان والإيدز. وشهدت التسعينيات أيضا عدم السيطرة على الأسعار والضرائب والبطالة وازدياد التفكك الأسرى وتآكل المدن. كل ذلك لم يكن يخفى على الشعب الأمريكي.

فعدم الثقة في الحكومة الذي تم تناوله كثيراً في الآونة الأخيرة يأتي من إدراك بعض الحقائق التي قال عنها يوساريان أحد مقاتلي السلاح الجوي الأمريكي في قصة Catch-22 لأحد الأصدقاء الذي اتُّهم بإعطاء معلومات للعدو: "إن العدو هو أي فرد سوف يقوم بقتلك بغض النظر عن أي اتجاه يمثله ، ولا تحاول أن تنسى ذلك أبداً؛ لأنه كلما بقيت متذكراً ذلك، استطعت أن تعيش أكثر." وفي السطر التالي يقول: "ولكن كليفنجر Clevinger نسى ذلك. ومن ثم فهو ميت حالياً".

دعنا نتخيل أن أبناء الأمة اتحدوا للمرة الأولى في تاريخ البلاد من أجل تغيير جذري. هل سيترك المسئولون هدفهم الوحيد وهو التسلح من أجل التدخلات الخارجية لكي يقوموا بتوحيد الشعب مع الدولة للاشتراك في حرب جديدة؟ حاولت الدولة بالفعل أن تقوم بذلك في عام ١٩٩١ خلال الحرب على العراق ، لكن كما قال الشاعر الأمريكي الأسود جوون جوردن June Jordan : " إن ما حدث ليس إلا فرقعة لن تدوم طويلاً."

ومع عدم قدرة المؤسسة على حل المشكلات الاقتصادية الطاحنة في الداخل أو خلق صمام أمان لها في الخارج لتخفيف الاستياء الداخلي، ربما يكون الشعب الأمريكي على استعداد للمطالبة ليس فقط بقوانين إصلاحية أو بإعادة تنظيم لأوراق

اللعب أو إبرام صفقة جديدة ولكن لتغيير جذرى جديد. دعونا نكون مثاليين للحظة بحيث عندما نصبح واقعيين مرة أخرى، لا تكون "الواقعية" التى نعنيها من النوع الذى يساعد المؤسسة على تثبيط الأفعال التى نقوم بها ؛ لأن مثل هذه الواقعية تفضى بنا إلى نوع من التاريخ خال من الدهشة. دعونا نتخيل ما يمكن أن يتطلبه التغيير الجذرى منا جميعا.

يتطلب التغيير الجذرى نزع السلطات من أيدى من كان لهم الدور الكبير فى الوضع الحالى مثل الشركات العملاقة والمؤسسة العسكرية والمتعاونين السياسيين. يتطلب أيضا توحيد جهود الجماعات المحلية على مستوى البلاد كلها لإعادة بناء اقتصاد يقوم على الكفاءة والعدل بما يساعد على الإنتاج بطريقة تعاونية لأكثر متطلبات الشعب احتياجا. ولابد أن نبدأ بالبيئة المحيطة بنا وتتمثل فى الجيران وأماكن العمل. لابد من توفير عمل ما لكل شخص وإشراك بعض المجموعات التى تم إبعادها من قبل مثل الأطفال وكبار السن والمعوقين. فقد حان الوقت لاستخدام الطاقة الهائلة التى يمتلكها المجتمع بطريقة فعالة ، واستخدام المهارات والمواهب التى لم تكن مستخدمة من قبل. لابد أن يشارك الجميع فى بعض الأعمال الروتينية فى بعض ساعات اليوم وترك بقية اليوم للإبداع والترفيه ، وبالتالى إنتاج ما يكفى للتوزيع بالتساوى وكذلك توفير الضروريات الحياتية بالمجان لكل شخص مثل المأكل والسكن والرعاية الصحية والتعليم والمواصلات.

ربما تكمن المشكلة الكبرى فى تحقيق هذا بطريقة خالية من البيروقراطية المركزية ودون اللجوء إلى استخدام السجن والعقاب و ولكن باستخدام حوافز التعاون المشترك التى تنشأ بناء على رغبات الأفراد الداخلية. كانت الدولة تستخدم هذه الطريقة فى الماضى فى أوقات الحرب ، وكانت تستخدمها أيضا الحركات الاجتماعية. من خلال هذه الطريقة تصدر القرارات مجموعات عمل صغيرة من خلال الاتصال والتعاون المشترك فيما بينها، أى بطريقة اشتراكية تتجنب التراتب الطبقى للرأسمالية والدكتاتوريات الفظة التى كانت فى الماضى تحمل صفة "اشتراكية".

وبمرور الوقت، يصير ممكنا أن يقوم الأفراد فى المجتمعات المتحابة بخلق ثقافة جديدة ومتنوعة وسلمية ؛ حيث يكون فى استطاعتهم إظهار كل أنواع التعبيرات الفردية والجماعية. وسيتمكن كل فريق من الرجال والنساء البيض والسود وكبار السن والشباب والأطفال من أن يتباهى بإمكانياته المختلفة عن المجموعات الأخرى بشكل إيجابى وليس بغرض الهيمنة عليها. وسيساعد ذلك على ظهور قيم جديدة للتعاون والحرية يمكن أن تظهر فى العلاقات الجديدة بين الناس وفى تربية الأطفال.

ويتطلب القيام بكل هذا فى ظل نظام الولايات المتحدة الاستفادة من طاقات الحركات السابقة التى قام بها السود والعمال والأمريكيون الأصليون (الهنود الحمر) والشباب ، علاوة على طاقة جديدة لطبقة وسطى غاضبة. فالأفراد فى حاجة إلى أن يبدأوا بالسيطرة والتحكم فى بيئتهم التى يعيشون فيها ، مثل بيئة العمل والأسرة والمدرسة والمجتمع ، من خلال سلسلة من النضال ضد السلطة الغائبة بحيث تؤول السيطرة على هذه الأماكن إلى الذين يعيشون ويعملون فيها.

وسوف يتضمن هذا النضال التكتيكات التى استخدمت من قبل بواسطة الحركات الشعبية والاحتجاجات والمسيرات والمقاطعات والإضرابات والعصيان المدنى ؛ وذلك من أجل إعادة توزيع الثروة وإعادة هيكلة المؤسسات وإصلاح العلاقات بين الناس. مثل هذا ـ من خلال الموسيقى والأدب والدراما وكل الفنون وأماكن العمل ومن خلال كل مظاهر الحياة اليومية ـ سيؤدى إلى خلق نوع جديد من الثقافة يقوم على المشاركة والاحترام بما يكفل الراحة النفسية والسعادة للناس.

ستكون هناك عقبات وهزائم، ولكن عندما تكون هذه الحركة منتشرة فى مئات بل ألوف الأماكن فى البلاد، سيكون من الصعب إخمادها ؛ لأن حراس النظام أنفسهم الذين تعتمد عليهم الدولة لحمايتها سيكونون فى صفوف هذه الحركة. إنه نوع جديد من الثورة والنوع الوحيد، فى رأيى، الذى يمكن أن يحدث فى دولة مثل الولايات المتحدة. سيتطلب الأمر الكثير من التضحية والطاقة والالتزام والصبر. ولأنها عملية مستمرة، فلابد أن تبدأ دون أى تأخير ، وحتما ستصل فى النهاية إلى الرضا الذى وجده الجميع من خلال الروابط الحميمة التى ظهرت بين الجماعات التى تنشد هدفاً مشتركاً.

قد يأخذنا هذا بعيداً عن التاريخ الفعلى للولايات المتحدة إلى عالم الخيال. ولكن الأمر ليس هكذا تماماً. فهناك على الأقل لمحات من الماضى كانت تبشر باحتمالية حدوث ما كنا نتحدث عنه. ففى الستينيات والسبعينيات وللمرة الأولى فشلت المؤسسة فى إيجاد وحدة وطنية وشعور وطنى فى أثناء الحرب. وشهدت كذلك فيضاناً من التغيرات الثقافية لم تشهدها الدولة من قبل ، فى الجنس والعلاقات الشخصية والأسرة وهى أمور يصعب على مراكز السلطة العادية التحكم فيها . كما شهدت هذه الفترة تآكلا عاما للثقة الممنوحة لكثير من عناصر النظام الاقتصادى والسياسى. وفى كل وقت على مدى التاريخ كان الناس لا يعدمون وسيلة لمساعدة بعضهم البعض - حتى وسط ثقافة تقوم على المنافسة والعنف - حتى ولو لفترات قصيرة ، لكنهم كانوا يجدون متعة فى العمل والرفقة والنضال.

وتحتاج هذه الصورة المأمولة كثيراً من الكد والكفاح، لكنها صورة ملهمة. ثمة فرصة لهذه الحركة فى أن تنجح فيما لم يستطع النظام فعله وهو خلق تغييرات كبيرة بقليل من العنف. وذلك مستطاع لأنه كلما رأى ال ٩٩٪ من الشعب أنهم مشتركون فى الأهداف، أدرك سجناء النظام وحراسه أن لهم نفس الاحتياجات. وبذلك تزداد عزلة المؤسسة عن الشعب وتصبح غير فعالة. ستكون أسلحة النخبة، التى تتمثل فى الثروة والتحكم فى المعلومات، عديمة الجدوى فى مواجهة شعب صامد يمتلئ بالعزيمة. فخدام النظام سيرفضون العمل من أجل استمرار النظام القديم المميت ، وسيبدعون فى الاستفادة من الامتيازات - التى منحها لهم النظام القديم لشراء ولائهم - من أجل خلق نظام جديد.

سيستمر سجناء النظام فى الاحتجاج والتمرد كما حدث فى الماضى وبطرق لا يمكن التنبؤ بها وفى أوقات يصعب توقعها. والحقيقة الجديدة فى هذه الحقبة هى أن هناك فرصة أن ينضم حراس النظام إلى سجنائه. إننا - قراءً وكتاباً - نُعَدّ من حراس النظام، معظم الوقت. فلو فهمنا ذلك وتصرفنا بناء عليه، لن تكون الحياة أفضل لنا فقط، ولكن ربما ينعم أحفادنا وأحفاد أحفادنا بحياة مختلفة ورائعة.

الخامس والعشرون

انتخابات ٢٠٠٠ و"الحرب على الإرهاب"

عندما كان كلينتون ينهى فترة رئاسته الثانية، كان من الواضح أن المرشح الديمقراطى للرئاسة سيكون آل جور الرجل الذى خدم بوصفه نائبًا مخلصًا لكلينتون. واختار الحزب الجمهورى مرشحاً له فى انتخابات الرئاسة وهو حاكم تكساس جورج دبليو. بوش المعروف بصلاته ومصالحه مع شركات البترول وسجله الحافل بتطبيق حكم الإعدام على السجناء فى فترة توليه حكم تكساس.

ورغم أن بوش اتهم جور، فى أثناء الحملة الانتخابية، بالاحتكام إلى "حرب الطبقات"، فإن ترشيح جور ونائبه السيناتور جوزيف ليبرمان لم يمثل أى تهديد للأغنياء. فقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز فى صفحتها الأولى تقريراً عن ليبرمان تحت عنوان "ليبرمان فخور بتأييده للبيزنس." ومضت الجريدة تقدم بعض التفاصيل: كان محبوباً من قِبل شركة سيليكون فالى المعروفة بتقدمها التكنولوجى والصناعى ، ومن قِبل مجمع كينيكتكت الصناعى العسكرى الذى ساعده فى عقد صفقة قيمتها ٧,٥ مليار دولار.

ومن الممكن قياس درجة الاختلاف فى دعم الشركات لمرشحى الرئاسة إذا عرفنا أن حملة بوش الانتخابية جمعت تبرعات مقدارها ٢٢٠ مليون دولار مقابل ١٧٠ مليون دولار لحملة جور. لم يكن لدى بوش أو جور خطة لتوفير الرعاية الصحية القومية مجاناً ، أو لتخفيض نسبة إيجار المساكن الباهظة أو الاهتمام بالبيئة. كان المرشحان يؤيدان

عقوبة الإعدام ويسعيان لبناء المزيد من السجون. وكلاهما يؤيد الاستمرار فى إنشاء مؤسسة عسكرية ضخمة ، وفى استخدام الألغام الأرضية واستمرار العقوبات الاقتصادية على شعبى كوبا والعراق.

وكان هناك مرشح ثالث هو رالف نادر الذى جاءت سمعته القومية من نقده المستمر ، على مدار عقود ، لهيمنة الشركات الكبرى على اقتصاد البلاد. كان برنامجه الانتخابى شديد الاختلاف عن برنامجى بوش وجور، حيث كان يركز على الرعاية الصحية والتعليم والبيئة. ولكن حيل بينه وبين المناظرات التى كانت تبثها قنوات التليفزيون الحكومية. ولما لم تتبرع لحملته الانتخابية شركات كبرى، كانت التبرعات تأتيه من أفراد يؤمنون بأهمية برنامجه الانتخابى.

وفى ظل اتفاق الحزبين الرئيسيين فى البلاد حول القضايا الطبقية والحواجز التى تُرفع فى وجه أى مرشح عن أى حزب ثالث، كان من المتوقع أن نصف الأمريكيين، وخاصة أصحاب الدخول الدنيا، لن يذهبوا إلى صناديق الانتخاب لعدم تحمسهم لأى من المرشحين الديمقراطى والجمهورى. وقد تحدث صحفى إلى إحدى العاملات بمحطة للوقود وهى زوجة لعامل بناء. قالت: "لا أعتقد أنهم يفكرون فى أناس مثلنا... ربما اختلف الأمر لو كان هؤلاء يسكنون بيتاً متنقلاً من غرفتين." وقالت امرأة أفروأمريكية، تعمل مديرة فى سلسلة مطاعم ماكدونالدز نظير خمسة دولارات ونصف فى الساعة، عن بوش وجور: "أنا حتى لا أهتم بهذين الرجلين. وكل أصدقائى يفعلون مثلى. لن تتغير حياتى على يدى أى منهما."

واتضح بعد ذلك أن هذه الانتخابات كانت الأكثر عبثية فى تاريخ البلاد. فقد حصل جور على مئات الآلاف من الأصوات أكثر من بوش، لكن الدستور يطالب بأن يحدد الناخبون من الفائز فى كل ولاية على حدة. وتحدد أن يقوم ناخبو ولاية فلوريدا بتحديد الفائز فى الانتخابات. حدث هذا الاختلاف مرتين فى تاريخ الولايات المتحدة عامى ١٨٧٦ و١٨٨٨. تحدد إذن أن المرشح الذى يحصل على غالبية الأصوات فى ولاية فلوريدا سيكون من حقه الحصول على كل الأصوات فى الولاية ، ومن ثم يفوز

بالرئاسة. ووقع جدال حاد حول ما إذا كان بوش أو جور قد حصل على أصوات أكثر في ولاية فلوريدا. كان من الواضح أنه لم يتم فرز كثير من الأصوات خاصة في الأحياء التي يقطنها السود ، وأن كثيراً من صناديق الانتخابات تم إلغاؤها بحجة أنها غير لائقة من الناحية الفنية ، وأن كثيراً من العلامات التي وضعتها ماكينات التصويت على صناديق الانتخاب لم تكن واضحة.

وكان بوش يتمتع بما لم يتمتع به جور، فقد كان أخو بوش (جيب بوش) هو حاكم فلوريدا ، وكانت وزيرة الخارجية بولاية فلوريدا ـ الجمهورية كاثرين هاريس ـ تملك سلطة التصديق على من الذى حصل على أصوات أكثر فى فلوريدا ومن ثم يكون الفائز بالرئاسة. سارعت هاريس، فى ظل مواجهة مزاعم بتزييف الانتخابات، إلى إجراء عملية إعادة فرز جريئة للأصوات جعلت بوش فى المقدمة.

ونتج عن مناشدة للمحكمة العليا فى فلوريدا، التى يسيطر عليها الديمقراطيون، أن أمرت المحكمة كاثرين هاريس بعدم التصديق على من الفائز وبأن تستمر عملية إعادة فرز الأصوات. وقد حددت هاريس موعداً نهائياً للانتهاء من إعادة فرز الأصوات، وفى الوقت الذى كان ما يزال يدور فيه جدل كبير حول آلاف الصناديق، مضت هاريس وصدقت على فوز بوش بفارق ٥٣٧ صوتاً. وفى حين أعرب جور عن استعداده لتحدى التصديق وطالب بالاستمرار فى عملية فرز الأصوات حسب ما حكمت به المحكمة العليا بفلوريدا، سارع الحزب الجمهورى برفع الحالة إلى المحكمة الدستورية العليا للبلاد.

وانقسمت المحكمة الدستورية العليا نتيجة توجهات الأعضاء الأيديولوجية. فقام القضاة الخمسة المحافظون، بالرغم من موقفهم المحافظ من التدخل فى سلطات الولايات، بنقض حكم المحكمة العليا بفلوريدا ، وقالوا إن عملية إعادة فرز الأصوات انتهكت الدستور الذى يطالب بتوفير "حماية متساوية للقوانين" ولأنه كانت هناك معايير مختلفة فى مقاطعات فلوريدا. أما القضاة الأربعة الليبراليون فقد رأوا أن المحكمة الدستورية العليا للولايات ليس لها الحق فى التدخل فى أحكام المحكمة العليا بفلوريدا

وتفسيراتها لقوانين الولاية. وقال اثنان منهم بأنه فى حالة الفشل فى تحقيق معيار موحد فى فرز الأصوات، فإن العلاج يتمثل فى إجراء انتخابات جديدة فى فلوريدا وفق معيار موحد.

إن رفض المحكمة الدستورية العليا إعادة النظر فى الانتخابات يعنى أنها كانت راغبة فى أن ترى مرشحها المفضل بوش رئيساً للبلاد. وقد أوضح القاضى ستيفنس Stevens هذا الأمر فى مرارة فى تقرير الأقلية: "رغم أننا ربما لن نعرف أبداً على وجه اليقين هوية الفائز فى انتخابات هذا العام، فإن هوية الخاسر واضحة تماماً. إن الخاسر هو ثقة الأمة فى القاضى بوصفه حارساً محايداً لحكم القانون."

وبتوليه مقاليد السلطة، انطلق بوش بكل ثقة فى تنفيذ أجندته التى تسيطر عليها مصالح البيزنس ، وكأنه حاز على الموافقة الكاسحة للأمة. وصار الحزب الديمقراطى، الذى لا تختلف فلسفته كثيراً عن الحزب الجمهورى، يمثل معارضة أليفة ؛ حيث راح يؤيد سياسة بوش الخارجية تأييداً كاملاً فى حين يختلف عن توجهات بوش اختلافاً غير جوهرى حول بعض السياسات الداخلية.

وما لبث برنامج بوش أن صار واضحاً تماماً. فقد بدأ بتخفيض الضرائب عن الأثرياء ، وعارض بشدة الإجراءات البيئية التى من شأنها أن تكلف البلاد والشركات الكبرى كثيراً. وخطط لخصخصة الضمان الاجتماعى بأن جعل ميزانيات تقاعد المواطنين تعتمد على سوق البورصة. ثم تحرك باتجاه زيادة الميزانية العسكرية والاستمرار فى برنامج "حرب النجوم" ، رغم أن إجماع الرأى العلمى كان يقول بأن الصواريخ الضد - باليستية لن تستطيع العمل فى الفضاء ، وحتى مع فرض نجاح هذا البرنامج، فإن ذلك من شأنه أن يفضى إلى مزيد من السباق المحموم فى التسليح فى كل أرجاء العالم.

وبعد مرور تسعة شهور على رئاسة بوش، وفى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، وقع حادث مروع دفع بكل القضايا إلى الخلف. فقد قام بعض الأشخاص باختطاف ثلاث طائرات وانطلقوا بها حيث ضربوا برجى مركز التجارة العالمى وسط

مدينة نيويورك ، كما ضربوا جانباً من وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) فى واشنطن دى سى. وشاهد الأمريكيون، وسط الفزع والخوف، البرجين الشهيرين ينهاران على شاشات التلفزيون وسط جحيم من الخرسانة والمعادن ويدفنان تحتهما آلافا من العاملين بهما ومئات من رجال الإطفاء والبوليس الذين هرعوا إلى هناك فى محاولة لإنقاذ المصابين.

كان هذا هجوماً غير مسبوق على الرموز الكبرى للثروة والقوة الأمريكية ، وقد قام بهذا الهجوم تسعة عشر شخصاً من الشرق الأوسط معظمهم من السعودية كانوا راغبين فى الموت فى سبيل توجيه ضربة إلى ما رأوا بوضوح أنه عدوهم الذى يمثل قوة عظمى اعتقدت أنها عصية على الاختراق.

وعلى الفور، أعلن بوش "الحرب على الإرهاب" وقال: "لن نفرِّق بين الإرهابيين والدول التى تُؤوى الإرهاب." وسارع الكونجرس إلى إعطاء بوش السلطة فى القيام بأعمال عسكرية دون إعلان الحرب الذى نص عليه الدستور. ومر القرار بالإجماع فى مجلسى الشيوخ والنواب ، واعترضت نائبة واحدة هى "باربرا لى" وهى أفرو-أمريكية من كاليفورنيا.

وأمر بوش - على افتراض أن أسامة بن لادن كان المسئول عن هجوم الحادى عشر من سبتمبر وأنه كان موجوداً فى مكان ما فى أفغانستان - بقصف أفغانستان بوصفها تؤوى أسامة بن لادن وتنظيمه.

وكان بوش قد أعلن أن هدفه هو القبض على أسامة بن لادن "حياً أو ميتاً" والقضاء على التنظيم الإسلامى المسلح المعروف باسم "القاعدة." ولكن بعد خمسة شهور من قصف أفغانستان، اضطر بوش، فى خطاب حالة الاتحاد أمام مجلسى الشيوخ والنواب، أن يعترف، فى أثناء قوله "إننا ننتصر فى حربنا على الإرهاب"، بأن "ما زال هناك عشرات الآلاف من الإرهابيين" وأن هناك "عدداً كبيراً من الدول" تؤوى هؤلاء الإرهابيين.

كان يجب أن يكون واضحاً لبوش ومستشاريه أن الإرهاب لا يمكن هزيمته بالقوة. وهناك دلائل تاريخية تثبت ذلك. فقد رد البريطانيون على الهجمات الإرهابية للجيش الجمهورى الأيرلندى باللجوء إلى الحلول العسكرية مرة بعد مرة ؛ مما جعل الحكومة البريطانية تواجه مزيداً من الإرهاب. ورد الإسرائيليون مرات ومرات، وعلى مدار عقود، على الإرهاب الفلسطينى(*) بالضربات العسكرية مما أسفر عن زيادة الهجمات الفلسطينية. وبعد الهجوم على سفارتى الولايات المتحدة فى تنزانيا وأوغندا عام ١٩٩٨، قام كلينتون بقصف كل من أفغانستان والسودان غير أن هذا، بالنظر إلى ما جرى فى الحادى عشر من سبتمبر، لم يوقف الإرهاب.

علاوة على ذلك، فإن شهور القصف على أفغانستان كانت مروعة لبلد عانى عقوداً من الحرب الأهلية والدمار. وزعم البنتاجون أنه كان يقصف "أهدافاً عسكرية" وأنه يأسف لقتل بعض المدنيين. غير أنه حسب تقارير جماعات حقوق الإنسان وحسب ما نشرته الصحف الأمريكية والغربية، فإن ألفاً على الأقل وربما أربعة آلاف من المدنيين الأفغان قد قتلوا نتيجة القصف الأمريكى. لقد بدا أن الولايات المتحدة كانت تقوم بقتل مدنيين أبرياء فى أفغانستان رداً على قتل أبرياء فى نيويورك فى هجوم الحادى عشر من سبتمبر. كانت صحيفة نيويورك تايمز تنشر قصصاً مؤثرة عن ضحايا هجوم سبتمبر مصحوبة بصورهم ووصف لأعمالهم وعائلاتهم ومصالحهم.

وفى الوقت نفسه، لم تكن هناك معلومات مماثلة عن الضحايا الأفغانيين. ولكن كانت هناك تقارير مؤثرة لبعض المراسلين الذين كانوا يكتبون من المستشفيات والقرى عن تأثيرات القصف الأمريكى فى المدنيين. فقد كتب مراسل لصحيفة "بوسطن جلوب" تقريراً من إحدى المستشفيات فى جلال آباد جاء فيه:

(*) يبدو أن المؤرخ المخضرم لم يسلم من الوقوع في الخلط بين ما هو إرهاب وما هو مقاومة ضد احتلال هو إرهابي في أساسه. (المترجم)

فى سرير واحد يرقد نور محمد، البالغ من العمر عشر سنوات، الذى يبدو وكأنه صرة من الضمادات. لقد فقد عينيه ويديه نتيجة القصف الأمريكى لبيته مساء الأحد. هز مدير المستشفى جولوجا شيموارى رأسه وهو ينظر إلى الطفل وقال: "لابد أن الولايات المتحدة تعتقد أنه أسامة. وإذا لم يكن هو أسامة، فلماذا يفعلون ذلك؟" ... تسلمت مشرحة المستشفى فى عطلة نهاية الأسبوع الماضية ١٧ جثة ، ويقدر المسئولون هنا أن ٨٩ مدنياً على الأقل قتلوا فى قرى عديدة. لقد أصابت قنبلة واحدة إحدى الأسر على نحو من الصعب نسيانه. فقد قتلت القنبلة الأب فيصل كريم وفى سرير واحد ترقد زوجته تعانى من إصابات كبيرة فى الرأس وحولها ستة من أطفالها فى الضمادات. يرقد زهيد الله، أحد هؤلاء الأطفال الستة والبالغ من العمر ثمانية أعوام، فى السرير فى غيبوبة كاملة.

ومنذ هجوم الحادى عشر من سبتمبر، كان الرأى العام الأمريكى مؤيداً لسياسة بوش الخاصة "بالحرب على الإرهاب." ودخل الحزب الديمقراطى فى منافسة مع الحزب الجمهورى على من منهما يمتلك لغة أكثر حزماً وحسماً ضد الإرهاب. وفى ديسمبر من عام ٢٠٠١ كتبت جريدة نيويورك تايمز، التى كانت تعارض انتخاب بوش، فى افتتاحيتها: "أثبت مستر بوش ... أنه زعيم حرب قوى يعطى الأمة إحساساً بالأمان فى أثناء الأزمات."

أما المدى الكامل للكارثة البشرية التى تسبب فيها القصف الأمريكى لأفغانستان فلم تكن تتناوله الصحف الكبرى وقنوات التليفزيون التى كانت، على ما يبدو، مصممة على إظهار "وطنيتها." لقد أرسل مدير شبكة التليفزيون سى إن إن والتر إيزاكسون أمراً للعاملين بالشبكة بأن صور الضحايا المدنيين لابد أن تصحبها تفسيرات تقول بأن ما حدث كان رداً على إيواء هؤلاء الضحايا للإرهابيين. وقال: "يبدو من الحماقة التركيز أكثر من اللازم على ضحايا الحرب فى أفغانستان."

وقد بلغت حكومة الولايات المتحدة مدى كبيراً فى السيطرة على تدفق المعلومات القادمة من أفغانستان، حيث قامت بقصف مقر إحدى أكبر القنوات الفضائية فى الشرق الأوسط وهى قناة "الجزيرة" ، وقامت بشراء ما ينتجه أحد المراكز الفضائية الذى كان يقوم بالتقاط الصور التى توضح نتائج القصف الأمريكى. وقامت الصحف والمجلات واسعة الانتشار ، ففى مجلة "تايم" دعا أحد كتابها بتطبيق سياسة تقوم على "الوحشية المركزة" وطالب بيل أورايلى، أحد المعلقين التليفزيونيين المشهورين، الولايات المتحدة "بقصف البنية الأساسية لأفغانستان وضرب المطارات ومحطات الطاقة والمياه والطرق ".

وانتشرت عادة وضع العلم الأمريكى على المنازل والسيارات وواجهات المحلات، وفى جو مثل هذا كان صعباً على المواطنين انتقاد سياسة الحكومة. وقد أبدى عامل تليفون متقاعد فى كاليفورنيا ملحوظة تنتقد سياسة الرئيس بوش، فزاره أفراد من مكتب التحقيق الفيدرالى وقاموا باستجوابه. وفوجئت امرأة شابة برجلين من مكتب التحقيق الفيدرالى عند بابها يقولان إن لديهما تقارير تقول بأنها تضع على جدران بيتها لافتات تنتقد الرئيس بوش.

وأصدر الكونجرس قانوناً عرف باسم "قانون الوطنية" من شأنه أن يمنح وزارة العدل السلطة فى أن تعتقل من لا يحملون الجنسية الأمريكية دون اتهامات ودون الحق فى الإجراءات التى نص عليها الدستور. ونص القانون على أن بإمكان وزير الخارجية أن يحدد أيّة جماعة بوصفها "إرهابية" وأن أى عضو فى مثل هذه الجماعات قام بجمع تبرعات لها من الممكن أن يتعرض للاعتقال حتى يتم ترحيله.

وحذر الرئيس بوش الأمة من اتخاذ رد فعل يتسم بالعداء ضد العرب الأمريكيين، لكن الحكومة الأمريكية بدأت فى محاصرة الكثيرين، كلهم من المسلمين تقريباً، واعتقلت أكثر من ألف شخص دون اتهامات محددة. وقد كتب أنطونى لويس، الصحفى بجريدة "نيويورك تايمز"، عن رجل أُعتقل لأسباب سرية. وعندما رأى قاضٍ فيدرالى بأن لاشىء يقول بأن الرجل كان يمثل تهديداً للأمن القومى، أُفرج عنه. وبعد الحادى

عشر من سبتمبر، تجاهلت وزارة العدل ما قضى به القاضى الفيدرالى وأعادت إلقاء القبض على الرجل واحتجزته حجزاً انفرادياً لمدة ثلاث وعشرين ساعة كل يوم ودون السماح لأفراد أسرته برؤيته.

وكانت هناك أصوات الأقلية المعارضة للحرب، فقد انتشرت الجلسات التعليمية حول الموضوع فى كل أرجاء البلاد ، وقامت مسيرات سلام كثيرة وكانت اللافتات المرفوعة فى تلك المسيرات واللقاءات تقول: "العدل وليس الحرب" و"حزننا ليس صرخة من أجل الثأر" . وفى أريزونا، ذلك المكان الذى لا يعرف عنه أنه يعادى المؤسسة، نشر ٦٠٠ مواطن إعلاناً بتوقيعهم فى إحدى الصحف يشير إلى الإعلان الدولى لحقوق الإنسان. وأهاب أصحاب الإعلان بالولايات المتحدة والمجتمع الدولى بالابتعاد عن تدمير الموارد الطبيعية الأفغانية وتذليل العقبات التى تمنع وصول ما يكفى من الطعام إلى من يحتاجونه. وكتب بعض أفراد عائلات الذين ماتوا فى الحادى عشر من سبتمبر إلى الرئيس بوش يناشدونه ألا يقابل العنف بالعنف وعدم الشروع فى قصف الشعب الأفغانى. قالت آمبر أماندسون التى مات زوجها الطيار الحربى فى الهجوم على مبنى البنتاجون:

> **سمعت كلاماً غاضباً من بعض الأمريكيين، من بينهم بعض قادة الأمة، يدعو إلى العقاب والانتقام والثأر. أريد أن أوضح لهؤلاء القادة أننى وأسرتى لا يريحنا هذا الكلام. فإذا اخترتم أن تردوا على هذه الوحشية عن طريق تصعيد العنف ضد أناس أبرياء، فأرجو ألا تفعلوا ذلك باسم زوجى.**

وسافرت بعض عائلات ضحايا هجوم الحادى عشر من سبتمبر إلى أفغانستان فى يناير من عام ٢٠٠٢ للقاء الأسر الأفغانية التى فقدت ذويها فى القصف الأمريكى، حيث التقوا شاكيلا أمين وزوجها اللذين ماتت ابنتهما نازيلا ابنة الخمسة أعوام جراء القصف الأمريكى وكانت ريتا لاسر من بين الأمريكيين الذين ذهبوا إلى أفغانستان وهى أخت الرجل الذى أشار إليه الرئيس بوش بوصفه بطلاً ؛ حيث بقى

على قمة المبنى المنهار يوم الحادى عشر من سبتمبر كى يساعد شخصاً أُصيب بالشلل النصفى ورفض أن يهرب بحياته. قالت ريتا : إنها ستخصص بقية حياتها من أجل قضية السلام.

لقد بات واضحاً الآن، وعلى نحو سريع، أن العراق بعد التدخل الأمريكى لم يعد بلداً محرراً. لقد أصبح بلداً محتلاً. صحيح أننا حررنا العراق من صدام حسين، ولكن لم نحرره من أنفسنا. تماماً كما حدث فى عام ١٨٩٨، قمنا بتحرير كوبا من الاحتلال الإسبانى ولكننا لم نحررها من أنفسنا. وكانت الولايات المتحدة تقرر نوع الدستور الذى يجب أن يحكم كوبا، تماماً كما تقوم حكومتنا الآن بوضع دستور جديد للعراق. إن هذا ليس تحريراً. إنه احتلال. احتلال بغيض.

وفى ٧ أغسطس عام ٢٠٠٣ نشرت صحيفة نيويورك تايمز أن ريكاردو سانشيز الجنرال الأمريكى فى بغداد كان قلقاً من رد الفعل العراقى تجاه الاحتلال. وكان القادة العراقيون المؤيدون لدور الولايات المتحدة فى العراق قد أبلغوه رسالة جاء فيها: "عندما تلقى القبض على أب أمام أسرته وتضع على رأسه كيساً بلاستيكياً وتأمره بالانبطاح على الأرض، تكون بذلك قد نلت من إحساسه بالكرامة والاحترام فى عيون أسرته." وكان بول بريمر، الحاكم المدنى للعراق قد قال: "إننا، فى حقيقة الأمر، نقوم بتنفيذ التزاماتنا الدولية التى أشعر بالرضا لقيامنا بها."

وفى ١٦ يونيو من عام ٢٠٠٣، كتب صحفيان سلسلة من التحقيقات عن منطقة الفلوجة نشرتها "نايت رايدر" جاء فيها:

> **فى عشرات المقابلات التى أجريناها فى خلال الأيام الخمسة الماضية، قال معظم سكان المنطقة إنه لم تكن هناك أيّة مؤامرة شيعية أو سنية ضد الجنود الأمريكيين. وقالوا إن هناك أناساً مستعدون للقتال لأن أقاربهم قتلوا أو تعرضوا لأذى على أيدى قوات الاحتلال ، أو لأنهم أنفسهم تعرضوا للإذلال لتوقيف الجنود الأمريكيين لهم ومداهمتهم منازلهم. .. وقالت امرأة**

عراقية، بعد أن ألقى جنود الاحتلال القبض على زوجها بسبب وجود حاويات خشبية اشتراها بغرض استعمالها فى التدفئة: إن الولايات المتحدة هى التى تمارس الإرهاب.

ونشرت "ذا لندن أوبزيرفر" أن مدينة أور التاريخية، والتى يبلغ عمرها ٦٠٠٠ عام، قد تعرضت للسلب والنهب على أيدى جيش الاحتلال. وقد قام جيش الاحتلال ببناء قاعدة عسكرية بمحاذاة هرم قديم يأتى الناس من مختلف بقاع الأرض لزيارته.

وقد أصاب الخوف الجنود الأمريكيين فى العراق. كان قد تم إخبارهم أنهم ذاهبون إلى بلد سيستقبلون فيه استقبال المحررين، لكنهم وجدوا أنفسهم بين أناس يظهرون لهم كل عداء. لقد قرأنا تقارير صحفية كثيرة عن الجنود الأمريكيين الغاضبين من بقائهم فى العراق. ففى منتصف يوليو عام ٢٠٠٣ قال مراسل لمحطة ABC الإخبارية : إن جندياً أمريكياً اختلى به وقال له: "إن لدى 'قائمة مطلوبين' خاصة بى." كان بذلك يشير إلى "قائمة المطلوبين" التى نشرتها الحكومة الأمريكية وكانت تشمل صدام حسين وابنيه وأعضاء آخرين من النظام العراقى السابق. وأضاف الجندى: "إن قائمتى تضم بول بريمر ودونالد رامسفيلد وجورج بوش وديك تشينى وولفوتز (نائب وزير الدفاع)".

أصحو من النوم وأقول لنفسى: هذه البلاد تقع تحت قبضة رئيس لم يأت إلى الرئاسة بانتخابات نزيهة ، وأحاط نفسه بمجموعة من السفاحين الذين لا تهمهم حياة البشر هنا أو فى الخارج، ولا تهمهم الحرية هنا أو فى الخارج، ولا يهمهم ما يحدث للكرة الأرضية والماء والهواء. وأسأل نفسى: أى عالم ذلك الذى سيرثه أطفالنا وأحفادنا؟

بدأ كثير من الأمريكيين الآن يشعرون، تماماً كالجنود الأمريكيين فى العراق، أن ثمة خطأً فظيعاً ، وأن هذا ليس ما نريد بلدنا أن تقوم به. كما بدأت أكاذيب كثيرة تتكشف يوماً بعد يوم. ثم هناك الكذبة الكبرى - وهى أنه يجب التسامح مع ما تفعله الولايات المتحدة لأننا نقود "حرباً على الإرهاب." ومثل هذه الكذبة تتجاهل حقيقة مهمة

وهى أن الحرب نفسها إرهاب وأن مداهمة بيوت الناس واعتقالهم وإخضاعهم للتعذيب إرهاب وأن غزو البلاد الأخرى وقصفها لا يوفر لنا أمناً كاملاً بل أمناً أقل.

لعلك تستطيع أن تفهم ما تعنيه الحكومة الأمريكية ب"الحرب على الإرهاب" عندما تنظر فى الكلام الذى قاله وزير الدفاع رامسفيلد أمام وزراء حلف الناتو فى بروكسيل قبل عام (٢٠٠٢). كان يشرح المخاطر التى تهدد الغرب (تصور ! إننا ما نزال نتحدث عن "الغرب" بوصفه كياناً مقدساً وكأن الولايات المتحدة، بعد تخليها عن معظم الدول الغربية، لا تغازل الآن دولاً شرقية ، وتحاول أن تقنع الدول غير الغربية أننا نريد أن نحررهم!). قال رامسفيلد وهو يحاول شرح "المخاطر المهددة" للغرب ولماذا يصعب رؤيتها أو تحديدها:

ثمة أشياء نعرفها. وثمة أشياء مجهولة نعرفها. ما أقصده أن هناك أشياء نعرف الآن أننا لا نعرفها. ولكن هناك أيضاً أشياء مجهولة لا نعرفها. هناك أشياء لا نعرف أننا لا نعرفها... أى أن غياب الدليل ليس دليلاً على الغياب... لأنك ببساطة عندما لا تملك دليلاً على أن شيئاً ما موجود لا يعنى أن لديك دليلاً على أنه غير موجود.

حسناً! لقد أوضح رامسفيلد الأمور لنا! وهذا يفسر لنا لماذا ستمضى هذه الحكومة، التى لا تعرف بالضبط أين مكان مجرمى الحادى عشر من سبتمبر، فى غزو أفغانستان وقصفها وتقتل آلاف الناس وتشرد مئات الآلاف وهى ما تزال لا تعرف أين مكان المجرمين. كما أن هذا يفسر لنا أيضاً لماذا ستمضى هذه الحكومة، التى لا تعرف ما الأسلحة التى يخفيها صدام حسين، فى غزو العراق متسببة فى قتل آلاف المدنيين والجنود وفى إرهاب أبناء الشعب العراقى. وهذا أيضاً يفسر لنا لماذا ستمضى هذه الحكومة، التى لا تعرف من هم الإرهابيون ومن ليسوا كذلك، فى اعتقال مئات الناس وتضعهم فى معتقل جوانتانامو فى ظروف شديدة السوء دفعت ثمانية عشر من المعتقلين إلى محاولة الانتحار.

إن ما يسمى "الحرب على الإرهاب" لا يعنى حرباً على الأبرياء فى البلاد الأخرى فحسب، لكنه أيضاً يعنى حرباً على شعب الولايات المتحدة. إنها حرب على حرياتنا وعلى مستوى معيشتنا.

لفت نظرى أن استطلاعات الرأى بين الأفرو-أمريكيين أظهرت أن ٦٠٪ منهم يعارضون الحرب على العراق. وقد أجرت محطة إذاعية أفرو- أمريكية فى واشنطن دى سى مقابلة معى عبر الهاتف. وبعد أن تحدثت مع مقدم البرنامج جاءت إلى البرنامج ثمانى مكالمات تليفونية. كان وزير الخارجية كولين باول قد ألقى خطابه الشهير فى الأمم المتحدة عن أسلحة الدمار الشامل فى العراق. وقد سجلت عندى ما جاء فى المكالمات الثمانية:

جون: إن ما قاله باول ليس إلا قمامة سياسية.

متكلم آخر: باول كان يؤدى فقط دوره فى اللعبة. وهذا ما يحدث دائماً عندما يتولى الناس مناصب رفيعة.

روبرت: لو ذهبنا إلى هذه الحرب، سيموت أبرياء دون سبب وجيه.

كارين: ما قاله باول كان شيئاً رخيصاً... لن تجلب الحرب أى خير للعراق.

سوزان: أى فخر فى كوننا بلداً قوياً؟

تيرى: الهدف من وراء ذلك كله هو البترول.

متكلم آخر: إن الولايات المتحدة تبحث عن إمبراطورية وسوف تسقط هذه الإمبراطورية كما سقطت الإمبراطورية الرومانية. هل تذكر عندما واجه محمد على كلاى غريمه فورمان. لقد بدا وكأنه نائم ولكن عندما أفاق، كان شرساً. هكذا سوف تفيق الشعوب!

وقال المعارضون لحملة قصف أفغانستان واحتلال العراق: إن جذور الإرهاب تتمثل فى المظالم التى قامت بها الولايات المتحدة ولابد من الالتفات إلى هذه المظالم والشكاوى من الولايات المتحدة إذا أردنا القضاء على الإرهاب. ولم يكن من الصعب تحديد هذه المظالم؛ فهناك تمركز القوات الأمريكية فى السعودية التى بها قبلة المسلمين جميعاً، وهناك عشر سنوات من العقوبات الاقتصادية القاسية ضد العراق ، والتى نتج عنها، حسب تقرير الأمم المتحدة، موت مئات الآلاف من الأطفال، كما أن هناك الدعم المستمر من قِبل الولايات المتحدة لإسرائيل فى احتلالها للأراضى الفلسطينية ودعم قوتها العسكرية بمليارات الدولارات.

غير أنه من الصعب تناول هذه القضايا دون إجراء تغييرات جوهرية فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة. ومثل هذه التغييرات لا يمكن أن تقبل بها المؤسسة العسكرية والصناعية التى تهيمن على الحزبين الديمقراطى والجمهورى ؛ لأن مثل هذه التغييرات ستتطلب انسحاب القوات العسكرية الأمريكية من قواعدها فى أرجاء العالم المختلفة، وهذا من شأنه أن ينال من دور الولايات المتحدة بوصفها قوة عظمى.

تتطلب هذه التغييرات تغيراً جذرياً فى ترتيب الأولويات، أى أن تتجه المبالغ المنصرفة على الأنشطة العسكرية (من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ مليار دولار سنوياً) إلى تحسين أحوال الأمريكيين والشعوب الأخرى الفقيرة فى مختلف بقاع العالم. فعلى سبيل المثال، قالت منظمة الصحة العالمية إن جزءاً صغيراً من الميزانية العسكرية الأمريكية بإمكانه أن ينقذ حياة الملايين من مرضى السل. لن تكون الولايات المتحدة، إذا أجرت هذا التغيير فى سياستها، قوة عسكرية عظمى. لكن سيكون بإمكانها أن تصير قوة إنسانية عظمى باستخدامها ثروتها فى مساعدة المحتاجين من شعوب الأرض.

قبل ثلاث سنوات من هجوم الحادى عشر من سبتمبر، علق كولونيل سابق فى القوات الجوية الأمريكية، كان قد قام بأكثر من مائة مهمة فى فيتنام ثم أصبح راعياً كاثوليكياً، على الهجوم الإرهابى على سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا. كتب الرجل فى مجلة "ذا ناشيونال كاثوليك ريبورتر" عن جذور الإرهاب قائلاً:

الشعوب لا تكرهنا لأننا نمارس الديمقراطية أو لأننا نقدر الحرية أو نلتزم بحقوق الإنسان. إنهم يكرهوننا لأن حكومتنا تنكر هذه الأشياء على شعوب العالم الثالث التى تنهب شركاتنا المتعددة الجنسيات مواردها الطبيعية. هذه الكراهية التى بذرنا بذورها عادت إلينا تطاردنا كالأشباح فى شكل الإرهاب... . بدلاً من أن نرسل أولادنا وبناتنا من أجل قتل العرب للفوز بالبترول فى صحاريهم. علينا أن نرسلهم من أجل إعادة بناء بنيتهم الأساسية ومدهم بمياه الشرب النقية وتوفير الطعام لأطفالهم. ... باختصار، علينا أن نفعل الخير لا الشر. من سيوقفنا إذا فعلنا ذلك؟ ومن سيتمنى يومئذ أن يلحق بنا أذى؟ هذه هى الحقيقة التى يحتاج الأمريكيون أن يسمعوها.

ولم تكن مثل هذه الأصوات لتجد مكاناً لها فى وسائل الإعلام الرئيسية فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر. لكن مثل هذا كان صوتاً نبوئياً ، وكان هناك على الأقل احتمالية أن تنتشر الرسالة الأخلاقية التى يحملها بين الأمريكيين، لا سيما بعد أن يتضح عدم جدوى مقابلة العنف بالعنف. من المؤكد أنه لو كان للخبرة التاريخية أى معنى، فإن مستقبل السلام والعدل فى الولايات المتحدة لن يقوم على النوايا الحسنة للحكومة.

لقد أعلن المبدأ الديمقراطى، كما عبرت عنه كلمات إعلان استقلال الولايات المتحدة، أن الحكومة تأتى فى المرتبة الثانية بعد الشعب. ومن ثم، فإن مستقبل الديمقراطية يعتمد على الشعب ووعيه المتزايد بكيف تكون علاقته بإخوانه من شعوب العالم أجمع.

تذييل

سألنى كثيرون كيف جاءت فكرة هذا الكتاب. إحدى الإجابات أن زوجتى روزلين شجعتنى على كتابته واستمرت فى تشجيعها عندما كنت أعبر عن رغبتى فى التخلى عن هذا المشروع ؛ حيث كانت ترهبنى ضخامته. ثمة إجابة أخرى هى أن ظروف حياتى (التى تبلغ فى طولها الآن ربع تاريخ الولايات المتحدة - يالها من فكرة مرعبة!) اقتضت منى أن أحاول صياغة نوع جديد من التاريخ. وأعنى بذلك تاريخاً مختلفاً عن الذى تعلمته فى الجامعة وفى وأثناء فترة الدراسات العليا أو التاريخ الذى رأيته فى الكتب التى يدرسها الطلاب فى كل أرجاء البلاد.

عندما بدأت فى كتابة هذا الكتاب، كان قد مر علىّ عشرون عاماً من تدريس التاريخ وما يسمى فى فخامة بالعلوم السياسية. وعلى مدار نصف هذه الفترة كنت منخرطاً فى حركة الحقوق المدنية فى الجنوب فى أثناء تدريسى فى كلية سبيلمان فى أطلنطا بولاية جورجيا. ثم كانت هناك عشر سنوات أخرى كنت منخرطاً فى أثنائها فى الأنشطة المناهضة للحرب فى فيتنام. كان من الصعب أن تكون هذه الخبرات وصفة للحياد فى تدريس التاريخ أو كتابته.

غير أن انحيازى كان قد تشكل، بغير شك، قبل هذه الخبرات حيث نشأت فى أسرة من الطبقة العاملة من المهاجرين فى نيويورك وحيث عملت، لمدة ثلاث سنوات، عاملاً على ظهر سفينة وحيث خدمت فى القوات الجوية الأمريكية فى المسرح الأوروبى للحرب العالمية الثانية. كان هذا كله قبل أن ألتحق بالجامعة وأبدأ فى دراسة التاريخ.

وعندما بدأت تدريس التاريخ وكتابته، لم يكن عندى أية أوهام عن "الموضوعية" إذا كانت تعنى تجنب إبداء وجهة النظر. كنت أعرف أن المؤرخ (أو الكاتب بصفة عامة)

عليه أن يختار من بين العدد اللامحدود من الحقائق ، ماذا يقدم للقارئ وماذا يحذف أو يهمل. ومن المؤكد أن هذا القرار ـ بإبراز بعض الحقائق دون البعض الآخر ـ يعكس، سواء على مستوى الوعى أو اللاوعى، مصالح المؤرخ.

ثمة قرع طبول توبيخى نسمعه هذه الأيام عن حاجة الطلاب إلى أن يتعلموا الحقائق. فقد قال مرشح للرئاسة (والمرشحون دائماً ما يكثرون من الشك فى الحقائق) أمام جمع كبير: "إن أطفالنا لا يتعلمون الحقائق". ذكرنى ذلك بشخصية المتحذلق جرادجرايند فى رواية ديكنز الشهيرة **أوقات عصيبة** **Hard Times** وهو يُلح فى تذكير مدرس شاب: "لا تعلم التلاميذ شيئاً سوى الحقائق! الحقائق! الحقائق!"

غير أنه ليس ثمة شيء اسمه الحقيقة الخالصة البريئة من التأويل. فخلف كل حقيقة يقدمها إلى العالم مدرس أو كاتب أو غيرهما يكمن حكم من الأحكام. ومثل هذا الحكم يقول بأن هذه الحقيقة مهمة وأن الحقائق الأخرى ـ المحذوفة أو المهملة ـ ليست مهمة.

كانت هناك موضوعات غاية فى الأهمية بالنسبة لى، لكنى لم أجدها فى التواريخ التقليدية التى تهيمن على الثقافة الأمريكية. ولم تقتصر عواقب الحذف أو الإهمال لمثل هذه الموضوعات على تقديم وجهة نظر مشوهة عن الماضى. والأكثر أهمية أن هذه العواقب تضللنا جميعاً فيما يخص الحاضر.

على سبيل المثال، هناك قضية الطبقة. فى مقدمة الدستور الأمريكى تنصرف كلمة "نحن" إلى الذين كتبوا تلك الوثيقة (الدستور) أكثر منها إلى خمسة وخمسين من الذكور البيض أصحاب الامتيازات الذين تطلبت مصلحتهم الطبقية إقامة حكومة مركزية تستطيع أن تدفع قيمة السندات كاملة لمالكيها ، وتفرض تعريفة فى مصلحة أصحاب المصانع وتساعد مالكى العبيد فى القبض على الفارين منهم وتحمى المستوطنين عندما يستولون على أراضى الهنود.

استمر استخدام الحكومة لخدمة أهداف طبقية، أى لخدمة الأثرياء وذوى النفوذ، على مدار التاريخ الأمريكى وحتى هذه اللحظة. يتخفى ذلك وراء لغة توحى بأننا جميعاً، أغنياء وفقراء وطبقة وسطى، تجمعنا مصلحة مشتركة.

ولذلك، توصف حالة الأمة عن طريق استخدام مفردات جامعة ، كما يحدث عندما يعلن الرئيس الأمريكي فى سعادة أن "اقتصادنا بخير." إنه بذلك لا يعترف بأن الاقتصاد قد لا يكون "بخير" بالنسبة لأربعين أو خمسين مليوناً من الأمريكيين الذين يكافحون فى سبيل البقاء، فى حين يكون الاقتصاد "بخير" إلى حد معقول بالنسبة لكثيرين من أصحاب الطبقة الوسطى، ويكون "بخير" إلى أقصى الحدود لأغنى الأغنياء (أى نسبة ١٪ من الأمة التى يملك أصحابها ٤٠٪ من ثروة البلاد).

وعلى الطريقة نفسها، تطلق مسميات على فترات فى تاريخنا تعكس رفاهية طبقة وتتجاهل باقى الطبقات. كانت عبارة "التسعينيات الزاهية" مفيدة فى التعتيم على أن الأمة كانت تعانى من أزمة اقتصادية لمدة طويلة من هذا العقد، حيث كان واحد من بين كل خمسة أمريكيين فى سوق العمل عاطلاً ، وأن موجة من الإضرابات عصفت بالبلاد. عندما كنت أتصفح ملفات فيوريللو لا جوارديا، عضو الكونجرس فى العشرينيات عن هارلم، قرأت خطابات ربات بيوت يائسات أزواجهن عاطلون وأطفالهن جوعى ولا يستطعن دفع إيجار السكن ـ كل هذا فى تلك الفترة التى يطلق عليها "عصر موسيقى الجاز" و"العشرينيات المزدهرة ".

إن ما نتعلمه عن الماضى لا يقدم لنا حقيقة مطلقة عن الحاضر، لكنه ربما يجعلنا ننظر نظرة أعمق من التصريحات السطحية لرجال السياسة و"الخبراء" الذين تردد وسائل الإعلام أقوالهم. ومن ثم، فإن معرفة الاضطراب الذى يغلى تحت "السطح البراق" لعبارة مثل "الرخاء الاقتصادى" قد يساعدنا فى البحث ـ فى زمننا ـ عن دليل يفيد بأن ليس كل الطبقات قد تستفيد من اقتصاد يفترض فيه أنه بخير.

لازم الحذف والإهمال لما يتعلق بالمصلحة الطبقية ما بدا لى أنه تشويه لفكرة "المصلحة القومية." إن خبرتى الخاصة فى الحرب ثم دراستى لمختلف الحروب التى شاركت فيها الولايات المتحدة وتدخلاتها العسكرية الكثيرة فى الخارج ـ كل هذا جعلنى أتشكك عندما أسمع مسئولين سياسيين رفيعى المستوى يثيرون مسألة "المصلحة القومية" أو "الأمن القومى" من أجل تبرير سياساتهم. فبهذه التبريرات نفسها، بدأ

ترومان "عملاً بوليسياً" فى كوريا أودى بحياة عدة ملايين من البشر. وبها أيضاً شن كل من جونسون ونيكسون حرباً فى جزيرة الهند الصينية (فيتنام وكمبوديا ولاوس) راح ضحيتها حوالى ثلاثة ملايين من البشر، وبها غزا ريجان جرينادا وهاجم بوش بنما ثم العراق وقصف كلينتون العراق مرة بعد مرة.(*)

هل كانت هناك حقاً "مصلحة قومية" عندما قرر عدد قليل من الناس الحرب التى قتلت فيها أعداد كبيرة من الناس ـ هنا وهناك ـ نتيجة مثل هذا القرار؟ ألا يجدر بالمواطنين أن يسألوا أكثر من مرة: لمصلحة من نفعل ما نفعله؟ ثم قلت لنفسى: ولماذا لا نحكى قصة الحروب ليس من خلال عيون الجنرالات والدبلوماسيين بل من وجهة نظر الجنود الذين شاركوا فيها ومن وجهة نظر الآباء والأمهات الذين تلقوا البرقيات المؤطرة باللون الأسود؟

ما أدهشنى، عندما بدأت دراسة التاريخ، هو كيف هيمن الحماس الوطنى ـ الذى تغرسه الحكومات فى عقول الناس منذ الطفولة من خلال عهود الولاء والأغانى الوطنية والأعلام الخفاقة والخطابة ـ على نظم التعليم فى كل البلاد بما فيها الولايات المتحدة. وأتساءل كيف كانت ستبدو سياستنا الخارجية إذا ألغينا ـ على الأقل فى عقولنا ـ الحدود القومية للعالم ونظرنا إلى أطفال العالم أجمع بوصفهم أطفالنا. ما كان لنا، لو حدث ذلك، أن نسقط القنبلة النووية على هيروشيما أو النابالم على فيتنام أو نشن حروباً فى أى مكان من العالم لأن الحروب، لاسيما فى عصرنا، هى دائماً حروب ضد الأطفال.

وهناك أيضاً الكثير مما تود كتب التاريخ الرسمية أن تحذفه أو تسكت عنه كمشكلة العرق أو العنصر التى لم تجد حلاً حتى الآن. لم يطرأ فى بالى، عندما بدأت أنغمس فى دراسة التاريخ، كيف كان تدريس التاريخ وكتابته شيئاً ملتوياً فى حجبه

(*) كان هذا، بالطبع، قبل الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على أفغانستان (٢٠٠١) وحربها على العراق التي انتهت باحتلاله (٢٠٠٣) بحجة ما أسمته "الحرب على الإرهاب". (المترجم)

الضوء عن غير البيض. نعم كان الهنود الحمر هناك ثم ذهبوا. وكانوا السود تحت الضوء عندما كانوا عبيداً ، لكنهم عانوا التهميش والإهمال بعد أن أصبحوا أحراراً. إن تاريخ بلادنا هو تاريخ الرجل الأبيض.

لم يقدم لى أحد، فى أثناء دراستى بالمدارس وحتى فى أثناء سنوات الدراسات العليا، شيئاً يشى بأن وصول كريستوفر كولومبس إلى العالم الجديد كان بداية لعمليات إبادة ضد السكان الأصليين. ولم يقل لى أحد إنّ هذا كان مجرد بداية لما قُدم بوصفه توسعًا حميدًا وكريمًا للأمة الوليدة شمل إزاحة دموية للهنود الحمر من كل أراضى القارة حتى تم دفعهم كقطعان الماشية إلى العيش فى محميات معزولة. ولا أعطانى أحد إشارة ما إلى أن هذه العملية ـ التوسع الحميد ـ تضمنت حروباً ومذابح وفظائع ـ كلها تقريباً مسكوت عنها فى كتب التاريخ.

فى وقت ما من عام ١٩٩٨، دعيت إلى ندوة فى قاعة فانويل هول التاريخية ببوسطن للحديث عن "مذبحة بوسطن". قلت يسعدنى أن أفعل ذلك مادمت لن أضطر إلى التعامل مع "مذبحة بوسطن." ومن ثم لم يكن حديثى عن مقتل خمسة من المستعمرين (بكسر الميم) على أيدى القوات البريطانية عام ١٧٧٠ ، فأنا أعتقد أن هذه المسألة لقيت اهتماماً غير عادى على مدار مائتى عام لأنها تخدم دوراً وطنياً محدداً. تحدثت، بدلاً من ذلك، عن المذابح الكثيرة التى تعرض لها غير البيض فى تاريخنا ، وهو شئ لا يجلب لنا الفخر الوطنى، بل يذكرنا بالإرث الطويل من العنصرية فى بلادنا. وهو إرث ما يزال قائماً حتى اليوم.

كل تلاميذ أمريكا يعلمون الكثير عن مذبحة بوسطن ، ولكن من منهم يعلم شيئاً عن مذبحة ٦٠٠ من الرجال والنساء والأطفال من قبيلة بيكوت الهندية فى نيو انجلاند عام ١٦٣٧؟ أو عن المذبحة التى تعرض لها المئات من الهنود الحمر ـ فى أثناء الحرب الأهلية ـ على أيدى الجنود الأمريكيين فى ساند كريك، كولورادو؟ أو الهجوم العسكرى الذى شنه ٢٠٠ من سلاح الفرسان الأمريكى على معسكر هنود بيجان فى مونتانا بينما كانوا نياماً؟

عندما بدأت عملى مدرساً فى كلية سبيلمان، وهى كلية للفتيات والنساء السود، فى مدينة أطلنطا بولاية جورجيا، لم أكن قد بدأت قراءة المؤرخين الأفرو- أمريكيين الذين لم يظهروا قط على قوائم قراءاتى إبان فترة دراستى العليا (من أمثال دى بوا W. E. B. Dubois وريفورد لوجان Rayford Logan ولورنس ريديك Lawrence Red-dick وهوارس مان بوند Horace Mann Bond وجون هوب فرانكلين John Hope Franklin .(عندئذ فقط بدأت أدرك الإهمال والتعتيم اللذين يتعرض لهما السود فى ثقافتنا. لم أتعلم شيئاً من كتب التاريخ فى سنوات تعليمى عن المذابح التى تعرض لها السود مرة بعد مرة (فى أوائل العشرينيات من القرن العشرين ، وهى السنوات التى أُطلق عليها فى كتب تاريخنا المنحازة إلى البيض "العصر التقدمى"). وكان كل هذا يحدث وسط صمت حكومة وطنية منوط بها، كما يقول الدستور، حماية حقوق متساوية وضمانها للجميع .

مثال آخر من المذابح التى تعرض لها السود فى بلادنا وقع فى شرق سان لويس عام ١٩١٧ (أى فى أثناء "العصر التقدمى") عندما قام العمال البيض، مدفوعين بالغضب من تدفق العمالة السوداء، بقتل حوالى مائتين من السود مما دفع المناضل الأفرو- أمريكى دى بوا إلى أن يكتب مقالة غاضبة عنوانها "مذبحة شرق سان لويس" وجعل الفنانة السوداء جوزفين بيكر Josephine Baker تقول: "إن فكرة أمريكا فى حد ذاتها تجعلنى أهتز وأرتعش ، وتسبب لى الكوابيس."

وعلى الرغم من التقدم الذى لا ينكر باتجاه المساواة العرقية نتيجة ما قامت به حركات الحقوق المدنية فى العقود الأخيرة، فمشكلة العنصرية ما تزال قائمة. ففى مدينة نيويورك وعقد التسعينيات يقترب من نهايته، كان الإنسان الأسود يتعرض لخطر واضح من عنف البوليس، ففى إحدى الحالات أطلق فريق من رجال البوليس النار على مهاجر إفريقى غير مسلح وليس له سجل لدى البوليس، حيث استقرت فى جسده اثنتان وأربعون طلقة رصاص.

أردت، بكتابة هذا الكتاب، أن أوقظ وعياً أكبر بالصراع الطبقى والظلم العرقى

وعدم المساواة الجنسية والغطرسة القومية فى الولايات المتحدة. بيد أننى، وأنا أحاول أن أستنطق ما حذف وما أُهمل من التاريخ الرسمى للبلاد، قد أهملت بعض الجماعات فى المجتمع الأمريكى هى فى أساسها تعانى من التهميش والإهمال من قبل كتب التاريخ التقليدية. صرت الآن واعياً بذلك وأصابنى الارتباك عندما كتب إلى الناس يثنون على الكتاب ويشيرون فى لطف (وأحياناً فى غير لطف) إلى أوجه القصور فيه.

ربما كانت إقامتى الطويلة فى الساحل الشرقى من الولايات المتحدة وراء إهمالى لجماعات اللاتينو واللاتينا والشيكانو الذين عاشوا فى كاليفورنيا والجنوب الغربى للبلاد ولنضالهم فى سبيل الحصول على حقوقهم العادلة. ولمن يريد تفاصيل أكثر عن هذه الجماعات أن يراجع هذه الكتب الشديدة الأهمية: **الألوان تعنى كلنا جميعاً** **De Colores Means All of Us** لإليزابيث مارتينيز **Martinez** **ومذهب ذاباتا: مقالات** **Zapata's Disciple: Essays** لمارتن إيسبادا **Espada** وكتاب **أزتلان وفيتنام: خبرات الشيكانو والشيكانا عن الحرب** **Aztlan and Viet Nam: Chicano and Chicana Experience of the War** من تحرير جورج ماريسكال **Mariscal** .

وما تزال قضيتا الطبقة والعرق متضافرتين. إنه سباق بأيدينا جميعاً أن نختار إما المشاركة فيه وإما الاكتفاء بالمشاهدة. ولكن علينا أن نعرف أن اختيارنا سوف يساعد فى تحديد النتائج. وكثيراً ما أفكر فى كلمات الشاعر الإنجليزى شيلى فى قصيدته "قناع الثورة" ، وهى الكلمات التى كانت تترنم بها عاملات النسيج بأحد مصانع نيويورك فى بداية القرن العشرين. من بين كلمات القصيدة:

انهضوا كالأسود بعد السبات

بأعداد لا يمكن هزيمتها!

وكسِّروا قيودكم التي ذهبت بحريتكم

في غفلة من الزمن.

وتذكروا دائماً أنكم كثيرون

وأنهم قليلون.

المراجع

14. War Is the Health of the State

Baritz, Loren, ed. *The American Left*. New York: Basic Books, 1971.

*Chafee, Zechariah, Jr. *Free Speech in the United States*. New York: Atheneum, 1969.

Dos Passos, John. *1919*. New York: Signet, 1969.

Du Bois, W. E. B. "The African Roots of War," *Atlantic Monthly*, May 1915.

Fleming, D. F. *The Origins and Legacies of World War I*. Garden City, N.Y.: Doubleday, 1968.

*Fussell, Paul. *The Great War and Modern Memory*. New York: Oxford University Press, 1975.

*Ginger, Ray. *The Bending Cross: A Biography of Eugene Victor Debs*. New Brunswick: Rutgers University Press, 1969.

Goldman, Eric. *Rendezvous with Destiny*. New York: Random House, 1956.

Gruber, Carol S. *Mars and Minerva: World War I and the Uses of Higher Learning in America*. Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1975.

Joughin, Louis, and Morgan, Edmund. *The Legacy of Sacco and Vanzetti*. New York: Quadrangle, 1964.

Knightley, Philip. *The First Casualty: The War Correspondent as Hero, Propagandist, and Myth Maker*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1975.

Kornbluh, Joyce, ed. *Rebel Voices: An I.W.W. Anthology*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1964.

Levin, Murray. *Political Hysteria in America*. New York: Basic Books, 1971.

Mayer, Arno J. *The Politics and Diplomacy of Peace-Making 1918–1919*. New York: Knopf, 1967.

*Peterson, H. C., and Fite, Gilbert C. *Opponents of War, 1917–1918*. Seattle: University of Washington Press, 1968.

Simpson, Colin. *Lusitania*. Boston: Little, Brown, 1973.

Sinclair, Upton. *Boston*. Cambridge, Mass.: Robert Bentley, 1978.

Weinstein, James. *The Corporate Ideal in the United States 1900–1918*. Boston: Beacon Press, 1969.

Adamic, Louis. *My America, 1928–1938*. New York: Harper & Row, 1938.
*Baxandall, Rosalyn, Gordon, Linda, and Reverby, Susan, eds. *America's Working Women*. New York: Random House, 1976.
Bellush, Bernard. *The Failure of the N.R.A.* New York: W. W. Norton, 1976.
Bernstein, Barton, J., ed. *Towards a New Past: Dissenting Essays in American History*. New York: Pantheon, 1968.
Bernstein, Irving. *The Lean Years: A History of the American Worker, 1920–1933*. Boston: Houghton Mifflin, 1960.
———. *The Turbulent Years: A History of the American Worker, 1933–1941*. Boston: Houghton Mifflin, 1969.
Borden, Morton, ed. *Voices of the American Past: Readings in American History*. Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1972.
Boyer, Richard, and Morais, Herbert. *Labor's Untold Story*. United Front, 1955.
*Brecher, Jeremy. *Strike!* Boston, Mass.: South End Press, 1979.
Buhle, Paul. "An Interview with Luigi Nardella," *Radical History Review*, Spring 1978.
*Cloward, Richard A., and Piven, Frances F. *Poor People's Movements*. New York: Pantheon, 1977.
Conkin, Paul. *F.D.R. and the Origins of the Welfare State*. New York: Crowell, 1967.
Cook, Blanche Wiesen. *Eleanor Roosevelt*. Vol. 1. New York: Penguin Books, 1992.
Cook, Blanche Wiesen. *Eleanor Roosevelt*. Vol. 2. New York: Viking Penguin, 1999.
Curti, Merle. *The Growth of American Thought*. New York: Harper & Row, 1943.
*Fine, Sidney. *Sit-Down: The General Motors Strike of 1936–1937*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1969.
Galbraith, John Kenneth. *The Great Crash: 1929*. Boston: Houghton Mifflin, 1972.
General Strike Committee. *The Seattle General Strike*. Charlestown, Mass.: gum press, 1972.
*Hallgren, Mauritz. *Seeds of Revolt*. New York: Knopf, 1934.
*Lerner, Gerda, ed. *Black Women in White America: A Documentary History*. New York: Random House, 1977.
Lewis, Sinclair. *Babbitt*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1949.
Lynd, Alice and Staughton, eds. *Rank and File: Personal Histories by Working-Class Organizers*. Boston: Beacon Press, 1974.
Lynd, Robert and Helen. *Middletown*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1959.
Mangione. Jerre. *The Dream and the Deal: The Federal Writers Project*, 1935–1943. Boston: Little, Brown, 1972.

Mills, Frederick C. *Economic Tendencies in the United States: Aspects of Pre-War and Post-War Changes.* New York: National Bureau of Economic Research, 1932.
Ottley, Roi, and Weatherby, William J. "The Negro in New York: An Informal History," *Justice Denied: The Black Man in White America*, ed. William Chace and Peter Collier. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1970.
Painter, Nell, and Hudson, Hosea. "A Negro Communist in the Deep South," *Radical America.* July-August 1977.
Renshaw, Patrick. *The Wobblies.* New York: Anchor, 1968.
*Rosengarten, Theodore. *All God's Dangers: The Life of Nate Shaw.* New York: Knopf, 1974.
Steinbeck, John. *The Grapes of Wrath.* New York: Viking, 1939.
Swados, Harvey, ed. *The American Writer and the Great Depression.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1966.
*Terkel, Studs. *Hard Times: An Oral History of the Great Depression in America.* New York: Pantheon, 1970.
Wright, Richard. *Black Boy.* New York: Harper & Row, 1937.
Zinn, Howard. *La Guardia in Congress.* Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1959.

16. A People's War?

Alperovitz, Gar. *Atomic Diplomacy.* New York: Vintage, 1967.
Aronson, James. *The Press and the Cold War.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1970.
Barnet, Richard J. *Intervention and Revolution: The U.S. and the Third World.* New York: New American Library, 1969.
Blackett, P. M. S. *Fear, War and the Bomb: Military and Political Consequences of Atomic Energy.* New York: McGraw-Hill, 1948.
Bottome, Edgar. *The Balance of Terror: A Guide to the Arms Race.* Boston: Beacon Press, 1972.
Butow, Robert. *Japan's Decision to Surrender.* Stanford: Stanford University Press, 1954.
Catton, Bruce. *The War Lords of Washington.* New York: Harcourt Brace, 1948.
Chomsky, Noam. *American Power and the New Mandarins.* New York: Pantheon, 1969.
Cook, Blanche Wiesen. *The Declassified Eisenhower.* New York: Doubleday, 1981.
Davidson, Basil. *Let Freedom Come: Africa in Modern History.* Boston: Little, Brown, 1978.
Feingold, Henry L. *The Politics of Rescue: The Roosevelt Administration and the Holocaust.* New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1970.
Freeland, Richard M. *The Truman Doctrine and the Origins of McCarthyism.* New York: Knopf, 1971.

Gardner, Lloyd. *Economic Aspects of New Deal Diplomacy*. Madison: University of Wisconsin Press, 1964.

Griffith, Robert W. *The Politics of Fear: Joseph R. McCarthy and the Senate.* Rochelle Park, N.J.: Hayden, 1971.

Hamby, Alonzo L. *Beyond the New Deal: Harry S. Truman and American Liberalism*. New York: Columbia University Press, 1953.

Irving, David. *The Destruction of Dresden*. New York: Ballantine, 1965.

Kahn, Herman. *On Thermonuclear War.* New York: Free Press, 1969.

*Kolko, Gabriel. *The Politics of War: The World and United States Foreign Policy, 1943–1945*. New York: Random House, 1968.

Lemisch, Jesse. *On Active Service in War and Peace: Politics and Ideology in the American Historical Profession*. Toronto: New Hogtown Press, 1975.

Mailer, Norman. *The Naked and the Dead.* New York: Holt, Rinehart and Winston, 1948.

Miller, Douglas, and Nowak, Marion. *The Fifties: The Way We Really Were*. New York: Doubleday, 1977.

Miller, Marc. "The Irony of Victory: Lowell During World War II." Unpublished doctoral dissertation. Boston University, 1977.

Mills, C. Wright. *The Power Elite*. New York: Oxford University Press, 1970.

Minear, Richard H. *Victor's Justice: The Tokyo War Crimes Trial.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1973.

Offner, Arnold. *American Appeasement: U.S. Foreign Policy and Germany, 1933–1938*. New York: W. W. Norton, 1976.

Rostow, Eugene V. "Our Worst Wartime Mistake," *Harper's*, September 1945.

Russett, Bruce. *No Clear and Present Danger.* New York: Harper & Row, 1972.

Sampson, Anthony. *The Seven Sisters: The Great Oil Companies and the World They Shaped*. New York: Viking, 1975.

Schneir, Walter and Miriam. *Invitation to an Inquest*. New York: Doubleday, 1965.

*Sherwin, Martin. *A World Destroyed: The Atom Bomb and the Grand Alliance.* New York: Knopf, 1975.

Stone, I. F. *The Hidden History of the Korean War.* New York: Monthly Review Press, 1969.

United States Strategic Bombing Survey. *Japan's Struggle to End the War.* Washington: Government Printing Office, 1946.

Weglyn, Michi. *Years of Infamy: The Uqtold Story of America's Concentration Camps*. New York: William Morrow, 1976.

Wittner, Lawrence S. *Rebels Against War: The American Peace Movement, 1941–1960*. New York: Columbia University Press, 1969.

*Zinn, Howard. *Postwar America: 1945–1971*. Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1973.

17. "Or Does It Explode?"

Allen, Robert. *Black Awakening in Capitalist America.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1969.

Bontemps, Arna, ed. *American Negro Poetry.* New York: Hill & Wang, 1974.

Broderick, Francis, and Meier, August. *Black Protest Thought in the Twentieth Century.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1971.

Cloward, Richard A., and Piven, Frances F. *Poor People's Movements.* New York: Pantheon, 1977.

Conot, Robert. *Rivers of Blood, Years of Darkness.* New York: Morrow, 1968.

Cullen, Countee. *On These I Stand.* New York: Harper & Row, 1947.

Herndon, Angelo. "You Cannot Kill the Working Class," *Black Protest,* ed. Joanne Grant. New York: Fawcett, 1975.

Huggins, Nathan I. *Harlem Renaissance.* New York: Oxford University Press, 1971.

Hughes, Langston. *Selected Poems of Langston Hughes.* New York: Knopf, 1959.

Lerner, Gerda, ed. *Black Women in White America: A Documentary History.* New York: Random House, 1977.

Malcolm X. *Malcolm X Speaks.* New York: Meret, 1965.

Navasky, Victor. *Kennedy Justice.* New York: Atheneum, 1977.

Perkus, Cathy, ed. *Cointelpro: The FBI's Secret War on Political Freedom.* New York: Monad Press, 1976.

Wright, Richard. *Black Boy.* New York: Harper & Row, 1937.

Zinn, Howard. *Postwar America: 1945–1971.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1973.

———. *SNCC: The New Abolitionists.* Boston: Beacon Press, 1964.

18. The Impossible Victory: Vietnam

*Branfman, Fred. *Voices from the Plain of Jars.* New York: Harper & Row, 1972.

Green, Philip, and Levinson, Sanford. *Power and Community: Dissenting Essays in Political Science.* New York: Pantheon, 1970.

Hersch, Seymour. *My Lai 4: A Report on the Massacre and Its Aftermath.* New York: Random House, 1970.

Kovic, Ron. *Born on the Fourth of July.* New York: McGraw-Hill, 1976.

Lipsitz, Lewis. "On Political Belief: The Grievances of the Poor," *Power and Community: Dissenting Essays in Political Science,* ed. Philip Green and Sanford Levinson. New York: Pantheon, 1970.

Modigliani, Andrew. "Hawks and Doves, Isolationism and Political Distrust: An Analysis of Public Opinion on Military Policy," *American Political Science Review,* September 1972.

Pentagon Papers. 4 vols. Boston: Beacon Press, 1971.

Pike, Douglas. *Viet Cong.* Cambridge, Mass.: MIT Press, 1966.

Schell, Jonathan. *The Village of Ben Suc.* New York: Knopf, 1967.
Zinn, Howard. *Vietnam: The Logic of Withdrawal.* Boston: Beacon Press, 1967.

19. SURPRISES

Akwesasne Notes. *Voices from Wounded Knee, 1973.* Mohawk Nation, Rooseveltown, N.Y.: Akwesasne Notes, 1974.
Baxandall, Rosalyn, Gordon, Linda, and Reverby, Susan, eds. *America's Working Women.* New York: Random House, 1976.
Benston, Margaret. "The Political Economy of Women's Liberation," *Monthly Review,* Fall 1969.
Boston Women's Health Book Collective. *Our Bodies, Ourselves.* New York: Simon & Schuster, 1976.
Brandon, William. *The Last Americans.* McGraw-Hill, 1974.
*Brown, Dee. *Bury My Heart at Wounded Knee.* New York: Holt, Rinehart and Winston, 1971.
Brownmiller, Susan. *Against Our Will: Men, Women and Rape.* New York: Simon & Schuster, 1975.
Coles, Robert. *Children of Crisis.* Boston: Little, Brown, 1967.
Cottle, Thomas J. *Children in Jail.* Boston: Beacon Press, 1977.
The Council on Interracial Books for Children, ed. *Chronicles of American Indian Protest.* New York: Fawcett, 1971.
Deloria, Vine, Jr. *Custer Died for Your Sins.* New York: Macmillan, 1969.
———. *We Talk, You Listen.* New York: Macmillan, 1970.
Firestone, Shulamith. *The Dialectics of Sex.* New York: Bantam, 1970.

20. THE SEVENTIES: UNDER CONTROL?

Blair, John M. *The Control of Oil.* New York: Pantheon, 1977.
Dommergues, Pierre. "L'Essor Du conservatisme Americain," *Le Monde Diplomatique,* May 1978.
*Evans, Les, and Myers, Allen. *Watergate and the Myth of American Democracy.* New York: Pathfinder Press, 1974.
Frieden, Jess. "The Trilateral Commission," *Monthly Review,* December 1977.
Gardner, Richard. *Alternative America: A Directory of 5000 Alternative Lifestyle Groups and Organizations.* Cambridge: Richard Gardner, 1976.
Glazer, Nathan, and Kristol, Irving. *The American Commonwealth 1976.* New York: Basic Books, 1976.
New York Times. *The Watergate Hearings.* Bantam, 1973.
*U.S., Congress, Senate Committee to Study Governmental Operations with Respect to Intelligence Activities. *Hearings.* 94th Congress. 1976.

21. Carter-Reagan-Bush: The Bipartisan Consensus

Barlett, Donald, and Steele, James. *America: What Went Wrong?* Kansas City: Andrews & McMeel, 1992.

Barlett, Donald, and Steele, James. *America: Who Really Pays the Taxes?* New York: Simon & Schuster, 1994.

Chomsky, Noam. *World Orders Old and New*. New York: Columbia University Press, 1994.

Croteau, David, and Hoynes, William. *By Invitation Only: How the Media Limit the Political Debate.* Monroe, Maine: Common Courage Press, 1994.

Danaher, Kevin, ed. *50 Years Is Enough: The Case Against the World Bank.* Boston: South End Press, 1994.

Derber, Charles. *Money, Murder and the American Dream.* Boston: Faber & Faber, 1992.

Edsall, Thomas and Mary. *Chain Reaction*. New York: W. W. Norton, 1992.

Ehrenreich, Barbara. *The Worst Years of Our Lives.* New York: HarperCollins, 1990.

Greider, William. *Who Will Tell the People?* New York: Simon & Schuster, 1992.

Grover, William F. *The President as Prisoner.* Albany: State University of New York, 1989.

Hellinger, Daniel, and Judd, Dennis. *The Democratic Facade.* Pacific Grove, California: Brooks/Cole Publishing Company, 1991.

Hofstadter, Richard. *The American Political Tradition.* New York: Vintage, 1974.

Kozol, Jonathan. *Savage Inequalities: Children in America's Schools.* New York: Crown Publishers, 1991.

Piven, Frances Fox, and Cloward, Richard. *Regulating the Poor.* New York: Vintage Books, 1993.

Rosenberg, Gerald N. *The Hollow Hope.* Chicago: University of Chicago Press, 1992.

Savage, David. *Turning Right: The Making of the Rehnquist Supreme Court.* New York: John Wiley & Sons, 1992.

Sexton, Patricia Cayo. *The War on Labor and the Left.* Boulder: Westview Press, 1991.

Shalom, Stephen. *Imperial Alibis.* Boston: South End Press, 1993.

22. The Unreported Resistance

Ewen, Alexander, ed. *Voice of Indigenous Peoples.* Santa Fe, New Mexico: Clear Light Publishers, 1994.

Grover, William, and Peschek, Joseph, ed. *Voices of Dissent.* New York: HarperCollins, 1993.

Loeb, Paul. *Generations at the Crossroads.* New Brunswick: Rutgers University Press, 1994.

Lofland, John. *Polite Protesters: The American Peace Movement of the 1980s.* Syracuse: Syracuse University Press, 1993.

Lynd, Staughton and Alice. *Nonviolence in America: A Documentary History.* Maryknoll, New York: Orbis Books, 1995.

Martinez, Elizabeth, ed. *500 Years of Chicano History.* Albuquerque: Southwest Organizing Project, 1991.

Piven, Frances, and Cloward, Richard. *Why Americans Don't Vote.* New York: Pantheon Books, 1988.

Vanneman, Reeve, and Cannon, Lynn. *The American Perception of Class.* Philadelphia: Temple University Press, 1987.

NOTE: Much of the material in this chapter comes from my own files of social action by organizations around the country, from my collection of news clippings, and from publications outside the mainstream, including: *The Nation. In These Times, The Nuclear Resister, Peacework, The Resist Newsletter, Rethinking Schools, Indigenous Thought.*

23. The Clinton Presidency and the Crisis of Democracy

Bagdikian, Ben. *The Media Monopoly.* Boston: Beacon Press, 1992.

Chomsky, Noam. *World Orders, Old and New.* New York: Columbia University Press, 1994.

Dowd, Doug. *Blues for America.* New York: Monthly Review Press, 1997.

Garrow, David. *Bearing the Cross.* New York: Morrow, 1986.

Greider, William. *One World or Not.* New York: Simon & Schuster, 1997.

Kuttner, Robert. *Everything for Sale.* New York: Knopf, 1997.

Smith, Sam. *Shadows of Hope: A Freethinker's Guide to Politics in the Time of Clinton.* Bloomington: Indiana University Press, 1994.

Solomon, Norman. *False Hope: The Politics of Illusion in the Clinton Era.* Monroe, Maine: Common Courage Press, 1994.

The State of America's Children. Washington, D.C.: Children's Defense Fund, 1994.

Tirman, John. *Spoils of War: The Human Cost of the Arms Trade.* New York: Free Press, 1997.

24. The Coming Revolt of the Guards

Bryan, C. D. B. *Friendly Fire.* New York: Putnam, 1976.
Levin, Murray B. *The Alienated Voter.* New York: Irvington, 1971.
Warren, Donald I. *The Radical Center: Middle America and the Politics of Alienation.* Notre Dame, Ind.: University of Notre Dame Press, 1976.
Weizenbaum, Joseph. *Computer Power and Human Reason.* San Francisco: Freeman, 1976.

المؤلف فى سطور:

هوارد زنْ

مؤرخ أمريكى وناشط اجتماعى وكاتب مسرحى . اشتغل عاملاً فى شحن السفن لمدة ثلاثة أعوام . ثم اشترك فى سلاح الطيران الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية . التحق بعد الحرب بالجامعة حيث حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٨ . قام بالتدريس فى سبيلمان كوليدج فى أطلنطا بولاية جورجيا حتى عام ١٩٦٣ وفى جامعة بوسطن حتى عام ١٩٨٨ . عمل أستاذاً زائراً فى جامعتى باريس وبولونيا . حصل على جائزة توماس ميرتون وجائزة يوجين دبيس وجائزة أبتون سنكلير وجائزة لانان الأدبية . يعيش فى أوبرنديل بولاية ماساتشوستس .

المترجم فى سطور:

شعبان مكاوى

من مواليد منشية النور - بنها - محافظة القليوبية .

حاصل على دكتوراه الأدب الإنجليزى موضوعها : تجربة حرب فيتنام على المسرح الأمريكى ، جامعة عين شمس ١٩٩٩ .

عضو هيئة تدريس بقسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة حلوان .

نشر عدداً من الدراسات فى مجلات « المنار » و« إبداع » و« فصول » و« أدب ونقد » .





فى هذا الكتاب يقوم المؤلف بما يمكن تسميته إعادة توزيع الأدوار على الأبطال والأشرار. حتى إن الكتاب جاء - على حد تعبير الكاتب الأمريكى إيريك فونر ـ كأنه نيجاتيف فوتوغرافى للتاريخ الأمريكى الرسـمى، بحيث تتبادل البقاع المظلمة والبقاع المضيئة أماكنها.

مكتبة بغداد









الغلاف / عمر جهان